لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

الأخلاق

وضعه بالانجليزية

صموئيل سمايلز

ونقله الى العربية

محمد الصادق حسين

خريج مدرسة المعلمين العليا

مؤلف المذكرات التاريخية

مدير الادارة العربية بوزارة المواصلات

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٢ — ١٩٢٤

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤



وضعه بالانجليزية

صمويل سمايلز

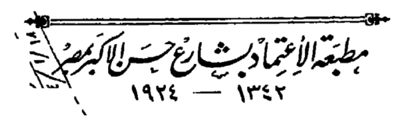
ونقله الى العربية

محمد الصادق حسين

خريج مدرسة المعلمين العليا

مؤلف المذكرات التاريخية

مدير الادارة العربية بوزارة المواصلات



فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد فهذا كتاب فى حميد الخصال أساسه التراجم ، وضعه صاحبه يبغى به هداية الشباب ذكوراً وأناثاً سبل الاخلاق التى يجب أن يكون عليها العاملون لخير المجتمع ، وهو فى هذا لا يحلق بهم فى سماء الخيال ، بل يجول معهم فى الدنيا وحقائقها وأمورها الواقعة ، ويعرض عليهم من أهلها آدميين مثلهم يبين سلوكهم فى معتركها وآثار مزاياهم وعيوبهم ويستخلص العظات من مختلف مواقفهم

نظرت فى هذا الكتاب سنة ١٩٠٧ وأنا فى آخر أيام دراستى فرأيت من ملاءمته لحالتنا ما حرك الرغبة فى نقله الى لغة البلاد ، وما كدت أنتهى من زمن الدراسة حتى اشتغلت بنقله فيما أمكن وقفه عليه من فترات الفراغ ، فلما تم منه ربعه سارعت الى طبعه سنة ١٩٠٨ وأنجز منه ربع آخر ظهر عقب ظهور الأول فتم بهما الجزء الأول والجزء الثانى من كتاب (الاخلاق)

نفدت الطبعة الأولى من الجزءين وطبع أولهما طبعة ثانية (١٩١١) نفدت ايضاً ثم عرض ما عاق عن متابعة النقل والطبع جميعاً وما كنت أحسب عند ما فرغت من نصفه الأول أن هذه الأعوام

تنقضى قبل ظهور باقيه لكننى اضطررت اضطراراً الى أن انصرف عن هذا الكمالىّ من عملى الى الضرورى ، حتى اذا هيئت لى أسباب نقل باقيه آثرت اخراجه للناس كاملا

هذا ولما كان المؤلف بحكم الطريقة التى اتبعها فى وضع الكتاب قد أكثر من ذكر أسماء الاعلام حتى يكاد غير الملم بالتاريخ الاربى يشعر بشىء من الوحشة فى بعض المواضع حيث لا تكون مسميات تلك الاسماء مألوفة لديه فقد ذيلت الكتاب بكلمات موجزة تكسب الرجال والنساء الذين يستشهد بهم شيئاً من الحياة فى ذهن القارئ خالى الذهن منها وقد تكون فيها فائدة لغير خاليه

ثم انى فى قليل من المواضع ذيلت الصفحات بشواهد من المصادر العربية ، وكانت النية أن أعمم ذلك فى الكتاب كله ، لكن بدا لى أن لا أطيل الزمن أكثر مما طال وأن أكتفى بالقليل الذى ذكرته ، ولعلى أوفق أو يوفق غيرى الى وضع كتاب كالذى نحن بصدده يكون أساسه مصرياً عربياً ، ليكون الى مشار بنا وتقاليدنا أقرب ، وفى نفوس شبابنا أوقع ، و بأذهانهم أعلق

والله المسئول أن يجعل هذا العمل نافعاً مبروراً ؟

حلمية المطرية فى يناير سنة ١٩٢٤ محمد الصادق حسين

المؤلف

ولد صموئيل سمايلز فى هدنجتن باسكتلندا فى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨١٢ وتعلم الجراحة ومارسها مدة فى مدينة ليدز بانجلترا ثم خلف رئيس التحرير فى احدى صحف تلك المدينة وعين بعد ذلك ناموساً لشركتين من شركات السكك الحديدية ثم اعتزل العمل وألف كتباً كثيرة كلها ترمى الى التعليم الخلقى الصحيح وكثير منها نقل الى عدة من اللغات الاربية

ألف كتابه هذا سنة ١٨٧١ وفى سنة ١٨٧٨ منحته جامعة أدنبرا درجة دكتور فى الحقوق وكانت وفاته فى ١٦ من ابريل سنة ١٩٠٤

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب من بعض الوجوه تتمة لكتابى (سر النجاح) فانى ذكرت هناك اجمالا ما للاخلاق من القوة والسلطان ولكن بقى شىء كثير فى هذا الموضوع أقوله هنا

وقد لاحظ بعض المنتقدين مع ما تكرموا به من تقريظ كتابى هذا أنى لم أبين ماهيـة الاخلاق ، ولا مشاحة فى ان الاخلاق لها مدلولات كثيرة وغاية ما يقال فيها انها الصفات التى تميز المرء من غيره ، وقد تدل على ما فى المرء من ضعف وقوة يظهر اثرهما فى الشر والخير ، وقد يراد بها الصفات التى توجد فى الانسان بالفطرة او يكتسبها بالعادة حتى يصير كانه منفصل عنها معروف بها

اما الاخلاق المقصودة فى هذا الكتاب فهى نوع غير هذى ، هى اعلى مظهر للانسان واكرم نسب له ؛ هى ما يمجده ويرفعه فى درجات الرجولية ، هى التى تتكون منها ذمة المجتمع الانسانى ويكون عليها المدار فى سيره ونظامه

هذا وقد بذلت قصارى الجهد فى ان اظهر ما للأخلاق الشخصية

من التأثير بضرب كثير من الامثلة اتيت بها من التاريخ ومن تراجم العظماء ومن مشاهداتى وتجاربى لانى ارى انه لا سبيل الى التأثير فى نفوس الشباب خير من الاستشهاد بجميل الخصال من تاريخ افضل من وجد من النساء والرجال

وسيظهر من هذا الكتاب أن الاخلاق تستدعى تربية كثير من الخصال العالية كالصدق والعفة والرحمة ومعها الاستقامة والعزم والفضيلة والخير بكل أنواعه وأشكاله

ويسرنى أن أقول أن هذا الكتاب قد قوبل بالقبول فى هذه المملكة « انجلترا » وأنه نقل الى أكثر اللغات الاربية والى كثير من لغات آسيا وكان انتشاره فى أمريكا كانتشاره فى بريطانيا .

الفصل الأول

سلطان الاخلاق

ما أضعف الانسان اذا لم يستطع أن يرفع من قيمة نفسه

« دَنيل »

الأخلاق هى النظام الأدبى متمثلا فى طبيعة الفرد والرجال ذوو الاخلاق ذمم البيئة التى ينتمون اليها

« امرسُن »

ما سعادة الامم بكثرة أموالهـا ولا بقوة استحكاماتها ولا بجمال مبانيها وانما سعادتها بابنائها الذين تثقفت عقولهم ، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم ، واستنارت بصائرهم واستقامت أخلاقهم ، ففى هؤلاء سعادتها الحقـة وهؤلاء هم قوتها الرئيسية وعظمتها الجوهرية

« مَرتِن لوثر »

الأخلاق من أمهات القوى فى هذا العالم وهى فى أبهى مظاهرها تمثل الطبيعة البشرية فى أرقى أشكالها لأنها تظهر الانسان وهو فى أرقى خلاله ثم ان النوع البشرى خاضع مسخر للرجال ذوى الكد والاستقامة المتشبعين بالاصول الراقية والاغراض الصادقة الخالصة لأن الاعتقاد فى مثل هؤلاء والثقة بهم والتشبه بأعمالهم غرائز فى النفس ، أولئك هم دعائم ما فى هذا العالم من خير ولولاهم لكان الوجود فى هذا العالم عبثاً ، ولئن كانت العبقرية تحرك الاعجاب فان الاخلاق ضامنة التوقير والاجلال ذلك أن منشأ تلك قوة العقل وهذى منشؤها قوة القلب والقلب عادة صاحب السيطرة فى الحياة ، فالعبقريون فى المجتمع بمنزلة الذهن من الانسان وذوو الاخلاق بمنزلة الذمة وبينا أولئك يعجب بهم اذا هؤلاء يهرع اليهم [1]

العظماء شواذ وما العظمة الا شىء نسبى بل لو حققنا النظر لرأينا مجال الحياة أمام السواد الاعظم من الناس غير فسيح وفرص

(١) عد الشريف الجرجانى أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شرح المواقف مغنية عن المعجزات لو فرض عدم وقوعها وكذا غير الشريف من علمائنا رحمهم الله تعالى حتى قال بعض شعرائه صلى الله عليه وسلم

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت خلائقه تنبيك بالخبر

« باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام
للمرحوم الشيخ حمزه فتح الله ص٢٩ »

الرقى لا تسنح الا للقليل منهم ولـكن كل أمرئ قادر أن يبذل قصارى جهده فى اداء ما عهد اليـه أداء رائده فيـه الـكرامة والاخلاص ، قادر أن يسعى فى جعـل حياته نافعة ما استطاع ، قادر أن يكون صادقاً عادلا أميناً مخلصاً حتى فى الصغائر وبالجملة قادر أن يقوم بواجبه فيما اختاره الله له

تحت هذا القيام بالواجب وان عد من الامور المعتادة تنطوى الحياة السعيدة والأخلاق الفاضلة واذا لم يكن فيه ما يستدعى البسالة والبطولة فان عمل السواد الأعظم من الناس لا يستدعيهما والشعور بالواجب الذى يعين المرء فى أعظم مواقفه يساعده على القيام بما تقتضيه الحياة من الاعمال المعتادة وحياة الانسان محوطة بتلك الاعمال

هذا وان أقوى الفضائل أثرا الفضائل التى يحتاج اليها فى كل يوم من أيام الحياة فهى التى لا تبلى وان طال الزمن أما ماعلا من الفضائل عن الطبقات المعتادة فقد يكون منبع الغرور والخطر قال برك ان النظام البشرى الذى أساسه الفضائل العالية لعرضة لأن يعتريه الضعف أو الفساد

ووصف اُبت اخلاق صديقه تومس سكنفيل[1] فلم يكن مدار وصفه ما كان للموصوف من المنزلة فى السياسة أو الشعر

(١) سكفيل هو لورد بكهرست وزير المالية فى عهدى الزبث وجيمس الاول

بل كان مدار الوصف ما تحلى به صاحبه من الفضائل فيما يتعلق بالواجبات المعتادة فى الحياة ومن ذلك قوله ما كان أكثر مزاياه فمن كان أكثر منه حباً لأهل بيته ، بل من كان أكثر منه رأفة بأولاده ، بل من كان أكثر وفاء لصاحبه ، من كان أكثر منه تسامحاً مع عدوه من كان أصدق منه فى قوله اه

ولا غرو فمبلغ الرجل من الاخلاق يدل عليه سلوكه مع أقرب الناس اليه وأشدهم علاقة به وقيامه بما يقتضيه الواجب فى الصغائر اللازمة للحياة لا شهرته فى عالم التأليف أو الخطابة أو السياسة

وان فى الواجب مع انصرافه اذا أطلق الى القيام بمسائل الحياة المعتادة لقوة تشد أزر الفحول فى أكبر مواقفهم وقد يكون ذوو الأخلاق خلوا من المال والمتاع عطلا من العلم والقوة ثم لا يمنعهم ذلك أن يكونوا أمناء صادقين قائمين بواجبهم ومن كد فى القيام بواجبه مخلصاً فقد أدى العمل الذى من أجله خلق وأثبت نفسه على أخلاق الرجولية وكم من أناس لا يملكون من الدنيا سوى أخلاقهم وهم بفضلها كصاحب التاج المدل بتاجه

وليست طهارة الأخلاق وحسنها من مستلزمات ذوى العقول المثقفة بالمعارف فقد يجتمع التفوق العقلى والاخلاق السافلة ويذل صاحب العلم لاولى المقامات الرفيعة ثم يتغطرس على ذوى المنازل

الوضيعة قال جورج هربرت قليل من الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة اه ولا يؤخذ من ذلك ان العلم يجب احتقاره كلا بل يؤخذ منه أن العلم يجب اقترانه بالخير فرب عالم أقل من جاهل أمانة وفضيلة واخلاصا وادرا كا لروح الواجب

كتب برتس الى صديق له يقول أنك تقول بوجوب رعاية حرمة أهل العلم وأنى أؤمن على ذلك ولكن لا يغيبن عنك أن كبر النفس وبعد غور الفكر وادراك الراقى من الامور والخبرة بالايام ورقة الاخلاق والحكمة والنشاط فى الاعمال وحب الحق والامانة واللطف ان كل هذه قد تنقص الرجل الكثير العلم (١)

وأشار بعضهم فى حضرة سيزولتترسكت الى ما للنبوغ فى الادب من جليل القدر وذهب الى أنه أحق الاشياء بالتبجيل والتعظيم فما كان من سكت الا أن قال اللهم رحماك لقد شقينا ان كان هذا هو الصواب فكم قرأت من كتب واجتمعت برجال من ذوى المعارف السامية والعقول الراجحة وتجاذبت معهم أطراف الحديث وأشهد لقد رأيت من فقراء لا نصيب لهم من العلم عواطف لم أر أرق منها فى غير كتابنا المقدس ، رأيت منهم تلك العواطف وهم يعانون من اصر الصبر ما يعانون اذا ألم بهم خطب أو نزلت بهم كارثة أو وهم يبدون آراءهم الساذجة فيما نزل

(1) Life of Perthes , ii . 217 .

بجيرانهم وأصدقائهم من النوازل ألا فاعلمن أننا لن ندرك كنه ما فرض علينا الا اذا اعتبرنا كل شيء دون تربية القلب[1]

هذى علاقة العلم بالاخلاق واوهى منهـا علاقة الثروة بها بل قد تكون الثروة سبباً فى فساد الاخلاق وانحطاطها فان الثروة والفساد والترف والانحطاط أمور سهل اجتماعها وما الثروة فى أيدى من ضعفت أرادتهم وجمحت بهم أهواؤهم واستعصت عليهم نفوسهم الا أغراء بالرذائل وشرك للمفاسد وربما ولدت من الضرر لهم ولغيرهم شيئاً كثيراً

اما الفقر فلا تعارض بينه وبين الاخلاق فى أرقى أشكالها وقد لا يملك المرء سوى كده ودقته واستقامته ثم لا يمنعه عوز غيزها أن يكون ذا منزلة سامية بين الناس وما أحسن النصيحة التى سمعها برنز من أبيه اذ قال له يابنى لا قيمة للرجل اذا لم يكن ذا قلب يعرف الشهامة والامانة فكن رجلا حقاً فى عملك وان كنت معدماً لا تملك درهماً

ومن أعظم الاخلاق التى شاهدها كاتب هذا أخلاق عامل صغير لم يزد دخله على عشرة شلنات فى الاسبوع على أنه بهـذا المبلغ الزهيد كان يقوم بحاجات أهل بيته وكان على بساطة تربيته حازماً مفكراً أما ما اعتاد قراءته من الـكتب فلم يتعد الـكتاب

(1) Lockhart's " Life of Scott ".

المقدس وكتابين آخرين ربما لم يسمع بهما أحد من قارئى الكتب ، فلما انقضت حياته البسيطة وقد قضاها فى العمل والعبادة خلف له ذكرى من الحزم والصلاح والمساعدة فى كل عمل خيرى قد يغبطه عليها من كانوا أعظم منه جاهاً وأكثر مالا

ولما مات زعيم الاصلاح الدينى فى جرمانيا لم يترك من المال شيئاً قط كما جاء فى وصيته ومرت به أيام استولى عليه الفقر فيها حتى اضطر الى كسب قوته بالعمل فى الحدائق والساعات وكان وهو يعمل بيديه يقوّم من اخلاق أمته كما أنه كان من الوجهة الادبية أقوى من أمراء جرمانيا سلطاناً وأوسع نقوذاً وأعظم جاهاً وأرفع قدراً

واعلم أن الاخلاق متاع وأى متاع ، هى ضيعة يجنى منها الانسان الخير والتجلة وان لم يحصل من أمتعة هذه الدنيا على شيء كثير وحق للصفات الجليلة أن تسود فى هذه الحياة وأن تكون منزلة الجد والفضيلة والخير أعلى منزلة فى هذا العالم وان يكون أفاضل الناس فى مقدمة الجنس البشرى

ومن الامور ذات البال التى يعول عليها فى الحياة ان يكون المرء شريف المقاصد عارفاً قدر نفسه عاملا بما يعتقد أنه الصواب ذلك لان المقاصد الشريفة تقوّم المرء وتمده بالقوة وتبعث فيه الحمية للعمل قال سير بنيمين رديرد ليس من المحتم على المرء أن

يكون مثرياً أو عظيما أو حكيما ولكن من المحتم على كل امرىء أن يكون شريف النفس مخلصاً فى عمله

وليس بكاف أن يكون الغرض شريفاً بل يلزم أن يكون أساسه المبادىء السليمة وأن لا يحيد صاحبه فى الوصول اليه عن الصدق والاستقامة فانما المرء بلا مبدأ سفينة بلا مرشد تسير على غير هدى الى حيث تسوقها الرياح أو كأمة لا قانون لها ولا نظام ولا حكومة قال هيوم المبادىء الادبية حزب معارض للرذيلة والهمجية وهما عدو الانسان

زار أحد الخطباء المفوهين الفيلسوف إبكتيتس ليعلم شيئاً عن فلسفته ورأى الفيلسوف أن الزائر سيء القصد لم يرد حقيقة أن يأخذ عنه شيئاً فقابله مقابلة تنم عن الشدة والاحتقار ثم قال ان غرضك انتقاد مبادئى ولست براغب فى أن تأخذ عنى شيئاً فقال الزائر أجل فانى ان عملت بمبادئك أصبحت مثلك فقيراً معدماً لا مال ولا متاع ولا أبهة قال الفيلسوف انى لا حاجة بى الى المال والمتاع وما أنت الا أفقر منى بعد فانى لا ألجأ الى عظيم رغبة فى جاه ولست أبالى بأية عين ينظر الىّ القيصر وليس الملق من شيمى هذا متاعى وهو خير مما تملك من الذهب والفضة ، ان لك متاعاً من نضار وأما عقلك وشهواتك ومبادئك فمن طين وان لى من عقلى لملكا كبيراً أجد فيه ما شئت من

العمل المفيد السعيد أما عملك فلا أراه الا خمولا مضطرباً لا ثمر له واذا كان كل ما تملك صغيراً فى عينك فان ما أملك كبير فى عينى ، أنت لا حد لمطالبك أما أنا فقنوع بما عندى[1]

ليس الاستعداد العقلى ولا التفوق الذهنى بنادرين فى العالم ولكن هل يعتمد على الاستعداد العقلى وحده وهل يؤتمن التفوق الذهنى كلا اللهم الا اذا رافقهما الحق فهو الخلة التى تضمن لصاحبها التبجيل والتعظيم وتحمل غيره على الثقة به ، هو أساس كل فضيلة ويظهر فى معاملة المرء وسلوكه ، هو الاستقامة والاخلاص فى العمل ، له نور يسطع فى كل قول وفعل ، هو الباعث على ثقة المرء بنفسه والحامل للناس على الثقة به والمرء ذو المكانة فى العالم هو الذى يصح الاعتماد عليه ، هو الذى اذا قال ان له علماً بشىء كان عالماً به حقاً ، هو الذى اذا قال انى فاعل شيئاً فعله وهكذا يحصل الواثق بنفسه على ثقة الناس به واعترافهم بقيمته.

ولا يعول فى هذه الحياة على الذكاء بقدر ما يعول على الاخلاق ولا يركن الى العقل بقدر ما يركن الى القلب ولا يوثق بالعبقرية بقدر ما يوثق بضبط النفس والصبر والتهذب يصحبها جميعاً اصالة الرأى لذلك كان أنفع شىء فى حياة الفرد أو حياة

---

(1) The late Dean Farrar's "Seekers after God" p.241

الامة حسن النظر تصحبه الاستقامة لحسن النظر اذا امتزج بالخبرة وحب الخير كان الحكمة العملية لأن حب الخير ضرب من الحكمة اذ هو اجتماع المادى والروحانى قال سير هنرى تيلر أوجه الشبه بين الحكمة وحب الخير كثيرة وكل منهما ملازم للآخر يدلنا على ذلك أن حكمة المرء تدفعه الى حب الخير وحب الخير يدفعه الى أن يكون حكيما[1]

هذا وبسبب قوة السيطرة الكامنة فى الاخلاق ترى اناسا يؤثرون فى غيرهم تأثيراً لا نسبة بينه وبين قواهم العقلية فكأن بهم قوى كامنة تتحرك اذا ما وجدوا بين قوم ويسرى فعلها فيهم سرا قال بيرك فى رجل عظيم ان فضائله وسائله أه . والسر فى ذلك التأثير ان مقاصد هؤلاء يظهر فيها الاخلاص وشرف الغاية فهم يؤثرون فى غيرهم بقوة لا تقاوم

واعلم أن سمعة ذوى الأخلاق الفاضلة قد تكون بطيئة السير ولكن يستحيل أن تخفى صفاتهم كل الخفاء نعم قد يصورهم بعض الناس فى أسوأ صورة ويخطىء آخرون فى فهمهم ، قد تنزل بهم النوازل وتستولى عليهم الشدة زمنا ولكنهم يعتصمون بصبرهم وجلدهم ولا يزالون كذلك حتى يصلوا الى ما يليق بهم من المنزلة

---

(1) " The Statesman ", p 30.

قيل فى شِـردَن أنه لو أوتى من الأخلاق القويمة نصيبا أو فر
من نصيبه منها لساد العالم ، اما وقد كان نصيبه منها يسيرا فقد
أصبحت قواه العالية وكأنها لا فائدة فيها فقد كان يدهش ويسر
الا أنه لم يكن ذا نفوذ فى أعمال الحيـاة والسياسة حتى أحس
عامل فقير من موظفى دار تمثيله بأنه أرقى منه ذلك أن هذا العامل
طلب ما تأخر من أجره والحف فى الطلب فأنبه على فعلته هذه
واستنكرها ثم قال للعامل أنك قد جهلت قيمة نفسك وغفلت
عن مركزك فما كان جواب العامل الا أن قال كلا يا مولاى أنى لم
أجهل قيمتى ولم أغفل عن مركزى وأنا على بينة مما بيننا من التفاوت
اما فى المحتد والنسب والتربية فأنت أرقى منى وأما فى الاخلاق
والحياة والسير الحسنة فأنا أرقى منك

وعلى العكس من شِـرِدَن بِرك فانه كان رجل أخلاق لم يلتحق
بالبرلمان حتى انصرم من عمره خمسة وثلاثون عاما لـكنه وجد
من الزمن ما مكنه من أن ينقش اسمه فى تاريخ انجلترا السياسى
نقشا لا يزول وقد كان عظيم المواهب العقلية قوى الخلق الا
انه كان حاد الطبع فكان ذكاؤه يضيع لسرعة تأثره وحدة الطبع
على ما يظهر من تفاهتها تقلل من قيمة المواهب العالية

والاخلاق تكونها جملة امور دقيقة للفرد السيطرة عليها
وما من يوم يمر الا وفيه ما يعود على الاخلاق بالخير أو الشر وما

من عمل مهما كان تافهاً الا ووراءه نتائج كبيرة كالشعرة لها ظل مهما دقت وما احكم ما اوصت امرأة ابنتها الا تستخف بالصغائر والا استولت الصغائر عليها مهما يكن من احتقارها لها

فكل عمل او فكر او شعور يساعد على تربية الطبع والعادة والادراك ولا بد ان يؤثر فى اعمالنا طول الحياة والاخلاق اذن دائمة التغير فاما الى ترقٍّ واما الى تدنٍّ قال مستر رسكين ما من هفوة هفوت ولا حماقة ارتكبت الا وتثور عليَّ فتنقص من سروري وتتحيف قوة نفسي وادراكي وبصيرتي وكل مجهود بذلت في ماضيَّ بل كل لمعة حق وخير في ذلك المجهود ثابتة الآن على ولائي تعينني على اتقان ما انا آخذ فيه (١)

وان فى الطبيعة لقانوناً ينطبق على الآداب وهو ان الفعل ورده متساويان وللخير والشر رد فعل على فاعليهما ولهما فيمن يقعان عليه أثر يشبههما والموجد لذلك الاثر فيمن يصيبه الخير او الشر هو الاقتداء بالعامل بيد ان سلطان الانسان على الحوادث اكبر من سلطانها عليه(٢) وان حسن تصرفه كان فى

(1) " Queen of the Air ", p. 127.

(٢) قال جورج هنرى لوس فى كتابه عن جيتى أنى أرى القول بسلطان المرء على الحوادث أقرب الى الصواب من القول بسلطانها عليه فان الاخلاق تخلق من الحوادث ما تشاء وعلى قدر استطاعتنا السير مع الحوادث واستخدامها والاستفادة منها تكون قوتنا ألا ترى القرميد يبقى قرميدا حتى يخلق منه البانون

استطاعته أن يجعل أعماله منبعاً للخير لا للشر قال القديس برنار لا يضرنى سوى نفسى فلا اعانى من الضرر سوى ما اصطحبته ولا يصيبنى العناء الا من جراء هفواتى

لا سبيل الى تربيـة الخلق القويم الا الكد والمثابرة وذلك يحتاج الى مراقبة النفس وتدريبها وضبطها ، نعم قد يعرض للمرء تردد وزلل وخذلان وقتى وقد يصادف كثيراً من صعاب لا بد من تذليلها الا انه لا يليق بصاحب الروح العالية والقلب الذى لا يعرف الملل ان يجنح للقنوط من الفوز والنجاح وان فى مجرد سعى المرء فى الارتقاء ومحاولته الوصول الى منزلة اسمى من منزلته لتقوية لعزيمته وتهييجاً له على النشاط فلا يخلو سعيه من فائدة تعود عليه وان عجز عن بلوغ مآربه

وقد قيض الله لنا اعلاماً بهم نقتدى ومصابيح بضوئهم نهتدى ذلكم هم العظماء ممثلو الانسانيـة فى ارقى اشكالها فأصبح كل منا يحق له بل يجب عليـه ان يرمى الى بلوغ اسمى منزلة فى الاخلاق وان يعمل على ان يكون عظيم الروح لا كثير المال وكبير الشرف

شيئاً جديداً ثم هم يتفاوتون والمواد التى يبنون بها واحدة فهذا يبنى قصراً مشيداً وذاك يبنى كوخاً حقيراً وفى البيت الواحد والبيئة الواحـدة والاحوال الواحدة ترى الرجل القوى يمرح فى قصور شامخة وأخاه المذبذب الضعيف يقبع فى أطلال بالية ويرى هذا الصخرة الصماء فى طريقه فتقطع عليه سيره وتعرقل مساعيه ويراها ذاك فيتخذ منها سلماً يرقى به الى حيث ينال مآربه

لا الجاه وكثير الفضائل لا جم المعارف وصادقاً اميناً لا ذا سيطرة ونفوذ

كان من خصال قرين الملكة فكتوريا وكان نقي القلب يؤثر فى غيره بطبيعة الخيرة تأثيراً بيناً نقول كان من خصاله اذا قرر شروط مكافأة سنوية كانت تعطى فى معهد من معاهد العلم أن لا يجعلها لأذكى الطلبة ولا لأكثرهم احتفالا بالكتب ودراستها ولا لأكثرهم دقة ومثابرة وتبصراً بل لارقاهم اخلاقاً لمن يؤمل فيه ان يكون رجلا كبير القلب عالى المذهب[1]

تظهر الاخلاق فى السلوك الذى رائده المبدأ القويم والاستقامة والحكمة وما الاخلاق فى ارقى اشكالها الا ارادة الفرد تعمل تحت ضابط من الدين والأدب والعقل وبالاخلاق يختار المرء سبله فى الحياة بتروّ وتبصر ويثابر عليها جاعلا الواجب فوق الشهرة وارضاء الضمير فوق المدح والثناء ولا يزال محافظاً على قدره واستقلاله مع رعاية اقدار غيره حق رعايتها ولا يزال يملك من العزم ما يحمله على ان يكون مخلصاً فى صفاته الأدبية وان لم يكن مقبولا عند جمهور الناس فى أول امره فما عليه

(1) Introduction to "The Principal Speeches & Addresses of H. R. H. the Prince Consort" (1862), pp. 39,40.

الا الصبر والتؤدة حتى يحمل الزمن والخبرة الناس على اعترافهم بقيمته

وانى مع الاعتراف بما للبيئة والقدوة من الاثر فى تكوين الاخلاق أقول انه يجب ان تكون روح المرء الدعامة القوية فى تكوين أخلاقه فان تلك الروح وحدها هى المعول عليها فى الحياة وهي التى تبعث فى المرء النشاط وتمده بالاستقلال والقوة قال دنييل ما أضعف الانسان اذا لم يستطع أن يرفع من قيمة نفسه اه وان لم يكن للمرء نصيب من تلك القوة العملية العظيمة التى تتكون من الارادة وهى أساس الاخلاق ومن الحكمة وهى دعامة الاخلاق كانت حياته مبهمة لا غرض لها وكانت كالماء الراكد لا كالماء الجارى الذى يستخدم فى الاعمال النافعة

ومتى اتحدت عناصر الاخلاق بالارادة القوية وحملت الاغراض الراقية المرء على طرق باب الواجب والمثابرة على القيام به مهما ضحى فى سبيله من الفوائد الدنيوية أوشك المرء أن يصل الى ذروة كماله وظهرت فيه الاخلاق الفاضلة بأجلى مظاهرها وكان مثالا لارقى ما يتصور العقل من الرجولية الحقة ثم لا تزال أفعاله تتكرر وتظهر فى حياة غيره وأعمالهم ولا تزال أقواله خالدة قوية فعالة لهذا دوت كل كلمة للوثر فى أنحاء جرمانيا وسمع لها فى كل

ركن من المملكة صوت كصوت الطبل عظيم باهر حتى قال فيه بعضهم أن كلماته انصاف وقائع حربية اه لهذا دبت روحه فى حياة أمته ولا تزال بادية فى أخلاق الدولة الالمانية الحالية

أما القوة بلا استقامة ولا روح للخير فقد لا يكون وراءها سوى الشر ومن ذلك قول نُفالِس فى كتاب له فى الاخلاق أنه لا خطر على الكمال الادبى الا القوة المتناهية فى الشدة والحياة المتناهية فى القوة فانهما أرقى ما تصل اليه الامم الوحشية ولا ينقصهما سوى شىء من الغرور والطمع والانانية ثم يكونان مثالا للشيطان اه وممن اتصفوا بهذه الصفات أولئكم الرجال الذين منيت بهم الدنيا فكانوا خطراً عليها ووبالا أولئكم الطغام الذين تركوا الحكمة مكنونة يقومون بما شاءوا من التدمير والعيث فى الارض فساداً (١)

وعلى العكس من هؤلاء من كان عاملا يجعل شعاره الروح

---

(١) ومن أقرب هؤلاء الينا نابليون الاول فقد كان رجلا لا تحد قواه ولكنه كان خلواً من المبادئ لا قيمة لبنى آدم عنده وهو القائل ما الرجال الا خنازير غذاؤها الذهب وها أنذا امدهم بالذهب وأقودهم الى حيث شئت اه وقال لرئيس أساقفة ملين وقد عزم على الرحيل الى بولندا أجد الموائد واجعل النساء موضع رعايتك فالقاء هذه العبارة فى أذن كاهن ضعيف فى سن الستين يرى كما قال بنيامين كنستن مبلغ احتقار نابليون لبنى آدم بلا تمييز بين الامم والاجناس

الشريفة ورائده فى عمله الاستقامة وقانون حياته القيام بالواجب
هـذا هو المستقيم العادل فى معاملاته وأفعاله وأهل بيته والعدل
فى سياسة أهل البيت لازم لزومه فى سياسة الأمم ، هـذا هو
الصادق المخلص فى كل شىء فى قوله وفى عمله ، هذا هو المحسن
الى أعدائه ومن هم أضعف منه الرءوف بهم ، قيل عن شِرِدَن
وكان على قلة تبصره كريماً لا يسىء الى أحد أن قريحته كانت
اذا احتدم الجدل بينـه و بين أحد خصومه تبقى على حدتها لينة
لا تجرح مناظره وكانت أخلاق فُـكْس من هـذا القبيل
فنال بلين قلبه ورقة شعوره محبة الناس وخدمتهم اياه وقد كان
يأسره من جاءه من ناحية شرفه ومما يؤثر عنـه فى ذلك أن
تاجرا ذهب اليه يطالبه بدين مقدما له الوثيقة وكان بين يديه
دنانير يعدها فطلب التاجر أن يأخذ الدين من تلك الدنانير فأبى
فُـكْس وقال أن هـذا المبلغ دين على لـِشِرِدَن ولم يأخذ منى
وثيقة به فاذا ألم بى حادث لم يكن لديه شىء يستند اليه فى طلب
دينه فما كان من التاجر الا أن مزق الوثيقة وقال انى قد حولت
الدين الذى لى الى دين بلا وثيقة فأذعن فُـكس وشكر للتاجر
ثقته به ثم دفع اليه دينه وهو يقول اذن فلينتظر شِرِدَن لأن
دينك أقدم من دينه

وانك لتجد للرجل قويم الاخلاق ضميراً نقياً يحكمه فى عمله وقوله قيل أن كرُمْــوِل لما سأل البرلمان أن يمده بجنود تحل محل الرعاع والصعاليك الذين غص بهم جيش الامة طلب أن يكون الجند رجالا ممن لهم نصيب من ضمير يحكمونه فى أعمالهم ومن هؤلاء تكون جيشه الذى ذاع صيته فى الآفاق حتى لقب بجدُر الحديد

كذلك يكون الرجل ذو الاخلاق مراعيا حرمة ماله حرمة فان تلك الصفة تدل على أرقى الخلال البشرية وهى اجلال ما اعترفت بجلاله الاجيال ، اجلال كل ما كان راقياً ، اجلال العظماء من رجال الازمان السالفة واجلال العاملين ذوى العقول الراقية من أهل عصرنا وهذا الاجلال لا بد منه فى سعادة الفرد وأهل البيت والامة ولولا هو ما وجد اعتماد الناس بعضهم على بعض ولا كان للثقة مجال بينهم ، ولكان المجتمع الانسانى خلوا من الراحة والطمأنينة ولوقف ولم يرتق فهذا الاجلال مرادف للدين ، يربط الناس بعضهم ببعض ويقربهم من الذات العلية

قال سيرتومس أفرُبرى أن الشريف الروح يكتسب من كل حادث خبرة تقترن بعقله ثم تتولد من ذلك الاقتران أعماله وهو الذى يدير حظه بنفسه لعلمه أن العقل هبة من الله لم يمنحه أياها عبثاً ، هو شمس فى المجتمع الانسانى يهتدى بضوئها الناس جميعاً

هو للعاقل صديق وللضعيف قوة وللشرير دواء ، لا يأبق منه الوقت بل يسير معه ، ويستبين الهرم بقوة نفسه أكثر مما يستبينه بضعف جسمه ، لا يشعر بألم ويعرف حق كل من آخاه ممن يرغبون فى خلاصه اذ وقع فى شدة ، ويعينونه على الخروج من الخطوب اذا ألمت به (1)

وقوة الارادة روح لكل من كان عظيم الأخلاق فان وجدت قوة الارادة وجدت معها الحياة وان فقدت فهناك الضعف واليأس والقنوط ، جاء فى بعض الحكم ان الرجل القوى والسيل يمهدان لنفسهما السبل ولا يقتصر القوى الارادة الشريف النفس على تمهيد السبيل لنفسه بل يقود غيره معه ولكل فعل من أفعاله قيمة فهو يهدى الى النشاط والاستقلال والثقة بالنفس ويدعو الى تبجيل صاحبه والأعجاب به وقدكانت قوة الارادة من خصال لوثر وكرمول وو شنجتن و بت و ولنجتن وغيرهم من العظماء قادة الامم قال مستر غلدستن يعدد مناقب لورد بلمرستن بعد موته أنى لعلى يقين من أن قوة أرادته وادراكه لمعنى الواجب وعزمه على ألا يستكين الى الشدائد ولا ينهزم أمام المصاعب هى الخلال التى ساعدته على أن يكون قدوة لنا معشر الباقين بعده الحاذين حذوه

---

(1) Condensed from Sir Thomas Overbury's "Characters" (1614)

فى اداء ما فى عنقنا من واجب وان كان سيرنا أضعف من سـيره وخطونا وراء خطوه ولم تقف قوة أرادته عند مكافحته ضعف الهرم بل صدت ذلك الضعف ونحته بعيداً وهنالك صفة اخرى اذكرها ولا أخشى ان يحرك ذكرها الالم فى الصدور وهى أن الغضب والحدة كانا حراما على طبيعة الفقيد ولم يكلفه تمحيصها من نزوات الغضب شيئا من الكد والعناء لأنه كان فيه سجية غير محدثه كان هبة تلذ للانسان ذكراها وهبها الله هذا الذى غادرنا وأصبح ولا علاقة لنا به الا الدأب على أن نستفيد من الاقتداء به والاهتداء بأعماله الى سبيل الحق والواجب وتوفيته حقه من الاعجاب والمحبة

هـذا والرجل العظيم يلفت اليه نظر من كانوا مثله اخلاقا ويجذبهم نحوه جذب المغناطيس الحديد من ذلك أن سيرجُـن مور اصطفى من بين من التفوا حوله من كبار الجند بنى نبير الثلاثة وخصهم بالقربى منه فما كان منهم الا أن قابلوا صنيعه بتناهيهم فى الاعجاب به من صميم أفئدتهم وقد أسرهم بدعته وشجاعته واتصافه بتلك الصفة العالية وهى الخلو من الغرض ثم اتخذوه قدوة وعقدوا الخناصر على التشبه به ومباراته ان هيئت لهم الاسباب قال مترجم حياة اشهرهم قد كان لسيرجُـن مور أثر عجيب فى تكوين أخلاق هؤلاء الثلاثة وأبلاغها حد الكمال وكونُ هـذا القائد

العظيم قدوة هؤلاء الثلاثة ليس بالفخر الذى يستخف به هذا وان أدراكه كنه صفاتهم العقلية والادبية وهم فى بدء أمرهم لبرهان على ما كان له من بعد النظر وما اتصف به من الذكاء وصحة الحكم على الاخلاق .

لكل ذى همة أثر حسن فى غيره والمقدام ينفث الروح فى الضعفاء كأنه يكرههم على الاقتداء به روى سير ولـيَم نبير صاحب تاريخ حرب الجزيرة أنه حدث فى احدى الوقائع أن غلب الجيش الاسبانى وأخذ الجند يولون الأدبار فتقدم من بينهم شاب من الضباط أخذ يهز قبعته وينادى فيهم أن اتبعونى ثم استحث جواده وعبر الحاجز الذى أعده الفرنسيون لحماية مقدمتهم ثم هجم عليهم فاشتدت حمية الاسبان وما عتموا أن اندفعوا وراءه وهم يجيبونه بصوت جهورى ثم حملوا على الجيش الفرنسى فألجؤه الى الفرار[1]

---

(1) 'History of the Peninsular War' V 319.

واستشهد نبير على مبلغ تأثير أخلاق الفرد بجندى آخر اسمه ادورد فريز مات وسنه تسع عشرة سنة فى أحدى الوقائع بعد أن شهد من مواطن القتال مايربو على سنى عمره عددا قال نبير كان هذا الشاب نحيل القوام رائع الحسن وكان الاسبانيون يحسبونه غادة هيفاء تزيت بزى الرجال تنكرا ولكنه مع ذلك ملىء نشاطا وقوة وشجاعة وحمية جعلت أبسل الجنود وأقدمهم عهداً بالحروب يرقبون فى ساحة القتال حركاته ويقفون أنظارهم على تتبع نظراته فتراهم رهن أشارته وطوع أرادته كانهم بين يديه أطفال سذج يفعلون مايؤمرون وان كان الموقف مما يجعل الولدان شيبا .

وهكذا الحال فى مسائل الحياة المعتادة فالصالحون والعظماء يحملون الناس على التشبه بهم ويضيئون بصيرة من يصل اليه سلطانهم ويرفعون من قيمته واذا ولى ذو الهمة والخصال الحميدة منصباً سامياً شعر كل العاملين له برقى فى قواهم لذلك كان كل جندى من العاملين تحت أمرة نلسن يشعر بشعوره ولما أمّر وشينجتن على الجيش الامريكى شعر الأمريكيون بأن قواهم قد تضاعفت ولما بلغه الكبر وتخلى عن عمله وشجر الخلاف بين فرنسا والولايات المتحدة وظن أن الحرب على الأبواب كتب اليه الرئيس أدمز يقول تكرم علينا باعارتنا اسمك ننتفع به فى هذه الازمة فهو أفعل من الخميس العرمرم اه ولا غرو فقد كان لشريف أخلاق هذا البطل وعالى قواه منزلة سامية عند قومه(١)

---

(١) أتت على الولايات المتحدة أزمة كادت تودى باتحادها وكان وشنجتن قد رغب فى اعتزال منصبه والعيش بعيداً عن الحياة العامة فكتب اليه جفرسن يحث على بقائه قال أنت موضع ثقة البلاد كلها فبقاء دقة أمورها فى يدك يكون حجة عتيدة على كل زعم يمكن استخدامه فى ازعاج أهل البلاد وسوقهم الى الانشقاق والفتنة الا وان من نوابغ الاخلاق ما يتطلب منه المجتمع ضبط آحاده وصد نزعاتهم وقصرها على أنواع السعادة التى يكون مصدرها خير الناس فى حاضرهم وآتيهم ويخيل الى أنك أنت ذلك الرجل وان هذا هو العمل الذى قيضك الله له بما آتاك من خلق وهيأ من حوادث تستخدمه فيها وأنا لمثل هذه البواعث لا لاعتبارات شخصية من ناحيتى أو ناحية غيرى أتشدد فى التوسل

وذكر مؤرخ حرب الجزيرة حادثة تمثل ما لشخص القائد العظيم من التأثير فى نفوس تابعيه قال كان الجيش الانجليزى مرابطا فى جهة من الجهات وقد أقبل عليه الجيش الفرنسى تحت أمرة القائد سول متأهبا للقتال أما ولِنْجتُن فلم يكن حاضرا اذ ذاك وكان الجند ينتظرون مجيئه وهم على أحر من الجمر وبينما هم كذلك أذ ظهر على قمة جبل هناك رجل على جواده فنظروا فاذا هو الدوق على وشك الانضمام الى جنوده فصاحت اول فرقة أبصرته صيحة فرح وسرور ثم سرى الصياح الى الفرق الاخرى وتزايد حتى صار تلك الضوضاء الشديدة التى اعتاد الجند الانجليزى احداثها وهم على أهبة الدخول فى معمعان الحرب والتى لم يسمعها عدو الا ارتج لها ثم وقف القائد بحيث يراه كل من الجيشين الانجليزى والفرنسى وأشار بعض من حضر الى سول فاذا هو قريب جدا ترى تقاطيع وجهه فنظر اليه ولِنْجتُن نظرة امعان ثم قال وكأنه يناجى نفسه هذا رجل يخشى بأسه لكنه حذر وسيؤجل الهجوم ريثما يستبين سبب ذلك الصياح وفى تلك الفترة مايكفى لوصول قسمى السادس ثم قال وسأهزمه وقد فعل(١)

اليك أن تعيد نظرا فيما عزمت عليه بسبب تغير وجه الحالة اه

Sparks ‘ Life of Washing ton ’, i. 385.

(1) Napier's ‘ History of the Peninsular War’, V. 226.

وقد يكون للاخلاق الشخصية تأثير أشبه بتأثير السحر وفعل أشبه بفعل التمائم فكأن ذويهـا قوة فوق القوة البشرية قال ُعمي لو اتيح لى أن أطأ أرض ايطاليا لوجد الجيش الذى أريده وقال أحد المؤرخين سمعت اُرُبا دعوة بطرس الراهب فقامت والقت بنفسها فى آسيا وقيل فى الخليفة عمر بن الخطاب ان درته أكثر هيبة من سيوف غيره اه بل قد يكون لأسماء بعض الرجال صوت أبهر من صوت الطبل من ذلك أن أحد القواد جرح فى بعض المواطن جرحا ساقه الى الحمام فأمر أن يهتف باسمه اكثر مما غبر وقال من المأثور عن أسرتى أنه يجب على ميتها أن يكون النصر حليفه وان يفوز بأعدائه فدب صوته فى نفوس تابعيه والتهبوا حماسة ثم لمّوا شعثهم وفازوا بعدوهم وفيهم يقول الشاعر :

قد فاز بالنصر لما خر قائدهم

اسم القتيل وما آبوا بخسران (١)

ومن الرجال من بلغوا أقصى نفوذهم بعد موتهم قال مشيلى لم يكن يُلينوس قيصر وهو حى عظيم القوة قوى السلطان شديد الرهبة فى القلوب كما كان وجسمه بين أيدى قومه قد نفذت فيه

---

(1) Sir Walter Scott's History of Scotland vol. I. Chap. XVI.

الضربات لقد ظهر اذ ذاك نقياً طاهراً وعدّ رجل الانسانية[1] على هفواته اه ولم يكن ولِيَم الصامت وهو حي عظيم النفوذ فى قومه كما كان قبل أن قتله اليسوعيون وآلت هُلَنْدا يوم قتله أن تستخير الله وتثابر فى عملها باذلة النفس والنفيس وقد برت يمينها

هكذا تبقى حياة العظيم أثراً خالداً يمثل القوة البشرية فيدرج ويبلى جسمه ولكن أقواله وأفعاله تبقى حية فى قومه أثراً لا يدرس ولا يمحوه كر الغداة ومر العشى وهكذا تمتد روحه وتبقى خالدة تقوّم من أفكار من يخلفونه وتشد من عزيمتهم فتساعد بذلك على تكوين أخلاقهم لان الجنس البشرى يهتدى فى ارتقائه باولئكم الذين سلكوا أرقى المسالك وأكثرها خيراً وكأنّ هؤلاء نار فى رأس علم فهم يضيئون ماحولهم من الجو الادبى ولا يزال نور روحهم يسطع على الأجيال التالية لهم

وأن الاعجاب بالعظماء واجلالهم أمر غريزى فى النفس فهم المقدسون لامهم وهم الرافعون لاهل عصرهم ثم لمن يأتون بعدهم، عظيم فعلهم ميراث لبنى نوعهم وآراؤهم وأفكارهم أجل وقف للجنس البشرى، يربطون الحاضر بالغابر ويساعدون على أعلاء شأن المستقبل حاملين لواء المبادىء العالية حافظين كرامة الاخلاق البشرية مفعمين القلوب بكل فضيلة محببين أليها كل شريف

(1) Michelet's History of Rome, p. 374.

والاخلاق الممثلة فى الفكر والعمل خالدة باقيـة وآراء العظيم تحل فى نفوس الرجال قرونا حتى تصير جزءا من طبائعهم يظهر كل حين فى أقوالهم وأفعالهم وتبقى مدى الدهر تخاطب من الرمس أناسا جاءوا بعدها بآلاف السنين وتؤثر فيهم بسلطانها الا ترى أن موسى وداود وسليمان وأفلاطون وسقراط وزِنُفُن وسِنِيكا لا يزالون يخاطبوننا من بطون قبورهم لا يزالون يستوقفون النظر و يؤثرون فى الاخلاق وان وصلتنا أراؤهم وأفكارهم بلغات لم تنطق بها السنتهم ولم تعرف فى عصورهم قال ثيُدور باركَر أن فرداً كسقراط انفع لامة من كثير من الولايات أمثال كرولينا الجنوبية ثم قال أن تلك الولاية أن محيت من الدنيا لا يكون ماتركته من الفوائد مثل ماترك سقراط (١)

الا وأن كبار العاملين وعظماء المفكرين لهم الموجدون للتاريخ فى الواقع فما التاريخ الا مافى المجتمع الانسانى من آثار القادة ذوى الاخلاق من الملوك ورؤساء الاديان والفلاسفة والسياسيين والوطنيين. أولئك هم أعيان الناس وأشراف الرجال قال كرلَيل ما التاريخ العام الا سير العظماء من الناس فهم عنوان الحياة القومية وهم بنفوذهم الجزء الفعال فى الامة نعم لعصرهم نصيب من التأثير فى عقولهم

---

(١) بلغ من أجلال أرسمس سقراط ان قال فيه اذا تأملت حياته وتعاليمه كدت أعده قديسا وادعوه أيا سقراط اشفع لنا

ولكنهم مع ذلك عامل قوى فى أيجاد العقل العام ، بافعالهم الشخصية يتأثر نظام الامة ، تجول بعقولهم الافكار السامية فتنتشر وتوجد الحوادث ، هكذا ابتدأ الاصلاح الدينى فصدع قيود العقل ونجمت عنه حرية الفكر قال امِرسُن ان كل سنة ومذهب أثر لعظيم من ذلك الاسلام ومذاهب كَلفين ولُيولا ونُكس و وِزلى وكلرِكسن.

والعظماء ينقشون افكارهم على عصورهم وأممهم كما فعل لوثر بالدولة الالمانية الحالية وكما أثر نكس فى اسكتلندا [1] ولئن كان من بين رجال أيطاليا رجل أثر فى أمته اكثر من غيره فهو دَنتى فقد كانت كلماته الحماسية هدى للمخلصين من رجال أمته أثناء العصور

---

(١) الفضل والمجد لكل شجاع مخلص والفضل كل الفضل لجن نكس ذاك الذى كان من أشجع الشجعان وأصدق الصادقين وأخلص المخلصين ذاك الذى كان ينادى بتعليم الناس ورفع غشاوة الجهل عن قلوبهم فى زمن كان فيه هو وأصحابه يلتمسون الخلاص مما أحاط بهم من القلاقل والاضطراب ذاك الذى لم يكن نداؤه بتعليم الناس الا جزءاً صغيراً من دعوته الكبرى التى أراد بها أن يعرف الناس أقدارهم ويعلموا ان الله خلقهم ليعملوا ثم يحاسبهم على أعمالهم وقد بث هذه الدعوة بروح عالية وعزيمة ماضية فلباه الناس واعتقدوا فى قوله وهذا عمل عظيم له نتائج جليلة وان بلاد اولد فيها نكس لا يغيض فيها ماء التفكير ولا ينضب معينه لانها بلاد بلغت أشدها ورسخ فيها الفكر والرجولية فأصبحت قابلة لكل ما تصل اليه قوى البشر أجل ان أخلاق أهل اسكتلندا تولدت عن عوامل كثيرة ولكن من أقوى تلك العوامل الاصلاح الدينى الذى نادى به جن نكس

Carlyle's 'Miscellanies' , iv.118

الطويلة التى كانت فيها الامة الايطالية منحطة خاملة وكان ينادى بحرية أمته ويستهين فى سبيلها الاضطهاد والنفى والموت ، كان اكبر شعراء أيطاليا نفوذاً وأحبهم الى الامة وكان شعره اكثر الشعر انتشاراً ، مذ مات أخذ المتعلمون من الايطاليين فى حفظ أشعاره فسرى اليهم ما فيها من العواطف العالية ثم مالبثت تلك العواطف أن أثرت فى تاريخ الامة الايطالية بأسرها، كتب بيرُن [1] عام١٨٢١ يقول أن الايطاليين الآن يتكلمون بدنتى ويكتبون بدنتى ويفكرون ويحلمون بدنتى وقد وصل بهم الغلو فى ذلك الى درجة تدعو الى السخرية لولا انه اهل لاعجابهم به [2]

---

1 Moore's Life of Byron, 8 vo ed. p. 484.

وكان دنتى مصلحا دينيا سياسيا وقبل انتشار الاصلاح الدينى فى اوربا بثلاثة قرون كان يدعو الى الفصل بين السلطانين الملكى والدينى ويصرح بأن استحواذ البابا على السلطان الملكى تجاوز لحدود سلطانه واغتصاب لسلطان غيره وقال منذ خمسمائة وستين عاما ونيف هذه الكلمات الخالدة أنى أجد كل قانون الهى فى جديد العهدين وقديمهما ولكنى لا أجد فيهما ما يخول طائفة الكهنة الحق الملكى بل اجد الكهنة المتقدمين قد حرموه قانونا والمتأخرين قد حرموه بأمر المسيح اه

2 De Monarchiâ, Lib.iii cap.xi

ويقول دنتى قبل الكنيسة العهدان القديم والجديد وبعد الكنيسة التقاليد فينتج اذن ان سلطان الكنيسة غير تابع للتقاليد بل التقاليد هى التابعة للكنيسة وهو بقوله هذا سباق الى المذهب الاساسى فى اصلاح الكنيسة

ولقد كان كثير من ذوى الصفات العالية فى عصور مختلفة عونا على تكوين اخلاق الامة الانجليزية بمثالهم الحسن وربما كان اكثر هؤلاء نفوذاً رجال عصرى اليزبيث وكرمول وما بينهما ومنهم شكسبير ورلى وسدنى وبيكن وملتن وهربرت وهمبدن وبم وأليت وكرمول وكثيرون غيرهم ومن هؤلاء من كان عظيم القوة ومنهم من كان عالى النفس نقى الاخلاق وقد صارت حياة هؤلاء وأمثالهم قطعة من حياة انجلترا وتعتبر آراؤهم وافعالهم من خير ما تركت لنا الازمان الغابرة

وأن أعظم ماترك وشنجتن لامته مثال الحياة النقية الخالية مما يشين ترك لامته منه مثالا للاخلاق العظيمة الخالصة الشريفة فكان لها نموذجا تحكيه فى الزمن الآجل ولم تكن عظمته مبنية على ذكائه أو مهارته أو عبقريته بقدر ما كانت مبنية على شرفه واستقامته وصدق عزيمته وادراكه لمعنى الواجب وبالجملة على شريف اخلاقه وحميد خصاله

أمثال هؤلاء الذين ذكرنا هم الروح الحقة فى الأمم أولئك دعائم أممهم والرافعون من شأنها هم معزوها والذابون عنها هم غامروها بالعظمة بما تركوا لها من أعمالهم واخلاقهم التى يقتدى بها ، قال أحد البلغاء ان ذكرى العظماء واسماءهم حق لامتهم وملك لها مقدس لا يسلبها اياه فقد رجالها ولا يضيعه انتساخها ولا يودى به استعبادها حتى اذا ما اخذت حياتها القومية فى النهوض هب

اولئك العظماء من مراقدهم ووقفوا فى ذاكرة رجالها فخالهم الاحياء وقوفا بينهم مشرفين عليهم يزاولون اعمالهم ويستحسنون فعالهم ولن تضيع امة تشعر بان عليها رقيباً من هؤلاء فهم مصلحو الارض احياء وامواتاً، لابنائهم الحق فى ان يأتوا بما اتى به آباؤهم الاولون ومثالهم فى بلدهم حاث لاينى ومشجع لايكل لمن له روح تدفعه الى ان يحذو حذوهم (١)

على ان العظماء ليسوا وحدهم بالذين يعتد بهم فى تقدير صفات الامة بل لابد من ان يعول فى ذلك على صفات السواد الاعظم من ابنائها، لما زار وشينجتن ارفنج سير ولتر سكت قدمه الى كثير من اصدقائه ومحبيه ولم يقف فى ذلك عند اصحاب الأملاك فى قريته بل تعداهم الى العملة والفلاحين ثم قال قصاراى ان اريك قومى وما هم عليه من البساطة اذ لاتعلم اخلاق الامة من ابنائها المهذبين ورجالها المثقفين ونسائها الراقيات فأنك تصادف هؤلاء فى كل مكان وهم متشابهون فى كل امة اهـ واذا كان السياسيون والفلاسفة ورؤساء الاديان يمثلون القوة المفكرة فى المجتمع الانسانى فأن ارباب الصناعات والعمال يمثلون القوة الحيوية والدعامة القوية فى الامة ومنهم تتكون روحها وقوتها

---

(1) 'Blackwood's Magazine', June, 1863, art. : Girolamo Savonarola.

وللامة اخلاق تحافظ عليها كما يحافظ الفرد على اخلاقه واذا كان كل الطبقات فى الحكومات النيابية شركاء فى القوة السياسية فالاخلاق القومية تتوقف بالضرورة على الصفات الادبية للسواد الاعظم من الامة اكثر من توقفها على اخلاق النخبة القليلة من ابنائها ويدل على اخلاق الامة اخلاق افرادها فاذا لم يتحلوا برقى نفوسهم وبالصدق والامانة والفضيلة والعزم استخفت بهم الامم واصبحوا ولا قيمة لهم فى الوجود ولا بد لهم اذا رغبوا فى الاخلاق من تهذيب نفوسهم وضبطها واخلاصهم فى اداء واجبهم واجلالهم مايستحق الاجلال

اما الامة التى لاتدين بغير الهوى ولا تعبد سوى الدرهم فأمة حادت عن جادة الصواب وضلت الطريق السوى ولعبادة الاوثان خير من عبادة هذين فأقل مافى الاوثان انها تمثل الفضائل البشرية وانها شىء يتطلع اليه

والحكومات وان حسنت فى ذاتها لاتجدى غير قليل نفع فى حفظ كيان الاخلاق القومية بل الدليل على مبلغ الامة من الاخلاق القومية الافراد وما يدب فى نفوسهم من الروح العالية فأن الهيئة الحاكمة ليست عادة بأحسن حالا من الهيئة المحكومة ولا يكون حكم الامة عادلا شريفاً الا اذا كان السواد الاعظم من افرادها حر الضمير سليم الاخلاق والعواطف

اما اذا كان سواد الامة فاسداً غير طاهر القلب لا ينظر الا الى مصالحه الخاصة به ولا يعرف الحق ولا يذعن لناموس شرعى معروف فانذر الامة بالرسف فى قيود الذل تحت شرير يقود زمامها أو حاكم مستبد يصيرها فى يده آلة صماء

الحصن المنيع والحاجز القوى دون بغى الرأى العام سلامة الاخلاق وحرية الافراد المصحوبة بنور العرفان والبصيرة وان فقد هاتان فى امة فليس فيها شىء من الشهامة الحقة والحرية الصحيحة، لا ترفع الحقوق السياسية مهما اتسع نطاقها امة انحط أفرادها وفسدت اخلاقهم بل كلما اتسع نظام الانتخاب واستكمل نفوذه ظهرت الاخلاق الحقيقية للأمة فى قوانينها و فى حكومتها ظهوراً بيناً كما تظهر المساوية مايقابلها من الاشياء ولن تدوم الفضائل السياسية اذا ما قامت على أساس من افراد خلو من الفضائل والحرية فى ايدى اقوام انحطت صفاتهم منبع للاذى والقلق والاضطراب كما ان حرية الصحافة فى ايدى من لا خلاق لهم باب للسفاهة وفساد الآداب وفظاعة الاخلاق

والامم كالأفراد لها قوة وعون من شعورها بأنها من قوم ذاع صيتهم وعلا ذكرهم ومن احساسها بأنها وارثة عظمتهم وادراكها انه يجب عليها تخليد مجدهم وانه لمن الضرورة

بمكان أن يكون للأمة ماض عظيم تنظر اليه [1] فذلك يثبت من حاضرها ويرفع من قيمته ، ويعلى شأنه ، ويضىء أرجاءه لما فيه من ذكرى عظيم الاعمال ، وشريف الآلام ، وشهامة من مضى من الرجال ، فما حياة الامم والافراد الا كنز من التجارب والخبرة متى حسن استعماله كان من ورائه رقى حالها وتقدم شئونها ، وان ساء فآل ، وأضغاث أحلام ، وخيبة آمال ، والامم كالافراد تهذبهم الحادثات ، وتشد أزرهم الملمات أبهى جزء من تاريخهم ما تضمن آلامهم التى قومت من أخلاقهم أجل قد يكون لحب الحرية وللشعور الوطنى أثر كبير ولكن الخطوب والآلام ان حسن احتمالها فتأثيرها أكبر وتهذيبها أنجع

ما كثير مما يقال له الوطنية الا ضعف فى العقل ، وخرق فى الرأى ، وتطرف لا معنى له ، وتهور على غير جدوى ، ووطنية تظهر فى التحامل والصلف والحقد ، ووطنية لا تعرف العمل ،

---

(١) كتب دكتور أرنلد فى مفكرته اليومية يقول من سوء حظ فرنسا أن ماضيها لايحب ولايبجل فلا يلتئم حاضرها ومستقبلها معه وكيف يجنى الخير من الحاضر أو يركن الى المستقبل اذا لم يقوما على أساس من الماضى هذا عيب فاحش ولكن العار كل العار على أولئك الذين أماتوا الماضى فلم يكن سبيل الى ان تستخلص منه حياة صحيحة اهـ

Life,ii.387 - 8 ed. 1858.

وطنية كلها تفاخر وتظاهر ، لا ترى فيها غير « صخب ولجب ، وضوضاء وجلبة، وهيعات مضطربة » وصياح وعويل، واستغاثة يأس ، ودعاء قنوط ، وطنية كل ما فيها رفع أعلام ونشيد أغانى والحان ، وطنيـة لا يألو أربابها جهداً فى تحريك آلام سكنت وهفوات أصلحت ، الا ان من أشد مصائب الامم أن تمنى بوطنية هذى حالها

واذا كانت هذه وطنية كاذبة فان من الوطنية ما هو صادق ، الوطنيـة التى تنشط الامة من عقالها وتدعو أبناءها الى الرقى بالعمل الصالح، الوطنية التى تدعو الامة الى القيام بالواجب بشهامة وكرامة ، الوطنيـة التى تنادى فى أهلها بالاخلاص والرزانة والاستقامة وتدعوهم الى الانتفاع بمـا يعرض لهم من ضروب الاصلاح ، الوطنية التى تعلم أبناءها كيف يذكرون ما فعل العظماء من الماضين الذين اكتسبوا عظمة لا تمحى بمـا عانوا الصعاب فى سبيل الدين والحرية وأكسبوا أممهم حياة طيبـة وحكومات صالحة كانت حقاً لهم وميراثاً

هذا ولا يحكم على الامم بحجمها كما لا تعرف قيمة الرجل بضخامة جسمه وعظيم بدنه وليس الاتساع ضرورياً لعظمة الامة وان التبس الاتساع بالعظمة ، فقد تكون الامة متسعة الارجاء متنائية الاطراف كثيرة السكان ثم تكون خلواً من العظمة ولقد

كان بنو اسرائيل أمة قليلة العدد فلم يحل ذلك دون عظمتهم وسلطانهم وأثره فى مستقبل الجنس البشرى بأسره ولم تكن اليونان متسعة الارجاء وكانت أتينا أقل سكاناً من نيويورك فلم يحل ذلك دون عظمتها فى الفنون والآداب والفلسفة والوطنية[1]

انما أودى بأتينا جهل أبنائها قيمة الحياة البيتية واربا عبيدها على أحرارها ، كان رجالها ضعيفى الآداب ان لم نقل كانوا فاسديها كما كان نساؤها حتى أكثرهن فضيلة عطلا من العفة فحق عليها السقوط وكان سقوطها أسرع من ارتقائها

وهكذا اضمحلت رومة ثم لحقها الدمار لما عم ابناءها فساد الاخلاق واستولى عليهم حب اللهو والخمول حتى كانوا فى أواخر أيامهم يرون العمل لا يليق الا بعبيدهم ، أمسك أبناؤها عن التحلى بما تحلى به آباؤهم الأولون من فضائل الخصال فسقطت الدولة ولم تكن أهلا للبقاء وهكذا تسقط الامم الخاملة المنهمكة فى اللذات الراتعة فى بحبوحة الترف والتى تستنكف العمل

---

(١) قام منذ عهد قريب أحد الخطباء فاظهر الاستخفاف بوقعة مرتن بحجة ان أهل أتينا لم يقتل منهم فيها سوى ١٩٢ على حين ان تقدم العدد والاجسام المدمرة جعل من المستطاع فى الحروب الحديثة ان يدمر نحو الخمسين الفاً فى بضع ساعات

ولكن وقعة مرتن قد يبقى ذكرها وذكر ما ابدي المقاتلة فيها من ضروب البسالة حين يكون النسيان قد اتى على مجازر الاعصر الحديثة

الصالح ، تسقط لا محالة ويخلفها فى عظمتها الامم الحية العاملة

سأل لويس الرابع عشر وزيره كُلْبير قال كيف لا أستطيع وأنا ملك فرنسا وهى الدولة العظيمة الكثيرة السكان أن أغزو هُلَندا وهى الأمة الصغيرة فأجابه ليست عظمة الأمة يا مولاى باتساع أرجائها وبعد نواحيها وتنائى أطرافها انما عظمتها بأخلاق أبنائها وما أقعدك عن هذه الأمة يا مولاى الا ما أتصف به أبناؤها من الكد والتدبير والهمة

وروى عن رجلين أنفذهما ملك أسبانيا لعقد معاهدة بالهاى عام ١٦٠٨ أنهما رأيا نحو الثمانية الاشخاص أو العشرة وقد خرجوا من زورق فافترشوا الارض وأخذوا فى تناول طعام بسيط فسألا أحد القرويين عنهم فأجاب هؤلاء سادتنا مندوبو الولايات فهمس أحدهما فى أذن صاحبه أن لا بد من عقد الصلح فان هؤلاء قوم لا يغلبون

ومجمل القول أن سلامة الحكومات تتوقف على سلامة الاخلاق ولن تتكون أمة عظيمة من أفراد فاسدى الاخلاق بل قد تلوح عليهم آثار الحضارة والرقى ولكنهم لا يلبثون أن يتلاشوا متى صادفتهم عقبة أو غشيتهم شدة ولن يكونوا ذوى قوة حقة ورابطة متينة وسلامة صادقة الا اذا اتصف كل فرد منهم بالصفات الجميلة والخصال الحميدة والاخلاق الفاضلة ،

وقد يكونون مثرين وذوى دعة ورقة وهم على شفا جرف هار واذا لم يعيشوا لسوى أنفسهم ولم يكن لهم الا التنعم غاية فأمتهم مصيرها للفساد ولا مندوحة لها عن تقلص الظل والسقوط ومتى أصبحت الاخلاق القومية فى غير ما يجب لها من المنزلة اعتبرت الأمة فى حيز الانتساخ وليست الأمة وقد حرمت فضائل الصدق والأمانة والاستقامة والعدل بأهل للبقاء ولو رزقت بعض أفراد مخلصين يريدون تداركها وقد دمرت الثروة أبناءها وأفسد اللهو خصالهم وأولعوا بالمشاغبات وأصبح الشرف والنظام والطاعة والفضيلة فى زوايا النسيان وفى عداد الماضى لم يبق لأولئك الافراد وبعضهم يلتمس أيدى بعض فى تلك الظلمة أمل فى ارجاع أخلاق الافراد والرفع من شأنها فذلك المنقذ الوحيد للامة أما ان فسدت الاخلاق ولم يبق رجاء فى اصلاحها فلم يبق للامة شيء تحرص عليه

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قوة البيت

قال نابليون بُنَبّرْت فى خلال حديث له مع السيدة « كمبن » أنى أرى طرق التربية قليلة الجدوى فما الذى ينقص الناس لتصح تربيتهم فأجابته « الامهات » فنال هذا الجواب استحسان الامبراطور ثم قال أجل هذه طريقة تربية فى كلمة واحدة فليكن همك اذن تدريب أمهات خبيرات بتربية أبنائهن

إمى مَرتن

ربنا ما أجل نعمك التى أسبغتها علينا جعلت لنا أهلا يقومون بشئوننا ومعلمين يؤدبوننا ويثقفون عقولنا

جورج هربرت

البيت أول معاهد الاخلاق وأجلها خطراً وفيه يحصل الانسان جلّ نصيبه من التربية الادبية صحيحها أو فاسدها ويكتسب من أصول الاخلاق ما يلازمه أيام الرجولية ولا ينتهى الا بانتهاء أجله ، من مأثور الحكم الانسان بآدابه ومنها الانسان بعقله وأقرب من هاتين الى الصواب أن يقال الانسان ببيته فالتربية البيتية لا تقف عند الآداب والعقل بل تتعداها الى الاخلاق وفى البيت يستنير القلب وتكوّن العادات ويفتق الذهن وتهيأ الاخلاق اما للخير واما للشر

البيت حسن أو قبُح ، طَهُرَ أو دَنُس ، منبع للاصول والنواميس التى يخضع لها المجتمع الانسانى لان ما يبث من الآراء فى أذهان الاطفال قبل أن تخوض غمار الحياة وتدخل فى معتركها يظهر للعالم فيما بعد ثم يصير رأياً عاماً لان الامم مجمع من أهل البيوت ولربما كان القابضون على أزمة الاطفال أقوى سلطاناً وأعظم نفوذاً من القابضين على أزمة الحكومات(١)

اقتضت سنة الكون أن تكون الحياة البيتية مقدمة الحياة

---

(١) قال جول سمن أن الفضائل العامة ان لم يكن أساسها الفضائل الخاصة البيتية لأشبه شيء بالفضائل فى دور التمثيل وليس بمحب للانسانية من لم يك محباً لابنه

Jules Simon's 'Le Devoir'

الاجتماعية وأن تكون التربية الاولى للعقل والاخلاق فى البيت حيث ينظر فى شئون الافراد الذين سيكون منهم المجتمع الانسانى كل على حدته وحيث تكون طباعهم فرداً فرداً ثم يخرجون من بين أهلهم الى معترك الحياة ويرقون من زمن الطفولة الى زمن يكونون فيه رجالا للامة ومن هنا يصح أن يعتبر البيت أعظم معاهد الحضارة تأثيراً فما الحضارة بعد الا تهذيب الافراد وبقدر تربية أعضاء المجتمع فى صغرهم يكون مبلغ الامة التى تتكون منهم من الانسانية والحضارة

لا مندوحة للمرء مهما بلغ من العقل والحكمة عن أن يتأثر بالبيئة التى ينشأ فيها فهو انما يخرج الى الوجود ضعيفاً يعتمد فى تربية جسمه وعقله على من حوله وتبتدئ تربيته متى شرع يستنشق هواء هذا العالم ، سألت أم رجلا عن الوقت الذى يجب عليها فيه أن تبدأ بتربية ولدها وكان ابن أربع فقال أيتها السيدة انك ان لم تكونى قد بدأت فى تربيته فقد أضعت الأربعة الأعوام هذه لأنه يجب أن يبدأ بتربية الطفل متى لاحت على وجهه سيمى الابتسام اه على أن تربية الطفل تبتدئ قبل ذلك فانه يكاد يتعلم بمسام جلده بمجرد التقليد ومن غير عناء ومايحدث حول الاطفال من الافعال أعظم معلم لهم

والمؤثرات المختلفة التى تساعد على تكوين أخلاق الطفل

تلازمه طول الحياة مهما كانت تافهة لان أخلاق الطفل أساس أخلاق الرجل وليس ما يعقبها من التربية الا بناء على هذا الاساس دون أن يطرأ عليه شئ من التغيير ومن هنا تظهر صحة قول الشاعر ما الطفل الا والد للرجل أو كما يقول ميلتن انما يدل على الرجل الطفل كما يدل على النهار الصبح اه وما ذلك الا لأن أطول الاخلاق مكثاً وأرسخها فى النفس أقربها من عهد المولد اذ ذاك يتمكن من جراثيم الفضائل والرذائل والاحساس والعواطف ما يؤثر فى الاخلاق طول الحياة

يوضع الطفل على باب عالم جديد ويفتح عينيه فيرى أشياء كثيرة ملؤها الجدة والغرابة فيكتفى فى بادئ أمره بفتح عينيه دون أن يدرك شيئاً ثم يتدرج الى النظر والملاحظة والمقارنة والتعلم وادخار الافكار وان استعمل العقل والحكمة فى ارشاده كان تقدمه غريباً مدهشاً ولقد ذهب لورد بروم الى أن الطفل بين سنى ثمانية عشر شهراً وثلاثين شهراً يعلم من الماديات ومن قواه ومن طبيعة الأجسام ومما يتعلق بعقله وعقل غيره أكثر مما يعلم فى كل ما بقى من حياته ولو تخيلنا زوال ما يجتمع لدى الطفل وما يحدث فى عقله من الفكر فى تلك المدة لكان علمه بعدها مهما عظم قليل الجدوى فان العقل فى زمن الطفولة يكون أكثر قبولا للمؤثرات يلتقف الفكر فترسخ فيه وتدوم ، قيل

أن أول ما وجه سير وُلـْتَـر سكـُتْ الى الادب ما كان يسمع من أمه قبل أن يتعلم القراءة ، فكأن زمن الطفولة ماوية تصف ما يلقى اليها ثم تظهره فيما يأتى بعدها من ازمنة الحياة هذا وان أول شيء يعرض للطفل يبقى معه فيمثل مقدمة حياته أولُ ما يعرض له من فرح وحزن وأول نجاح صادفه وأول حبوطه فى مسعى وأول عمل وأول كارثة وبينما تحدث له هـذه الامور تكون أخلاقه آخذة فى النمو فتتكون طباعه وارادته وعاداته وهى الأشياء التى يترتب عليها جل سعادة الانسان

وتأثير البيئة فى الايام الاولى من الحياة عظيم على الرغم مما ركب فى طبيعة المرء من قوة العمل ومن القدرة على تربية نفسه مستقلا عما حوله من المؤثرات وبالرغم مما فيه من قوة التأثير فى حياة من حوله واذا كان أرقى الفلاسفة عقلا ينجذب نحو الفظاظة والشراسة والوحشية أن وجد فى بيئة كلها قلق وشر وانحطاط أخلاق فما بالك بالطفل على سرعة تأثره وقصر باعه وانه لمن المحال أن تنمو بين الفظاظة والقلق والخبث طبيعة نقية طاهرة تدرك معنى الشفقة وتشعر بالشر

وأعلم ان البيوت وهى مضاجع الاطفال الذين سيصيرون رجالا ونساء تحسن أو تسوء تبعاً للقوة الحاكمة فيها فمتى كانت روح المحبة والواجب سائدة فى البيت ومتى حسن سلطان العقل

والقلب فيه ومتى كانت الحياة فيه شريفة مقرونة بالفضائل ومتى كان السلطان فيه منبعثاً عن الشعور الحسن والشفقة والمودة رجى منه تخريج أناس سعداء سليمى الجسم والعقل يؤمل فيهم الخير ويستطيعون اذا شبوا اقتفاء آثار آبائهم فى الاستقامة وتدبير شئونهم بعقل وحكمة ويساعدون على تحسين حال من حولهم

أما أن أحاط بهم الجهل والخشونة والاستئثار فقد تطبعوا بتلك الطباع غير شاعرين وشبوا غليظى القلوب قليلى التربية وكانوا خطراً على المجتمع ولا سيما ان عاشوا عيشة الحضارة على ما فيها من المغريات بالشر قال يونانى قديم ادفع ابنك الى عبد يعلمه يكن لك بدل العبد عبدان

والطفل بفطرته مدفوع الى تقليد ما يقع تحت نظره فالآداب والحركات والكلام والاخلاق التى تكتنفه كلها عنده نماذج يحكيها ويقتبس منها قال رشتر أخطر أدوار الحياة الطفولية ففيه يبدأ الطفل يتشكل بأشكال من يخالطهم وكل مرب أقل أثراً من المربى الذى قبله فاذا اعتبرنا الحياة كلها معهد تربية كان تأثير الامم فيمن يطوف الارض بأجمعها أقل من تأثير مرضعه فيه اه[1] فالانموذج اذن عظيم الأثر فى تكوين طبائع الطفل واذا رغبنا

(1) ' Levana ; or, The Doctrine of Education. '

فى ايجاد أناس حسنت أخلاقهم فقد لزم أن نضع أمامهم أنموذجاً حسناً والانموذج الملازم للطفل هو أمه

قال جوورج هربرت ان أما صالحة خير من مائة معلم والأم فى البيت دليل للقلب والعين والتشبه بها دائم والتشبه كما قال بيكن عالم من النصائح بل القدوة أقوى من النصيحة لأنها تعليم بالفعل ، تعليم بلا قول ، وهو أقوى تأثيراً من التعليم بمجرد الكلام فان خير النصائح لا يفيد متى قرن بالقدوة غير الحسنة بل النصيحة أن ناقضت العمل كانت أضر من عدمها لأنها فى هذى الحال لا تعلم سوى النفاق وهو أقبح الرذائل والاطفال يفطنون لما فيمن حولهم من جد ولهو فهم لذلك يدركون قيمة نصائح الوالد الذى يقول ما لا يفعل والذى مثله كمثل ذلك الراهب الذى وقف وفى ردنه طائر سرقه يحث على الامانة ويأمر بالتحلى بها فلم تكن لوعظه قيمة

ينتهى تقليد الطفل أعمال غيره الى تكوين أخلاقه وان كان ذلك التكوين بطيء السير غير محسوس نعم قد تكون هذه الاعمال على انفرادها تافهة ولكن أعمال الحياة المعتادة تافهة كذلك فهى كقطع الجليد يتكوّن باجتماعها جرف الثلج على صغرها وهكذا تصير الاعمال بتكرارها عادة تسوق المرء الى فعل الخير أو الشر أو قل تكوّن أخلاقه

وانما كانت الأم فى البيت أكبر شأناً من الأب لما لها من التأثير فى أعمال الطفل والسيطرة على أخلاقه وليس من الصعب تعليل ذلك فالبيت مملكة للام ولها عليه كل السيادة كما أنها الحاكم المطلق لما فيه من الرعايا الذين يلجئون اليها فى كل أمر صغيراً كان وكبيراً وهى الانموذج الذى لا يفارقهم والقدوة التى بها يتشبهون غير شاعرين

شبه كُولى ما يرى المرء من الافعال فى مبدأ حياته وما يبث فى ذهن الطفل من الآراء بحروف نحتت فى صغير الاشجار تنمو وتتسع كلما تقادم العهد ولا تمحى مهما تناهت فى الصغر والآراء التى تبث فى ذلك العهد كالحب ألتى فى الارض تختبىء زمناً ثم تظهر فى أفعال الطفل وفى آرائه وعاداته ولذا تجد حياة الام تتجدد فى أبنائها لانهم يتشبهون بآدابها وكلامها وسيرها وأساليب معيشتها فتصير عاداتها عاداتهم وأخلاقها أخلاقهم

ومن هنا كان حنو الامهات أثراً من آثار رحمة الله بعباده ومظهراً من مظاهر عنايته بهم وكان له تأثير دائم عام ، يبدأ هذا الحنو بتهذيب الانسان وهو على باب حياته ثم يبقى فعالا لما لكل أم صالحة من التأثير القوى فى أبنائها الذين يلجئون اليها لتخفف ملة آلامهم ان لم تبدلهم ما يفيدهم من النصائح اذا خاضوا غمار الحياة وأخذ كل منهم يعانى نصيبه من صعب أعمالها وشديدها

آلامها وعظيم كوارثها واذا ماتت هذه الأم بقى فى أذهان أبنائها ما غرست فيهم من الآراء السليمة وظهر فى أعمالهم وظلوا يذكرونها بكل خير

وليس من الغلو أن يقال أن سعادة هذا العالم وشقاءه وعلمه وجهله وحضارته ووحشيته متوقف على ما للام من التـأثير فى البيت ولقد أصاب إمرسُن فى قوله أنما يعلم مقدار الحضارة فى الامة بما لامهاتها الصالحات من التأثير والمنزلة فيها ام ولا غرو فانما الطفل فى حجر أمه يمثل المستقبل ومصير هذا الطفل متوقف على ما يكتسب من تربية أمه وهى أول معلميه وأكبرهم تأثيراً

الرجل عقل الانسانية والمرأة قلبها ، هو حكمتها وتمييزها وهى جمالها وزينتها ورحمتها لذلك نرى ادراك أعقل النساء يتأثر بحبها واذا كان الرجل يهدى العقل فان المرأة تربى الشعور والعواطف وهما اللذان عليهما المعول فى تكوين الاخلاق وبينا هو يسكن العقل اذا هى ثاوية فى القلب ، وان استطاع أن يحملنا على الاعتقاد بشىء فان فى استطاعتها أن تحملنا على حب هذا الشىء وبها نستطيع الوصول الى الفضائل

تمثل حياة القديس أُجَستِن تمثيلا جلياً ما لكل من الاب والام من الاثر فى تهذيب الاخلاق وتكييفها ذلك أنه بينما كان أبوه لاعجابه بقوى ابنه العقلية يسعى على فقره فى أن يكسب عقله

أجمل ما يلقن بدور العلم ومجده عارفوه لتحمله فى هذا السبيل ما لا قبل له به كانت أمه لا تألو جهداً فى هدايته سبل الخير فجعلت تعظه مرة وتستميله وتأمره بالعفة أخرى ولم يمنعها ما أحاط بها من المصاعب ولا ما نزل بها من الشدائد من الدعاء له وما زالت كذلك حتى أجيبت دعواتها وفاز حبها وكوفئ صبرها وصلاحها بهداية ابنها وزوجها ولما مات أبوه دعاها حبها أن تذهب الى حيث أقام ابنها لتكون عليه رقيباً وما زالت ملازمة له حتى انتهى أجلها وهو ابن ثلاث وثلاثين وانما أثر فى عقله وأخلاقه ما لقى من ارشادها وما اكتسب من التشبه بها فى الجزء الاول من حياته

ومثل هذه الحادثة كثير يؤيد أن ما يبث فى ذهن الطفل من الخير قد يتحول فيما بعد الى أعمال صالحة وان سبق هذا التحول فترة كلها شر وقد يبذل الآباء قصارى جهدهم فى أن يغرسوا الخصال الحميدة فى أبنائهم دون أن يظهر لهم سوى حبوط مساعيهم حتى كأنهم ينقشون على الماء لكنه قد يحدث فى بعض الاحايين ان يكون لغرسهم هذا ثمر بعد مرور الاعوام الطوال ولو بعد مفارقتهم هذا العالم

ومن أشهر هذه الحوادث ما كان من أمر جُنْ نيوتُن حميم الشاعر كَوْبرَ فانه بعد موت والديه وبعد أن قضى شبابه فى الشر هب من سباته وأفاق من غفلته وشعر بما كان عليه من الفساد ،

اذ ذاك ذكر ما لقنته أمه وهو فى زمن الطفولة فكأن صوتها انبعث من الرمس وراجعه برفق الى الفضائل والخير

وهكذا كانت حال جُن رَندلْف القائل لولا ذكرى الوقت الذى كانت تأمرنى فيه أمى وأنا طفل بالصلاة لكنت اليوم ملحداً بيد أنه يجب أن تعتبر هذه الحوادث استثنائية لان الاخلاق تبقى كما كانت فى أول الحياة ولا تزال ترسخ وتثبت كلما مرت السنون قال سَوْذِى مهما طال العمر فان العشرين حولا الاولى أطول شطر من الحياة اه ولا غرو فالعشرون سنة الاولى أكثر سنى العمر حوادث سئل أحد من قضوا حياتهم فى الشر والترف وهو على فراش الموت عن أحب الاشياء اليه فقال عودة الشباب طلب أن يعوداليه شبابه ليعمل صالحاً غير الذى كان يعمل ولكن هيهات ان ينفع الندم وقد استحكم على حياته العادة [1]

بلغ من أجلال جِرترى المرأة وأدراكه قيمتها فى تهذيب الاخلاق ان قال ان الام الصالحة آية هذا العالم وقد أصاب فان الامهات الصالحات دائبات على احياء الجنس البشرى موجدات

---

(١) وصف القديس اجستن فى اعترافاته قوة العادة قال جمحت أرادتى ولم يعد لى على نفسى سلطان فصرت أسيراً فى السلاسل والاغلال ، تمالكنى الهوى وأطعته فانقلب عادة ولم أقاوم العادات فصارت عندى من الضروريات ومن هذه الحلقات اتخذ الشيطان لى وثاقاً أحكم شدة فلم استطع منه خلاصاً

للجو الأدبي بالبيوت وهو غذاء لروح الانسان كما أن الجو الطبيعي غذاء لجسمه والمرأة اذا كانت حسنة الخلق رقيقة الشعور رءوفة لها نصيب من الحكمة والفطنة احاطت القاطنين بالبيت بجو من الانشراح والقناعة وراحة البال وهي الاشياء التي تنمو بها أنقى الطباع وأكثرها شهامة

وان أحقر البيوت ان تولت رياسته امرأة مدبرة بشة كان ملؤه الراحة والفضيلة والسعادة ، كان فيه أشرف الروابط البيتية ، كان عزيزاً لدى الرجل لما يستلزمه من دواعي السرور ، كان ملاذاً للقلب وملجأ من عواصف الحياة ، كان خير مأوى للراحة من عناء الاعمال ، كان في الشدة مسلياً وفي الرخاء فخراً وفي كل حال نعيماً

فالبيت الصالح اذن خير معاهد التربية وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والصبر وضبط النفس ويدرك روح العمل ومعنى الواجب قال آينزك ولتن في عرض كلامه عن أم جورج هربرت أنها ساست أهل بيتها بالحكمة لا بالشدة وباللطف لا بالعنف مع مراعاة مسرات الشباب مما حمل أهل بيتها على الرغبة في قضاء جل وقتهم معها فكان لتلك الرغبة لديها أحسن وقع

والبيت هو المعهد الحق لتربية الدعة والمرأة أحق معلميها ،

جاء فى بعض الامثال لولا المرأة لكان الرجال أشبالا ساء غذاؤها والبيت مركز تسطع منه الرحمة وينبعث عنه حب الخير والانسانية قال برك ان محبة الفئة القليلة التى نحن منها أساس للمحبة العامة ولم يستنكف العظماء ولا الحكماء أن يصرحوا بأن أقصى سرورهم ومنتهى سعادتهم الجلوس وراء رءوس الاطفال بين جدران بيوتهم ، والحياة الصالحة فى البيت خير ممهد للحياة العامة تكون كلها عملا وقياماً بالواجب ومن أحب بيته كان قمنا أن يحب أمته ويحسن فى خدمتها

وكما تكون البيوت وهى مهد الاخلاق خيرَ معاهد التربية قد تكون شرها فما أعظم الضرر الذى ينجم بين زمن الطفولة والرجولية عن الجهل السائد فى البيوت وما أكثر الآلام والامراض الأدبية التى تجرها الناقصات من الامهات والمراضع على المرء بين خروجه الى هذا الكون وخروجه منه ، الق بالطفل فى أيدى امرأة جاهلة تكن قد أسأت اليه اساءة وغرست فيه شراً لا قبل لك بمحوها مهما بالغت فى تهذيبه بعد زمن الطفولة ، اختر من الامهات الكسالى الاشرار ودع الشقاق والقلق والاضطراب تسود بالبيت يصبح داراً للشقاء ويكون محلا يفر منه لا ملجأ يؤوى اليه ومن ساء حظه من الاطفال

وربى فى بيت هذا حاله شب ناقص الاخلاق فكان وبالا على نفسه وعلى غيره

كان نابليون بنبرت يقول ان حسن أخلاق الطفل وقبحها اذا صار رجلا متوقف كل التوقف على أمه اهـ وكان نابليون نفسه ينسب جل رفعته الى ما كان من تكوين أمه لارادته وعزيمته قال أحد مترجميه لم يكن لأحد سوى أمه عليه سلطان وقد استطاعت بما مزجت من اللين والشدة أن تحمله على حبها واجلالها والنزول على حكمها ومنها تعلم فضيلة الطاعة

ومن الشواهد الغريبة على ان اخلاق الاطفال تابعة لأخلاق امهاتهم ما جاء فى تقرير بعضهم على معهد تربية قال أخبرت ان مديرى أحد المعامل الكبيرة التى يشتغل فيها كثير من الاطفال اذا ارادوا ادخال طفل فى معملهم سألوا عن أخلاق امه حتى اذا ما اهتدوا الى حسنها وثقوا بحسن سلوك ابنائها على انهم لم يكونوا ليوجهوا عنايتهم الى اخلاق الآباء اهـ [1]

ولقد شوهد أنه اذا ساءت حال الأب وألف معاقرة الخمر وكانت الأم بصيرة بأمورها بقيت الرابطة بين أهل البيت وربما

---

(1) Mr. Tufnell, in ‘ Reports of Inspecors of Parochial School Unions in England and Wales ’ 1850.

شب الأبناء على الكرامة أما اذا عكس الامر وساءت حال الام فنجاح الابناء فى الحياة نادر مهما كان مبلغ أخلاق أبيهم من الكمال

غير أن جل ما للنساء من الأثر فى تكوين الاخلاق يبقى مجهولا بالضرورة لانهن يقمن بجليل أعمالهن بين جدران البيت وفى أهله حيث يكن فى عزلة عن ضوضاء الحياة باذلات ما استطعن من الكد والمثابرة فى سبيل الواجب وقل أن يدون جليل أعمالهن لانها بيتية خاصة وقل أن يذكر فى تراجم العظماء ما كان لامهاتهم من الاثر فى أخلاقهم وهدايتهم سبل الخير وليس ذلك بواضع من قيمتهن ولا بحاط من قدرهن فان ما لهن من التأثير وان لم يدوّن يبقى بعدهن ولا تزال نتائجه تظهر الى الابد

وليلاحظ أنا لا نسمع بعظيمات من النساء كما نسمع بعظماء من الرجال ولكن نسمع بنساء صالحات محبات للخير ولو قدرنا ما لكل من النساء والرجال من فعل الخير لرأينا عمل النساء أجل من تصوير الصور العظيمة أو تأليف الكتب أو قرض الشعر قال جوزف دمِستر أن النساء لم يقمن بكتابة الكتب الضخمة ولا تأليف القصص العجيبة ، ولم يقمن ببناء المبانى الشاهقة ولم يصنعن تماثيل شهيرة ، ولم يصورن صوراً عجيبة ولم يوفقن الى مكشوف حديث أو اختراع جديد ولكنهن جئن بما هو أعظم

من ذلك نشأ فى حجرهن أولو الفضل من رجال ونسوة وهم خير ما أخرج لهذا العالم اه وذكر هذا الكاتب أمه فى مؤلفاته موفيها حقها من المحبة قائلا أن خصالها الحميدة عظمت كل النساء فى عينيه فكان يدعوها بأمه الفاخرة ويقول أنها ملك صوره الله فى صورة انسان فترة من الزمن وقد نسب اليها أخلاقه وميله الى فعل الخير

ولما كبر وأرسل سفيراً الى بطرس برج كان يشير الى تأثير أقوالها وأفعالها فيه

ومن أجل خصال صمول جُنْسُنْ تلك الرقة التى كان يذكر بها أمه (١) وكانت امرأة قوية الفكر بثت فى عقله أول ما عرف من مبادئ الدين كما كان يقر هو بذلك وقد كان فى أحرج مواقفه يعين على راحتها بما كان يبذل من ماله على قلته ومن أعظم ما فعل قياماً بواجبه نحوها أن كتب كتاباً ليؤدى ما عليها من الدين ويقوم بما تستلزمه جنازتها من النفقة

وكان جورج وشنجتُن ابن احدى عشرة حين مات أبوه وترك أمه أيما وكان وشنجتن أكبر خمسة من الاخوة وكانت

---

(١) راجع ما كتبه الى أمه فى ١٣ و ١٦ و ١٨ و ٢٠ و ٢٣ يناير سنة ١٧٥٩ وكانت قد بلغت التسعين وكان هو فى الخمسين

Croker's Boswell, 8vo ed.pp.113,114.

أمه امرأة عديمة المثل حاضرة البديهة حسنة التدبير جيدة الادارة قوية الاخلاق ، مات زوجها وترك لها أولاداً تعولهم وتربيهم وبيتاً تسوسه وضياعاً واسعة تديرها فقامت بكل ذلك خير قيام وساعدها على تذليل المصاعب عقلها وكدها ومثابرتها ودعتها وتيقظها وكان خير جزاء لها على كدها ونصبها أن ساعدها الحظ فعاشت حتى رأت جميع أولادها يخرجون الى معترك الحياة وعلى كل منهم سيمى النجاح ، رأتهم وكل يقوم بما عهد اليه قياماً يضمن الكرامة له وللام التي كانت مرشده الى سليم المبادئ والاخلاق والعادات (1)

ورأينا مترجم كرُمْوِل لا يذكر عن والده الا شيئاً يسيراً ولكنا نراه قد أسهب فى الكلام على اخلاق امه فوصفها بالنشاط وقوة العزيمة وقال انها كانت تعتمد على فكرها وتستعين بعقلها اذ لم تجد من غيرها معيناً ، كانت متأهبة لما يقتضيه سوء الحظ فى اصعب ادواره ، وأوتيت من الحمية والهمة بقدر ما أوتيت من الدعة والصبر ، واستطاعت بكدها ان تعد لبناتها الخمس ثروة اهلتهن لبعولة من بيوت مثلهن شرفاً واكثر منهن ثروة ، كانت لا تفخر بغير الإخلاص والامانة ولا تعرف من

---

(2) Jared Sparks's 'Life of Washington'.

العواطف سوى المحبة ثم حافظت فى قصر ابنها عند ارتفاع شأنه على ما كان من البساطة فى بيتها من قبل ولم يكن همها فى ذلك العز الا سلامة ابنها من الخطر المحدق به فى رقبته[١]

قلنا ان أم نابليون كانت قوية الأخلاق ولم تكن ام ولنجتن بأقل منها فى ذلك وكان قريب الشبة منها خلقاً وخلقاً أما ابوه فكان جل شهرته فى صناعة الغناء[٢] ومن الغريب ان أم ولنجتن كانت تعتقد فيه الغباوة ولم يكن له عندها ما كان لسائر أبنائها من المنزلة ولم تزل كذلك حتى حملتها فعاله فيما بعد على الفخر به

وكان من نعم الله على بنى نبير أن وهبهم أبوين صالحين الا أن امهم كانت خيراً من أبيهم ، سعت فى بث الآراء العالية فى عقول أبنائها وفى تعليمهم الاعجاب بجليل الاعمال وادراك روح الشهامة والاقدام فسرت هذه الخصال فى أعمالهم وحملتهم على السير فى طريق الواجب والشرف

أما فى السياسيين والفقهاء ورجال الدين فاننا نسمع بأمى بيكن وبروم وما كانتا عليه من المقدرة وما كان لام بيكن من الباع

(1) Forster's 'Eminent British Statesmen (Cabinet Cyclop.) vi.8.

(2) The Earl of Mornington, composer of Here in cool grot' etc.

فى العلم ونسمع باقتدار امهات كاننج وكرن والرئيس أدمز وهربرت وغيرهم وكان لوردبروم يذكر جدته بما يقرب من العبادة ويقول انها كانت العامل القوى فى ميله الى حب الاستطلاع وتلقينه مبادئ المثابرة فى طلب كل نوع من انواع العلوم وهى الخصلة التى امتاز بها فى كل اعماله

وقد كانت أم كاننج امرأة عظيمة القوى وكان ابنها شديد الميل اليها كثير الاجلال لها قال مترجمه الحق يقال لو عدمت مصادر الثقة التى علمنا منها خلالها لكان اخلاص ابنها واجلاله اياها داعياً الى الحكم بأنها حازت من الصفات أكملها وكانت لقوة عقلها حائزة ثقة معاشريها وامتازت فى محادثاتها بالنشاط واختيار الخصب من الموضوعات بل لقد كان قليلو العلم بحقيقتها يحسبون فى قوتها ونشاطها شيئاً من الشذوذ(١)

أما كرن فكان شديد الحب لامه والاعتراف بقوة ذكائها وكان ينسب نجاحه فى حياته الى ما كانت تبث فى عقول ابنائها من النصائح والتقوى والطموح الى المعالى وشريف الاعمال وكان يقول لم ارث من أبى ما يدعو الى الفخر سوى ميراث ضئيل من وجه ومنظر لا يستوقفان نظراً واذا كان العالم يعترف لى بما هو

---

(1) Robert Bell's 'Life of Canning' p.37.

أعظم من الوجه والمنظر والثروة فالسبب فيه ما ورثت عن أمى من كنز عقلها (١)

ولما حضر الرئيس أدمز امتحان مدرسة البنات فى بُسْتُن ألقت الطالبات فى حضرته خطاباً أثر فى نفسه فلما قام يشكر لهن انتهز الفرصة وأشار الى ما كان لتربية الامهات ومصاحبتهن من الأثر فى حياته وأخلاقه فقال مَنّ علىّ وأنا طفل بأجل النعم بأم كانت ترغب فى تقويم أخلاق أبنائها مع قدرتها على ذلك ومنها اكتسبت من التعاليم الدينية والادبية ما ملأ حياتى ولست أقول أنى اكتسبت ذلك اكتساباً تاماً أو كما يجب أن اكتسبه ولكنى أقول اعترافاً بفضل هذى التى أجلها أن ما كان من النقص فى هذه الحياة أو الحيد عن تعاليم أمى فتبعته على لا عليها

وقد كان بنو وزلى شديدى التعلق بأبويهم تربطهم واياهما رابطة التقوى غير أن تأثير أمهم فى أخلاقهم وعقولهم كان اكثر من تأثير أبيهم نعم كان أبوهم قوى الارادة ولكنه كان الى الشدة والضغط على أهل بيته أميل (٢) أما هى فكانت وديعة الاخلاق

---

(1) 'Life of Curran' , by his son . p.4.

(٢) من عنف والدهم أنه عزم مرة على فراق امرأته لان ضميرها ابى عليها موافقته على الميل الى ملك انجلترا لذاك العهد ولم يحل دون تنفيذ عزمه الا

لينة الطباع هذا الى قوة ذكاء وحب للحق وكان لابنائها منهـا
معلم ورفيق هش بش والاقتداء بها هو الذى كون أخلاقهم ،
وكان ما لقنتهم من التعاليم الدينية سبباً فى تسميتهم بالمنتظمين
لقد كتبت الى أحد أبنائها وهو طالب تقول أنى أنصحك
ما استطعت أن تجعل لعملك طريقة منتظمة بها تستطيع الاستفادة
من كل لحظة من اللحظات وهى ثمينة وتقدر على أداء واجباتك
بالسهولة اه ثم طفقت تشرح تلك الطريقة المنتظمة وتنصح لابنها
أن يكون له فى كل عمل مبدأ ولقد ذهب بعضهم الى أن الجمعية
التى أسسها اثنان من ابنائها بجامعة أُكسفُـرد لم تكن الا نتيجة
وعظها ونصحها .

أما الشعراء والادباء والمتفننون فلا مراء فى أن امهاتهم كان
لهن نصيب وافر من التأثير فى عقولهم وذلك جلى ظاهر ولاسيما
فى جرِىْ وتُمسُن وسكُتْ وسَوْذِى وشِلَرْ وجُيتى
فجرِى ورث عن امه الرأفة والحنو حتى كاد يرث ذلك عنها ارثاً
تاماً وكان أبوه شكس الخلق غـير مقبول وكان جرى الى
النساء أقرب منـه الى الرجال ، كان حيياً شديد التحفظ عديم
النشاط الا أنه لم يكن فى أخلاقه من عيب ، حفظت أمه كيان

موت وليم الثالث وقد إظهر هذا العنف والتعنت فى معاملة اولاده فأجبر احدى
بناته على الاقتران بغير كفء مع أنها لم ترد الاقتران به ولم يمل قلبها اليه

أهل بيتها بعد أن هجرها زوجها ولم يكن كفئاً لها ولما ماتت كتب الشاعر على قبرها هنا أم شفيقة كثيرة العناية كان لها كثير من الاولاد ساء حظ أحدهم فعاش بعدها اه هـذا وقد دفن بجوار قبرها لرغبته فى ذلك

والسبب فيما كان عليه عقل جُيتى واخلاقه راجع الى أمه وكانت ذات مواهب عاليـة حاضرة البديهة تعلم كيف تبعث الاحداث على النشاط وتعلمهم بكنوز تجاربها علوم الحياة [١] ، حادثها أحد الرحالة ملياً فقال الآن علمت كيف صار جُيتى الى الحالة التى نراه عليها اه

وكان جيتى شديد الميل اليها وفيها يقول لقد كانت أهلا للحياة اه ولما زار مدينة فرنكفُرت طلب كل من تودد الى امه وشكر له صنيعه وهكذا كان الحال مع شِلَر

كذلك كان الباعث لاَرِى شِفَر على الاشتغال بفن التصوير امه فانها بذلت كل عزيز لديها فى سبيل اعانته على الاشتغال به وارسلته فى اول امره الى احدى مدن فرنسا ثم ارسلته بعد الى باريس وكانت كتبها اليـه ملأى بثمين نصائح الامهات وعطف النساء فما كتبت اليه قولها انك اذا رأيتنى أقبل صورة صورتها

---

(١) يقول جيتى لى من ابى قامته وجده فى معالجة الحياة ومن أمى الهيام بالشعر والنفس الفياضة بالبشر

والفرح ملء قلبي علمت ميزة أمرى اياك بالعنف أحياناً وايلامك بالكلام ، يا بنى ابذل قصارى جهدك فى عملك واجعل التواضع شيمتك واذا رأيتك سبقت اقرانك فقارن ما صنعت بصنع الله أو بما تتخيل من الكمال تأمن بما يتراءى لك من البون الشاسع مضار العجب والتظاهر

مرت السنون الطوال وصار هذا الابن جداً فذكر نصائح امه وكان يعيدها لابنائه وهكذا تسرى قوة القدوة الصالحة من جيل الى جيل فتحفظ رونق العالم وبهاءه ، كتب الى ابنته فذكر نصيحة امه فقال فى كتابه أى ابنتى العزيزة عليك بالواجب فقد كانت هذه اللفظة لا تفارق عقل جدتك واعلمى انه لا ثمرة فى هذه الدنيا الا لما اكتسب بالعمل وتضحية المصالح الخاصة ولا بد من ان نضحى كثيراً حتى نحصل على السعادة والراحة وانى اشهد وقد مضى زمن شبابى انى لم ارتح لشىء فى حياتى ارتياحى لتضحية مصالحى الخاصة وحرمان نفسى ملاذها[1]

وأشار المؤرخ الفرنسى مشلى الى أمه فى مقدمة كتاب من خيرة كتبه فوبل بالانتقاد المر عند ظهوره قال فى مخيلتى وانا اسطر ذلك امرأة ما كانت قوة عقلها لتقعد عن شد ازرى

(1) Mrs.Grote's 'Life of Ary Scheffer, p.154.

فى هذه المواقف ، فقدتها منذ ثلاثين سنة وانا طفل وهى مع ذلك لا تزال حية فى مخيلتى ممثلة امامى على توالى الايام ، قد شاطرتنى الفقر ولم تقاسمنى رغد عيشى وحسن حالى ، كنت وانا صغير سبب حزنها ولا قدرة لى الآن على تعزيتها بل لا علم لى بمستقر عظامها فقد حال فقرى عند موتها دون ان اشترى لها رمساً ، على ان فضلها علىّ كثير ولا ازال اراها تتكرر كل آن فى آرائى واقوالى فضلا عن حركاتى وهى السبب فى حنينى الى العصور الخوالى وحنوى على من خرجوا من هذا العالم فبأى شىء أقابل ما لها علىّ من الفضل وقد قربت من الهرم أقابله بشىء واحد لو كانت حية لشكرته لى ألا وهو هذا الانتصار للنساء والامهات (1)

وكما تؤثر الأم فى عقل ابنها تأثيراً حسناً قد تؤثر فيه تأثيراً سيئاً فقد كانت خصال لورد بَيرُن من جموح عواطفه ونفوره من التقييد وشدة حقده واندفاعه فى غيظه تقول كانت هذه الخصال راجعة الى ما كان من التأثير السيئ الذى لقيه من امه منذ ولده وكانت متقلبة شديدة متعسفة فكانت تعيره بنقص خلقه وكثيراً ما كانت اذا شجر بينهما خلاف تتناول محضاء النار

(1) Michelet 'On Priests, Women,and Families' .

وترميه به اذا فر من امامها (١) ، هذه المعاملة السيئة عادت عليه
بالوبال فيما بعد ولازمه ما ارتضع من سم امه فعاش قلق البال
تعس الحظ ضعيفاً على عظمته ، اشار الى ذلك فى احد مؤلفاته
حيث قال لقد وجب علىّ التلطف فى الفكر لانى اطلته حتى غدوت
وبراسى من لهيب الخيال اضطراب كغليان المرجل ولما كنت لم
اعلّم فى صغرى ان اكبح جماح نفسى فقد سرى السم فى حياتى

ومن هذا القبيل وان اختلف المنزع ظهور اخلاق ام احد
الممثلين فى ابنها ذلك أنها على كثرة ماورثت من المال والمتاع اتفقت
جميع ما ورثت وانتهى بهـا امرها الى السجن لتراكم الدين عليها
فكتبت الى ابنها تقول يا بنى انى قد زج بى فى اعماق السجن لما
اثقلنى من اصر الدين فاقدم علىّ واعنى فكتب اليها يقول امى
العزيزة انى مثلك فى اعماق السجن لهذا السبب وهـذا ما يحول
بينى وبين قيامى بواجبى نحوك

وقد تفسد الأم الحمقاء ابنها ذا المواهب العالية بأن تبث فيه
غير السليم من الآراء والعواطف كما فعلت أم لـَـمرتين فقد قيل عنها
أنها علمته من الآراء فى الحياة ما ليس له نصيب من الصحة و بثت

---

(١) قيل ان السيدة بيرن ماتت فى نوبة انفعال سببها اطلاعها على كشف
حساب من مورد أثاث لها

فى عقله مبادئ روسو و برنردن وسن بيير[1] فكان طول حياته عرضة للبكاء والتهيج وعدم التبصر ومما يدعو الى السخرية ان يقول عن نفسه فى احد كتبه انه تمثال الفتوة اقيم ليكون انموذجا للشبان[2] ومما يدعو الى الاسف انه كما كان لامه ابناً فاسداً كان لامته ابناً فاسداً وصفه سن بوف قال قد كانت قواه العقلية لا تحد ولكنه لم يستطع استخدامها فبددها جميعاً الا قوة الالفاظ فانه ما فتئ يضرب على نغماتها فكأنه يضرب على آلات موسيقية تأخذ بمجامع القلوب[3].

تقدم لنا أن أم وشنجتن كانت من خيرة نساء العمل ونزيد أن هذه الخلة مما يلائم النساء والاتصاف بها ضرورى للراحة والسعادة فى كل أهل بيت صح نظامه وليس العمل من متعلقات التجارة وحدها بل هو من متعلقات كل مسائل الحياة العملية وكل شيء أريد ترتيبه وتنظيمه والتأهب له والقيام به ، وادارة حركة البيت واهله مسألة عملية كادارة محل تجارى والنظر فى ماليته فلا بد لها من طريقة ودقة وترتيب ومثابرة واقتصاد ونظام وحسن تدبير وعلم وقدرة على التوفيق بين الغايات

---

(1) Sainte - Beuve , ‘ Causeries du Lundi ’ i . 23

(٢) الكتاب السابق ص ٢٢

(٣) عنه أيضاً ص ٢٣

والوسائل هذى ثمرة العمل فعاداته ضرورية تربيتها فى النساء اللأتى سيتولين ادارة البيوت ويكن سبب سعادتها ضرورتها للرجال الذين يقومون بالامور التجارية والصناعية

بيد أنه قد ساد حتى وقتنا هذا الرأى القائل لا حاجة بالنساء الى هذه الامور وأن العمل وصفاته من اختصاص الرجل دون المرأة خذ لذلك مثلا معرفة الاعداد قال بعضهم اجد تعليم الولد الحساب يصر رجلا فلم ذلك لان الحساب يعلمه النظام فى العمل والدقة وقيمة الاشياء والنسب والعلاقات ولكن ما عدد البنات اللاتى يحسن تعلم الحساب لا مراء فى انهن قليلات العدد فما نتيجة ذلك النتيجة ان البنت اذا صارت زوجة ولم تعلم عن الارقام شيئاً وكانت خلواً من معرفة الجمع والضرب عجزت عن تدوين الايراد والمصروف وربما ارتكبت من الهفوات ما يضر بالعمل البيتى وتكون المرأة العاجزة عن ادارة المنزل طبقاً لمبادىء الحساب البسيطة عرضة بجهلها للوقوع فى هوة التبذير والاسراف مما قد يضر بهدوء أهل البيت وراحتهم

فالنظام وهو روح العمل ضرورى فى البيت ولا سبيل الى الى أداء الاعمال الا بالطرق المنظمة لانها تكتسح الحيرة وتقضى على الارتباك وتستلزم المحافظة على الوقت وهى صفة أخرى من صفات العمل العاليــة والمرأة غير المحافظة على وقتها كالرجل غير

المحافظ عليه تحرك فينا النفور منها لانها تبدد الوقت وتسرف فيه وتحملنا على الظن بأننا ليس لنا لديها من المكانة ما يحملها على التعجيل بقضاء أمورنا والوقت لرجل العمل كالمال ولكنه لامرأة العمل فوق ذلك فهو لها نعيم وهناء وسعادة بيتية

والتبصر خلق آخر من الاخلاق الضرورية لنساء العمل ورجاله لأنه من الحكمة العملية ومنشؤه تربية قوة التمييز وهو الذى يجعل صاحبه يراعى فى كل شىء المناسبة والحسن وبه يستطيع الانسان ادراك الصالح من الأمور وتوخى خير السبل اليه دون اغفال لكنه وسائل العمل ونظامه وما يلزم له من الزمن والاساليب

لذا كان من الضرورى أن تربى فى النساء عادات العمل ليكن خير مساعدات على ما يلزم للحياة ولما كان النساء مراضع الاطفال ومهذباتهم ومربياتهم وجب أن نعدهن بالتربية العقلية لكيما يستطعن استخدام تأثير البيت فيما يفيد وانما لزمت تربيتهن لان ما ركب فيهن من الحب الالهامى ليس بكاف لهن فى أداء أعمالهن فانه لا حاجة الى تربية الالهام الذى عليه حفظ كيان ما دون البشر من المخلوقات ولكن العقل البشرى وهو لا بد منه فى أهل البيت يحتاج الى تربية خاصة لأن صحة النشء

الجسمية موكول أمرها بالطبع الى المرأة وما سلامة الآداب والعقل الا منطوية تحت سلامة الجسم ولا سبيل الى سلامة الجسم والعقل والآداب فى البيت الا أن تراعى المرأة القوانين الطبيعية وتعمل بمقتضاها ولا بد لها دون ذلك من أن تفهمها وان لم تعرف هذه القوانين لا تجد جزاء لجهلها الا فى رمس ابنها (١)

من الحقائق التى لا مراء فيها أن العقل منح المرأة كما منح الرجل لاستعماله وتدريبه لا لتركه يتعفن ولا يستعمل فهذه المواهب العالية لا تمنح اعتباطاً دون أن يكون لمنحها غرض وغاية

لم تخلق المرأة لتكون خادماً حقيراً لا فكر له ولا لتكون زينة للرجل يلهو بها فى فراغه ولكنها خلقت لتنفع نفسها وتنفع غيرها وما يلقى على عاتقها من أعمال الحياة يستلزم عقلا يثقف كما يستلزم قلباً يعطف وليست الكماليات التى يصرف عليها من ثمين الوقت مالا يستخف به بمؤهلتها للقيام بواجبها حق القيام لأن هذه الكماليات قليلة الجدوى فى أعمال الحياة وان زادت فى رونق الشباب والجمال ففيهما بالطبيعة ما فيه الكفاية من الملاحة

---

(١) ان موت ثلث أطفال هذه البلاد (انجلترا) قبل أن يبلغوا من العمر خمس سنين سببه الجهل بالقوانين الطبيعية ونظام الجسم ومنافع الهواء النقى وتهيئة صالح الطعام وليست وفيات مادون الانسان من الحيوان ببالغة هذا الحد

كان أجل وصف للمرأة عند الرومان ان يقال انها تلازم البيت وتغزل ونحن فى هذا العصر نقول حسب المرأة من العلم ان تعرف من الكيمياء ما به تغلى مرجلها ومن علم تقويم البلدان ما به تعرف حجر بيتها أما بيرذو كان شعوره نحو المرأة ضعيفاً فيرى اقتصار مكتبتها على الكتاب المقدس وكتاب للطهى وهذا الرأى فى تربية النساء باطل بطلان ما يناقضه من الرأى السائد الآن القائل بتربية المرأة حتى تساوى الرجل ولا يبقى بينهما فارق الا فى الخلقة فتكون صنوه فى الحقوق واعطاء الاصوات وتنافسه فى المناصب والسلطان وجمع الثروة الى غير ذلك مما يجعل الحياة جهاداً صعب المراس (١)

---

(١) الناقل : نورد هنا كلمة قد لا تخلو من فائدة وهى كلمة المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فى المرأة المسلمة والعلم نقلا عن رسالته باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام ص ٩٠ الى ص ٩٤ قال

ان طلب العلم مشترك الوجوب بين الرجال والنساء وبناء على هذا الاصل الدينى قد طالما برع منهن (يعنى المسلمات) كرائم أربين فى العلوم على ذوى العمائم وتواريخ الامة عابقة بسيرهن ذكرا زاهية بأخبارهن زهرا بل قد خصهن بعض أئمتنا بالتأليف وبعضهم خصص به المحدثات منهن وبعض كذلك لكن بوجه مخصوص التزمه كصاحب مسند النساء وهو مجلد ضخم التزم فيه مؤلفه ذكر الاحاديث التى روتها امرأة عن امرأة من غير أن يكون فى سندها رجل الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك .

أما نوابغهن فى الادب والشعر والانشاء وسرعة البديهة فهو بلا ارتياب عديد

ومجمل القول ان ما يلائم أحد الجنسين فى أول الحيـاة من

التراب أو قطر الغمائم أو زهر الكمائم حدث الجاحظ عن ابراهيم بن السندى قال كانت تصير الى هاشمية جارية حمدونة فى حاجات صاحبتها فاجمع نفسى لها وأطرد الخواطر عن فكرى وأحضر ذهنى جهدى خوفا من أن تورد على مالا أفهمه لبعد غورها واقتدارها على أن تجرى على لسانها ما فى قلبها وكذلك ما يؤثر عن خالصة وعتبة جاريتى ريطة بنت أبى العباس ولست ذاكرا لك ترجمة واحدة من أولئك لشهرة ذلك وانما أذكر لك خصوص البعض ممن عنونت به الباب (يعنى الباب العاشر من الرسالة) لتقيس الغائب بالشاهد والحاضر بالباد ان كان للقياس مجال أو الى التشبيه سبيل

أما فى عهد النبوة فحدث عن البحر ولا حرج اذ كان النساء وقتئذ فضلا عن حفظهن القرآن الكريم أو ما تيسر منه يستنبطن الاحكام من الكتاب والسنة ولو درست اصول الشريعة المطهرة لعلمت أن لفظة الاستنباط وان خفت على اللسان فقد طاشت بها عقول اكثر العقلاء عند الموازنة بقسطاس الحق حتى عد ذلك الصحابى تلاوة من شذت عنها جزئية منـــه عدما بحتا حيث لعن بحضرتها الواصلات أى اللائى يصلن شعرهن بشعر آخر يسميه عامة مصر الآن بالشعر العيره وقال ما لى لا ألعن من لعن رسول الله وهو ملعون فى كتاب الله فقالت لقد قرأت ما بين الدفتين فلم أجده فقال ان كنت قرأتيه فقد وجدتيه ثم تلا قوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » واثبات ياء وجدتيه وما قبلها لغة وقعت فى احدى طرق البخارى وحسبك ان عائشة أم المؤمنين قد صح فى شأنها خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء

وكذا كن فى العلوم فى القرون الثلاثة التى شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيريتها ثم تدرجن فى مهاوى الحضيض الى ماترى واليك الوفاء بما وعدنا فأقول :

(١) كريمة بنت محمد بن حاتم المروزية جاورت بمكة المكرمة وروت صحيح البخارى عن الكشميهنى وروايتها من أصح روايات البخارى وروت عن زاهر السرخسى وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها وهى فى الفهم والنباهة وحدة الذهن بحيث يرحل اليها أفاضل العلماء توفيت عام أربعمائة وثلاثة وستين ولم تتزوج قط وبلغ عمرها مائة سنة

(٢) تقية بنت ابن الفرج ذكرها الحافظ السافى فى تعليقه وأثنى عليها وأخذت عنه العلم بثغر الاسكندرية وفاقت الرجال فيه ولها زيادة على ذلك الباع الاطول فى الشعر والادب ولطائفها الادبية مع الحافظ المذكور كثيرة منها انه كان دارا بمنزله فعثر فجرح باطن قدمه فقطعت جارية من الدار قطعة من خمارها وعصبت قدمه بها فأنشأت تقيه تقول

لو وجدت السبيل جدت بخدى عوضا عن خمار تلك الوليده
كيف لى أن أقبل اليوم رجلا سلكت دهرها الطريق الحميده

ومن غرائبها فى الادب انها مدحت الملك المظفر ابن أخى السلطان صلاح الدين بقصيدة خمرية فقال ممازحا أتعرف الشيخة هذه الاحوال من صباها فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية وصفت فيها الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف وبعثتها وقالت علمى بهذا كعلمى بذاك وهى فى القرن السادس

(٣) زينب بنت ابى القاسم كانت فاضلة عالمة أدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية واجازة فممن أخذت عنهم أبو محمد اسمعيل بن أبى القاسم النيسابورى القارى وأبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيرى صاحب الرسالة القشيرية وممن أجازها الحافظ ابو الحسن عبد الغافر بن اسمعيل الفارسى والعلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى مؤلف الكشاف وممن أجازتهم من اكابر العلماء المؤلف شهاب الدين قاضى القضاة ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور وهى فى القرن السابع

يزيد فى فائدة المرأة وكفايتها فى بيتها ويمدها بالآراء ويكسبها بعد

---

(٤) شهدة الكاتبة فخر النساء بنت أبى نصر احمد بن الفرج بن عمر الابرى الدينورية البغدادية كانت من العلماء الاكابر وكتبت الخط الجيد وأخذ عنها العلم خلق كثيرون وكان لها السند العالى الحقت فيه الاصاغر بالاكابر سمعت من ابن الخطاب الطبرانى وفخرالاسلام الشاشى وغيرهما من أفاضل العلماء وكانت وفاتها ببغداد عام خمسمائة وأربعة وسبعين

(٥) زينب بنت عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية الحنبلية بنت أخي الشيخ تقى الدين قال الحافظ بن حجر سمعت من الحجار وغيره وحدثت وانتفع الناس بعلمها وقال أيضاً ولى منها اجازه

(٦) زينب بنت محمد بن عثمان بن عبد الرحمن الدمشقية يعرف أبوها بابن العصيده حدثت بالاجازة العامة عن فخر الدين بن النجار وغيره ومن تلامذتها الحافظ بن حجر وله منها اجازة وجاوزت اكثر من عشر ومائة سنة

(٧) زينب بنت عثمان بن محمد بن لؤلؤ الدمشقية كانت من أفاضل العلماء ولها اليد الطولى فى علوم السنة سمعت من الحافظ الحجار وأخذ منها الحافظ ابن حجر اجازة وتوفيت سنة ثمانمائة

(٨) رقية بنت العفيف عبد السلام بن محمد بن مزروع المدنيــة حدثت بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس من المصريين والمزى وغيره من الشاميين

(٩) عائشة بنت على بن محمد بن عبد الغنى بن منصور الدمشقية سمعت مع زوجها الحافظ نجم الدين الحسنى من الامام الخباز والمرداوى ومن بعدهما وحدثت وانتفع الناس بمعارفها

(١٠) عائشة بنت محمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد بن عبد الهادى بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسى الصالحية الحنبليــة سيدة المحدثين بدمشق سمعت صحيح البخارى على حافظ العصر المعروف بالحجار وروى عنها الحافظ

النظر ويساعدها على توقع الشدائد وأخذ الحيطة لها ويعينها على

بن حجر وقرأ عليها كتباً عديدة وانفردت فى آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة فى تعليم العلوم لينة الجانب للمتعلمين ومن العجائب أن ست الوزراء كانت آخر من حدث عن ابن الزبيدى بالسماع ثم كانت عائشة آخر من حدث عن صاحبه الحجار بالسماع أيضاً وبين وفاتيهما مائة سنة توفيت عائشة هذه بدمشق سنة ٨١٦ ودفنت بالصالحية

(١١) عائده المدنيه أم ولد حبيب بن الوليد المروانى كانت جارية سوداء حالكة اللون تروى عن الامام مالك بن أنس أمام دارالشجرة وغيره من علماء المدينة المنورة وهبها محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان لحبيب بن الوليد المروانى فقدم بها الى الاندلس وقدأعجب بعلمهاوفهمها وفرط ذكائها واتخذها لفراشه

(١٢) فضل المدنية اشتراها الامير عبد الرحمن الداخل صاحب الاندلس مع جوار غيرها وجعل لهن دارا بالقصركانت تعرف بدار المدنيات وكانت فضل هذه قد برعت فى أنواع العلوم وأخذت بمجامع الفنون

(١٣) أم السعد بنت عصام الحميرى من أهل قرطبه تعرف بسمدونه روت عن أبيها وجدها وغيرهما وأنشدت لنفسها فى تمثال نعل النبى صلى الله عليه وسلم تكملة لقول غيرها

سألثم التمثال ان لم أجد للثم نعل المصطفى من سبيل
ما صورته
لعلنى أحظى بتقبيله فى جنة الفردوس أسنى مقيل
فى ظل طوبى ساكناً آمناً أسقى بأكواب من السلسبيل
وامسح القلب به علّه يسكن ما جاش به من غليل
فطالما استشفى بأطلال من يهواه أهل الحب فى كل جيل

(١٤) العروضية مولاة عبد الرحمن بن غلبون أخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته فى ذلك وكانت تحفظ كامل المبرد ونوادر القالى وتشرحهما

تحسين طرق الادارة ويعدها بالقوة فى كل أعمالها وهى بقوة عقلها تجد دون الغبن حصناً امنع مما تجده لو كانت جاهلة جهلا يغمض عينيها عما يتهددها من الاخطار ولها من تربية أخلاقها ودرس دينها مؤثر أقوى من صفاتها الجسمية وباعتمادها على نفسها وثقتها بمقدرتها تحصل على منابع الراحة البيتية والسعادة

قال أبو داود سليمان بن الحاج قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض توفيت سنة ٤٥٠

(١٥) العباديه جارية المتضد عباد والد المتمدكانت المسألة فى اللغة تطرح بين علماء اشبيلية وهم ما هم من اللغة العربيــة فلا يجيب عنها سواها قال ابن عليم فى شرح أدب الكاتب لابن قتيبه عنــــد ذكر الموسعه وهى خشبة بين حمالين يحمل كل واحد منهما طرفها على عنقه تسهيلا للحمل ما نصه « وبذكر الموسعه أغريت جارية المعتضد على علماء اشبيلية بالفرمة التى تظهر فى أذقان بعض الاحداث وتعترى بعضهم فى الخدين عند الضحك وأما التى فى الذقن فهى النونه وأما التى فى الخدين عند الضحك فهى الفحصه » فما كان فى ذلك الوقت باشبيلية من عرف منها واحدة اﻫ

ولنكتف بذلك

ولقد وقفت على مجلد ينيف على الستين كراسة فى مناسك الحج على المذاهب الاربعة لمؤلفته العالمة الكاملة الست زينب بنت فلان غاب اسمه عنى الآن نزيل مكة المكرمة وهو بخط يدها فرغت من كتابته فيما أظن عام نيف وعشرين بعد المائتين والالف وقد طالعته فوجدته يدل على فضلها وغزارة علمها وجودة فهمها خصوصا فى معترك الخلاف بين العلماء هــذا فضلا عمن تقلد منهن خطة الملك وتدبير الامم وعمن اشتهر منهن بالاقدام فى ميدان الحرب وغير ذلك كثير

ولكن اذا كان واجباً أن يربى عقل النساء وأخلاقهن لخيرهن فانه ينبغى كذلك أن تكون تلك التربية لسعادة غيرهن فانه لا سبيل الى سلامة عقول الرجال وأخلاقهم ما دامت النساء فاسدات العقل والآداب واذا كانت الحالة الخلقية للأمة تتوقف على التربية البيتية فى اعتقادنا فمن الواجب اذن أن تعتبر تربية النساء ذات شأن قومى هذا وان فى سلامة آداب النساء وتثقيف عقولهن لخير ضامن لاخلاق الرجال وقوة عقولهم وكلما قربت صفات الجنسين من الكمال زاد المجتمع نظاما وترتيبا وزاد الامل فى رقيه وتقدمه

لما قال نابليون الاول ان فرنسا تعوزها الامهات كان غرضه أن يقول ان الامة الفرنسية فى حاجة الى التربيـة البيتية يتولى زمامها الصالحات الفاضلات العاقلات وقد كانت الثورة الفرنسية الاولى مثالا ظاهراً للمضار الاجتماعية الناجمة عن اهمال ما للامهات من التأثير فان المجتمع كان عند حدوث تلك الثورة مفعما بالرذائل والمفاسد حتى اكتسحت الملاذ الآداب والدين والفضائل ، فسدت أخلاق المرأة ضاعت الثقة الزوجية ، احتقر الحمل والوضع ، فسدت البيوت ، لم تربط المجتمع رابطة الطهارة البيتية ، بقيت فرنسا بلا أمهات ، انحلت رابطة الابناء ، فقامت الثورة بين عويل النساء

وصياحهن[1] .

ألا ان هذا الخطب الجسيم لم يعظهم ولم تزل فرنسا تئن من حاجتها الى النظام والطاعة وضبط النفس وهى أمور لا سبيل الى تعلمها على وجهها فى غير البيوت ، قيل أن نابليون الثالث نسب الى خفة أهل فرنسا ونهمهم باللهو ذلك الضعف الذى غادرها

---

(١) ظهرت قبيل الثورة الفرنسية رواية تمثيلية اسمها (فيجارو) قابلتها الامة بالترحاب وهى تمثل حالة أخلاق الامة كبرائها وصعاليكها وتدل على علاقة الرجل بالمرأة عندهم

قال هربرت سبنسر قسم الامة كيفما شئت واطلق من الاسماء ما شئت وقل طبقات عليا وطبقات وسطى وطبقات سفلى وكن على يقين من أن اختلاف الاسماء وتباين الاقسام لا يخرج الطبقات المختلفة عن كونها أجزاء مجتمع واحد ولا يمنع اتحادها فى المشارب واتفاقها فى الاخلاق

ان قاعدة تساوى الفعل ورده تصدق فى القضايا الادبيـة كما تصدق فى القوانين الآلية فما يعمل الانسان من خير أو شر يؤثر فيمن صدر عنه الفعل تأثيره فيمن وقع عليـــه ومتى وجدت العلاقة بين الناس تشابهوا لا محالة وان تفاوتوا فى الثروة وجعلوا طوائف وقسموا طبقات ولا ريب فى أن المؤثرات والعوامل التى تجعل المرء كالبيئة التى يعيش فيها هى هى التى تجعل أخلاق الامة من قبيل واحد وان كنا لا ننكر أن تأثيرها فى الافراد أسرع منه فى الامم ومن الجهل القول بامكان اختلاف احدى الطبقات عن سائرها مع وجود هذه المؤثرات والعوامل فاذا رأيت الفساد فى طبقة من الطبقات فكن على يقين من أنه فاش فى سائرها ومتى سرى سم الفساد فى جزء من أجزاء الامة فاجزم باستعدادها للمرض وأيقن أن بقية أجزائها يستحيل عليها البقاء سالمة

Social Statics , Chap.xx.7.

منهوكة القوى تسيل دماؤها تحت أقدام غزاتها فظهر ان التربية التى لا تزال فرنسا فى حاجة الى تعلمها ليصلح حالها ويعظم شأنها تلك التربية التى أشار اليها نابليون الاول اعنى التربية البيتية تحت أشراف الصالحات من الامهات

واذا تقرر ان أخلاق الامة ترقى بتعليم نسائها وتهذيبهن فان مما يشك فيه استفادتهن من مجاراة الرجل فيما تستلزمه السياسة والتجارة من الاعمال الشاقة والمرأة لا تستطيع القيام بأعمال الرجل الخاصة به كما أن الرجل لا يستطيع القيام بأعمال المرأة الخاصة بها وأينما أخرجت المرأة من بيتها وأهلها لتقوم بعمل آخر كانت النتيجة خطراً على المجتمع ولذا وقف بعض محبى الانسانية مساعيهم فى العهد الاخير على الحيلولة بين المرأة والكد مع الرجل كتفاً لكتف فى مناجم الفحم وفى المعامل

ولا يزال من الاشياء المألوفة فى الشمال أن يلازم الرجال البيوت ولا عمل لهم على حين أن النساء والبنات يشتغلن فى المعامل ونتيجة ذلك فى الغالب دمار نظام البيوت وأهلها وضياع سلطانها [1] وقد وصلت نساء باريس منذ سنين الى الحالة

---

(١) نشر المؤلف فى احدى الصحف قبل أن يكتب هذا الكتاب بثمان وعشرين سنة عبارة فى هذا الموضوع لا تزال مطابقة للواقع مع ما كان من اصلاح حال العمال قال :

التى يرغب بعض النساء فى ايصالنا اليها الآن فكان نساء باريس اذ ذاك يشرفن على الاعمال والرجال يتمتعون بالراحة فى مناهج المدينة ولم تكن العاقبة الا ضياع البيوت وتداعى أركان المجتمع

وليس لدينا من الأسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأن رقى النساء وتحسين حالتهن انما يكونان باعطائهن القوة السياسية ولكن لايزال بين ظهرانينا كثيرون ممن يعتقدون فى قوة الاصوات [1]

أن نظام المعامل وان زادت به ثروة البلاد قد أضر بنظام البيوت ضررا بليغا انتهك هذا النظام حرمة البيوت وقضى على الروابط البيتية بما فرق بين المرء وزوجه والاب وابنه ثم أفسد أخلاق المرأة ، خلقت المرأة لتقوم بواجبها الخاص بها وهو ادارة بيتها وتربية أبنائها وتدبير عيش أهلها وقضاء حاجاتهم ولكن المعامل حرمتها عملها وفرقت بينها وبين واجبها فقضت بذلك على البيوت وصار الاطفال يشبون مهملين غير مهذبين ، ماتت عواطف الحب واصبحت المرأة شريكة الرجل فى الكد وهى لم تجمل الازوجا وديعة ورفيقة له وخليلة هذه المعامل أوجدت المرأة تحت مؤثرات تقضى على حيائها وهو خير ضامن لعفتها والبنات العاملات فى المعامل حرمن التبصر وسلامة الرأى فهن سريعات الشعور بالاستقلال ينبذن مالآبائهن من النفوذ عليهن ثم يغادرن بيوتهن وينهمكن فيما ينهمك فيه اخوانهن من الرذائل وتساعد البيئة التى يعشن فيها على تحريك شهواتهن البهيمية فيكن سبباً فى نشر الفساد والشر

(١) فى سنة ١٨٧٠ قال أحد الفرنسيين يتهكم ويشير الى نهم الناس بالاصوات وتماديهم فى الركون اليها والسعى وراءها أننا نسير سيرا حثيثاً الى زمن لا تكون الصلاة فيه الا الدعاء بنيل الاصوات فنقول (ربنا آتنا اليوم أصواتنا)

ويؤملون خيراً غير جلي من اعطاء النساء الحقوق السياسية ، ولا حاجة بنا هنا الى البحث فى هذا الموضوع بل يكفى أن نقول ان النساء اللاتى حرمن القوة السياسية قد منحن ما يربو عليها منحن نفوذاً فى الحياة غير السياسية من تربيتهن فى البيوت من عليهم المعول فيما يلزم فى هذا العالم من أعمال الرجال والنساء قال بعضهم لو شاء الرجل أن يسلب المرأة سلطانها ما استطاع الى ذلك من سبيل لأنها فى هذا العالم حاكم مطلق[1] وان كانت تنفذ سلطانها بالحنو والعطف

هذا ولا مشاحة فى أن للنساء من تقويم أخلاق الناس قاطبة قوة اكبر من القوة التى يبغينها من انتخابهن أعضاء فى المجالس النيابية وباشتراكهن فى سن قوانين الامة

وان لدينا لقسما من أعمال المرأة يحتاج الى عناية كل من أراد للنساء الاصلاح الحق ولكنه أهمل لغير ما سبب وأعنى به تجهيز الغذاء وحسن تدبيره فمن العيب أن نرى فيه ذلك الاسراف الذى

---

(١) أن صلة الام بولدها من حيث سلطانها الفطرى الضرورى المطلق لامتن من صلة الاب بابنه وان كانت الاولى اقل من الثانية ورودا فى معرض الاستشهار وعند سير ربرت فلمر ان المفروض من السلطان الضرورى المطلق الذى للاب على ابنائه اتخذ اساساً ثم مبرراً لسلطان الحاكم فى الحكومات السياسية وكان أولى لو انه جعل سلطان المرأة المطلق الاساس المشروع دون غيره لنظام الحكومة.

Deontology, ii. 181.

نشاهده والذى نجم عن الجهل بقوانين الطهى واذا كان الرجل
الذى يستطيع أن ينبت عودين فى أرض نبت فيها عود من قبل
يعتبر محسناً لامته فان المرأة التى تجيد الانتفاع بالحاصلات الغذائية
وتجيد اقتصادها تعتبر مصلحة كذلك واصلاح ما لدينا من هذه
الحاصلات بمثابة اتساع الارض القابله للزراعة بله التقدم الصحى
مع الاقتصاد والراحة البيتية فلو أن العاملين على رفع شأن المرأة
وجهوا قواهم فى هذا السبيل وكللت مساعيهم فيه بالنجاح لنالوا
الشكر ولبجلوا وكانوا فى نظر العالم من أعظم محبى الانسانية

الفصل الثانى

العشرة والقدوة

بعشرتك الكرام تعد منهم

جورج هربرت

يسرنى أن أستفيد من أفاضل الناس

شكسبير

انما الاعمال وعظ للعيون فليكن همك كيف تقضى
حياتك لا كيف تكون خاتمتها

هنرى مرتن

من رمى الى النبوغ فى التصوير لجأ الى أبدع
الصور فأخذ عنها كذلك من رام حياة
سعيدة فليختر خير من يقتدى بهم وليكد
حتى يكون قد ساواهم أو شآهم

أون فلتنم

لا تزال التربيــة البيتية فعالة فى جزء كبير من الحياة بل لو توخينا الحقيقة لقلنا بعــدم انقطاع تأثيرها البتة بيد أن البيت يصبح وهو ليس بالعامل الفذ فى تربيــة الخلق كما كان من قبل فتعقبه تربية أخرى تقوم بها محال التعليم ومرافقة الاخلاء ومعاشرة الرفاق وهى العوامل التى تكوّن الخلق وتقوّم الخصال بذلك المؤثر القوى وهو القدوة

لا يجد امرؤ كهلا كان أو شيخا مندوحة عن أن تسرق طباعه من طباع من يخالطهم وان زاد فى ذلك الشاب عن الكهل قالت أم جورج هيربرت تنصح لبنيها انما نحن ومن نخالط كالبدن والغذاء فأرواحنا تتشبع بأعمال من نعاشرهم وبأقوالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر كما يصح الجسم أو يفسد بحسب ما يتناول من الطعام

وانه لضرب من المحال أن لا يكون لمخالطة من حولنا أثر كبير فى تكوين أخلاقنا فقد جبل الانسان مقلداً يؤثر فيه مايرى من رفقائه من قول وعمل وفكر قال برك القدوة مدرسة ابن آدم لا يربى فى سواها

ومن طبيعــة التقليد أن يكون غير محسوس فلا يكاد يفطن لتأثيره لــكن ذلك لا يمنع من كونه ذا تأثير قوى دائم ولا يشاهد التطور فى الاخلاق الا متى تلاصقت الطبيعتان الفاعلة والقابلة

على أن أضعف الطبائع لها بعض التأثير فيما يليها من الطبائع لأن تقارب الشعور والافكار والعادات دائم وفعل القدوة مستمر

ذهب إمرسن الى أن الاختلاط فى زمن الشيخوخة يؤول بالمختلطين الى مشابهة بعضهم بعضاً شيئاً فشيئاً حتى اذا طال بهم أمد الاختلاط اتحدت أخلاقهم حتى لا تكاد أخلاق أحدهما تختلف عن أخلاق صاحبه ، اذا صح هذا فما بالك بالاحداث وهم اكثر قبولا للمؤثرات واستعداداً لأن ينطبع فيهم طباع من حولهم .

قال سير تشارلس بل أرى كثرة ما يقال فى التربية وكأنى بالباحثين فيها وقد أغفلوا القدوة وهى كل شىء الا أن أجل ما لقيت من التربية الاقتداء باخوتى وقد كان الاعتماد على النفس والاستقلال الحق سائدين فى كل فرد من أفراد أهل بيتى فما زلت أحذو حذوهم حتى اكتسبت هذى الخصال[1]

تقضى سنة الله فى خلقه أن تكون العوامل فى تكوين الخلق أشد تأثيراً فى دور النمو حتى اذا طال الامد وتوالت السنون انقلب الاقتداء بالناس عادة ترسخ شيئاً فشيئاً حتى تصير طبيعة تتمكن من المرء وتستولى عليه بقوتها فينزل على حكمها ويخضع لسلطانها غير شاعر

---

(1) 'Letters of Sir Charles Bell', p. 10.

روى عن أفلاطون أنه أنب شابا على عمل تافه فقال الشاب انك تؤنبنى على شىء صغير فأجابه الحكيم هـذا صغير ولكن العادة لا يستهان بها اه . ولا غرو فان قبيح العادة اذا استحكم فصار طبيعة اشتـد طغيانه وعظم استبداده فترى أربابه يذمون الرذائل وهم بها متشبثون لا يستطيعون منها خلاصاً لانهم صاروا عبيداً لعادات لا قبل لهم بهـا علم ذلك لـك فذهب الى أن من أمهات أغراض التربية ايجاد قوة فى النفس تستطيع بهـا مناوأة سلطان العادة اذا استحكم

واذا كان جل أثر الاقتداء بالناس فى تربية الخلق يأتى عفواً فذلك لا يستلزم أن يكون حديث السن تابعاً أعمى لمن يخالطهم لان له أخلاقا خاصة تحدد له الغرض من معيشته وتبين له قوانين حياته ولكل فرد قوة ارادة ان حسن تدريبها ساعدته على اختيار ما يصلح له من اخوانه فلن تستعبد المرء أمياله أو يمتلكه الانقياد الاعمى لغيره من الناس الا اذا ضعفت فيه تلك القوة

من مأثور الحكم المرء بقرينه فلا يختلط غير السكير بالسكير ولا المهذب بالفظ ولا الكامل بالناقص لذلك كانت صحبة الاشرار دليلا على عيب فى الذوق وسوء فى النزعة وكثرة مجالستهم باعثة على الانحطاط فى الاخلاق لا محالة قال سنكا محادثة الاشرار

ضرر بليغ وهى ان لم تعد على السامع بشر عاجل تترك بذور الشر فى نفسه تنبت فيما بعد

واذا استعملت الحكمة فى التأثير فى حديثى السن وهدايتهم الصراط المستقيم سعوا الى مصاحبة من هم خير من أنفسهم وكدوا فى التشبه بهم وبأعمالهم ، ثم ان أعظم مغذٍ للطبائع وهى فى دور النمو مصاحبة الاخيار أما مصاحبة الاشرار فلا يجنى منها الا الضرر ومن الناس من اذا عرفته أحببته وأكرمته وأعجبت به ومنهم من اذا عرفته حقرته ونبذته فصاحب اذن قوما علت أخلاقهم تشعر بأنك قد صعدت الى سمائهم واستنارت بصيرتك بنورهم ، جاء فى حكم الاندلس عش مع الذئاب تتعلم العواء .

كذلك مخالطة من استولى عليهم الاستئثار ولم ترتق معارفهم ضرر بين بها يجف العقل وينضب ما به من خير فتضعف قواه ويصير فى حالة تنافى الرجولية الحقة والخصال الحميدة وبمعاشرة قليلى المعارف يضيق مجال العقل والقلب وتضعف الآداب ، أمور كلها عقبات تحول دون الرفعة وبلوغ المرء شأواً بعيداً فى الكمال

أما مخالطة من هم أرقى عقلا وأحسن خلقاً وأكثر خبرة فانها تبعث فى المخالط النخوة ، بعشرة هؤلاء تزيد المعرفة بالدنيا اتساعا بآرائهم ندرك موضع الضعف من آرائنا وتقاسمهم حكمتهم ثم نكتسب خبرة بتجاربهم وتكون لنا عبرة بما أصابوا من حظ

وكابدوا من مشاق وناهيك بالشدة مهذبا ومعلما

لذلك كانت مصاحبة العقلاء والعاملين لا تخلو من فائدة عظيمة فى تكوين الاخلاق فهى تزيد فى القوى العقلية وتقوى العزيمة وتكسب بعد النظر وتدرب على القدرة والمهارة فى ادارة الاعمال وشد أزر المحتاجين الى المعونة

قالت السيدة شمِلْبِنِنْك فى ترجمة حياتها طالما أسفت لما لحقنى من الضرر من جراء وحدتى فى الايام الاولى من حياتى حين كانت طبائعى آخذة فى التكون وانى لا أرى قريناً أضر من أنفسنا قبل أن تنضج فالوحدة تؤدى بصاحبها الى الجهل بالوسائل التى تمكنه من مساعدة أبناء جنسه وليس ما ينجم عن الوحدة من الضرر بواقف عند هذا الحد فان الوحدة تحجب عن صاحبها ادراك كنه الاحوال التى تجب فيها المساعدة أما المخالطة فتكسب الانسان خبرة ما دام غير متغال فيها لدرجة تستحيل معها الراحة والشعور الذى تربيه عائد على صاحبه بفوائد جمة لا محالة، هذا وللمخالطة فوائد لا يستهان بها فى تقويم الاخلاق وفى اعداد صاحبها لسلوك الطريق السوى الى الغاية التى يرمى اليها (1)

---

(1) Autobiography of Mary Anne Schimmelpennink p. 179.

دلت الحوادث على أن الشاب قد يغير مجرى حياته اذا صادف اقتراحاً حسناً أو لقى ارشاداً فى الموقف الحرج أو وفق الى نصيحة خل صادق والشواهد على ذلك كثيرة منها ما كان من أمر هِنْرى مَرْتِن القسيس الذى قام بأعمال التبشير فى الهند فانه وهو لا يزال بالمدارس الابتدائية تمكنت الرابطة بينه وبين أحد رفقائه فيها فكان لتلك الرابطة أثر فى حياته غريب ذلك أن مَرْتِن كان فى ذلك العهد ضعيف البنية سريع التأثر ، فأما ضعف البنية فحال بينه وبين الالعاب المدرسية فلم يرتح لها وأما سرعة تأثره فعرضته لأذى من هم أكبر منه سناً وهم لم يألوا جهداً فى اثارة غضبه قولا وفعلا ، شاهد تلك الحال صاحبه فحركت المودة عواطفه وكان كبير السن قوى الجسم فأوقف تيار الأذى الموجه الى صاحبه ولم يكتف بذلك بل ساعده على القيام بأعماله المدرسية

لم يكن مَرتِن بالشديد الميل الى التحصيل لكن والده كان شديد الرغبة فى أن يتعلم ابنه التعليم العالى فأرسله وسنه خمس عشرة سنة الى احدى المدارس العالية فلم ينجح فى دخولها ثم عاد الى مدرسته الاولى ولبث فيها حولين ثم طلب الالتحاق بمدرسة من المدارس العالية فحصل على مرغوبه ورأى عند

دخولها صاحبه القديم بين طلبتها فتجددت الرابطة بينهما واستمر صاحبه خير مرشد له

ولكون مرتن متخبطاً فى عمله تثور عواطفه فلا يكاد يكبح لها جماح عمل صاحبه وكان مثابراً صبوراً ثابت الجأش على مراقبته وارشاده وأن يمهد له سبيل الخير وأن يحول بينه وبين مصاحبة شريرى الطلبة ثم ساعده على القيام بأعماله فلم يلبث أن تقدم تقدماً محسوساً وصار من النابغين على أن صاحبه لم يكن له نصيب من الصيت ولعله وان لم يذع له صيت قضى حياة كلها صبر ونفع وقد كان أقصى آماله أن يقوّم من خلق صاحبه وأن يبث فى روحه حب الحق فمهد له سبيل ما قام به من جليل الاعمال فى الاقطار الهندية

ومن أمثال هذه الحادثة ما كان من أمر الاستاذ بيلى أثناء حياته المدرسية فانه لما كان طالباً باحدى الجامعات استحوذ عليه فئة من رفقائه أظهروا له المودة واتخذوه سخرية لما عرف عنه من قبيح السيرة وفساد الاخلاق وكان على استعداده الفطرى عديم التبصر خاملا مبذراً وافى عامه الثالث بالجامعة ولم يتقدم تقدماً يستحق الذكر واتفق أن قضى ليلته فيما اعتاده من الفساد فلما أصبح وقف الى فراشه صديق يناديه أيها الغافل أنى قد شغلنى أمرك فلم تذق عينى الليلة لذة الكرى بل بت أفكر فى حمقك

وجهلك ، هلا كانت لك منى عظة ، ألا ترى وسائل الفساد موفورة لدىّ ، وفى وسعى التقاعد عن العمل لو شئت وأنك فقير لا تستطيع الى الكسل سبيلا ، ألا ترى أنى وان أجهدت قواى لا أكاد أقوم بعمل وانك منحت القدرة على القيام بما شئت من الاعمال ، أيها الجاهل أنى بت ليلتى هذه أرقاً أفكر فيما صار اليه أمرك فجئت وقد استولى علىّ الحزن أحذرك سوء المغبة فان أبيت الا التمادى فى غيك والأيغال فى طريقك اضطررت الى التخلى عن مؤاخاتك ما حييت والعاقل من ثاب الى رشده وارعوى عن جهله ، فلما سمع مقال صاحبه بلغ من تأثيره فى نفسه ان صار من ذلك الحين رجلا آخر وما كان منه الا ان اتخذ لحياته خطة غير خطته الاولى وثابر عليها حتى أصبح من أعظم الطلبة مثابرة على العمل يعلو منافسيه الواحد بعد الآخر ثم آل أمره الى أن صار مؤلفاً ذائع الصيت

ولم يدرك أحد مبلغ تأثير القدوة فى أخلاق النشء ادراك الاستاذ آرنلد فقد كانت القدوة أقوى سلاح استعمله هذا المربى الكبير فى ترقية أخلاق الطلبة بمدرسته وكان أول غرض له ان يبث روح الاخلاق القويمة فى نفوس خيرة الطلبة وأن يحرك ما كمن فى نفوسهم من العواطف الشريفة ثم عمد الى استعمال هؤلاء آلة لبث تلك الروح فى نفوس سائر الطلبة ، كذلك بذل

جهده فى أن يشعروا جميعاً بأنهم شركاؤه فى هـذا العمل وان عليهم مسئولية أدبية فى نظام المدرسة فكان من نتيجة تلك الطريقة الادارية العاليـة أن أصبح الطلبـة وهم يشعرون بمعنى قوة النفس واجلالها وادركوا أنهم أهل لأن يعتمد عليهـم ، كانت رَجْـيِ لاتخلو مما فى غيرها من التلاميذ غير العاملين فكان دأب هذا المربى العظيم أن يرقبهم ويحول دون سريان عدواهم الى غيرهم قال مرة لأحد المعلمين أترى هذين التلميذين الماشيين معاً انى لم أرهما معاً من قبل وعندى آنه ينبغى لك أن تعنى بمعرفة من يخالطون فلا شيء ادلّ على تطور اخلاق النشء من الذين هم بهم مختلطون

كان الشبان اذا حضروا مجلس هـذا المعلم الكبير علموا كيف يحرصون على حرمة نفوسهم ومن مراعاة حرمة النفس تنبت الفضائل وهى قوام الرجولية قال مترجم حياته يُخَيَّـل الىّ أن وجود هذا الاستاذ بين الشبان كان يبعث فى نفوسهم الحمية والنخوة ويكسب حياتهم نعيما ورقياً يلازمانهم بعد فراقه فلا يزال مثالا حياً فى أفكارهم فلما درج لم تنفصم عرى الرابطة بينه وبينهم[1] وهكذا ربى فئة من الرجال ذوى الخصال الحميدة حذوا حذوه ونشروا فى اقطار الارض أثره

---

(1) Dean Stanley's 'Life of Dr. Arnold', i. 151 (Ed. 1858)

وقيل فى ديجلند ستيورت انه كان ينفخ روح الفضائل فى نفوس تلاميذه قال فيه لورد ككبرن سمعت دروسه فكأنها نعيم فتحت أبوابه سمعتها فكنت أحس بأن لى نفساً لأن سديد آرائه وقد ظهرت فى بليغ عباراته صعدت بى الى عالم أعلى من هذا العالم فغيرت كل طبائعى (١)

واعلم أن للاخلاق تأثيراً فى جميع أطوار الحياة فأخو الفضائل يرفع من حوله وأخو الرذائل يحط من فضائلهم وينقص من اخلاقهم غير شاعر قال بعضهم ان فرداً صالحاً محباً للخير خير من مائة بل من الف ممن لا خلاق لهم ولا غرو فان أفعاله تسرى الى من حوله فلا تلبث أن تؤثر فيهم خيراً ولا يزال الرجل حتى يرفع معاشريه الى درجته فى الفضائل فان من طبيعة الاخلاق أن تنتقل الى غير صاحبها خيراً كانت أو شراً حتى تتسع دائرة تأثيرها فهى كالحجر التى فى راكد الماء يحدث تموجات بسيطة تولد أكبر منها وتتسع حتى تعم الماء كله وعلى هذا النحو انتشر الخير من قديم الزمان (٢) قال رسكين ما كان منشؤه الشر انتج الشر وما كان منشؤه الخير علم الخير اه

---

(1) Lord Cockburn's Memorial's, pp.25, 26.

(٢) من خطاب لكنن موزلى تلى فى حفلة أقيمت عقب موت المرحوم لورد هربرت

اختير جورج هربرت لمنصب دينى فلما شرع فى عمله قال أول ما أعنى به الآن أن أعيش عيشة فاضلة فان رجل الدين اذا كان رائده الفضيلة كانت حياته أقوى عظة لأنها تحمل مشاهديها على التشبه به أفعل ذلك لعلمى أننا فى زمن هو أحوج الى القدوة منه الى النصيحة وحدث أن حملت الشفقة هذا التقى على القيام بعمل لرجل حقير فقيل له فى ذلك فما كان منه الا أن أجاب معاتبه بقوله ان ذكرى مثل هذه الاعمال تدب فى نفسى دبيب الغناء[1] وذكر آيزك ولتن أن جورج هربرت كتب الى صديق له كتاباً يصف فيه الحياة الصالحة فحمله الصديق على صدره وجعل يعرضه على تلاميذه ثم يعيده الى صدره وبقى الكتاب قريباً من قلبه حتى فارق الحياة

ما أقوى الخير على اجتذاب القلوب والسيطرة عليها ولا غرو اذا كان رجل الخير الملك المسيطر على الناس فانه هو الذى يقود القلوب الى حيث شاء

هذا وقد يكون لمجرد رؤية الرجل العظيم تأثير فى نفوس الشبان فانهم لا محالة يعجبون بمن اتصف بالحلم أو الشجاعة أو الصدق أو الرفعة من ذلك ان شتبرين رأى وشنجتن

---

(1) Isaac Walton's 'Life of George Herbert.

مرة واحدة لكن تأثيرها لم يمح من نفسه طول حياته ومن قوله في ذلك سكن وشنجتن رمسه ولا نصيب لي من السمعة البتة ولقد قابلته وهو في عنفوان عظمته وانا خامل الذكر وربما لم يعلق اسمي بذاكرته يوما كاملا ولكني مع ذلك اعد نفسي سعيداً لوقوع نظره علي لأني بقيت مغموراً بتأثيره ولا عجب ففي نظرات العظماء فضائل وقال فردرك برتس يرثي صديقه نيبر يالك من رفيق فقد كنت رعب السفهاء ودعامة الفضلاء ومعين الاحداث وقال في موضع آخر ان الصرعة يستفيد من احاطة خيرة المصارعين به والفكر الخبيثة تفر من النفس اذا وقعت العين على صورة من لو كان حياً ما جالت هذه الفكر بالنفس في حضرته وقال هزلت في صورة لحسناء ان ارتكاب القبائح يكاد يكون مستحيلا أمامها اه وقالت امرأة المانية وقد أشارت الى صورة زعيم الاصلاح الديني في الاقطار الالمانية ان النظر الى ذلك الوجه الذي ينم عن الاخلاص يكسب الناظر الخير اه وقد يكون لنا من صورة المرء الشريف صديق فانها تحرك فينا ارتياحاً له وعناية به فاذا نظرنا الى تقاطيع وجهه زدنا معرفة به وارتباطاً وتكون الصورة واسطة في ارتباطنا بمن هو أعلى منا وشخصه الممثل امامنا معيناً لنا وان لم نستطع مساواة صاحبه .

وكان فكس يفخر بأن لبرك عليه فضل الانتفاع بأفعاله

وأقواله حتى قال ان ما اكتسبه منه من الخبرة فى السياسة يربو على مجموع ما تعلمه من مطالعة الكتب ومن الدنيا وما يجرى فيها. وقضى الاستاذ تندال مع فردى بضع ساعات فقال فيه ان تآليفه تبعث على الاعجاب به ولكن الاختلاط به ينشط القلب ويرفعه. هكذا تكون قوة الرجال وهأنذا أميل الى القوة وهيهات ان أنسى ما بأخلاقه من القوة ممتزجة بالتواضع والحلم واللطف

كذلك الطبائع اللطيفة لها قوة التأثير فى الاخلاق وأعدادها لما فيه الخير من ذلك ان وردسورث أثرت فيه أخلاق اخت له فكان لها أثر خالد فى قلبه وعقله حتى قال فيها أنها كانت نعمة شبابه وشيخوخته وهى ان كانت أقل منه سناً ساعدت بما ركب فيها من الدعة واللطف على تفتيق ذهنه وأعداده لقوة الشعر. وهكذا يقدر ذوو الاخلاق الوديعة بحبهم وذكائهم على تقويم اخلاق رجال ربما أتيح لهم أن يرفعوا من مقام أممهم.

وعزا سير وليم نبير أخلاقه الى تأثير أمه صغيراً والى الاقتداء برئيسه سير جون مور كبيراً أما رئيسه فشاهد فيه جليل الصفات مذ كان يشغل مركزاً صغيراً فى الجندية وكان نبير أحد الذين أعجب هذا الرئيس بهم فى كرنتا فناداهم لقد أحسنتم تشجيعاً لهم وبلغ من تأثره برئيسه اذ كتب لامه يصف مجلس الرئيس فقال فى اثناء كتابه من لنا بملك كهذا.

كذلك كان اثر حبه لرئيسه اتحاف العالم بكتابه تاريخ حرب الجزيرة وزاده رغبة فى هـذا العمل نصيحة أبداها صديق له وهكذا أصبح بفضل الاقتداء باخلاق رئيسه عنواناً للفضائل قال مترجم حياته انه لم يجتمع به مفكر الا تأثر بفضائله

وكانت حياة مَرشَل هول مثالا لتأثير الاخلاق فى الاخلاق وبين ظهرانينا نفر من الفحول نبغوا بآرائه ولولا هو ما وفقوا الى طرق أبواب كثيرة للتحصيل طرقوها على يديه فقد كان يقول لمن التف حوله من الشبان عليكم بالشروع فيما شئتم فاتقنوه يضمن لكم النجاح وكان يعرض على الشاب فكرة جديدة و يقول له قد أهديتكها فان بحثت فيها بحث ذوى الهمة صادفت حظاً وافراً الى غير ذلك مما يثير الهمة

وللأخلاق قوة تثير قوة مثلها فى أخلاق الناس ذلك أن الاخلاق انما تؤثر بالعطف المتبادل وهو من أعظم القوى البشرية تأثيراً فترى الغيور ذا الهمة يقود غيره فى طريقه وتسرى أعماله الى من سواه وتحملهم على التشبه به فهو والكهرباء متماثلان بها قوة تهز كل جزئية فى الجسم وله قوة تسرى فى طبائع من حوله فتكاد تأجج ناراً

وصف مترجم حياة الاستاذ آرنلد ما كان لصاحب الترجمة من مثل هذه القدرة على الشبان قال لم يكن ما حرك نفوسهم

الاعجاب بفرط ذكاء الاستاذ أو علمه أو فصاحته وانما حركها منه روح فعاله ، روح تنعش النفس روح تعمل ابتغاء وجه الله وخشية عذابه ، روح أساس عملها ادراك معنى الواجب وقيمته[1]

هذه القوة اذا استخدمها فحول الرجال اثاروا فى النفس الشهامة والحمية والاخلاص وما أوجد فى جميع العصور عظماء وشهداء يضحون حياتهم قياماً بالواجب الا هذا الاعجاب بالافراد وهو اعجاب لا يكون للمجموع وهكذا يظهر ما للاخلاق من الأثر فى الهام الطبائع الخاضعة لها الهاماً يستفزها وينعشها

ولكبار العقول قوة تنبعث منها القدرة على العمل وليست هذه القدرة مقصورة عليهم بل تتعداهم الى غيرهم فان دَنتى شاعر ايطاليا المفلق رفع جماً غفيراً من العظماء من بِترَرك وبُكَتشيُو وتَسُّو وغيرهم وقادهم فى طريقه ومنه تعلم ملتِن الصبر على مرارة السنة الشر ومضاضة أيام السوء ومكث بَيرُن بين أشجار ايطاليا فذكر دَنتي فعلت نغمة شعره الى درجة لم تبلغها من قبل كذلك نفث دنتي روحاً فى أمهر المصورين ببلده من جيتُّو وأُركَنيا وأنجلو ورفاييل والهم كل من أرِيُستُو وتِشيان صاحبه واضاء عظمته

(1) Stanley's 'Life and Letters of Dr. Arnold', i. 33.

واعلم أن عظماء الرجال يثيرون فى العالم اعجاباً بهم فيجرون غيرهم الى العظمة ذلك لأن الاعجاب بحميد الخصال يرفع العقل ويصدع عنه قيود الانانية وهى أعظم عقبة فى سبيل التقدم الأدبى نذكر من امتازوا بجليل الفكر وعظيم العمل فكأننا اذا ذكرناهم فى جونتى وكأننا بآمالنا واغراضنا وقد ارتفع مستواها ونعم ما قال سن بوف قل لى بمن تعجب من العظماء أخبرك بما أنت عليه من الذكاء والذوق والخلق فان كنت تعجب بدنىء فالدناءة شيمتك وان كنت تعجب بذوى الثروة فأنت دنيوى وان كنت تعجب بذوى الالقاب فأنت متملق دنىء وتابع وضيع[1] وان كنت تعجب بذوى الذمم والهمم والرجولية الحقة فانت شريف همام عالى الروح

وأعظم ما يكون الباعث على الاعجاب بالافاضل فى الصغر والاخلاق آخذة فى التكون وكلما زاد العمر رسخت الطبائع وربما

---

(١) يروى فلب دكمين حادثاً غريباً يمثل خنوع حاشية فلب دوق برجندى فى تقليد مولاهم وان كانوا مكرهين على هذا الخنوع قال كان الامير اذا مرض فحلق رأسه أمر بأن يحلق أشرافه وكانوا خمسمائة رؤوسهم وكان أحدهم (بيزدهمبنباخ) اذا رأى أحد الاشراف لم يحلق رأسه بعث به من فوره الى الحلاق — كان يبير يفعل ذلك ليقيم الدليل على ولائه لمولاه الامير
Philip de Comines (Bohn's Ed) p. 243.

لا يكون للشخص قدوة خاص من العظماء فيحسن اذن أن يكون الحث على الاعجاب بالعظماء وأعمالهم والطبائع لا تزال لينة قابلة للمؤثرات لأن الاحداث لا بد لهم من اتخاذ قدوة لأنفسهم فهم اذا لم يعودوا الاعجاب بمن امتازوا بالفضائل عرضة لاحتذاء من اشتهروا بقبيح الاعمال ومن ثم كان الاستاذ ارنلد يمتلىء سروراً اذا سمع تلاميذه يعجبون بعمل جليل أو يتحمسون لرجل عظيم أو منظر يأخذ بمجامع القلوب ومن قوله فى ذلك عندى أن لا وسيلة لا يصال من يستحوذ عليهم الشيطان الى دقائق تعاليمه أنجع من أن يوقع فى نفوسهم عدم اتخاذهم من بين العظماء أما ما لهم وعندى أن المصاب بآفة بغض القصص الخيالية فاقد أرق جزء من طبيعته محروم حصنه المنيع دون ما يحط من القدر وما يشين الاخلاق (1)

وكان من لطيف خصال الامير البيرت ما ركب فى طبيعته من الاستعداد للاعجاب بما يرى من أفعال الخير أشار الى ذلك أقدر من وصف أخلاقه قال كان الامير يجد فيما يصدر عن غيره من لطيف قول أو عظيم فعل سروراً لا يحد وكان يتحدث به أياماً والفرح ملء قلبه سواء أصدر الفعل أو القول عن طفل أم

(1) 'Life', i. 344.

عن سيامى محنك لانه كان يسره ما يصدر عن الانسانية فى أى وقت وبأى حال[1]

وقال جُنسُن ما من خلة تكسب المرء خلاناً أكثر مما يكسبه الاعجاب الخالص بالحسن من اخلاق غيره ومثل هذا الاعجاب يدل على كرم فى الطبع واخلاص فى القلب واعتراف بحقوق الناس اهـ ونتج عن اعجاب بزُوِل به وان شئت فقل اجلاله اياه ان ترجم حياته فكانت من اجمل ما كتب فى هذا الباب وهى تحمل على الاعتقاد بأن كاتبها كان لا محالة متحلياً بصفات جليلة حقة حتى مال الى الاستاذ وبقى على ولائه له رغماً مما حال دون ذلك من العراقيل

ولئن كان مَكُولِى حط من قدر بُزوِل ووصفه بالدناءة والرياء وحكم عليه بالضعف والغرور واللغو فى القول وجرده من اصالة الرأى والبديهة والفصاحة فلا مشاحة فى أن كَرلَيل قد انصف فى الحكم عليه وهو يرى منه وان ظهر فى اخلاقه شىء من الحمق والغرور فى أحايين كثيرة رجلا اثرت فيه صحبة جُنسُن ومحباً للحكمة والفضل معجباً بهما قال كَرلَيل ولولا هذه الصفات

(1) Introduction to 'The Principal Speeches and Addresses of H. R. H. the Prince Consort', p. 33.

ما استطاع أن يكتب ترجمة جُنسُن الى أن قال انه اجاد فى هذه الترجمة لان له بصراً وبصيرة يرى بهما الحكمة وفصاحة يودعها اياها ولأن له نظراً فى الأمور وقريحة غير خاملة وصراحة فى القول أشبه بصراحة الطفل

ولكل شاب سليم العقل قدوة يعجب به ولا سيما اذا كان ممن يكبّون على مطالعة الكتب فمن ذلك أن آلَن كَنِنجهَم سافر راجلا الى اِدِنبرَا لا لغرض سوى مجرد رؤية سير ولتر سكُت وهو مار بالطريق فمثل هذا الشاب يبجل منه شعوره الحى والباعث الذى دفعه الى رحلته هذه

وحكى عن سير جُشيُوَا رِنلدس انه وهو ابن عشر مدّ يده بين صفوف متلاصقة من الناس ليلمس ثوب كأن فى لمسه ضرباً من الفضيلة واتفق بعد زمن أن هَيدُن نابغة التصوير رأى سير رِنلدس بعد أن صار رجلا شهيراً ثم لمسه وصار فيما بعد يفخر بذلك وكان من عادة روجَرز الشاعر وهو صبى أن يتحدث بشديد رغبته فى رؤية جُنسُن فلما وقف ببابه وهم بالاستئذان فى الدخول عليه خانته قواه فقفل راجعاً وذهب اسحق دِزرَئلى الى بيت جُنسُن لمثل هذا الغرض الا أنه وان قوى على الاستئذان علم لسوء حظه أن جُنسُن قد فارقته الحياة قبيل وصوله

وعلى العكس من ذلك ذوو العقول الصغيرة تجدهم لا يستطيعون الاعجاب الحق بغيرهم بل يعجزون لسوء حظهم عن ادراك ما عظم من الرجال والاعمال واجلالهم للعظيم أقل من ادراكهم كنهه لأن الطبائع الدنيئة دنيء ادراكها والمتجرون فى العبيد يقدرون الرجل بقوة جسمه ومفتول عضله ، لقى أحدهم وكان من غينا سير جدفرى نيلر وبوب فقال له نيلر انك فى حضرة اثنين من أعظم رجال العالم فما كان منه الا أن أجابه بقوله انى لا علم لى بعظمتكما ولكنى لا تروقنى هيئتكما ولطالما اشتريت بعشرة جنيهات رجلا أحسن منكما معاً كله عظم وعضل

والطبائع الدنيئة تجد ارتياحاً لخيبة الناس وحبوط مساعيهم وتقلق لتوفقهم فى أعمالهم ومن الناس من خلقوا ولا اثر للعطف فى قلوبهم وابغضهم من ينصبون انفسهم للتأنيب والتقريع فيعدون نجاح غيرهم ولو فى عمل خيرى اساءة اليهم ولا يقوون على استماع ما يوجه الى غيرهم من الثناء ولاسيما اذا كان محترفاً بما هم به محترفون فان سقط الرجل فهم عنه راضون وان فاقهم فقد اقترف اثماً لا يغفر فى شرعتهم وأشد ما يكون سخطهم اذا قام غيرهم بما هم عنه عاجزون وكأنى بهم ولسان حالهم يقول

اذا اقتضت العناية رفع خصمى
فذاك مبرر سخطى عليه

وترى ذوى العقول الدنيئة يهيمون بالسخرية من الناس والبحث عن هفواتهم صغيرها وكبيرها واحتقار كل شيء الا الوقاحة والرذيلة ولا راحة لأمثال هؤلاء الا فيما يأتيه ذوو الخصال الحميدة من الزلات قال جُورج هِربِرت لولا هفوات العقلاء لساء حال الجهلاء ومن العجب أن لا يستفيد الجهلاء مما يأتيه العقلاء من الاعمال على أن العقلاء قد يستفيدون من الجهلاء وذلك باجتناب سيئاتهم قال كاتب المانى لقد شق من لا هم له الا أن يبين ما بأخلاق العظماء أو ما فى العصور العظيمة من العيوب فليكن كل منا فى حكمه على العظماء مثل بُلنجبروك حين ذكر فى حضرته ضعف نسب الى مَرلبَرا فقال ان هذا الذى تذكرون عيبه قد بلغ فى العظمة مبلغاً نسيت معه ان فيه تلك النقيصة التى تذكرون

ومن طبيعة الاعجاب بالعظماء احيائهم وامواتهم ان يبعث على التشبه بهم قل هذا التشبه أو كثر فان تِمِستُكليز القائد اليونانى توقد ذهنه وهو لا يزال شابا بما أبداه أهل عصره من جليل الاعمال فتاقت نفسه واشرأبت عنقه الى ان يشتهر بالدفاع عن بلده ولما انتهت معركة مَرَثُن استولت عليه الكآبة وسأله اصحابه عن السبب فقال ان ما اصاب مِلتيادِيز من الغنائم نفى عنى الكرى اهـ وما مضت سنون قليلة حتى رأس الجيش اليونانى وهزم اسطول

الفرس فى وقعتى أرتِمسيّم وسَلَميس وشهدت امته بانها نجت بحكمته وبسالته

وروى عن تُسيديد انه سمع وهو صغير السن هِرُدُت يقرأ تاريخه فلم يملك عبراته وأثرت هذه الحادثة فى نفسه تأثيراً مال به الى التاريخ وساعده على ان صار أعلى قدماء المؤرخين كعبا

كذلك توقد ذِمُستين حين شهد فصاحة كَلِسترات فى احدى خطبه فتاقت نفسه الى ان يكون خطيباً مصقعاً وقد فعل مع انه كان ضعيف البنية ضئيل الصوت قصير النفَس لا يفصح فى منطقه وهذه العيوب اصلحها منه كد لا ينى وعزم لا ينثنى ولكنه مع هذا التدريب لم يستطع الارتجال وفى خطبه ولاسيما اشهرها ما يدل على عنايته الزائدة فى اعدادها حتى تكاد كل عبارة من عباراتها تنم عما بذله فيها من مجهود

والتاريخ مفعم بالشواهد على أن الاخلاق تسرق من الاخلاق وتتكيف بما يصادفها من أساليب العظماء وعاداتهم وقرائحهم فما من جندى باسل أو سياسى محنك أو خطيب مفوه أو وطنى صادق أو شاعر مفلق أو مصور ماهر الا وكان له دون أن يشعر مربٍّ من أعمال عظيم عاش قبله أو عرض عليه ليحكيه

ولقد طالما اثار العظماء الاعجاب بهم فى نفوس الامراء والملوك ورؤساء الاديان من ذلك ان فرنسيس دِمِيدِسى ما خاطب

انجلو قط الا رفع قبعته اكراماً له واجلالاً وكان البابا يُليُوس الثالث يجلسه الى جانبه وعنده رجال الدين وقوفاً على الاقدام وبلغ من اكرام شارلس الخامس تشيان أن اكب على آلة التصوير وقد سقطت من يده فالتقطها ثم ناوله اياها وهو يقول ان مثلك لجدير بأن تخدمه الملوك وتوعد البابا ليُو العاشر بالطرد من الكنيسة كل من أقدم على طبع اشعار آرِيُستُو أو بيعها دون موافقة صاحبها ولازم فراش رفائيل حين حضرته الوفاة كما لازم الامبراطور فرنسوا الاول فراش لُناردو دَفِنْسى

ومع ما ذهب اليه هيدُن من أنه كان محبوباً موفور الكرامة لم يبغضه الا اساتذة الموسيقى نرى فحول هذا الفن الجميل قد جرت عادتهم أن يعترف بعضهم بعظمة بعض ويقر بفضله وكان هيدُن هذا نقياً من الحقد والحسد ابى عليه اعجابه بالاستاذ الشهير بُربورا الا أن يلتحق ببيته ويقوم بخدمته فسعى فى التعرف بأهل البيت الذين كان بُربورا يعيش بينهم وسمح له بما أراد فكان جل عنايته أن يقوم مبكراً لينظف ملابس مولاه ويصقل نعليه وكان المخدوم فى بادئ الأمر يبدى استياءه من ذلك التطفل ولكنه ما عتم أن كفكف من غرب حدته ثم زالت فأعقبتها المحبة ورأى السيد عبقرية خادمه فعمل على ارشاده الى ذلك السبيل الذى كان له فيه ما كان من السمعة و بعد الصيت

وكان هيدن متحمساً فى اعجابه بهندل وفيه يقول هو استاذنا جميعاً و بلغ من اعجاب سكرلَتى به ان كان فى ايطاليا يصحبه اينما حل ويلحق به أينما سار وكان اذا ذكر اسمه يصلِّب بيديه على جسمه اظهاراً لمنزلته عنده ولم تكن منزلته عند مُزار بأقل من ذلك فانه قال عنه أن هندل متى شاء اندفع اندفاعا وكان بِتُوفن يدعوه أمير دولة الموسيقى و بينا هو يفارق الحياة اذ أهداه صديق له مؤلفات هَندِل فى اربعين مجلداً فلما أحضرت الى حجرته قال مشيراً اليها وقد ردت الحياة الى عينيه هنا هنا الحق

ولم يقتصر هيدن على الاعتراف بفضل الغابرين من العظماء بل اعترف بعبقرية صغيرين من معاصريه وهما مُزار و بيتوفِن ولا غرو فقد يتطرق الحقد الى نفوس الاصاغر ولكن لا مشاحة فى حب العظماء بعضهم بعضاً واهتداء بعضهم بهدى بعض كتب هيدن عن مُزار يقول قصارى ما ابتغى ان اطبع فى نفوس محبي الموسيقى ولاسيما النابغين منهم ما أشعر واتمتع به من شدة العطف على فن الموسيقى وقدر موسيقى مُزار وهى لا تبارى حق قدرها اذن لتنافست الامم فى اقتناء مثل هذه الدرة اليتيمة ألا أن الواجب على براغ نحو هذا الرجل القيم أن تحرص عليه وتجزل له العطاء والا كان فى تاريخ ذلك العبقرى ما يؤسف له وانى لأتميز من الغيظ اذا ذكرت ان مزار وهو العديم النظير غير موظف

فى بلاط احد الملوك ثم قال لا تعيبوا دهشتى فانى أميل الى الرجل بكل جوارحى اه

ولم يكن مزار بأقل اعترافاً بمزايا هيدن فقد قال مخاطباً احد المنتقدين سيدى لو امتزجنا ما نتج من امتزاجنا ما يكفى لخلق شخص كهيدن ولما سمع مزار بيتوفن لأول مرة قال أصغوا الى هذا الشاب وثقوا بأن سيكون له شأن فى العالم

وكان بُوفُن يفضل سير نيوتن على غيره من الفلاسفة وتناهى فى الاعجاب به حتى صار كلما شرع فى عمل ويضع صورته امامه وكذلك كان ينظر شلر الى شكسبير فجعل يدرس مؤلفاته سنين حتى صار عالما بالطبائع البشرية فزاد به اعجاباً

وكان بِت استاذ كانِنج وامامه فكان كانِنج يحذو حذوه ويعجب به ويتقرب منه تقرب المخلص الوفى وفيه يقول ملت بكل جوارحى الى رجل واحد اذ كان حياً أما وقد مات فانى لا أقر لغيره بالسيادة علىّ وقد دفن ولائى لأهل السياسة مع هذا الرجل فى قبره (1)

وبينا احد علماء الفرنسيين يلقى درسا على تلاميذه فى علم وظائف الاعضاء اذ دخل عليه سير تشارلس بِل وكانت مستنبطاته قد عرفت فى غير بلده وقدرت حق قدرها اكثر مما عرفت وقدرت

(1) Speech at Liverpool, 1812.

فى بلده فلما عرف الاستاذ الزائر سكت ثم قال لتلاميذه كفى ان أمامكم الآن سير تشارلس بل

ولقد جرت العادة أن يكون لصغار المشتغلين بالفنون الجميلة شعور خاص عند رؤيتهم لأول مرة عملا عظيما حتى لقد تبقى الحادثة ذات ذكرى فى حياتهم ، رأى كُرِجيو تمثال القديسة سِسليا وهو مما صنع رفائيل فاحس بقوة جديدة قد انبعثت فى نفسه ثم صاح وقال وانا أيضاً مصور وكان كُنستَبل يعتبر أول عهده بصورة هاجر وهى مما صور كاود مِن أبلغ الحوادث أثراً فى حياته وبلغ من أعجاب سير جورج بُومُن بهذه الصورة ان كان ينقلها معه فى سفره

هذا وما قدم العظماء وأولو الخير من الاعمال لا يضيع سدًى بل أعمالهم تبقى حية تخاطب مستقبل الاجيال قال دِزرِئلى فى البرلمان بعد وفاة مستر كَبدِن اذا ذكرنا ما ينزل بنا من هذه الخسائر الفادحه بقى لنا عزاء واحد وهو اننا لم نخسر هؤلاء العظماء كل الخسارة فكلامهم سيبقى مورد المقتبس وأعمالهم ملجأ اللاجىء وعباراتهم سيكون لها نصيب من ابحاثنا ومفاوضاتنا ، ان من الناس من ليسوا بيننا ولكنهم لا يزالون أعضاء بالبرلمان أعضاء لا يؤثر فيهم انحلال المجلس ولا تغلب المنتخبين كلا ولا مرور الايام وعندى ان مستر كُبدِن احد هؤلاء

ولتراجم العظماء ميزة هى انها توقفنا على ما يستطيع المرء ان يأتى من الاعمال وهو فى ذروة كفايته فهى تبث فى المرء روحاً جديدة وثقة بالنفس حتى لقد يدب فى نفس الوضيع الأمل ويسرى الى قلبه الاقدام متى رأى عظيما من العظماء ولا يزال هؤلاء الاخوان من العظماء وقد أصبحت حياتهم عامة ينادوننا من بطون القبور أن اسلكوا ما سلكنا من السبل ولا تزال أعمالهم معنا ترشدنا وتؤثر فينا وتولى وجوهنا شطر الخير

فانت ترى أن جميل الخصال ميراث دائم يبقى ما بقيت الايام ولا يفتأ ينتج ما يشابهه ، يقول أهل الصين العاقل مرشد لمائة جيل واذا ذكرت أخلاق لـو فطن الغبي وعزم المتردد اه وهكذا تكون حياة خيرة الرجال مصدر الحرية لمن يأتون بعدهم كما قيل ما مات من ترك له فى القلوب ذكراً

ولا يزال ماجاد به العظماء من النصائح الغالية وما اتوه من الاعمال الجليلة باقياً مدى الدهر يسرى الى افكار من يأتون بعدهم والى قلوبهم وربما صبرهم فى ساعة الموت قال بعضهم وقد مات فى السجن أن اشنع الموت وآلمه وقعاً يتلاشى بذكر الحياة الطيبة وما العظيم الا من ترك من قوله وفعله مرشداً لمن يأتى بعده

الفصل الثالث

العمل

اعملوا يكن الله معكم

أحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً

انما يسود المرء بالعمل

لويس الرابع عشر

أيها العمل لئن عددناك نقمة فماذا تكون النعمة

سلكرك

ليشتغل كل امرئ وليشتغل بأرفع ما يستطيع من الاعمال. وليمت وهو شاعر بأنه بذل قصارى جهده

سدنى سمث

العمل من أجل ما يكوّن الاخلاق ، يبعث فى النفس ويربى فيها الطاعة والضبط والتيقظ والصبر على إعمال الفكر والمثابرة فيكسب الانسان الحذق والمهارة فى مهنته والاستعداد والتأهب للقيام باعمال حياته .

العمل قاعدة الحياة والمبدأ الحى الذى ينهض بالافراد والامم، فالسواد الأعظم من الناس مضطر الى العمل حتى يستطيع العيش ولكن الناس أجمعين لا بد لهم من العمل بأية وسيلة اذا ما اشرأبت أعناقهم الى التمتع بالحياة كما يجب أن يتمتع بها .

قد يكون العمل عبئاً ثقيلا ولكنه مع ذلك سلم الى الشرف والمجد لا يتم شيء بدونه وان شئت فقل ان ما للانسان من الحسنات والآيات البينات ان هو الا أثر من آثار العمل وهذه الحضارة ثمرة من ثمره فلو محى العمل من الوجود لحل بابن آدم الموت الادبى وقضى عليه القضاء المبرم .

انما آفة الخلق الخمول لا العمل ذلك الخمول الذى يجتث قلوب الافراد والامم ويعمل فيها عمل الصدأ فى الحديد ألم تر ان الاسكندر لما غلب الفرس على امرهم وأتيح له النظر فى خصالهم لاحظ عليهم أنهم لم يكادوا يفطنون الى انه لا أخس من حياة اللهو واللعب ولا أكرم من حياة الكد والنصب .

ولما كان الامبراطور سِفِرس على فراش الموت فى يورك

وكان قد نقل من جبال جرمَـنيـنز اليها كانت آخر نصيحة منه لجنده ان قال لنعمل اه ولم يقم ما كان لقواد الرومان من القوة وضخامة السلطان الا على أساس من الكد المستمر

وذكر بلنى فى وصف حالة ايطاليا الاجتماعيـة فى أوائل ايامها أيام ان كانت الفلاحة جديرة بأقصى ما يتصور من التجلة . ان القواد والجند كانوا اذا عادوا من حروبهم ظافرين منصورين اشتغلوا بفلاحة الارض مطمئنى البال مرتاحى الضمير وفى ذلك يقول كانت الارض فى تلك الايام تفلح بايدى القواد فتضحك اذ يفلحها سنان تزينه شارات المجد ويزجيه فلاح سوّده النصر اه[1] .

ولما ان اخلد الرومان الى الراحة وفشا فيهم استخدام الرقيق فى القيـام بأعمالهم صار العمل عندهم مستهجناً حقيراً خادشاً للشرف ولما ان صار الخمول والترف ديدناً للطبقات الحاكمة فيهم .

(١) ذكر بلنى فى الفصل الثالث من كتابه فى التاريخ الطبيعى مبيناً ما كان للزراعة من المنزلة السامية فى أيام رومه الاولى ان الارض كانت تقاس بما يستطيع ثوران حرثه فى مدة بعينها وان اعظم مكافأة للقائد أو لمن امتاز بالشجاعة كان منحه قطعة أرض يستطيع ثوران حرثها فى يوم واحد وان أعظم تحية للمرء ان يقال انه زارع كفء أو فلاح مجيد وان رعى الماشية فى ظلمة الليل لغير الناضج من الزرع كان فى شرعتهم اثما يعاقب عليه بالاعدام وان الفلاحين كان لهم الصدر بين طبقات الامة وأهل المدن لم يعدوا أهلا لان يوثق بهم لانهم طائفة خاملة

ساروا نحو الاضمحلال والدمار سيراً حثيثاً

لا أظن أن بين طبائعنا طبيعة يجب أن يؤخذ منها الحذر أكثر من الخمول ولقد صدق الرجل الذى ساح فى أكثر بقاع الارض حين سأله مستر جرلى اشاهد من بين خصال البشر خصلة يمكن أن تعتبر أكثر الخصال شيوعاً فى النوع الانسانى فأجاب انى أرى الناس اجمعين بالكسل مغرمين واراه وفق فى حكمه الى الحقيقة فهذه الآفة يستوى فيها العظيم والحقير والصعلوك والأمير والانسان ركب فى طبيعته حب التمتع بثمر العمل دون تحمل عبئه وهذا ما دعا جيمس مل الى القول بأن الاصل فى ايجاد الحكومة درء مطاوعة هذه النزعة الى حد الضرر بالمجتمع وتعطيل مصالحه (١)

اللهم ان الخمول أصل انحطاط الافراد والامم لم تقم ولن تقوم لأهله قائمة فى هذا العالم، لم يرق بهم ولم يمكنهم من تذليل مصاعب فى مقدورهم التغلب عليها فأهل التراخى دائماً عاجزون هكذا كان شأنهم وهكذا سيكون فقد قضت سنة الكون عليهم بالخيبة فى كل شيء ، هذا الخمول داء عضال به يرتبك الحال ويقلق البال وهذا التراخى عديم الثمر يشكو أهله وتستولى عليهم الكآبة والبؤس والضجر

(1) 'Essay on Govt'. in 'Encyclopedia Britannica'.

قال برتن فى سياق الكلام عن الكآبة والاسباب الداعية اليها الخمول موت زؤام وسم للجسم والعقل زعاف ، هو مهد الخبائث ومنبع المفاسد هو أحد الخطايا التى تودى بالانسان هو فراش الشيطان ونضيدته ومتكؤه واذا كان الخامل من الكلاب يصاب بالجرب فما بالك بالخامل من الناس ، الا وأن خمول العقل لشر من خمول الجسم والفطنة بلا عمل مرض عضال بل هى صدأ الروح بل وباء بل الجحيم بعينه والافكار السيئة الفاسدة تنمو فى المرء الخامل فتفسد روحه كما تكثر الديدان والقاذورات فى الغدير الراكد فتلوثه وتكدر صفوه وانى لأجرؤ أن أقول لا يرتاح لمن استولى عليه الكسل ضمير ولا يسلم له جسم ولا عقل بل يعيش قلق البال ضعيف الجسمان منغص الحال ساخطاً باكياً مصدوراً أسفاً مذبذباً ناقماً على العالم وما فيه يود لو مات وارتحل وان سلم من هذه الآفات فلا يزال تتقاذفه الاوهام الباطلة هذا حال الخامل مهما نال من الثراء وسعيد الحظ وصاعد الجد ومهما أصاب من النعيم الذى يصبو اليه القلب وترغب فيه النفس [1] اهـ

وقد قال برتن بهذا الصدد أكثر مما ذكرنا الى ان لخص

(1) Burton's Anatomy of Melancholy, Part i. Mem.2, Sub. 6.

كتابه فى العبارة التى اختتمه بها فقال قصارى الأمر انه يجب عليك وانت تسعى فى حفظ نفسك من الكآبة والحزن وفى توفر صحة جسمك وعقلك ان تعمل بهذه النصيحة الموجزة وهى ان لا تدع فى نفسك مجالا للعزلة والخمول فلا تك وحيداً ولا تك خاملا (١)

على ان الخامل لا يكون تام الخمول فأن الفكر لا يكف عن العمل وان عافه الجسم واذا لم ينبت ما يفيد انبت ما لا يفيد أنبت قتاداً يعترض الخامل وتغص به سبل حياته واشباح الخمول تظهر فى جوف الليل ولا تزال تحملق فى وجه صاحبه وتشن عليه أنواع العذاب ولا غرو فربك حكم عدل يخلق من الرذائل التى تطمئن اليها نفس الخبيث سياط عذاب تُصَبّ عليه

السعادة الحقة اذن فى استعمال القوى النفسية فيما يعود بالنفع لا فى ابقاء هذه القوى ساكنة لا عمل لها (١) والذى ينهك القوى الخمول لا العمل وما فيه من النشاط والصحة والسرور ومن هنا اعتاد أحد الحكماء من الاطباء أن يعتبر

(1) Burton's Anatomy of Melancholy End of concluding chapter.

(٢) من خواص الهندوس اعتبارهم السكون الكلى أكمل الحالات ووصفهم الذات العلية بالساكنة

العمـل من أمهات وسائل العلاج قال مُرشَل هُول لا شىء أدعى الى الفساد من الوقت بلا عمل اه وكان أحد المتفقهين فى الدين يقول قلب الانسان رحى دائرة ان التى فيها الحب طحنته والا طحنت نفسها

ولقد جرت العادة أن يكون الخمول مفعما بالاعذار ولا تعدم الخرقاء عذراً والخامل سفطائى لا يمل وان رغب عن العمـل ، تراه يقول فى سبيلى غضافر ضارية وذلك الجبل وعر المرتقى ولا فائدة فى أن أجهد قواى فى هذا العمل فانى اجهدتها ولم انجح هـذا عمل لا قبل لى به الى غير ذلك من السخافات ، كتب سير صَمـول رُمِلى الى شاب من أصحاب هذه السفسطة وأهل تلك الاعذار يقول لقد شننت الغـارة على خمولك وتبديدك الوقت وانى لأرى أن اتخاذك مثل هذه الحجج الغريبة دفاعاً عن نفسك لا يرجع الى شىء ما سوى ما اعتدته من عدم اجهاد قواك ، انت ترى أن كل امرئ يقوم بما يستطيع من الخير فاذا لم يفعل امرؤ خيراً فذلك آية عجزه عن القيام به أى انك اذا لم تكتب فذلك دليل على عدم استطاعتك الـكتابة واذا عدم الميل دلّ ذلك على عدم الفطنة والذكاء فما أعجب هذه الطريقة وما أعظم الخير الذى ينجم عنها لو انها تصادف قبولا فى العالم أجمع اه

قيل ان رغبة الانسان فى نيل الاشياء دون تحمل عبء تحصيلها دليل على الضعف وان السر فى القوة أن يعتقد الانسان أن كل شىء يمكن الحصول عليه بدفع قيمته حتى أوقات الفراغ لا تحلو ما لم تنل بالكد ولا يكون ثمنها قد دفع ان لم تنل به (١)

ولا بد دون الراحة من عمل يسبقها وعمل يأتى بعدها وفراغ يرجع المرء اليه (٢) أما الفراغ بلا عمل ففضلة والخامل معيشته ضنك سيان فى ذلك موسر لا عمل له ومعسر لديه العمل ولا يعمل فأخلق بكل خامل أن يكون شعاره (الماضى خدعنى والحاضر يعذبنى والمستقبل يخيفنى) وهى كلمات وجدت موشومة على الساعد الأيمن لبائس قد بلغ الاربعين وهو يعانى فى سجن برُج بفرنسا المرة المتممة للثمانين من المرات التى أودع فيها السجون

العمل واجب فى عنق جميع طبقات الهيئة الاجتماعية ولكل

---

(١) كان لسنج يعتقد ان القناعة التى تدعو الى الكف عن الحركة تورد البشر موارد الحتف ورسخ فى نفسه هذا الاعتقاد حتى قال لو خيرت فى ان أبلغ الحقيقة أو اسعى وراءها لآثرت السعى وراءها فذلك خير لى أما بسويه فيقول يخيل الى انى لو تصورت نفساً غاية فى العقل لما غرست فيها الا فهم الحقيقة وحبها وان فى ذلك دون غيره سعادتها

(٢) الناقل : يقول ابن مسكويه اللذات كلها فى الحقيقة خلاص من آلام وراحات من تعب

فرد من أفرادها قسط منه عليه القيام به سواء فى ذلك المثرى والمعدم والفاضل نسباً ونشأة يشعر وان نال من زينة الدنيا ومتاعها الشيء الكثير بأن الواجب يقضى عليه بالقيام بنصيبه من السعى فى سبيل المصلحة العامة التى له منها نصيب ولا يرضى أن يعيش آكلا لا بسا من عمل الناس دون أن يكافئ الهيئة الاجتماعية التى هى ملاكه بما يليق بها والشريف النفس الراقى الفكر يستنكف أن يشترك فى سرور ويتمتع به ثم يقفل منه راجعاً دون بذل ما عليه مما استلزمه السرور من النفقة ولعمرى ليس فى الخمول شيء من الشرف ولا من المزايا وان رضى ذوو النفوس الوضيعة بمجرد التبديد فان من لهم نصيب من المواهب العالية والآمال العظيمة والاغراض الشريفة يرون فى تلك الحال ما ينافى الشرف الحق والكرامة

قال لورد ستنلى (وهو الآن ارل دربى) لا أعتقد أن امرأ بلا عمل سعد أو يستطيع أن يسعد السعادة الحقة مهما كان محبوباً مبجلا معظماً واذا تقرر أن العمل هو الحياة فأرنى ما تستطيع عمله أرك من أنت ولقد سبق لى اثبات أن حب المرء العمل خير مانع لفساد الذوق ولكنى سأذهب بك الى أبعد من ذلك وأقول انه خير واق من القلاقل الصغيرة والمنغصات التى تنجم عن الانهماك فى الانانية وارضاء النفس وكثر ما حسب

الناس قبل الآن أنهم يستطيعون توقى التعب والقلق بحفظ نفوسهم فى شبه عالم جديد خاص بهم وكثر ما جربوا ذلك وطالما حاولوه فلم يجدوا سوى نتيجة واحدة هى أنه لا مفر للمرء من المتاعب والعمل هذا ما جرت به المقادير على البشر والذين يفرون من ملاقاة التعب يجدون المتاعب ذاهبة اليهم أجل قد يسعى الخامل فى أن يحمل من عمل هذا العالم أقل من نصيبه ولكن الله يريد أن يكون هذا القدر القليل كثيراً لدى الخامل حتى يشق عليه القيام به ولا غرو فالذى لا هم له الا أن يرضى نفسه يرى منهلا سيداً صعباً ارضاؤه أجل يجد ذلك عاجلا أو آجلا والأول أقرب، هذا وأن للضعيف الذى يفر من التبعة لنصيبه من العقاب لأن الامور التافهة تعظم حيث تعدم المصالح الضخمة ويضيع عمل العقل فى القلاقل الحقيرة التى يسولها الوهم فتنمو وتكثر فى عقل من لا عمل له مع أنه من الحكمة أن يستعمل ما لاقى العقل من التعب من جراء هذه القلاقل الحقيرة فى أعمال الحياة الخطيرة التى تعود عليه بالفائدة والسلامة اهـ (1)

لا غنى للانسان عن عمل دائم مفيد حتى فى لذاته الخاصة به ومن لا يعمل لا يتمتع بخيرات العمل قال سير وُلتَر سكُت لا يلذ النوم ولا تحلو اليقظة الا بالعمل ولا يتمتع الانسان

(1) Lord Stanley's address to the Students of Glasgow University, on his installation as Lord Rector.

بأوقات الفراغ الا اذ أدرك معنى الكد وذاق طعم التعب

لا ننكر أن من الناس من يموت من كثرة العمل ولكن الذين يموتون من الانانية والخمول والانهماك فى ارضاء الشهوات اكثر عدداً واكثر ما يكون اضمحلال العاملين من كثرة العمل اذا لم ينظموا أعمالهم واذا أهملوا شروط الصحة فلورد ستنلى محق فى قوله وهو يخطب طلبة جامعة جلسجو انى فى ريب مما اذا كان امرؤ أصابه ضرر من جراء العمل الشاق اذا كان منتظماً يؤدى بثبات اه

وليعلم أن طول العمر ليس بمعيار لطول الحياة وانما تقاس حياة الانسان بما يعمله وبما يشعر به فيها فكلما كثر عمله المفيد وفكره وشعوره طالت حياته أما الخامل الذى لا فائدة فيه فالحى فيه جسمه فقط وان بلغ أقصى العمر وان لنا فى النقباء الاولين للديانة المسيحية وتكريمهم العمل لاسوة حسنة فان القديس بولس يقول لا طعام لمن لا عمل له وقد أكسب نفسه المجد اذ كان يعمل بيديه ولم يجعل لأحد عليه يداً ولما نزل القديس بُنيفاس أرض بريطانيا كان يحمل فى أحدى يديه الانجيل وفى الاخرى آلة من آلات النجارة وغادر انجلترا الى المانيا لحمل معه فن البناء ومن بين ما قام به لوثر من الاعمال

كسبه القوت بالعمل فى الحدائق والبناء والخرط وعمل الساعات (١)

---

(١) كتب لوثر الى ريشس دير فى « نرمبرج » وكان قد ارسل اليه بعض الآلات يقول لقد تقدمت كثيراً فى صنع الساعات وأجد لذلك سروراً عظيماً لان هؤلاء السكسون السكيرين فى حاجة الى ان يذكرهم الانسان دائما بالاوقات الصحيحة على انهم لا يحفلون كثيرا بالزمن وما دامت كؤوسهم ملأى فتفكيرهم فيه قليل ولا يبالون بصحة الوقت ولا بالساعات ولا بصانعيها

Michelet's Luther p. 200

الناقل : ان كثيراً من صناديد العرب وفحول الاسلام كانوا أهل حرف لم يستنكفوا العمل قال صاحب أشهر مشاهير الاسلام فى الكلام على صناعة أبى بكر كانت قريش مع ما تمت به من النسب وتحوزه من شرف المكانه عند العرب لما انها حامية البيت وضريح ولد اسمعيل لا يستنكف أشرافها الاحتراف أو المتاجرة والاعتماد فى الاسترزاق على عمل اليد تنزها عن الاتكال على فضلات العجز والاعتماد على تراث الآباء فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتى ترجمتهم فى هذا الكتاب فقط فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ومنهم سعد بن ابى وقاص وكان يبرى النبل ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة قالوا أنه يبلغ أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبى صلى الله عليه وسلم على مصالح المسلمين والذى بقى عنده ما زال يتجر به حتى مات رضى الله تعالى عنه وأرضاه اه « أبو بكر صفحة ١١ »

والشريعة الاسلامية فيها من الحث على علو الهمم واكتساب المعدوم والتشوف للمعالى والتنزه عن سفاسف الامور وعن ان يكون المرء عالة على الناس ما لا تسعه هذه العجالة قال تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا

وكان نابليون اذا ذهب لزيارة عمـل عظيم يجل مخترعه واذا استأذن فى الخروج حياه بالانحناء وحدث فى جزيرة القديسة هيلانه أنه كان سائراً مع السـيدة بلـكمب فمر بهما بعض الخدم يحملون شيئاً فأمرتهم السيدة مغضبة باخلاء الطريق فما كان من نابليون الا أن اعترضها قائلا الا فلترعى حرمة الحمل أيتها السـيدة اه وكل عمل ولو كان من أحقر عامل يعين على سعادة

فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه .

وفى الحديث الشريف اليـد العليا خير من اليد السفلى ولان يأخذ أحدكم احبله فيحتطب خير له من ان يسأل الناس هذا منعه وهذا أعطاه وان من الذنوب ما لا يكفره صوم ولا صلاة الخ وانما يكفره السعى على العيال وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل وفتنة الفقر وفى الحديث لا تلثوا بدار معجزة أى لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش

وفى الحديث ان الله تعالى يلوم على العجز (أى التقصير والتهاون فى الامور) وفيه ان الله تعالى يحب المؤمن المحترف (أى المتكلف طلب المعاش بنحو زراعة أو تجارة أو صناعة) وما فتح العبد على نفسه باب مسئلة يسأل الناس الا فتح الله عليه باب فقر وما أكل ابن آدم لقمة خيراً من لقمة يأكلها من كسب يده وكان صلى الله عليه وسلم يتجر وكذا أصحابه وخيار أمته ولم يتخذ العلم حرفة الا بعد فساد الزمان وقد نص بعض ائمتنا على تكفير من يصفه صلى الله عليه وسلم بالفقر لان الله تعالى قد كفاه مهماته

« باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام
للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله ص ٣٦ »

الهيئة الاجتماعية فمن الحكمة قول الامبراطور الصيني لئن كان في المملكة رجل بلا عمل أو امرأة خاملة فلا بد من أن يصيب الفقر أو الجوع فرداً من أفرادها

واعلم أن تعود المثابرة على العمل النافع ضروري لسعادة المرأة ضرورته لسعادة الرجل وهي بدونه عرضة لأن تصير عديمة الفائدة عرضة للوقوع في حالة مؤلمة للنفس حائلة بينها وبين انشراحها ولذا عنيت كَرُلين پِرتس بتحذير ابنتها المتزوجة لِويزا أن تخلى لهذه الحالة سبيلا الى نفسها فقالت انا نفسى أشعر في بعض الاحايين بخمول وكسل اذا خرج أولادى في يوم عطلة فأكون أشبه شيء بالبوم نهاراً لذلك أرى أنه ينبغي لنا أن لا نستسلم لهذه الحالة التي تحدث عادة لحديثات العهد بالزواج وأحسن وسيلة لمنعها العمل يدخل فيه الانسان بانشراح واجتهاد فاعملي اذن وكدى دائماً لأن الكسل شرك ينصبه الشيطان للعظيم والحقير كما قال جدك وقد كان يقول حقاً[1]

اذا تقرر ذلك فاعلم أن الاشتغال المستمر بالعمل النافع عائد بالفائدة لا على الجسم وحده بل على العقل كذلك وبينما الكسل يقضي حياته متثاقلا يغرق ما حسن من طباعه في سبات عميق

---

(1) ' Life of Perthes ', ii. 20.

ان لم تمت آدابه وروحه اذا بالعمل يتفجر منه النشاط فيستقي كل من يصل اليه ولعمل تافه لا فكر فيه خير من الخمول والكسل قال فلر في سير فرنسس دريك ان ما صادف من الآلام وعاني من الصبر في زمن شبابه قوى روحه فصارت صلبة متينة وكان شلر يقول انه يرى مفيداً جداً مفيد أن يكون الانسان مشتغلا بعمل آليٍّ منتظم يستلزم الثبات على اعمال الفكر

ومن الناس آلاف تشهد بصدق قول جروز المصور الفرنسي أن العمل المفيد من أعظم أسرار السعادة وحدث مرة أن كزن ألجأه الحاح أصدقائه الى الراحة من عناء العمل راحة تامة فلم يلبث أن عاد الى عمله وهو يقول احتمال المرض مع العمل خير من احتماله بدونه

ولما فرغ تشارلس لام من عمله وانتهت خدمته في ديوان الهند شعر بأنه أسعد البشر وقال لصديق له أني لا أعود الى عملي بعد الآن ولو أوتيت ملء الارض ذهباً وكتب الى صديق آخر يقول أني لا اكاد أستطيع تحرير كتاب وأنا الآن أمرح في الحرية وسأعيش بعد الآن خمسين سنة يا حبذا لو كنت أستطيع أن أبيع شيئاً من فراغي الا أن خير الأمور لعدم العمل ثم تتبعه الاعمال الصالحة اه

مضى على حالته هذه عشرة أعوام ثم تغير شعوره وتبدلت أفكاره فرأى حقيقة كان يجهلها هى أن العمل كان على جفافه ذا فائدة كبرى له ، كان الدهر بالأمس له مسالماً فأصبح مناهضاً فكتب الى صديق له يقول لا مراء فى أن عدم العمل شر من الافراط فيه لانه يفنى العقل وينهك القوى هأنذا أصبحت يائساً لا اكاد أحفل بشىء قط ولا أجد مسلياً الا قتل الوقت فى المشى وقد تملكتنى الحيرة فلا أدرى ماذا أفعل

وما من انسان أدرك منزلة الجد اكثر من سير ولتر سكت ذلك الذى كان من اكثر الناس مواظبة على العمل واكثرهم احتمالاً للتعب حتى أننا لو تأملنا العصور والامصار ما وجدنا مثل همته التى لم تعرف الملل والتى صحبتها الرزانة والثبات الا فى عظماء الملوك ومشهورى القواد لا بين رجال الادب ولقد كان سكت نفسه كثير الشغف بأن يطبع فى عقول أبنائه شأن الجد من حيث هو وسيلة للسعادة فى هذا العالم ، كتب الى ابنه تشارلس وهو فى مدرسته يقول أنى مهما عملت فلست بمتجاوز الحد فى محاولتى أن أطبع فى نفسك أن العمل واجب علينا فى كل أطوار الحياة لا يحصل الانسان على شىء ما بدونه من الخبز الذى يكسبه فالح الارض بعرق جبينه الى الالعاب التى يتخلص منها المثرى من ملله وسآمته الى أن قال أما العلم فلا سبيل الى غرسه فى العقل البشرى

من غير عمل كما لا سبيل الى وجود الزرع فى الحقول بلا استعمال المحراث الا أن هناك فرقاً عظيما بين الحالتين لمن يتبصر وهو أن الحوادث وصروف الدهر قد تقضى على الزارع بأن يجنى غيره ثمر غرسه أما العامل فلا سبيل الى حرمانه ثمر عمله مهما كانت الطوارئ وسوء الحظ كما أن جميع ما يحصله عائد عليـه بالفائدة فاعمل بنى ورق وقتك فأننا فى زمن الشباب خفيفو الخطا لينو العقل يسهل علينا تحصيل العلم أما ان اهملنا ربيع حياتنا خلا صنيعها من الفائدة واستوجب الاحتقار فلا نجنى سوى قشور حتى اذا كان شتاء الهرم وجدناه قحلا خلواً مما يدعو الى التجلة [1]

ومثـل سكُت سَوْذى فانه كان عاملا مجداً بل كاد العمل يكون جزءاً من دينه ، كتب وهو لم يبلغ سوى التاسعة عشرة من عمره يقول أتسعة عشر حولا هـذا بلا مراء ربع حياتى بل ربما كان جزءاً عظيما منها ولما أقم بعمل فيه خير للهيئة الاجتماعية الا أن الرجل الذى يذود الطير عن الزرع لخير منى فانه يقى الخبز الذى أنا آكله وأنا خامل اه يقول ذلك وهو لم يكن فى شبابه خاملا بل كان طالباً مجداً لم يقتصر على التوسع فى آداب اللغـة الانجليزية بل اطلع بواسطة الكتب المترجـة على ما جادت به

---

(1) Lockhart's 'Life of Scott' (8 vo Ed.) , p. 442.

قرائح تَسّو وأَريُستو وهُميروس وأُفيد وكان مع ذلك يشعر بأنه يعيش عيشة غير بينة الغرض فوطد العزم على أن يكد ويعمل ولم يزل من ذلك الحين يشتغل حتى انقضت أيامه وهو كما قال عن نفسه يزداد كل يوم علماً ولم يكن علمه بأكثر من فقره ولا فقره بأكثر من فخره ولا فخره بأكثر من بشره اه

وانا ذاكرون تلك المبادىء التي كانت شعاراً لطائفة من العظماء لأن مبادىء الناس تدل عادة على أخلاقهم [1] فنقول كان مبدأ سير ولتر سكُت أن لا يكون المرء بلا عمل أبداً ومبدأ رُبَرْتسَن المؤرخ منذ كان ابن خمس عشرة سنة الحياة بلا عمل موت ومبدأ فُلتير أن يكون المرء مشتغلا دائماً أمّا أحب مبدأ الى لَسبيد الطبيعى فكان الحياة الملاحظة ومثله مبدأ بلنى

والعمل يربى الاخلاق ولو كان عملا لا نتيجة له فان مثل هذا العمل أولى من الجمود لأنه يقوّم القوى العقليـة فيكون مقدمة للنجاح فى العمل الصحيح وتعوّد العمل يعلم الانتظام لانه يضطر الى الاقتصاد فى الوقت والتصرف فيه بحكمة وتبصر فان الانسان متى اعتاد أن يفعم حياته بالاعمال النافعة عمل حساب كل دقيقة واذا جاء الفراغ كان قادراً على التمتع به

---

(١) يذهب سوذى الى ان اخلاق المرء تعرف بما يكتب اليه من الخطابات أكثر مما تعرف بما يكتبه هو

رأى كُلِرِدْج ورأيه الحق أن الخامل يقتل الوقت ويضيعه سدًى وان العامل المنظم لعمله يجعل احياءه والعناية به واجباً تدعو اليه الذمة تراه يحيي ايامه بالعمل فيخلدها وان كانت بطبيعتها فانية سريعة القرار فلا يكون اذن عائشاً فى الزمن بل الزمن يكون عائشاً فيه لأن أيامه وشهوره واعوامه تبقى خالدة لا تمحى ولا يذهب بها كر الغداة ومر العشى (١)

وانما كانت المواظبة على العمل ذات فائدة كبرى فى تقويم الاخلاق لما لها من التأثير البين فى تعليم الانتظام ثم ان أجل ما يلائم العمل من الصفات انما يربيه فى الانسان احتكاكه بالعالم فى اعمال الحياة احتكاكا يصحبه النشاط والشعور لا فرق فى ذلك بين ادارة البيوت وسياسة الامم بل الحق الذى لا يشوبه باطل ان لا بد لربة البيت من أن تكون امرأة عمل ماهرة كما أظهرنا ذلك جلياً فى فصل سالف ولا بد لها من أن تنظم كل الامور الدقيقة فى بيتها وتضبطها ، لا بد لها من أن تعيش على قدر ما تسمح به حالتها ثم ترتب كل شيء ترتيباً محكما منظماً وتنظر فى شئون من هم تحت رعايتها وتحكمهم متوخية طرق الحكمة وناهجة مناهج الحزم لأن الادارة البيتية الراقية ينطوى تحتها الجد والمواظبة والانتظام وتهذب الآداب وبعد النظر والتبصر

(1) Dissertation on the Science of Method.

والقدرة على العمل والفراسة فى الاخلاق وقوة الادارة كلها أمور لا مندوحة عنها فى ادارة الاعمال العظيمة على اختلاف أنواعها وتباين أشكالها

ألاوان دائرة تفوذ صفات العمل لعظيمة فما هذه الصفات الا القابلية والكفاية للقيام بمسائل الحياة العملية قياماً مقروناً بالنجاح سواء أكان العمل ادارة البيوت أم الاشتغال بحرفة أو تجارة أم نظاماً اجتماعياً أم حكما سياسياً لأن التمرين الذى يعد الانسان بالكفاية فى القيام بهذه المسائل على اختلافها هو الذى يفيده فائدة كبرى فى الحياة العملية [1] بله كونه أجل مقوم

---

(١) ننقل هنا العبارة الآتية من مقال ظهر حديثاً فى « بول مول غازيت » وهى عبارة ربما تصادف استحسانا

لا مشاحة فى ان الصبر على العمل والانهماك فى الشغل والاحتكاك بالناس وما يلقيه العمل على عاتقنا من الشدائد كلها أمور تربى الذكاء تربية صحيحة وتوجد فرصاً لتقويم الاخلاق ثمينة والرأى الذى لا يعد العمل الا وسيلة الى كسب القوت رأى فى غاية السخافة فأنما عمل المرء قسطه من عمل العالم ونصيبه من القوى التى بها تقوم الهيئة الاجتماعية وسواء أحب المرء عمله أم كرهه فهو يطلب من حيث هو عمل الصبر على أعمال الفكر والنظام وعمل الانسان كتمرين الجند فلا يستطيع ان ينبغ فى مهنته الا اذا قذف بنفسه فيه ضابطاً مخيلته ونزعاته دائباً على العناية بالصغائر ثم ان ما يحتاج اليه العمل من التيقظ وضبط النفس والنشاط والالتجاء الى الذكاء وانتقال الارادة والحاجة الى اعمال البصيرة اعمالا سريعاً مع المسئولية كل هذه أمور

للاخلاق لأن تحتـه ينطوى الجد والتيقظ والايثار والتبصر والتدبير وادراك معنى الشعور بشعور الناس

بل ان تقويم الاخلاق على هـذا النحو أدعى للسعادة والكفاية فى الاعمال من التقدم فى العلم والتفكير مع العزلة عن الناس ولو كثر العلم وعلا التفكير فقـد جرت العادة أن تُبرّز القدرة العملية على العقل والطبع والعادات على الذكاء ولا سبيل الى الحصول على هذا النوع من التدريب الا بكثرة مراقبة النفس وتهذيبها قال القائد تُرشو فى مؤلف له ظهر حديثاً لا يكون المرء حداداً الا اذا مارس هذه الصناعة طول حياته ولا يكون مديراً حازماً الا اذا قضى حياته فى درس الاعمال الادارية وممارستها

وكان من خصال سيروَلتَر سكُت عظيم اجلاله لرجال العمل القادرين وكان يجهر باعتقاده أن النبوغ فى الأدب مهما عظم لا يصح أن تعتبر منزلته كمنزلة النبوغ فى مجارى الحياة العملية ولا سيما الادارة الماهرة

وأن المـدير الحازم لا يكل أمراً من الأمور للمصادفة بل يأخذ العدة لكل أمر عسير ويتنزل للنظر فى الصغائر مهما ظهرت تفاهتها وناهيك بوِلنجتُن فقد كان وهو يرأس جيشه فى أسبانيا

تقوى وان لم تهذب وتشد العضد وان لم تصقل وتهيئ رجالا أشداء يقظين قادرين على الاعمال اهـ

يرشد الى الطريقة التى بها يجب أن يهىء الجند طعامهم وكان وهو فى الهند يبين بكل دقة السرعة التى يجب أن تسير بهـا الثيران وهكذا كان يرتب كل صغيرة فى معداته وبذلك تسنى له الوصول الى غايته والحصول على اخلاص رجاله وثقتهم التامة بقيادته (١)

ولا غرو فقد كان لولنجتن وسائر أمراء الأجناد القادرين قابلية للعمل لا تحد حتى أنه هيأ رءوس قانون شرطة لدبلن وهو عنـد مصب نهر مَنْدِجو وجونو والجيش الفرنسى فى انتظاره وروى عن يليوس قيصر وهو صنـديد آخر من صناديد القواد أنه كتب رسالة فى البلاغة اليونانيـة وهو يتخطى بجيشه جبال الألب وأرشد وَلنشتَـين الى معالجة دواجنه وهو على ستين ألفاً فى غزوة والعدو أمامه

كذلك كان وشنجتن من رجال العمل القـادرين الذين لا يسأمون ولا يجد الملل الى قوائم سبيلا ، كان منذ نشأته يجـد فى تعويد نفسه البحث والنظام والصبر على اعمال الفكر فان

---

(١) لما نشر عجالاته وأطلع أحد اخوانه على ماجاء فيها عن غزواته فى الهند قال له يخيل الى يا جناب الدوق ان همك وأنت فى الهند كان الحصول على الارز والثيران وقال ولنجتن الامر ماذكرت لانى كنت أجد الرجال ما دام لدى الارز والثيران ولقد كنت أعلم أن انتصارى على العدو ميسور ما دامت الرجال لدى موفورة اهـ

كراساته التى كتبها بيده وهى لا تزال باقية تثبت أنه منذ كان ابن ثلاث عشرة كان يشتغل مختاراً بنسخ صور ايصالات وحوالات وسندات وحجج وعقود ايجار الى غير ذلك من الاوراق الجافة كل هـذه كان يكتبها بعناية وتلك العادات التى حصل عليها منذ نشأته هى أساس قدرته الفائقة التى استعملها فى أعمال حكومته فكان من ورائها النجاح

الا وان المرأة أو الرجل الذى يدير عملا عظيما وتكلل ادارته بالنجاح لجدير بأن يناله من الاكرام والتبجيل ما ينال المتفنن الماهر الذى يصور الصور العظيمة أو المؤلف الذى يكتب الكتب أو الجندى الذى ينتصر فى المواطن فانه يصادف فى سبيل نجاحه ما يصادف هؤلاء من العقبات ولا يوفق الى الفوز الا بعد نصب لا يقل عن نصبهم وأقل ما فى جهاده أنه جهاد سلمى لم تدنس فيه يده بالدماء

يذهب بعضهم الى أن صفات العمل ليست من ملائمات العبقرية[1] حتى وصف رجل بأن له من الهفوات ما للعبقريين ذلك أنه يبغض ما يحتاج اليه العمل من العناء ولكن هذا

---

(1) Maria Edgeworth, ' Memoirs of R. L. Edgeworth, ' ii. 44.

وأيم الحق زعم فاسد ورأى باطل فقد كان أعظم العبقريين أكثر الناس عملا وأشدهم نصباً ولم يصدهم عن العمل ما فيه من عناء لا ترتاح له النفس كانوا أكثر عملا من غيرهم من العاملين ولم يقفوا عند هذا الحد بل أمدوا عملهم بقوى عقلية أكثر اتقاداً من قوى الرجال المعتادة وبروح أعلى من روحهم هكذا كان شأنهم جميعاً لم يشذ منهم أحد ، وانا لا نجد من بين الاشياء الجليلة الخالدة شيئاً أوجد من غير اعداد العدة له ولم يصل العبقريون الى ما اتوا به من الآيات البينات الا بالصبر الجميل والعمل الجليل فلا قوة الا للعاملين ولا قوة ولا سطوة للخاملين والعاملون الناصبون هم سادة العالم ولم ينبغ من السياسيين نابغة الا وكان من رجال الكد والعمل ، ألا يعجب الانسان اذا علم أن لويس الرابع عشر يقول انما يسود المرء بالعمل وقال كلَرندُن يصف همبدِن كان على جانب من الكد والتيقظ لا يدانيه فيه أكثر الناس عملا وكان له من الذكاء ما ليس للألمعى وكانت شجاعته كذكائه وكتب همبدِن لأمه وهو محوط بواجباته الشاقة يقول ليست حياتى الا تعباً وهى كذلك منذ أعوام تارة للأمة وطوراً للملك فلست أجد من وقت الفراغ ما يساعدنى على القيام بواجبى نحو أبوىّ ولا على أن أكتب اليهم اه وهو قول حق لأن ساسة الجمهورية كانوا أجمعين رجالا ناصبين وكان

كلرندن نفسه صبوراً عاملا لا يكل ولا يسأم سواء فى وظيفته وفيما عداها

هذه الروح روح النشاط والاحتمال التى تظهر فى القدرة على الاعمال هى هى التى امتاز بها كل العظماء فى عصرنا هذا وفى العصور الغابرة ، كتب كُبدِن الى صديق له يصف نفسه فى وقت من الأوقات فقال انه كان يعمل كالخيل لا يجد من وقته فراغ برهة وكان لورد بروم من العاملين النشطين الذين لا يعرفون للكلل ولا للملل معنى وكان لورد بلمرستُن وقد أدركته السن العالية أكثر عملا وسعياً وطلباً للنجاح منه وهو فى عنفوان شبابه فلم يفقد وقد كبرت سنه شيئاً من قدرته على العمل ولم يتطرق النقص الى بشاشته وبساطته حتى آخر ايامه[1] وكان يقول عن نفسه ان وجوده فى محل عمله وانهماكه فى العمل مما يعود على صحته بالفائدة معللا ذلك بأن العمل يقيه ضيق الصدر وكان هلفيتيُس يذهب الى ان شعور الانسان بضيق الصدر هو السبب الأكبر فى ارتقائه عن طبقة الحيوان الأعجم وان شعوره

---

(١) نقل الينا أحد أصدقاء لورد بلمرستن العبارة الآتية قال سألته يوماً متى يعتبر الرجل فى عنفوان حياته فأجاب من فوره اذا بلغ تسعاً وسبعين ثم قال وقد تلألأت عيناه أما أنا فأظن انى تخطيت عنفوان حياتى لانى دخلت فى السنة المتممة للثمانين

بضرورة الفرار من آلام الضيق التى لا تطاق هو الذى يحفزه بل يضطره اضطرارا الى العمل ومن ثم يكون أعظم باعث للبشر على الرقى

هذا المبدأ الحى مبـدأ الدأب على العمل وكثرة الاشتغال والاحتكاك بالرجال فى أعمال الحياة هو فى كل عصر خير مرب لروح النشاط فى صناديد الرجال وصفات العمل اذا دربت عليها النفوس ظهر جليل أثرها وعظيم فائدتها فى كل مهنـة سواء فى ذلك السياسة والأدب والعلوم والفنون يعزز قولى هذا ان كثيراً مما كتب فى الأدب جادت به قرائح رجال ربوا فى مهن عملية تربية منتظمة وكانت فضائل الكد والمثابرة والاقتصاد فى الوقت والعمل وهى الفضائل التى صيرتهم مجيدين فى ميدان المهن العملية هى هى التى شحذت اذهانهم وصقلت خواطرهم حتى جعلتها صالحة لان تجيد فى ميدان الأدب

كان جل المتقدمين من كتاب الانجليز رجال مهن دربوا على العمل ولم تنفرد اذ ذاك طبقة بالأدب اللهم الا اذا كانت طبقـة الكهنة فهذا تشوسر أول من قرض الشـعر الانجليزى كان فى أول أمره جندياً ثم صار مشرفاً على المكوس الصغيرة وما يجبى منها ولم تكن مهنته هذه بالقليلة العمل كثيرة الأجر لأنه كان يكتب الدواوين بيـده حتى اذا فرغ من عمـله بدار المكوس

انقلب الى داره والفرح يدب فى نفسه فأكب على كتبه حتى تكل عيناه

وفحول الكتاب فى عصر الِـزَ بيث عصر الجد والنشاط والعمل لم يكونوا أدباء بالمعنى المعروف فى عصرنا هذا بل كانوا رجالا نشأوا على العمل فسبنسر كان ناموساً لأحد الاعيان ورَلى تناوبته مهن عدة فكان من حاشية الملك فجندياً فملاحاً فكاشفاً وسِدنى كان سياسياً فسفيراً فجندياً وكان بيكُن مدرها عاملا وسيرتوَمس برَون طبيباً وهوكَر اماماً دينياً فى احدى المقاطعات وكان شكسبير مديراً لدار تمثيل كان هو نفسه ممثلا فيها وانه ليخيل الينا انه كان أكثر عناية بما له منه ببنات أفكاره ، هؤلاء رجال كلهم من ذوى الجد الذين ألفوا العمل على أنهم يعدون من عظماء الأدباء فى كل عصر لان عصر اِلِزَبث وجيمس الأول هو العصر الذى امتاز فى تاريخ انجلترا بعلو منزلة الأدب وجرى القرائح فيه شوطاً بعيداً

وقد نيط بكَولى فى زمن تشارلس الاول عدة من المهن الخطيرة فكان ناموساً لكثير من أكابر حزب الملك ثم صار بعد ناموساً خاصاً للملكة يحل رموز المراسلات التى دارت بينها وبين الملك وبقى عدة سنين يصل الليل بالنهار فى ممارسة هذا العمل وفى الوقت الذى كان فيه يعمل للملك كان مِلتُن يعمل

للأمة اذ كان ناموس اللاتينية لها ثم صار بعد ناموساً لـكرُمـول وكان فى أول أمره يمارس تلك المهنة الضئيلة مهنة التدريس وفيه يقول جُنسُن لا ريب فى أنه كان يعمل بجد فى دراسته وفى كل شىء كان يناط به هذا وقد شرع مِلتُن فى أعظم مؤلف له بعد أن انقضت مهنته الرسمية وعادت المياه الى مجاريها فعادت الاسرة الملكية الى القبض على صولجان ملك الدولة الانجليزية وقبل أن يؤلف كتابه رأى أنه لا غنى له عن أن يشفع الجد فى المطالعة بالدأب على النظر فى الامور والتأمل فى كل ما جمل وكرم من الأعمال والفنون(1)

وكان لـُك موظفاً فى عصرين مختلفين فكان عاملا لتشارلس الثانى ثم لـِولـيم الثالث وكذلك كان كثيرون من نوابغ الادباء من عمال الملكة آن كأدِسُن وستيل وبرُيُر وتِيكل وكُنجريف وجِى

يتضح من ذلك أن الحق الذى ليس فيه شية من الباطل هو أن المهن العملية لا تسلب العقل صلاحيته للمهن العلمية أو الأدبية بل هى فى الغالب خير ما يعد العقل للاشتغال بالعلم والأدب ولقد رأى فُلتير ورأيه الصواب أن روح العمل

(1) ' Reasons of Church Government ', Book ii.

هى هى روح الأدب لا تبلغ كل منهما كمالهـا الا باجتماع الجد والفكر ، باجتماع العقل والحكمة، باجتماع النشاط والتفكير ذلك الاجتماع الذى قال فيه لورد بيكـن أنه كل الرقى الذى يمكن أن تصل اليه الطبائع البشرية ولقد قيل أن الرجل العبقرى لا يستطيع أن يأتى عملا ذا بال فيما يتعلق بأمور البشر ما لم يكن له ارتباط ما بما تستلزم الحياة من الاعمال

ومن ثم كان كثير من خيرة الكتب التى بين ظهرانينا لرجال من أرباب العمل الذين جعلوا الأدب وسيلة للراحة من أعمالهـم وقضاء أوقات فراغهم ولم يجعلوه مهنة لهم ينقطعون لادائها هذا جِفُرد محرر مجلة كُورنَرلى ومثله خبير بما فى كسب القوت بالكتابة من العناء يقول أن ساعة واحدة يقضيها العامل فى التأليف بعد فراغه من أعماله اليوميـة لخير من عمل يوم من أيام من جعل الأدب مهنة له ذلك لأن النفس فى الحالة الأولى تخرج ظمأى تندفع الى ما يروى غلتها اندفاع الابل الى موارد الماء أما فى الثانية فتسير فى طريقها وقد علاها اليأس واستولت عليها الكآبة والكلل وفى أثرها العوز يطلبها والحاجة تؤلمها كالوعل أنهكه التعب واعياه العدو فهو يلهث وكلاب الصيد من ورائه[1]

---

(١) كان « كلردج » اذا أوصى الشبان من أصدقائه يقول ما رأيت امرأ قط ولا سيما اذا كان عبقريا تمتع بالصحة أو عرفت السعادة اليه سبيلا دون

وهؤلاء قادة أدباء ايطاليا لم يكونوا من الذين قصروا انفسهم على الاشتغال بالادب بل كانوا رجال مهن منهم التاجر والسياسى والسفير والقاضى والجندى ففِيلانى مؤلف أجل تاريخ لفلُرنس كان تاجراً ودَنتِى وبِترَرك وبُكتشِيُو نيطت بهم أمور تختلف خطورتها قلة وكثرة وكان دنتى صيدلياً قبل أن يشتغل بالسياسة وتَجليُو وجَلفَانى وفَرينى كانوا أطباء وكان جَلدُونى مدرها أما آرِيُستو فكان استعداده للامور العملية كاستعداده لقرض الشعر يؤيد ذلك انه لما مات أبوه نيطت به شئون أهل بيته حرصاً على مصلحة اخواته واخوته فقام باعباء هذا العمل قياماً يشهد له بالكفاية ولما ان ظهر استعداده للعمل اختاره أحد الامراء لقضاء أمور خطيرة الشأن فى رومة وفى غيرها ولما

أن يكون صاحب مهنه أى عمل منتظم غير موكول الى المصادفه يستلزم القيام به شيئاً من انشراح النفس واجهاد الفكر وان فراغ ثلاث ساعات غير مشوبات بقلق يتطلع اليها الانسان جذلا ويعتبرها رياضه وراحه من عناء العمل لخير لمن يرغب فى القيام بالاعمال الادبيه الحقة من أسابيع تقضى لذلك الغرض اضطرارا وان شئت أن تقام الادلة على أمكان اجتماع الاعمال الادبية الكبيرة مع المهن الشاقه فاليك حجة دامغه من أعمال سسرو زنفن ن بين المتقدمين ومن المتأخرين سيرتومس مور وبيكن وبكستر وان شئت أن نضرب لك مثلا ممن بعدهم ومن أهل العصر فهاك درون ورسكو

Biographia Literaria, chap. xi.

نصب حاكما لاقليم جبلى كثرت فيه المشاغبات نجح بشدة حكمه وعدله فى أن جعلهم يخلدون الى السكينة والامن وهابته البلاد حتى عصابات الاشقياء فيها واتفق أن قبضت عليه عصابة منهم فأعلمهم باسمه فما عتموا ان عرضوا عليه مرافقته الى حيث أراد حتى لا يلحقه ضرر وهكذا الحال فى غير ايطاليا فان فَتِيل مؤلف كتاب حقوق الامم كان سفيراً حازماً ومن أعظم الناس صلاحية للعمل

وكان ربِلى طبيباً ووكيلا للدعاوى ناجحاً فى عمله ثم ان شِلر كان جراحاً وسِرفنت ولُوب دِفيجا وكلدِرُن وكَميِنز ودِكَرت ومِبيرتيو ولُوشفكو ولَسبيد ولَمَرك كل هؤلاء كانوا جنوداً فى الجزء الأول من حياتهم وكثير من مشهورى كتابنا كانوا يكسبون قوتهم من مهن مارسوها فان لاُو قضى جل حياته صائغاً ثم كان فى أوقات فراغه يكتب مؤلفاته التمثيلية ومن بينها ما يثبت قوته واقتداره وكان آيزَك ولتُن بزازاً اعتاد كثرة المطالعة فى أوقات الفراغ فأدخر فى ذهنه حقائق استعملها بعد فيما امتاز به ألا وهو كتابة التراجم أما دِيفو فتقلب فى مهن كثيرة فمن صانع قرميد الى تاجر الى مؤلف ثم الى مندوب سياسى

وقد نجح صَمِول رِتشَردسَن فى الجمع بين الادب

والتجارة ذلك أنه كان يؤلف رواياته فى الجزء الخلفى من دكانه ويبيعها فى الجزء الأمامى وكذا وليَم هتُن من أهل برمنجهم نجح فى الجمع بين تأليف الكتب وبيعها وهو يقول فى ترجمته لنفسه قد يعيش الانسان نصف قرن دون أن يكون على بينة من حقيقة نفسه قال ذلك لأنه لم يعلم أنه من علماء الآثار حتى أخبره بذلك العالم بعد أن قرأ كتابه تاريخ برمنجهم وكذلك بنيمين فرنكلين اشتهر بفن الطباعة والتجارة فى الكتب والتأليف والفلسفة والسياسة

واذا انتقلنا الى عصرنا رأينا ابنزَر اليَت يتجر فى الحديد بمدينة شفِلد ويؤلف القصائد وقد نجح فى تجارته نجاحاً مكنه من أن يعتزل عمله وآيزَك تيلر صاحب كتاب التاريخ الطبيعى قضى كثيراً من وقته فى الاعمال الآليـة فابتكر الصنبور المعروف بصنبور الجعة وآلة للحفر على النحاس عم استعمالها بين نقاشى الاقمشة بمنشستر

وهذا جُن ستيـوُرت مل كتب أمهات مؤلفاته الأولى فى خلال عمله أيام كان موظفاً فى ادارة الهند الشرقية وقد كان تشارلس لام وبيكك واللغوى ادون نُرِس موظفين بها ومكُولى كتب كتابه أغانى رومه وهو موظف بوزارة الحربيـة ومن المعروف أن كتابات مستر هِلبس وهى تنم عن فكر غزير ما هى

فى الحقيقة الا مقالات كتبت فى خلال العمل وزد على ذلك أن
كثيرين من خيرة مؤلفينا الذين لا يزالون على قيد الحياة قابضون
على أعمال عامة خطيرة وناهيك بسير هنرى تيلر وسير جن كي
وانتنى ترلوب وتم تيلر ومتيو آرنلد وصمول ورن كذلك
مستر بركتر كان مدرها ونيط به فحص حال المجانين واتخذ
اسماً مستعاراً لأنه كان يرى انه اذا عرف عرض مركزه للخطر
فلا يزال من الاوهام الشائعة السائدة بين أهل المدن أن من
كتب كتاباً أو قرض شعراً لا يصلح لشيء من الامور العملية
وهذا زعم فاسد لأن شرن ترنر لم يمنعه كونه مؤرخاً فاضلا
من أن يكون مدرها كما أن هراس سمث وأخوه جيمس سمث
نبغا فى مهنتهما فاختيرا ليشغلا ذلك المركز الخطير مركز وكيلى
دعاوى البحرية وقاما بأعمالها خير قيام .

وقد مال المرحوم مستر برودرب الى دراسة التاريخ الطبيعى
أيام كان قاضياً بشرطة لندن فشغل بدراسته جل أوقات فراغه
وكتب أكبر الموضوعات المتعلقة بهذا العلم فى احدى دوائر
المعارف وله فيه مؤلفات لا يستهان بها ولاسيما (الرياضة فى
حديقة الحيوان) و (صحف من كناشات طبيعى) ورغماً من
قصر كثير من وقته على كتابة هذه المؤلفات وعلى جمعية حدائق
الحيوان وأعمالهم فى بستان ريجنت لم تؤثر دراسته فى أعماله

ولم يعرف أن الشك تطرق الى أحكامه ولا الى سيره وهذا المرحوم لورد بُلُك قصر أوقات فراغه على دراسة العلوم الطبيعية وكان يتفكه بممارسة التصوير الشمسى ودراسة العلوم الرياضية وكان بهما ذا دراية

ومن أدباء المشتغلين بالمصارف روجرز الشاعر ورُسكو من أهل لِفربول مترجم حياة لُرِنز ودِميدِسى ورِكَردو مؤلف كتاب الاقتصاد السياسى والضرائب(١) وجرُت مؤلف تاريخ اليونان وسيرجن لُبُك ذو العاديات(٢) وصمول بيلى من أهل شفيلد مؤلف كتاب مقالات فى الآراء وجملة مؤلفات فى الأخلاق والاقتصاد السياسى والفلسفة

أما العلماء فلم يكن منهم ما يثبت عدم صلاحيتهم لان يكونوا من خيرة رجال العمل وكيف يكونون غير أكفاء للامور العملية وتثقيف العقل يربى فى المرء قوة الصبر على اعمال الفكر ويدربه على المثابرة فى العمل ويهذب الذهن ويكسبه التصرف ويمده

---

(١) نشر مستر ركردو رسالته المشهورة فى نظرية الايجار بعد الحاح من جيمس مل فان ركردو لما كتب رسالته هذه بلغ من سخطه عليها أن أمر باحراقها ولكن مستر مل حسن له أن يطبعها وألح فطبعها ونجحت نجاحاً عظيماً

(٢) وكان أبوه سير جن لبك ممتازاً فى الرياضيات والفلك

بالحرية والنشاط وهذه الخلال هى هى التى لا غنى عنها لمن رغب في أن ينجح فى عمل من الاعمال ومن ثم كان التعلم والتحصيل فى الشبان دليلا على ثبات فى الأخلاق لأنهما يدلان على دوام التيقظ وعلى الجد والقدرة والهمة التى لابد منها فى تحصيل العلم ومن اتصف بهذه الخلال كان على جانب عظيم من الاستعداد والحذق والتصرف والمهارة قال مُنتسْى فى الفلاسفة لئن كانوا عظماء علما فهم فى العمل أعظم وهم كلما اختبروا وصلوا الى درجة عالية تدل على أن لهم أرواحاً ارتقت رقياً غريباً وأوتيت البصر بالأمور (١)

يبد أننا على ذلك كله لا نرى بدا من الاعتراف بأن الاقتصار الكلى على العلوم الفلسفية الخيالية يضيع من صاحبه شيئاً كثيراً من الاستعداد للقيام بالأمور العملية فى الحياة لأن القوة النظرية

---

(١) حمل تيلر فى حديث له حملة شعواء على أولئك القوم الذين يشمرون وينكمشون فى جمع المال وعاب عليهم ما يتحملون فى ذلك السبيل من العناء والنصب فناداه أحد الحاضرين أى تيلر ان مثلك مثل ذلك الثعلب الذى عاب ما لم يمكنه الحصول عليه فما كان من تيلر الا أن وطد العزم على أن يظهر لهؤلاء القوم أن الامر غير ما يظنون ثم شرع فى تجارة بعد أن حشد من قواه العقلية جنوداً قذف بها فى ميدان جمع الثروة فربح من تجارته هذه بعد عام ثروة لا قبل للخبيرين بالتجارة التى اختارها بجمعها وان قضوا حياتهم فى العمل بأقصى ما يستطيعون من الجد

شيء والقوة العملية شيء آخر والرجل الذي يكون وهو بين كتبه أو واليراع في يده بعيد النظر عالي الآراء في الحياة قد يكون اذا خرج الى ميدانها غير صالح البتة لاخراج تلك الآراء من حيز القول الى حيز الفعل

وبيان ذلك أن القوة النظرية متعلقة بالتفكير الشديد والقوة العملية متعلقة بالعمل النشيط وهاتان الخلتان توجدان عادة مختلطة احداهما بالاخرى اختلاطاً غير متناسب والرجل النظري أميل لضعف العزيمة لأنه يرى المعضلة من كل وجوهها ثم يؤجل عمله ريثما يزن هذه الوجوه وزناً دقيقاً نافعها وضارها حتى اذا انتهى من وزنه وجد في الغالب الضرر بقدر الفائدة فيبقى عمله معلقاً أما الرجل العملي فيتخطى المقدمات المنطقية غير حاسب لها حساباً ويستقر على آراء محدودة ثم يندفع في سبيل تنفيذ ما رأى [1]

---

(١) يقول مستر بيلي أن العقل الذي اعتاد ممارسة سلسلة من الافكار منتظمة الحلقات متصلتها يصير غير صالح للحركات السريعة والقدرة على التحول والانتقال من عمل الى عمل وهذه القدرة يتعلمها المرء في الحياة ولا غنى لرجل الدنيا عن أخذ نصيبه منها ولا ريب في أن القوى الفكرية والقوى العملية تحتاج الى عادات للعقل متباينة كل التباين حتى أن الساعي وراء أحدهما يكون مهدداً بفقد الاخرى ومن ثم نعلم السبب في اننا نجد الابطال بين جدران الغرف أطفالا في ميدان الحياة

Essays on the formation & Publication of Opinions, pp. 251-3

ومع ذلك فكثيرون من رجال العلم كانوا رجال عمل قادرين ولم يصل الى علمنا أن سير نيوتن كان غير كفء لادارة دار السكة لأنه كان أعظم الفلاسفة ولم يقدح قادح في كفاية سير جُن هرشل الذى تولى ذلك المنصب وكذلك كان ابنى همبُلت قادرين فيهما كفاية لكل عمل التى على عاتقهما سواء أكان أدباً أم فلسفة أم عمل مناجم أم لغة أم سفارة أم سياسة

وهذا نيبَر المؤرخ امتاز بهمته ونجاحه فى الاعمال أيام كان ناموساً للقنصلية الافريقيــة حيث عينته الحكومة الهُلَندية وانتخب فيما بعد ليكون أحد من نيطت بهم ادارة المالية ثم ترك مهنته هذه ليدير أحد المصارف المالية فى برلين ووجد وهو فى عمله وقتاً لدرس تاريخ الرومان واتقان اللغة العربية والروسية وغيرهما وحاز فى التأليف الشهرة المعروفة

ثم اذا اعتبرنا آراء نابليون الاول فى العلماء توقعنا أن يقوى من ادارته باستعمالهم وقد كان الا أن بعضاً ممن اختارهم ليعملوا له لم ينجحوا كما أن بعضاً آخر نجح نجاحاً ليس بعده نجاح فهذا لَبلاس اختير وزيراً للداخلية ولكنه لم يكد يلى منصبه حتى تبين أن الاختيار لم يكن موفقا وفيه يقول نابليون أن لَبلاس لم ينظر قط الى مسئلة من وجهتها الصحيحة لانه كان دائم البحث وراء غوامض الامور ودقائقها وكانت كل آرائه وأفكاره مسائل رياضية

ولكن لبلاس ربى طباعه فى حجر دراسته وكان قد بلغ من العمر مبلغاً لا يتسنى له معه أن يوفق بين طباعه والامور العملية فى الحياة

وعلى العكس من لبلاس درو وكانت له على لبلاس ميزة التدرب على الامور العملية أيام كان عاملا بالجيش الفرنسى وتحت أمرة مسينا وكان اذ ذاك معروفاً بالتأليف ولما عرض عليه نابليون أن يكون عضواً فى مجلس الامة وأن يلحق ببلاط الملك تردد فى القبول وقال لقد قضيت جل حياتى بين الكتب ولم أجد من الوقت ما يمكننى من درس ما يجب على من كان فى حاشية الملوك فأجابه نابليون أما الحاشية فعندى منهم كثيرون وهم حاضرون متى شئت الحصول عليهم وانما أنا طالب وزيراً بالامور بصيراً قوى العزيمة ثابت الجأش كثير التيقظ وما اخترتك الا لهذه فلم يكن من درو الا أن عمل برغبة الامبراطور ثم صار رأس وزرائه واسفر عمله عن جدارة تامة لهذا المنصب الخطير على أنه بقى كما كان رجلا وديع الاخلاق كريم الطباع شريف النفس مطهراً من دنس الاغراض

والذين تربى فيهم قوى العمل يعتادونه فلا تحتمل نفوسهم الكسل واذا اضطرتهم الحوادث ومقتضيات الاحوال الى الحيد عما اعتادوه لجئوا الى أعمال أخرى والرجل المجد سريع الحصول على ما يشغل به أوقات فراغه وقادر على الحصول على الفراغ

حين لا يجد الخامل الى الفراغ سبيلا وما أحسن قول جورج هربرت ليس الفراغ لمن لا يعرف كيف يشغله وما أحكم قول بيكن لا مراء فى أن أنشط من كان ومن سيكون من الرجال يستطيع أن يجد من أوقات الفراغ شيئاً كثيراً اللهم الا اذا كان من أهل التوانى الذين لا يعرفون للسرعة سبيلا أو كان من العظمه والكبرياء بحيث لا يرضى التعرض للاعمال التى يرى أن غيره قد يكون أقوى عليها منـه اهـ . وكم من أشياء عملت فى أوقات الفراغ قام بعملها رجال ممن اعتادوا العمل حتى صار لهم طبيعة ثانية وحتى صار أسهل عليهم من الخمول

والاعمال التى تؤدى على سبيل الرياضة تفيد فى تربية القدرة على العمل لأنها توجد فى النفس نوعاً من المثابرة وأقل ما فيها أن صاحبها يجد منها عملا ترتاح له النفس وليس قصدى من هـذه الاعمال أن تكون كعمل دُمِشيان اذ جعل أعمال فراغه صيد الذباب بل أقصد بها أن تكون أعمالا موقرة كأعمال ملك مقدونيا وملك فرنسا فالاول كان يعمل مصابيح والثانى كان يعمل اقفالا ثم ان العقول التى تمارس مشاق الاعمال تجد راحة فى العمل ولو كان بسيطاً آلياً لأن أقل ما فيه أنه ايقاف للعمل

المتعب وخلاص منه وراحة والسرور ينحصر فى العمل نفسه أكثر مما ينحصر فى نتيجته

وخير أعمال الفراغ ما كان عقلياً ومن كان ذا عقل يعرف النشاط يجد اذا انتهى من عمله راحة فى عمل آخر فمن الرجال من يشغل فراغه بالعلوم الطبيعية ومنهم من يشغلها بالفنون الجميلة وجمهورهم يشغلها بالأدب ومثل هذه الاعمال من خير ما يقى المرء شر الاستئثار والانهماك فيما سفل من الامور الدنيئة قال بعضهم وأظنه برَوَم رحم الله امرءا جعل لأوقات فراغه عملا اه وهو نفسه كان له كثير من هذه الاعمال فمن الادب الى الضوء الى التاريخ الى الترجمة الى العلوم الاجتماعية ويقال انه كتب رواية ومن المشهور أن القصة الشهيرة (الرجل فى الناقوس) التى ظهرت منذ سنين هى مما خط يراعه الا أنه ينبغى ألا يتمادى فى أعمال الفراغ الفكرية ولا يحمل الفكر فى سبيلها ما لا يطاق لأنها ان كانت كذلك لم تكن لصاحبها رياضة وتجديد قوى ولم تنعش روحه بل يكون تأثيرها فيه ارجاعه الى عمله منهوك القوى خاملا كئيباً

وغير لورد برَوَم كثير من أرباب السياسة شغلوا أوقات فراغهم وأراحوا نفوسهم عند اعتزالهم أعمالهم بتأليف كتب أصبحت ذات شأن فى عالم الادب منهم قيصر ولا تزال خواطره

تعتبر من كتب الأدب العالية وقد جعله اسلوبه الجلى المؤثر فى صف زنفن الذى نجح فى الجمع بين مهنة الادب وأعمال الحياة

ولما اعتزل سلى أعماله وترك الوزارة بعد أن لحقه فيها من الاهانة ما لحقه شغل أوقات فراغه بكتابة مذكراته مؤملا أن تكون للخلف عونا فى حكمهم على أعماله فى السياسة وكتب جزءاً من رواية وجد بين أوراقه عند موته مكتوباً بخط اليد

ولما ضاع من ترجو مركزه السياسى بسعى المفسدين من أعدائه التمس لنفسه مسلياً من مطالعة العلوم الطبيعية ورجع الى رغبته الأولى فى الآداب القديمة وكان فى سياحاته الطويلة وفى الليالى التى كان يعانى فيها ما يعانى من النقرس يريح نفسه بقرض الشعر اللاتينى وان لم يبق من شعره سوى بيت واحد

وانا ذاكرون من بين ساسة الفرنسيين الذين نالوا من الأدب بقدر ما نالوا من السياسة دتكفيل وتيير وجيزو ولمرتين وناهيك بنابليون الثالث وكان بكتابه حياة قيصر حقيقاً أن يتبوأ مقعدا فى الندوة العلمية الفرنسية

هذا وقد كان الأدب خير سلوان لأعظم رجال السياسة عندنا فان بت بعد أن اعتزل الاعمال عاد بكل سرور الى دراسة الآداب اليونانية واللاتينية كما فعل معاصره فكس وكان جرنفيل من أكثر الناس علماً باللغة اليونانية كذلك كان كاننج

و ولزلى عنـد تقاعدهما عن العمل يشتغلان بنقل أغانى هوراس وانتقاداته وكان ميـل كاننج الى الأدب متسرباً الى كل أعماله ظاهراً فى جميع أدوار حياته يقول مترجم حياته انه كان اذا دعى لتناول طعام عنـد بت وأخذ الحاضرون بعد تناول الطعام يتجاذبون أطراف الحديث عمد هو و بت الى كتاب يونانى قديم فعكفا على قراءته وكان فـكس أيضاً من المولعين بمؤلفى اليونان المجدين فى درس مؤلفاتهم وهو مثل بت قرأ مؤلفات اكـنفرن ثم انه ألف تاريخاً لجيمس الثانى ولـكن هـذا المؤلف لم يكلل بالنجاح

ومن أقدر رجال السياسة عندنا الذين كان الأدب لهم حرفة ورياضة المرحوم سير جورج كرنول لوس وكان من أحسن رجال العمل ، كان مثابراً دقيقاً صبوراً على احتمال المشاق تقلب فى مناصب عدة فكان رئيسـاً لمجلس قانون الفقراء وكان هذا المشروع من مبتكراته ثم كان وزيراً للمالية فالداخليـة فالحربية واشتهر فى كل هذه المناصب بأنه مدير ماهر وكان فى خلال أعماله هذه يشتغل بالبحث فى كثير من العلوم كالتاريخ والسياسة واللغة وعلم الانسان والآثار وله مؤلفان يصلحان لأن يكونا من عمل حبر من نوابغ الالمان الا وهما الفلك عند القدماء ورسائل فى نشأة اللغاة التى تشعبت من اللاتينية وقد كان له لذة خاصة فى

ممارسة ما صعب من العلوم وفيه كان يجد سروره وراحته وكان لورد بالمرستن يعاتبه على ذلك ويقول انك تحمل نفسك ما لا تطيق لخروجك من أوراق أعمالك الى مطالعة الكتب وكان بالمرستن نفسه يصرح بأنه لا يجد من الوقت ما يمكنه من مطالعة الكتب وان قراءة أوراق عمله كان فيها ما يكفيه

ومما لا مشاحة فيه أن سير جورج لوس تمادى فى أعمال فراغه ولولا اندفاعه فى المطالعة وامعانه فى سبيلها لاحتمل امتداد حياته وقد كانت كلها فائدة ولكنه كان دائبا على القراءة والكتابة والمطالعة سواء فى عمله وبعد الفراغ منه ، تخلى عن تحرير مجلة إدنبرا ليكون وزيراً للمالية ولما تخلى عن عمله فيها شخص الى المتحف البريطانى ينسخ منه بعض الاوراق الخطية اليونانية لأن الاشتغال بالمباحث المتعلقة بالاشياء القديمة التى لها علاقة ما بأدب اللاتينية واليونانية كان له ممتعاً

ومن غرائب الموضوعات التى شغل نفسه بها البحث فى صحة ما يشاع من حوادث طول العمر وكانت تصل الى سمعه فلا يسعه الا الشك فى صحتها أو عدم الاعتقاد بها وقد كان هذا الموضوع فوق كل موضوع آخر عنده أيام كان مشتغلا بانتخابات هرفردشر عام ١٨٥٢ وحدث يوماً أن طلب من رجل أن يعطيه صوته فقوبل بالرفض التام فما كان منه الا أن قال للرافض انى

آسف على عدم اعطائى صوتك ولـكن لعلك تستطيع أن تخبرنى هل مات أحد من أهل بلدك بعد عمر خارق للعادة

وان لنا من أهل عصر سير جورج لِوِس لأدلة ساطعة على ماكان يجد رجال السياسة الذين انهكهم عملهم من الارتياح للأدب ذلك لأن باب المناصب قد يغلق أما أبواب الأدب فمفتحة الى الأبد والخصوم الألداء فى السياسة يتصالحون ويتفقون اذا ما اشتغلوا يشعر هُـميروس وهُـراس فهذا المرحوم إِرل دِربى نقل الألياذة بعد أن اعتزل العمل وقد يبقى هذا الـكتاب يقرأ بعد أن تصبح خطب صاحبه وأقواله أثراً بعد عين

ومثله مستر غلَـدستُـن شغل أوقات فراغه فى اعداد نظراته فى شعر هُـميرُوس[1] وفى تصحيح ترجمة لـكتاب فَـرينى المسمى الحـكومة الرومانية ثم ان مستر دِزرَئلى أعلن اعتزاله العمل بتأليف كتابه لُـثير ومن بين رجال السياسة الذين ظهروا فى كتابة الروايات غير مستر دزرئلى لورد رَسِـل وقد أضاف الى التاريخ والتراجم شيئاً كثيراً ومركيز نُرمَنبى ثم لورد لِتُن الروائى المحنك

---

(١) كان لمستر غلدستن ولع بالادب كولع كاننج روى عنه انه كان يوما بلغربول ينتظر نتيجة انتخاب فقضى وقت الانتظار فى ترجمة شىء من كتاب كان بعده للطبع

الذى يصح أن يقال فيه ان السياسة ما كانت له الا رياضة وان الأدب كان أعظم شاغل له فى حياته

وقصارى القول أن قدراً معتدلا من العمل يفيـد الجسم والعقل فما الانسان الا عقل ملاكه وحفظ كيانه منوطان باعضاء الجسم ولا بد دون التمتع بالصحة من استعمال هـذه الاعضاء وتنشيطها وليس الضار العمل بل الضرر مجاوزة الحد فيه كما أن العمل الشاق لا يؤذى وانما المؤذى العمل الذى لا تنوع فيـه والذى ينهك القوى ويقضى على القريحة ولا يكون من ورائه فائدة أما العمل الذى يعود على صاحبه بالفائدة فهو من مقويات الصحة لأنه من أعظم أسرار السعادة والعمل الفكرى لا يتعب أكثر من سائر الاعمـال ما دام صاحبه لا يخرج به عن حد الاعتـدال بل اذا حسن استعمال العمل الفكرى كان كالرياضة البدنية فى تقدم الصحة والتمتع بالسلامة واذا عنى الانسان بنظام جسمه كان من الصعب أن يقبل من الاعمـال أكثر مما يحتمل أما مجرد الأكل والشرب وقضاء الحياة فى التراخى والخمول فمن ورائه الضرر البين الذى لا يدانيه ضرر العمل مهما عظم

لـكن الخروج بالعمل عن الحد جهل بالاقتصـاد ونتيجته الخسارة الفادحة ولاسيما اذا اقترن بالهم واضطراب البال ولعمر الحق أن الهـم تبخع به النفوس أكثر من العـمل ذلك لأن

الخروج عن الحد فى العمل يوقع فى الاضطراب ويذهب بالجسم كما يذهب الحصا والرمل بعدد الآلات بما يسببان من كثرة الاحتكاك فالخروج عن حد الاعتدال فى العمل ثم الهم آفتان يجب الحذر منهما فالخروج عن الاعتدال فى العمل الفكرى تحميل للنفس ما لا طاقة لها به وهو منهك للمرء مدمر لقواه بقدر خروجه عن سنن الطبيعة وصاحب العمل الفكرى اذا جاوز الحد فيه قد يضر بعقله ويخل بتوازنه كما يضعف صاحب الرياضة الجسمية عضلاته ويقصم ظهره اذا ما حاول أن يأتى أعمالا لا قبل لقوته وجسمه بها

الفصل الرابع

الشجاعة

لا يبدو ما للنوتى من الحذق فى عمله والمهارة فى مهنته الا
اذا غبثت الريح بجاريته كما لا يظهر الشجاع من الجبان الوعواع
الا فى مواطن القتال وحقيقة الرجال تبدو اذا المت بهم
الحادثات ونزلت بهم الملمات   دنيل

أيتها النفس الطاهرة اذا أخذت فى مزاولة شريف الاعمال
وآليت لا تسأمين بل الى غايتك القصوى تسيرين فلا يتسربن
اليك الجزع اذا قامت فى سبيلك العقبات وادمى قلبك الجهاد
فان لك لوقتاً تنالين فيه مأربك وتوفين أجر كفاحك

مكي

ما شجاعة العصور الخوالى ولنا فيها أسوة حسنة الا منبع
تستمد منه العصور المختلفة شجاعتها والمرء يقدم وهو ثابت
الجأش على الاعمال المحفوفة بالاخطار مدفوعاً الى ذلك
بشجاعة من مضى من الرجال   هلبس

لذوى الشجاعة من رجال ونساء الفضل على العالم وليس المراد من قولنا الشجاعة الشجاعة الجسمية التى يستوى فيها الانسان وذلك النوع من الكلاب الذى كان قديماً يستخدم فى منازلة الثيران وليس ذلك النوع بخير أنواع الكلاب وانما مرادنا بالشجاعة تلكم الشجاعة التى تظهر فى الكد والسعى للخفيين والتى يستطيع صاحبها أن يحتمل المصاعب وان ثقلت ويكابد المشاق مهما عظمت فى سبيل الحق والواجب فان ذلك النوع من الشجاعة أجل من اتيان خوارق الاعمال الجثمانية التى ينال أصحابها من أجلها الالقاب والتبجيل والشرف الرفيع وقد يكون منغمساً فى النجيع

تلكم الشجاعة المعنوية ميزة فيمن بلغ من الرجال والنساء أرقى درجات الانسانية ، هى الشجاعة التى تدعو المرء الى قول الحق والسعى وراءه وتوحى اليه أن يكون عادلا أميناً مخالفاً لهوى النفس شديد الحرص على القيام بما يفرضه عليه الواجب فمن لم يتصف بهذه الخلة رجلا كان أو امرأة فهو خليق أن لا يتحلى بغيرها

اذا قلبنا صحائف تاريخ البشر رأينا كل حركة فى سبيل الرقى قد صادفت من المصاعب ما عاق سيرها ومن المماحكين الجاحدين من وضعوا العراقيل فى سبيلها وما كانت لتتخطى هذه العقبات

لولا زعماؤها أولو الجرأة والاقدام وقادة الافكار من الكاشفين والوطنيين وغيرهم من العاملين فى سبل الحياة على اختلافها وما من عقيدة صحيحة أو حقيقة ناصعة الا ولاقى الداعون اليها وهم يجاهدون فى سبيل حمل العالم على الاعتراف بها شيئاً كثيراً من الهمز واللمز والاضطهاد[1]

---

(١) الناقل: هذا شأن كل مذهب جديد ولا سيما اذا كان يدعو الى الخروج من قد العادة والى نبذ ما الفته النفوس واستحكم حتى صار من الصعب العدول عنه ومن أقرب الشواهد على ذلك ما لاقى الحكيم الاسلامى المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم قاسم بك أمين

اما الاول فقد حزنه انحطاط المسلمين وحيدهم عن جادة الصواب فى فهم روح الدين وعز عليه ركون الامم الاسلامية الى الخمول وانحطاطهم الى الحضيض وبينهم كتاب الله الذى اخرج من بدو جزيرة العرب أمة ضربت بحضارتها الامثال فقام يدعو الى فهم كتاب الله والعمل به وتخليص الدين من تلك الاوهام الباطلة والعقائد الفاسدةالتى تطرقت اليه وليست منهفى شىء ، قام يدعو الى فهم أساليب اللغة العربية وتحكيم العقل والاستقلال فى الرأى وعدم الاستسلام لكل ما ينسب للسلف غثاً كان أو سميناً فرمى بالمروق منالدين واعرض عنه سامعوه اللهم الا شواذ تنصر القاعدة وكيف تنكر غيرته على الدين واهله وبين ظهرانينا من آثاره مثل تفسيره ومقالات العروة الوثقى والرد على هانوتو والاسلام والنصرانية ورسالة التوحيد وغيرها وهى تتدفق غيرة على الدين وحرصاً على مصلحةالمسلمين ، كان هذا البطل واقفاً للقادمين فى الدين بالمرصاد كان فى رحلاته الى الاقطار الغربية يبحث عن آثار المسلمين والوقوف على سالف مجدهم وينقب على كتبهم التى انتقلت الى مكاتب الافرنج، كان يرحل الى الجزائر وتونس

قال تهيني أينما ينشر الكبير الروح آراءه تنتأ رؤوس خبيثة

يدعو الى فهم كتاب الله ويبث فى تفسيره ما يدحض حجج أعداء الدين ويثبت بفصاحته وبراعته الذى يأخذ بالالباب ان الاسلام لا عيب عليه وان العيب على أهله الذين شوهوه فكانوا عليه أشد خطرا من أعدائه ، انه لاينكر خدمات الاستاذ الا حسود أعماه الغرض واصمه الاستئثار أو جاهل لا يفقه ما كتب من تلك الآيات البينات ولكنه نور قوى سطع علينا وقد الفنا الظلمة فأغمضنا أبصارنا عنه وستستعدا عين بصائرنا لقبوله شيئاً فشيئاً اذ ذاك ينقلب أشد المنكرين انصارا

كان رحمه الله ساهراً على مصلحة هذه الامة عاملا على رقيها على رقى الازهر على اصلاح المحاكم الشرعية على تقدم التعليم وكان فى مجلس الشورى عالى الروح كثير العمل شديد الغيرة وفى الاوقاف أسدا رئبالا لا يهاب كبيراً ولا يخشى عظيماً جاء فى مقالة فى الرشوة لاحد الادباء نشرت بجريدة المؤيد فى ١١ شوال سنة ١٣٢٧

«كان المرحوم الشيخ محمد عبده يقرأ درساً فى الازهر عنوانه التفسير وحقيقته البحث فى كل ما يتعلق بالمرء فى حياتيه الآخرة والاولى فكان الرجل فى ذلك الدرس فى هذا المسجد مفسراً للقرآن وراويا للحديث ومعلماً وواعظاً ومؤدبا وراوية وقصاصا بل كان كل ما يستطيع امرؤ ان يكون ومهما آخذه المؤاخذ أو نقم عليه الناقم فان أحدا من الناس لا يستطيع ان ينكر عليه انه كان فى دروسه ومجتمعاته ومنتدياته ومحتفلاته يشرح قلبه للناس شرحا لا يترك فيه زاوية لسر ولا مخبئاً لكمين بل لو أشاء لقلت انه لم يكن كذابا ولا مرائيا ولا صاحب وجهين يلقى بأحدهما الله وبالآخر الناس ، ذلك ما بلغ بالرجل المنزله التى بلغ اليها وذلك هو سر حياته الاولى التى قضاها بالامس وحياته الثانية التى يقضيها اليوم بل ذلك هو ملخص تاريخه ان اراد مؤرخ ان يذهب فى تاريخه مذهب الايجاز والاجمال »

يحاول اخماد صوته وتسعى فى التنكيل به وقال چيمس رسل لـــول

وأما الثانى فقام يدعو الى اصلاح المرأة المصرية لان اصلاحها اساس اصلاح هذه الامة فقمنا ندعو عليه بالويل والثبور وصحنا فى وجهه صيحة رن صداها فى ارجاء القطر مع ان الرجل لم يأت منكرا ولم يدع الى مخالفة الشرع ولا الحيد عن تقاليد الدين الصحيحة بل أراد للنساء تربية صحيحة وحجابا شرعياً هو كما قال وسط بين افراط الافرنج فى حرية المرأة وتفريطنا فيها . أراد زواجا يضمن للنسل السعادة وطلاقا يكون وسيلة الى الحياة البيتية الصحيحة

فينا ادواء أولى بحملاتنا الشعواء من آراء المصلحين الراغبين فى رقينا الجاعلين رائدهم البحث المعقول والتؤدة والحرية فى الجهر بآرائهم . هب ان مصلح المرأة أخطأ فى الوسائل فهو لم يخطئ فى وصف الداء وتصوير الغاية التى يجب أن نسعى اليها فالواجب ان نوالى البحث حتى نصل الى الغاية بالوسائل التى نراها خيراً من وسائله لاننا لا نجنى ثمرة قط من اعتراضنا كل مصلح واهمالنا آراءه حتى يأتى عليها النسيان ولا ذنب له الا دعوتنا الى الخلاص من قيود عادات رديئة استحكمت فينا

وهذا الدين الاسلامى لاقى فى أول نشأته كثيراً من المناهضة قال الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده فى هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون الآية » ما نصه

ان الذين اجرموا وهم المعتدون الائمة الذين شربت نفوسهم فى الشر وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا ذلك لانه حين رحم الله هذا العالم ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهماء وفى ضلال العامة وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها الا صوته عليه السلام ثم يهمس بها بعض من يلبيه ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق الى قلوبهم فيسر بها الى من يرجوه

كم رجال عشقوا الحقيقة وأضاعوا زهرة العمر بحثاً عنها ثم قنعوا بعد كدهم بقشورها واكتفوا بعد نصبهم بذمائها وكم مرجّ نيلها خاب رجاؤه ومولع بها سكب الدمع لفقدها ولكن من الناس من هاموا بها فجاهدوا وهانت عليهم حياتهم وسخوا بمهجهم فماتوا وهم يشعرون بحلو كمالها ولذيذ جلالها

حكم على سقراط فشرب السم فى اتينا لأن تعاليمه جاءت مناقضة لما ساد فى عصره من الاوهام والتعصب ورماه متهموه بافساد عقائد النشء ودعوتهم الى الاستخفاف بآلهة الامة فلم

ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه ومن شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة ان يضحك ممن يخالفه فى المنزع ويدعوه الى غير ما يعرفه وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً كذلك كان شأن جماعة من قريش كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل واشياعهم وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل مكان متى عمت البدع وتفرقت الشيع وخفى طريق الحق بين طرق الباطل وجهل معنى الدين وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ولم يبق الا ظواهر لا تطابقها البواطن* وحركات اركان لا تشايعها السرائر وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس الى العمل الا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والالقاب وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب وأحب كل واحد ان يحمد بما لم يفعل وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل واستوى فى ذلك الكبير والصغير والامير والمأمور والجاهل والملقب بلقب العالم اذا صار الناس الى هذه الحال ضعف صوت الحق وازدرى السامعون منهم بالداعى اليه

تقف شجاعته عند مقاومة ظلم القضاة الذين حكموا عليه بل بها استطاع أن يقاوم جهل العامة الذين لم يفهموا لتعاليمه معنى ومات وهو يقول بخلود الروح وكانت آخر كلماته للقضاة قوله الآن نفترق فانا الى الموت وانتم الى الحياة ولكن لا يغيبن عنكم انه لا يعلم أينا أحسن مآلا سوى الله

وكم من علماء ومفكرين اضطهدوا باسم الدين وسيموا سوء العذاب هذا برونو أحرق حياً فى رومه لأنه كشف النقاب عن فلسفة عصره وكانت شائعة اذ ذاك على بطلانها ولما حكم عليه قضاة محكمة التفتيش بالاعدام قال لهم والأباء والشمم يتدفقان من خلال كلماته يا قوم هذا الحكم أشد رهبة فى نفوسكم منه فى نفسى (١)

ثم جاء من بعده جليليو ذاكم الذى كادت صفاته من حيث هو شهيد تذهب بشهرته من حيث هو عالم وأخذ يبدى آراءه فى حركة الارض فشهر به رجال الدين فوق منابرهم ثم دعى الى رومه وهو ابن سبعين ليسأل عن مروقه من الدين وسجنته

---

(١) الناقل : قال المرحوم الشيخ محمد عبده الا يعجب القارىء اذا رأى ان برونو يحرق بالنار حياً بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لانه قال بقول الصوفية فى وحدة الوجود وقال ان هذا العالم يحتوى على عوامل كثيرة

« الاسلام والنصرانية »

محكمة التفتيش زمناً ولم يكفهم اضطهاده حياً فأصروا على اضطهاده ميتاً وضن عليه البابا بلحد يضم رفاته

ومثله روجر بيكن اضطهد لاشتغاله بالفلسفة واتهم بممارسة السحر لاشتغاله بالبحث فى علم الكيمياء فصودرت كتاباته وسيق الى السجن حيث قضى عشر سنين حكم فى أثنائها اربعة من البابوات ويؤكد بعضهم أنه مات فى السجن

طرد البابا من الكنيسة أكهم الفيلسوف الانجليزى ثم نفى ومات بمنفاه ولم يحمه سوى صداقته لامبراطور جرمانيا لذاك العهد

شهرت محكمة التفتيش بفسليس ورمته بالزندقة لأنه أظهر الانسان للانسان كما شهرت من قبل بجاليو وبرونو لاظهارهما السموات للانسان ، اجترأ فسليس على درس جسم الانسان بتشريحه وكان التشريح محرماً فكان واضع أساس علم من العلوم ولكنه ضحى حياته فى سبيل ذلك أذ حكمت عليه محكمة التفتيش بالاعدام لولا أن شفع له ملك اسبانيا فخفف الحكم وأمر بالرحلة الى الارض المقدسة ولما قفل راجعاً مات بائساً فى زنت وهو فى عنفوان الشباب أودت به الحمى والفاقة فمات شهيد العلم(١)

---

(١) الناقل : ان فى ضحايا محكمة التفتيش وحدها لدليلا ساطعاً على قول المؤلف قال الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده يصف هذه المحكمة المشؤومة واضطهادها العلماء

لما ظهر كتاب بيكن النظام الجديد حمل الناس عليـه لأنهم

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عند ما خيف ظهورها بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وايطاليا ، انشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب تركادا .

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ففي مدة ثماني عشرة سنة من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٤٩٩ حكمت على عشرة الآف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء فاحرقوا وعلى ستة الآف وثمانمائة وستين بالشنق بعـــد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين الفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفه فنفذت ثم احرقت كل توراة بالعبرية

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هـذه المحكمة (المقدسة) وسيلة واحدة وهي أن يحبس المتهم وتجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة الى أن يعترف بما نسب اليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ ، قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة لكن ذلك لم يمنع الامراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول الى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض افكاره

اشتدت محكمة التفتيش في طلب اولئك المجرمين طلاب العلم والساة الى كسبه ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها ، في المدن ، في البيوت ، في السراديب ، في الانفاق ، في المخازن ، في المطابخ ، في المغارات ، في الغابات وفي الحقول ، فوفت بما كلفت به مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين . . . .

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم والقسوس في كنائسهم والاشراف في

قصورهم والتجار بين بضائعهم والصناع فى مصانعهم والعامة فى بيوتهم ومزارعهم وحيثما وجدوا وأينما ثقفوا ويوقفون أمام المحكمة وتصدر الاحكام عليهم يوم اتهامهم

قرر مجمع لاتران أن يكون من وسائل الاطلاع على افكار الناس الاعتراف الواجب اداؤه على المذهب الكاثوليكى أمام القسيس فى الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها) تذهب البنت أو الزوجة أو الاخت لاجل الاعتراف بين يدى القسيس يوم الاحد فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو اخيها وما يبدر من لسانه فى بيته وما يظهر فى أعماله بين أهله فاذا وجد القسيس متلق الاعتراف شيئا من الشبهة فى طلب المسلم غير المقدس على من سأل عنه رفع امره الى المحكمة فينقض شهاب التهمة عليه فاذا سأل عن الشاهد الذى عول عليه فى اتهامه لا يجاب وانما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من اهله حتى يعترف

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل اوروبا ما خيل لكل من يلمع فى ذهنه شىء من نور الفكر اذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه وان السلاسل والاغلال أسبق الى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية اليه وقال باغليادس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين الف نسمة منهم نحو مائتى الف احرقوا بالنار أحياء

« الاسلام والنصرانية »

فى سبيل المجد أودى نفر	شهداء العلم اعلاهم مقاما
خلفاء الرسل فى الارض همو	يبعث الله بهم عاما فعاما
قطرة من دمهم فى ملكه	تملأ الملك جمالا ونظاما

« شوقى — العصر والعصفور »

على سلطان الدين وكتب رجل اسمه هنرى ستب كتابا انحى فيه على الفلسفة الحديثة وشهر بطائفة المختبرين العاملين برأى بيكن وهكذا عورض فى تأسيس الجمعيــة الملكية بدعوى أن الفلسفة العملية المبنية على الاختبار والمشاهدة هادمة لصروح العقيدة المسيحية

اضطهد أشياع كُبِرنِكَس بدعوى خروجهم عن الدين ووصم كِبلَر بوصمة الزندقة لأنه كما قال عن نفسه سلك السبيل التى ترضى الله ويا للعجب حتى نيوتُن الطاهر النقى قلبه من السخائم الذى يقول فيه بِرنِت انى لاأعرف نفساً انقى من نفسه والذى كان طفلا فى سلامة نيته حتى هذا يرمى بالحط من مقام الألهية لا لسبب سوى اهتدائه الى قانون الجاذبيــة وهو ذلك الاستنباط الجليل وبمثل ذلك رمى فرَنكلِن لايضاحه حقيقة الصواعق

حكم اليهود على سبِنوزا وهو منهــم بالحرمان لبث آرائه الفلسفية مع مخالفتها للدين فى اعتقادهم وهذا السبب وحده هو الذى حمل بعضهم على أن يحاول قتــله الا أن ذلك كله لم ينل شيئاً من عزيمتــه فبقى شجاعاً قوى النفس الى أن مات معدماً مجهولا

شهروا بفلسفة دِكرت وقالوا انها تؤدى الى الزندقة وقالوا

ان آراء لُـك تجر الى الاعتقاد بمذهب الماديين وفى عصرنا هذا اتهم الاستاذ بَكلَند ومستر سِدجـوِك وغيرهم من قادة الافكار فى علم طبقات الارض بقلبهم ما ظهر من الآراء فى تكوين الارض وتاريخها وهكذا اذا توخينا الحقيقة وجدنا كل رأى جديد فى الفلك أو التاريخ الطبيعى أو العلوم الطبيعية قد وقف فى سبيله الجامدون الضعاف العقول بدعوى مخالفته للدين

وقد صادف غير من ذكرنا من عظماء الكاشفين شيئاً كثيراً من الهمز واللمز والطعن فى مهنهم وان لم يتهموا بالانحراف عن الدين فهذا هَـارفى قلّ عمله فى مهنته[١] لمـا اذاع نظرية الدورة الدموية ورماه الاطبـاء بالجنون وهـذا جُـن هَنتـر يقول انى لم أنجز ما انجزت من الاعمال الحسنة على قلتها الا بعد أن كابدت من المصاعب ما كابدت وصادفت من المعارضة ما صادفت وهذا سير تشارلس بيـل لما كان مشتغلا بمباحثه الجليلة فى الجهاز العصبى التى هدت الى رأى هو من أجل ما عرف فى علم وظائف الاعضاء كتب الى صديق له يقول ما كان أسعدنى لو لم أكن بهذه الدرجة من الفقر ولو لم اكن اعانى من المنغصات

---

(١) يقول أوبرى فى كتابه (تاريخ ولتشر الطبيعى) عند ايراده كلاما عن هرفى لقد أخبرنى هو نفسه أن عمـــله فى مهنته قل قلة عظيمة عند نشره الكتاب الذى نحن بصدده

ما اعانى اه وقد شاهد هو أيضاً ان عمله فى مهنته كان يقل قلة محسوسة عقب نشره كل جزء من اجزاء الحقائق التى اهتدى اليها

وهكذا كل اتساع فى دائرة العلم كان من شأنه أن يزيدنا علما بالسموات أو بالارض أو بأنفسنا قام به ذوو النفوس الكبيرة من أهل الاعصر الخالية بما بذلوا من همة واخلاص وبما كان فى أخلاقهم من تضحية النفس والشجاعة ، أولئك هم الذين يرتاح العقلاء لتبجيلهم واحلالهم من التكريم محلا يليق بهم وان عارضهم معاصروهم وبالسنة حداد سلقوهم

وان ما لاقى العلماء فى الاعصر الخالية من الجور والعسف والظلم لا يخلو من موعظة ومن حكمة بالغة فانه يعلمنا أن تقابل مخالفينا فى الرأى بالحلم والاناة والصبر ما داموا متئدين فى نظرهم مخلصين فى افكارهم جاعلين الحرية والصدق رائدهم فى الجهر باعتقادهم

قال أفلاطون العالم رسالة الله الى البشر فقراءة هذه الرسالة وتدبرها واستنتاج حكمتها كل ذلك لا يزيد العقل السليم الا تأثراً بقوة الخالق وادراكا لبالغ حكمته وشكراً لجليل نعمته

هذا وليست شجاعة شهداء الدين بأقل من شجاعة شهداء العلم فان الذى يتأهب لملاقاة الشدائد ومكافحة المصاعب حرصاً

على ما يوحيه اليه ضميره وهو في الشدة قد عدم النصير ولم يجد فرداً واحداً يقاسمه مصابه أو يقوى من جأشه أن هذا يكون صبره واحتماله مظهراً لنوع من الشجاعة أجلى وابهى وابهر من الشجاعة فى ميدان القتال بين دوى المدافع وصليل السيوف حيث خائر العزيمة يستمد الثبات من مشاركيه فى القتال والشجاعة ممن معه من أقوياء الرجال وان القلم ليكل عن أن يحصى من تمسكوا باليقين وازدادوا قوة وبأساً فى حروب العالم الادبية مدفوعين الى ذلك بعقائدهم ولم يثنهم عن غرضهم أو يفل من غرب عزيمتهم ما قابلوا من شدة ولا ما عانوا من محنة ولا ما أحدق بهم من خطر بل آثروا الموت على أن يخونوا عقائدهم أو يلغوا عقولهم أو يكفروا بما توحى ضمائرهم

هؤلاء الذين اشربوا حب الواجب هم الذين تمثلت فيهم فى العصور الخالية خلال الشجاعة والجرأة والاقدام ولا يزالون يمثلون لنا مناظر هى من أجمل ما يرى فى التاريخ ، ولقد كانت النساء وهن من الرقة واللطف على ما نعلم قادرات على أن يظهرن فى هذا السبيل شجاعة لا تنى وعزماً لا ينثنى كما كان من أمر آن اسكيو التى عذبت حتى انكسرت عظامها فلم تئن ولم تحرك ساكناً بل شخص بصرها الى معذبيها وابت أن تعترف لهم أو تحيد عن اعتقادها وانظر ما كان من أمر

لتيمَر وردلى فانهما مشيا الى حيث الموت مشية العروس فى الزفاف لم ينــدبا حظاً ولم يلطما ترائب بل قال أحدهما لصاحبه ليطمئن قلبك فلنضيئن اليوم ان شاء الله فى انجلترا مصباحاً لن ينطفىء أبداً

أو كما كان من أمر مارى دَيَر الكويكَريّة شنقها البُرِتان لوعظها الناس فصعدت الى المشنقة بقدم مطمئنة حتى اذا خاطبت من حولها بجأش ثابت القت بنفسها بين أيدى مضطهديها وماتت مستبشرة ولم يكن سير تُومَس مور بأقل شجاعة حين صعد الى المشنقة راضياً وآثر الموت على مخالفته ضميره ولما وطد العزم على التمسك بمذهبه شعر بأنه انتصر فى موطن من المواطن وقال مخاطباً صهره اى بنى احمد الله لقد حالفنى النصر اه وأنذره دوق نُرفُلك بالخطر وحذره سوء المغبة وقال له ايامور أقسم أن التصدى للامراء محفوف بالخطر فانّ غضب الامير من ورائه الموت فاجابه مور أذلك كل ما فى الامر اذن لا فرق بينى وبينك الا أنى أموت اليوم وانت تموت غداً اه

واذا كان كثير من العظماء قد وجدوا من نسائهم منعشاً وعوناً عند نزول الشدائد واحداق الاخطار فلم يكن لمور من زوجه مسلياً لأنها لم تعمل شيئاً يسرى عنه همومه أيام

سجنه[1] ولم تستطع أن تفهم ان لدى بعلها من الاسباب ما يحمله على البقاء فى سجنه وهو بقيامه بما طلب الملك منه يستطيع أن يتمتع بحريته وبيته الجميل فى تشيلزى وبدار كتبه وحديقته وجمع صوره والاجتماع ببنيه وزوجه ، قالت له يوماً انى لأعجب من انك وانت الذى كنا نعدك عاقلا تجعل نفسك سخرية فتبقى هنا فى هذا السجن الضيق القذر وترضى بالعيش بين الجرذان مع استطاعتك الخروج والتمتع بحريتك كيف شئت لو انك تعمل ما عمل الاساقفة ، ولكن مور نظر الى واجبه من وجهة غير هذه الوجهة ولم يكن الامر عنده مقصوراً على الراحة الخاصة فلم يسمع لعذل زوجه ولم يجده نصحها نفعاً فتركها برفق وقال والبشر يجول فى محياه أليس هذا المكان كمنزلى فى قربه من الله فلما سمعت ذلك سخرت منه

وعلى العكس منها ابنتها مرجريت فانها حثت أباها على التمسك بعقيدته وقامت بما يجب عليها أثناء سجنه من تسليته

---

(١) كانت زوج سيرتومس مور فتاة ريفية علمها هو الادب وانبتها على ما يوافق ذوقه ويناسب ميوله وطباعه فماتت صغيرة السن عن ولد وثلاث بنات كانت أشبههن بأبيها مرجريت فتزوج بثانية وكانت أيما تزيد سنها على سنه سبع سنين وصفها بقوله لم تكن بالجميلة الخلق ولا بالصغيرة السن اه وكانت امرأة دنيوية ليست أهلا لان تضحى الراحة والنعيم لشـــل ما استولى على عقل بعلها من الاعتبارات

وتسرية الهموم عنه وكان يكتب خطاباته اليها بقطعة من الفحم لأنه حرم المداد واليراع ومن قوله فى أحدى كتبه لو انى اعبر كتابة عما يخالج قلبى من السرور بخطاباتك الىّ لما وجدت من الفحم أقلاماً تكفى

هكذا كان مور شهيد الحق لم يرض أن يقسم يميناً كاذبة وقتل لاخلاصه ولما فصل رأسه عن جسمه وضع على قنطرة لندن عملا بالتقاليد الوحشية فى تلك العصور وطلبت ابنته مَرجَريت أن تأخذ الرأس فأجيب طلبها وحافظت على والدها حتى بعد الموت لأنها أوصت أن يُدفن الرأس معها فى لحد واحد ولما مرت السنون الطوال وفتح قبرها وجد ذلك الاثر الثمين على رفات صدرها

وهذا لوثر لم يفقد حياته من جراء اعتقاده ولكنه كان دائماً معرضاً لفقدها من يوم اعلن مخالفته للبابا وكان وحيداً فى مبدأ جهاده أما اعداؤه فكانوا كثيرى العدد وفى ذلك يقول فى أحد الطرفين العلم والذكاء والكثرة والجلال والمقام الرفيع والقوة والطهارة والمعجزات وفى الطرف الآخر وكليف ولِرنزُوفَلاّ واُجَستن ولوثر هذا المخلوق الضعيف هذا الرجل ابن الامس يكاد يكون وحيداً ليس حوله من الاصدقاء الا نفر قليل ، دعاه الامبراطور الى ورمز ليدفع عن نفسه تهمة

الزندقة فصمم على الذهاب بنفسه وحرضه من حوله على الفرار واندروه فقد حياته ان ذهب فقال لهم كلا سأذهب ولو وجدت هناك من الشياطين أضعاف ما على البيوت من قرميد ولما حذروه عداوة دوق اسمه جورج قال سأذهب ولو بقيت الدنيا تسعة أيام تمطر أمثال جورج

وبر لوثر بقوله وابتدأ رحلته المحفوفة بالاخطار ولما أن لاحت له ابراج النواقيس فى ورمز وقف فى مركبته وغنى نشيد الاصلاح ويقال أنه كان قد ارتجله ولحنه منذ يومين وقبيل انعقاد المجمع الدينى وضع جندى قد بلغه الكبر اسمه جورج فرندسبرج يده على كتف لوثر وقال أيها الراهب الصالح كن حذراً أنت على وشك الدخول فى معمعان حرب أصعب مراساً من حروبنا فلم يجبه لوثر بغير قوله انى مصر على الاعتماد على الانجيل ثم على ضميرى

ولا يزال دفاع لوثر عن نفسه أمام المجلس الدينى معدوداً من أجل صفحات التاريخ ، تقدم اليه الامبراطور ان ينثنى عن عزمه ويعدل عن رأيه فقال والعزم يتمشى فى روحه مولاى انى لا أتنازل عن رأيى ما لم أقتنع ببطلانه بالانجيل أو بالبراهين الساطعة وكيف أتحول والواجب يأمرنا بألا نفعل مايخالف ضميرنا هذه عقيدتى فى الدين بين أيديكم فلا ترجوا منى غيرها وهذا

موقفى لا استطيع أن اقف موقفاً غيره والله المسئول ان يمدنى ويعيننى ، رأى أن يقوم بواجبه وان عليـه أن يطيع قادراً قدرته فوق قدرة الملوك وقد فعل غير حافل بمـا اكتنفه من الاخطار .

ولمـا أن اشتدت وطأة اعدائه عليه فى اُجزبُرج قال لهم لو أن لى خمسمائة رأس لآثرت ضياعها على العدول عن رأيى فى العقيدة الدينية ، فكأنه كغيره من الرجال كبار النفوس كان يزداد قوة بقدر ازدياد المصـاعب التى صادفته والتى أراد تذليلها قال هَـتِن ليس فى جرمانيا امرؤ أكثر استهانة بالموت واستخفافا به من لوثر والى شجاعته الادبية يرجع الفضل فى اطلاق الفكر من قيوده والاعتراف بما للعقـل البشرى من الحقوق العظيمة .

وأعلم ان الرجل القوى القلب الشريف النفس لا يخاف الموت وانما يخاف العار روى ان ارل ستر فُـرد مشى الى المشنقة مشية أمير الجند فى جيشه الى حيث يحوز النصر لا مشية رجل حكم عليه بالاعدام ومثله هنرى فين حين لقى الموت فى البقعة نفسها وهو يقول لـعَـشرة آلاف موتة أحب الى من ان ادنس ضميرى وطهارته عندى خير من هذا العالم هذا ولم يشق على فين شيء سوى تركه زوجه ولما رآها مطلة عليه من احدى نوافذ البرج وقف فى عجلته وهز قبعته وصاح أى حبيبتى انى ذاهب الى حيث

التقى الله وسأتركك فى هــذا الجو المفعم بالعواصف وبينما هو سائر صاح بعض النظارة الذين التج الطريق بهم ألا أيها الرجل ان هذا أجل مقعد تبوأته فى حياتك فأجابه وقد جرى البشر فى محياه لقد قلت حقاً[١]

والنجاح هو الغاية التى يتطلع اليها كل عامل وتتوق نفسه للحصول عليهــا جزاء لــكده ولــكن هؤلاء العاملين يكدون وينصبون ولعبء العمل على ثقله يتحملون دون أن تلوح لهم لمعة من الامل فهم فى مثل هــذه الأحوال يتخذون من شجاعتهم زادا ثم يبذرون بذورهم أملا فى أن يأتى عليهــا زمن تثمر فيه والمعهود من أمر كل دعوة الى الحق أنها قامت بعد كثير من الحبوط والمناهضة وقد يموت كثير من الداعين اليها قبل أن يبلغوا الغاية من كفاحهم فبقدر ما أبدوا من البسالة والاقدام بما لاقوا من المصاعب وما كابدوا من المناهضة لا بما حازوا من النجاح فى مسعاهم

فالوطنى الصادق الذى لا يصادف انتصاراً فى جهاده والشهيد

---

(١) قال فين قبل أن يقتل الا ان الموت للفظ حقير وأمر خطير ومن بين آرائه التى كتبها فى السجن قبل اعدامه قوله من لا يهاب الموت لا يهاب شيئاً ، الاان للحياة زمنا وللموت مثله والموت عنــــدى خير من حياة مريضة والعاقل لا يعيش الا اذا كانت حياته خيراً من موته وليست كل حياة طويلة بطيبة

الذى يموت محوطا بما يلفظ أعداؤه من صيحات الفرح وهيمات السرور والكاشف الذى لا يجد الهلع الى نفسه سبيلا وان طال أمد الضيق عليه مثل كلمبس كل هؤلاء يمثلون الكمال الادبى الذى تبسم له نفوس الرجال أكثر من ابتسامها للنجاح الأكبر والفوز الأبهر وما أحقر أعمال الشجاعة التى تدعو الرجال الى التهافت على الموت فى الحروب البدنية وما فيها من تحمس الجنون اذا قورنت بشجاعة أمثال من ذكرنا

واعلم أن جل الشجاعة المطلوبة فى هذا العالم ليس مما يدعو الى كبير جرأة أو يستدعى كثير اقدام فالشجاعة الأدبية تظهر فى أعمال الحياة المعتادة ظهورها فى مواطن العمل الخطيرة والانسان محتاج الى الشجاعة التى تحمله على أن يكون أميناً مخالفاً لهوى النفس صادقا فى قوله عاملا بفطرته عائشاً عيشة شريفة على قدر ما تسمح حالته لا عيشة غير شريفة يعتمد فيها على ما بيد غيره

وان كثيراً مما فى هذا العالم من البؤس والشقاء والشر والفساد انما نجم عن ضعف العزيمة والذبذبة دون البت فى الامور وان شئت فقل عن فقدان الشجاعة فان المرء قد يعلم منهج الحق ولكنه يعجز عن سلوكه ويفقد الشجاعة فيتقاعد عن المضى فيه. قد يدرك ما عليه من الواجب ولكنه لا يستطيع أن يصمم على

القيام به ، وذلك لأن الرجل الضعيف الذى لم تدرب قواه يبقى تحت رحمة الوسوسة والفتنة اذا سولت نفسه الشر عجز عن قول لا ووقع فى الشر قبل ان يقولها واذا ساءت البيئة التى هو فيها سهلت وقوعه فى الخطأ .

هذا والاخلاق تقوى وتقوم بالاستعمال هذه حقيقة لا ريب فيها فالارادة وهى محور الاخلاق يجب ان تدرب حتى تعتاد العزم وتألف البت فى الامور والا عجزت عن مقاومة الشر وعمل الخير ذلك لان العزم يبعث فى النفس قوة الثبات يوم لا يكون العدول عنه الا أول خطوة فى انحدار وعر مآله التهلكة والدمار

ولا يفيد الالتجاء الى الغير عند الحاجة الى البت فى أمر من الامور بل يجب على المرء ان يعتاد الاعتماد على قواه ويركن الى شجاعة نفسه فى أوقات الشدة والمواقف الحرجة ذكر بلُتَرك أن ملكا من ملوك مقدونيا كان وهو فى موطن القتال يلجأ الى قرية من القرى المجاورة له ليقدم القرابين لهرقيل وان خصمه كان يطلب المعونة من الآلهة ولكنه فى الوقت نفسه يأخذ فى أسباب الفوز وحسامه فى يده ثم يخرج من ساحة القتال ظافراً منصوراً .

كم من آمال كلها حماسة لا تكون نتيجتها سوى كلام ، وكم من أعمال تراد ولا تعمل ومقاصد يرسم لها خط السير ولا يشرع

فيها لا لسبب سوى عدم العزيمة الماضية والحاجة الى شيء من الارادة الصارمة ، انما ينفع لسان صامت وفعل ناطق وانجاز الاعمال أولى من الاسهاب فى الكلام وخير ما تقام به الحجة وتجاب به المطالب العمل وما أحسن قول تلستن يظهر ضعف الرأى فى الامور بالذبذبة والتردد حين وضوح الطريق ومس الحاجة الى العمل ومثل الذى ينوى أن يغير من حاله ويعيش عيشة جديدة دون أن يجد وقتاً لابراز النية الى حيز الفعل كمثل من يتردد فى الأكل ويسرف فى الشرب والنوم حتى يموت جوعاً(١)

ثم اننا فى حاجة الى قدر غير يسير من الشجاعة الادبية به نقاوم شرور هذه الهيئة الاجتماعية لأن المجتمع الانسانى عظيم التأثير مهما نزلت درجته وانحطت قيمته وجل بنى الانسان ولاسيما النساء عبيد للطبقة التى اليها ينتسبون أرقاء للبيئة التى اليها ينتمون فكأن بينهم نوعاً من المؤامرة تهدم من شخصيتهم وتذهب باستقلالهم الذاتى فكل طائفة وكل طبقة لها عادات وتقاليد لا تستطيع الحيد عنها ولا تجد سبيلا الى مخالفتها ، فهم بين أسير

---

(١) ان رجلا يغير عزمه كل يوم ولا ينفذه انما هو كمن يريد ان يثب قناة فيجرى اليها من بعيد حتى اذا وصل اليها غير عزمه وعاد ليجرى من جديد وهكذا فلا هو يثب ولا هو يريح نفسه

« صحيفة دار العلوم — خطبة العادة — ص ١١ »

لعادة وأسير لرأى وأسير لشاكلة جديدة اللهم الا فئة تجد جرأة على أن تعتقد غير ما يعتقد الناس وتعمل غير ما يعملون وتخرج من قد العادة الى ذلك الجو الفسيح جو حرية القول وحرية العمل وقليل ما هم فنحن نلبس ونأكل ونعمل بالتقاليد المألوفة وان أدى بنا ذلك الى الدين والبؤس والدمار ونعيش كما تقضى علينا تقاليد طبقتنا وخزعبلاتها لا كما تسمح به حالتنا فنحن ان عبنا على الهنود فرطحة رؤسهم وعلى أهل الصين تشويه أقدامهم فما علينا الا أن نتأمل فيما احدثته العادة بيننا من التشويه لنرى أن حكم العادة عام وسلطانها شامل

هذا الجبن الأدبى يظهر فى الحياة العامة ظهوره فى الحياة الخاصة وليس الرياء مقصوراً على مداهنة الغنى بل يظهر فى مداهنة الفقير، كان التملق فى الزمن السالف يظهر فى عدم الجرأة على قول الحق لأولى المقامات الرفيعة فأصبح اليوم يظهر فى عدم الجرأة على قول الحق لأولى المقامات الوضيعة ذلك لأن الجماهير[1]

---

(١) يعرف مستر جن ستيورت مل الجماهير فى كتابه الحريه بأنهم مجموع الطبقات المعتادة ثم يقول ان ابتكار كل عمل شريف يصدر عن الافراد ذلك أمر لا بد منه وقد جرت العادة أن يكون ذلك فى بادئ الامر من فرد واحد والرجل مجده وشرفه فى قدرته على ان يعمل بذلك الشيء المبتكر وان يلبي نداء الاعمال الشريفة وينقاد اليها الى ان قال ان من الخدمة للحق فى هذا العصر

لما أصبحوا ذوى نفوذ فى عالم السياسة ازداد الميل الى ملاطفتهم والتملق لهم ومخاطبتهـم باللين من القول ونسبت اليهم فضائل هم أعلم الناس بأنهم خلو منهـا واجتنب اظهار الحقائق لهم اذا لم توافق اذواقهم وان كانت فيها مصلحتهم ولكنيا نستميلهم نتخذ من شعورنا نحوهم آراء لاسبيل الى اخراجها الى حيز الفعل

نحن فى هذا العصر لا نسعى الى استمالة الكريم الاخلاق العالى التربية الحسن الحال بقدر مانسعى الى استمالة الوضيع قليل التربية سيء الحال لأن هذا الثانى صوته صوت العـامة حتى لقد نرى ذوى المناصب وأرباب الثروة والتربية يترامون ذلا على أقدام الجهلة رغبـة فى الحصول على اصواتهم فواعجبا لقوم يرغبون فى ان يكونوا مقبولين وان استلزم ذلك ذبذبتهم وضـياع ذممهم وواعجبا لتلك الفئة التى تؤثر الذل والتملق على الاباء والعزيمـة وعزة النفس وترى الاستسلام للاوهام البـاطلة خيراً من مقاومتها

مجرد الشذوذ عن أحكام العادة والامتناع من الاذعان لسلطانها ولما كان استبداد الرأى العام يعد الشذوذ رذيلة حسن بالناس ان يشذوا حتى يتخلصوا من ذلك الاستبداد ، هذا وان الشذوذ لا يكبر الا حيث تكبر قوة الاخلاق والشذوذ فى مجتمع ما يكون بقدر ما فى ذلك المجتمع من العبقرية وقوة الجنان والشجاعة الادبية فقلة القادرين على الشذوذ الآن دليل على ما يتهدد عصرنا هذا من الاخطار

ص ١٢٠ و ١٢١

فليت شعرى هل درى أمثال هؤلاء أنه لا بد لمقاومة تيار الماء من قوة وشجاعة وان السير مع هذا التيار لايحتاج الى شئ من ذلك البتة اذ يقوى عليه السمك الميت

الا ان تفانى الناس ذلك التفانى المعيب فى نيل استحسان الجمهور فشا فى العهد الأخير فكانت نتيجته الحط من أخلاق الرجال ، خربت الذمم وأصبحت اكثر مرونة ، فرق الناس بين آرائهم فرأى يكتمونه وآخر يبدونه ، يؤمّنون فى الظاهر على آراء يحتقرونها اذا خلوا الى ضمائرهم ، كثر تقلبهم فى الآراء حسبما يوافق مصلحة الاحزاب فكأنى بهم لايكادون يرون النفاق رذيلة

ذلك الجبن الأدبى يفشو فى الطبقات السفلى كما يفشو فى العليا ولا غرابة فان الفعل ورده متساويان والنفاق والتلون بين الطبقات العليا يصحبه النفاق والتلون بين الطبقات السفلى فماذا يرجى من الدهماء اذا عجز عن الجهر بالرأى الزعماء ، لامراء فى انه لايرجى منهم الا ان يتشبهوا بقادتهم ويحذوا حذوهم فهم لذلك يستخففون ويروغون ويقولون مالا يفعلون اسوة بسراتهم ولعمرى ان الحرية كل الحرية فى شرعتهم امدادهم بالوسائل التى بها يتسنى لهم اخفاء اعمالهم ، انى لا أرى بحال من الاحوال أن مما يوافق مصلحة المرء ان يحوز قبولا واستحساناً بالشكل المألوف فى هذه الايام ، جاء فى المثل الروسى لايرقى الرجل اذا ما ابتلاه الله بظهر

صلب ولكن السلسلة الفقرية لمتطلب القبول خلقت من غضروف فهو لا يرى من صعوبة فى الانحناء والميل الى أية جهة شاء ليستنشق استحسان الناس له

ان القبول اذا ما اكتسب بمداهنة الناس والحيلولة بينهم وبين الحق وبالتسفل والتدنى فى الكتابة والقول ثم باثارة الاحقاد بين الطبقات [1] كان لا محالة محقرا فى نظر الافاضل العقلاء قال

---

(١) كتب مستر ارثر هلبس فى كتاب له نشر فى سنة ١٨٤٥ شيئاً فى هذا الموضوع نثبته هنا لأنه ليس أقل انطباقاً على الحالة الحاضرة مما كان اذ ذاك قال ان مما يؤلم النفوس أن نرى الادب يتخذ وسيلة لاثارة العداء بين الطبقات ولكن ذلك لسوء الحظ أمر شائع بيننا الآن . يسمى بعضهم الروايات الفرنسية ادب اليأس وذلك النوع من الكتابة الذى أريد التخلص من شره يمكن أن يسمى أدب الحقد الى أن قال هؤلاء الكتاب يميلون الى وضع نفوسهم مع الطرف الضعيف ولكن هذه ليست بالوجهة الصحيحة التى ينظر الى الموضوع منها وسوء عملهم هذا كاف وحده لايقافهم لو ادركوا كنهه واشد ما يحزن فى هذا النوع من الكتابة الضرر الذى يجره على طبقة العمال انفسهم لانك لو اردت مصالحتهم من صميم فؤادك لما اكتفيت بالعناية بمآكلهم وملبسهم بل لتقت الى عدم اثارة الامانى الباطلة فيهم وبث روح الجحود والشر فى نفوسهم ثم لتمنيت أن تبقى فيهم شيئاً من الاعتماد على النفس وعنيت بالا تجعلهم يظنون أن حالهم تتغير تغيراً كاياً دون أن يكدوا وينصبوا ولما رضيت أن تتغير حالهم بهذه الكيفية ولو عظم أملك وعلت أمانيك فى تحسين حال العمال لما سهل عليك أن تدس فى كتاباتك ما من شأنه أن يؤلم عواطفهم أو يؤثر تأثيرا سيئاً فى عقولهم ولو كان من ورائه فائدة سريعة مادية لهم فى اعتقادك . هذا هو السبيل

جرمى بنتم فى احد المشهورين ان مذهبه فى السياسة مبنى على بغضه للأقليه اكثر مما هو مبنى على محبته للاكثريه صادر عن شغفه بالاستئثار وميله للتفريق فكم رجلا بين ظهرانينا لا ينطبق ذلك الوصف عليهم

اما سليمو الاخلاق فلهم جرأة على قول الحق وان آلم وصفت امرأة كُلُنيل هَتشنسُن بعلها قالت ما كان البتة يسعى وراء نيل استحسان الناس بل كان سروره بفعل الخير اكثر من سروره بمدح الناس أياه وما كان يحفل بحمد الناس فيخالف ضميره وعقله فى سبيل الحصول عليه أو يكف عن عمل خيرى يرى من الواجب عليه فعله وان رأى العالم بأسره غير رأيه لأنه كان ينظر الى الاشياء من حيث هى لا من حيث قيمتها فى نظر الرأى العام

وقال سيرجُن بَكِنْجتُن فى مجتمع انى لا ارى من فائدة فى ان يكون الانسان مقبولا على ان يكون المراد من القبول لمعنى السخيف المتداول وما على المرء الا ان يبذل قصارى جهده فى اداء ما يجب عليه وان ينال رضى ضميره ويكون بعد ذلك على

الى افادة العالم بعقلك وذكائك فكن على يقين من أن الطبقات السفلى كالطبقات العليا يجب أن تلق اليهـا الامور باخلاص وجرأة وان الطبقات السفلى قل أن تسنح لهم الفرص بسماع من يلق عليهم ما يريد بهذا الشكل

يقين من ان ينال عند الناس قبولا أى قبول[1]

لما صار رتشرد ادجورث قبيل موته مقبولا جد مقبول عند مجاوريه قال يوماً لاحدى بناته أى مَريا انى أصبحت مقبولا جداً مقبول فسأصبح عما قريب غير صالح لشىء ما لأن الرجل لا يصلح لشىء متى صار مقبولا لهذا الحد ولعله اذ ذاك ذكر ما جاء فى الأنجيل عن الرجل المقبول اذ يقول ويل لك اذا اصبح الناس جميعاً يترنمون بمدحك فهكذا كان شأن آبائهم الأولين مع مدعى النبوة

وانه لمن الامور الحيوية اللازمة لاستقلال الانسان شجاعة

---

(١) لسير جن بكنجتن فى ذلك المجتمع كلمات خطيرة جمعت بين البساطة والحكمة قال ما حصلت على شىء من النجاح فى اعمالى الا بقسطى الضئيل من الاستعداد وحسن القصد وقوة العزيمة وثبات الاخلاق ولو انى أردت ان اخلص النصيحة للشاب الذى يصبو الى أن يكون ذا منفعة فى هذا العالم لجمعت زبد تجاربي فى ثلاث كلمات يستطيع كل امرىء فهمها لبساطتها والعمل بها لسهولتها

الاولى أن تترك لغيرك الحكم على استعدادك وما تصلح له من الاعمال والا تتنحى عن عمل يرى أولو الرأى السديد انك بقبوله تفيد امتك ، الثانية انك اذا قبلت الدخول فى ميدان الخدمة العامة تستجمع قواك ومواهبك وتوطد العزم على بذل قصارى جهدك فى أداء ما فرض عليك ، الثالثة أن يكون رائدك فى عملك والبت فى امورك ما تراه الصواب بعد أعمال الروية لا ما يكون بطريق المصادفة مألوفاً عند الناس

جنانه وثقتـه بنفسه فيجب ان يكون من الجرأة والشجاعة بحيث تكون أعماله صادرة عن نفسه لا مجرد صدى لاعمال غيره يجب أن يمرن قواه وان يكون له شعور وافكار خاصة به وآراء ومعتقدات منبعثة عن نفسه فلقد قيل من لا يستطيع ان يبدى رأياً له فهو جبان ومن لا يكلف نفسه ان يكون له رأى فهو خامل كسل ومن لا رأى له فهو جاهل

وكم من رجال عظم الامل فيهم يعجزون عن ان يكون لهم نصيب من هذه الشجاعة شجاعة الجنان وبذا يخيب أمل خلانهم فيهم ، هؤلاء قوم يخرجون الى ميدان العمل ولـكن شجاعتهم لا تلبث ان تضمحل شيئاً فشيئاً لانهـم ينقصهم العزم والثبات والمثابرة فتراهم يقدرون ما يحوط أعمالهم من الخطر وما عساه ينجم عنها من الفائدة ولا يزالون كذلك حتى ينقضى أوان العمل ولا يبقى فى عودته أمل

والمرء مكلف قول الحق لمحض الرغبة فيه وما احكم قول بم لأن ينالنى الضرر من جراء جهرى بالحق خير من ان ينال الحق ضرر من جراء احجامى عن الجهر به ، ولا غرو فالرجل اذا قامت بنفسه معتقدات بعد اعمال الفكر والروية كان خليقاً أن يسعى فى اخراجها الى حيز الوجود بجميع أنواع الطرق الشريفة ، ثم ان الهيئة الاجتماعية بها ظروف وأحوال تقضى على المرء بمخالفة

الناس والجهر بالحق الصراح فان لم يفعل ووافق كانت موافقته ذنباً لا مجرد ضعف لأن الشر اذا استفحل قد لا ينفع فيه سوى المقاومة ولا يجدى فى أزالته اللين وانما تجدى المحاربة

هذا والرجل الشريف النفس معارض للزور بطبيعته والصادق معارض للكذب والعادل للظلم والطاهر الروح للرذيلة والفسق فهؤلاء يحاربون تلك الشرور ويتغلبون عليها اذا وجدوا الى التغلب سبيلا ، هؤلاء هم الذين مثلوا قوة العالم الادبية فى كل عصر وجيل ، ركب فى طبيعتهم الميل الى الخير وعزت نفوسهم بالشجاعة فكانوا دعامة كل أصلاح وتقدم فى المجتمع الانسانى ولولا مثابرتهم فى مقاومة هذه الشرور لاصبح العالم ملكا مباحا للاستئثار والرذيلة تتصرفان فى شئونه تصرف الحاكم المطلق فى شئون رعيته هكذا شأن عظماء المصلحين والشهداء فأنهم كانوا جميعاً قوماً وقفوا حياتهم على درء المفاسد وعاشوا اعداء الباطل اعداء الشرور وهؤلاء الحواريون لم يكونوا الا طائفة منظمة من المحاربين للشر المقاومين للباطل جعلوا همهم مقاومة الكبرياء والاستئثار والخزعبلات والكفر وهؤلاء رجال عصرنا من أمثال كارلكسن ، وجرنفيل شارب والاب متيو و رتشرد كبدن اوتوا قوة العزم فرأينا منهم مبلغ المقاومين لشرور الهيئة الاجتماعية من النفوذ

فانت ترى ان أولى النفوس القوية وأرباب الشجاعة الادبية هم قادة العالم ومرشدوه وحاكموه والضعاف المستكينون لا يتركون وراءهم من أثر اما حياة الفرد المستقيم ذى الهمة فكطريق واضح من نور والناس يذكرون أعماله ويهتدون بهديه ثم تبقى أفكاره وروحه وشجاعته قوة للاجيال الآتية بعده

هذه الهمة التى أكبر عناصرها الارادة هى التى بثت الحماسة فى أهل كل جيل وجعلتهم يأتون بالمعجزات الباهرات واينما نذهب نجدها أصل قوة الاخلاق ودعامة كل عمل عظيم ، وفى كل حركة بنيت على الحق ترى الرجل ذا العزم يعتمد على شجاعته كما لو كان معتمداً على جبل من الصخر يسير الى اعدائه كما سار داود الى جالوت قوى القلب وان احتشدت لمقاومته الالوف المؤلفة

وقد يحصل ان يتغلب الرجال على الصعاب لشعورهم بأن فى استطاعتهم التغلب عليها وثقتهم بنفسهم تبعث فى غيرهم الثقة بالنفس أيضاً ، روى عن قيصر أنه كان مسافرا بالبحر فثارت العواصف واضطرب اليم واستولى الهلع على ربان جاريته فقال يخاطب الربان مم تخاف ألم تدران جاريتك تقل قيصر ، وهكذا تنتقل شجاعة الشجاع الى مجاوريه فاما ان يحملهم على السكوت رهبة منه وخشية واما ان يودع نفوسهم مثل ما أودع نفسه من قوة الارادة ومضاء العزيمة

وشأن من جبل على المثابرة الا توقفه عن سيره العقبات أو تحبط مساعيه المقاومات كما كان من ديُجين حين رغب فى أن يكون من تلاميذ انتيستين ، ذهب وعرض نفسه على الفيلسوف فلم يقبله فاصر على رغبته حتى تناول الفيلسوف هروانه وهدده بالضرب ان لم يقفل راجعاً من عنده ، كل ذلك لم يحمل ديجين على العدول عما قام بنفسه فقال مخاطباً الفيلسوف اضرب فانك لن تجد من العصى ما يمكنك من التغلب على عزيمتى فغلب الفيلسوف ولم يحر جواباً واضطر الى قبوله بين تلاميذه.

ثم ان قوة العزيمة اذا امتزجت بشئ من الحكمة بلغ بها الرجل مالا يبلغ بالعقل وهو خلو منها ذلك لأن العزيمة هى التى تعد المرء لأن يكون رجل العمل وتمده بالحياة والقوة ولا غرو فانما هى العامل القوى فى الاخلاق واذا امتزجت بشئ من الذكاء والرزانة ساعدت صاحبها على الاستفادة من قواه فى جميع أمور الحياة.

ومن ثم استطاع أولو المواهب المعتادة الذين أوتوا قوة العزيمة ان يأتوا بالآيات البينات والعجب العجاب ولم يكن الرجال الذين بسطوا نفوذهم على العالم رجال عبقرية بقدر ما كانوا رجال عقائد ثابتة وقابلية كبرى للعمل تساعدهم فى اداء أعمالهم همة لاتنى

وعزم لا ينثني وان شئت ان أذكر بعضاً قلت دونك محمدا ولوثر ونكس وكلفين وليولا

واذا امتزجت الشجاعة بالهمة والمثابرة تغلبت على صعاب تظهر لأول نظرة وعرة المرتقى ذلك لأنها تزيد العامل قوة وتحول بينه وبين الرجوع القهقرى قال تندال يصف فرِدى كان اذا احتد عزم واذا هدأ هذب عزمه اهـ . واذا حسن استعمال المثابرة ازدادت بمضى الوقت وقل ان تقعد بصاحبها عن الوصول الى غرضه مهما بلغ من الضعف ، هذا وان الاعتماد على الناس أمر لا فائدة فيه ولله انجلو حين قال وقد مات نصيره الآن أدركت ان جل الآمال فى هذا العالم خيال وان خير الطرق ان يثق الانسان بنفسه فيصير ذا منزلة وقيمة

ثم أن الشجاعة ليست كما يزعم البعض من مناقضات الرقة فاننا عهدنا اللطف والرقة من خصال من قاموا بأعمال البسالة لا ينقص فى ذلك الرجال عن النساء هذا سير تشارلس نبير امتنع عن الصيد والقنص لأنه لم يطق أيصال الأذى الى المخلوقات العجم واتصف أخوه سير ولـيم مؤرخ حرب الجزيرة بمثل هذه الدقة والرأفة والدعة (١)

---

(١) جاءت الحكاية الآتية فى ترجمته نذكرها لأنها تمثل دقته فى الشفقة . لقى فى طريقه يوماً بنتاً تبلغ من العمر نحو خمس سنين تبكى على اناء كانت

ومثلهما سير جيمس أوترم كان على شجاعته من أرق الناس.
وكان يرعى حرمة النساء ويجلهن ويرأف بالأحداث ويعين الضعفاء ،
يقسو على خرب الذمة ويلين لسليمها فضلا عن انه كان مثال
النزاهة والفضيلة أهلا لأن يقال فيه انه كان انموذجاً للفضل وكان
يصلح للغزو والاصلاح والزراعة وسواها من عظيم الاعمال التى
تشق على الرجال وكان اقدس غاياته التى يرمى اليها فى كل اموره
مصلحة ملكه وامته

وهذا ادوَرْد الامير الاسود لما حاز النصر فى معركة
بوتييه وأسر ملك الفرنسيين وابنه دعاهما الى طعام ووقف على

قدأخذت فيه غذاء والدها ثم سقط منها وهى عائدة من الحقل وكسر فجعلت تبكى
وتقول انها ستضرب لكسرها اياه ولما رأت سير وليم تمشى الامل فى نفسها
فشخص بصرها اليه وقالت ولكنى أظن انك تستطيع اصلاحه فقال انه لا يستطيع
اصلاحه ولكنه يستطيع اعطاءها ما تشترى به غيره ووجد بعد قوله هذا
ان جيبه خال فوعد البنت بمقابلتها فى اليوم التالى وتعهد باحضار ثمن الاناء
معه ثم أمرها أن تبلغ والدتها ذلك فصدقته البنت وهدأ روعها واستمرت فى
طريقها مطمئنة مستريحة ولما رجع الى بيته وجد به دعوة الى طعام فى اليوم
التالى ليرى شخصاً اشتاق الى رؤيته ففكر ملياً ليرى هل كان من الممكن
الجمع بين مقابلة البنت والذهاب الى محل الدعوة ولكنه رأى ذلك متعذراً
فكتب يعتذر عن قبول الدعوة ثم التفت لمن بالبيت وقال انى لا أخيب ظنها
بعد أن وثقت بى ثقة لا يشوبها الشك

المائدة يخدمهما فاستولى بذلك الخلق الشريف على قلوبهما كما استولى بشجاعته على أجسامهما لأن ادورد على حداثة سنه كان بطلا حقاً لم يكن فى عصره أشجع منه ولا أسبق الى المجد فلا غرو ان كان شعاره الروح العالية والخدمة الخالصة فانهما كلمتان تنمان عن مزاياه السامية وصفاته التى انتشر فى الارجاء عبيرها

والرجل الشجاع هو الذى يستطيع أن يكون كريماً وان شئت فقل انه كريم بطبعه ، طعن فيرفاكس فى وقعة نيزبى جندياً من العدو وأخذ منه العلم ودفعه الى جندى يحرسه ويحافظ عليه فسولت نفس الجندى له أن يفخر بأنه هو الذى أخذ العلم وبلغ ذلك فيرفاكس فقال ليكن له ذلك الفخر فان لى كثيراً غيره

وحدث فى وقعة بَنُكبِرْن أن رأى دَجلَس منافسه رَندُلف اقل رجالا من العدو وحسبه منهزماً فهرول اليه ينجده ولكنه ما رأى رندلف وقد رد الاعداء على اعقابهم حتى نادى فى جنده ان قفوا لقد جئنا فى الزمن الاخير ولا يحل لنا أن نقلل من شأن انتصارهم ونتظاهر باشتراكنا معهم فيه

ومن هذا القبيل فى الشهامة وان اختلف المنزع ما كان من معاملة لبلاس للفيلسوف بيو حين قرأ كتاباً له على المجمع

العلمى الفرنسى فانه لما فرغ من قراءته حياه الحاضرون وهنئوه بابتكاره وامتلأ مُـنج فرحاً بنجاحه اما لَـبلاَس فانه اثنى عليـه وعلى وضوح براهينه ودعاه الى مرافقته فانطلقا حتى اذا وصلا الى بيت لبلاس عمد صاحب البيت الى مخدع فى غرفة مطالعته فأخرج منـه وريقة طال عهدها فضربت الى الصفرة وناولهـا الشاب الفيلسوف فدهش بيو لما أن رأى بها الحلول التى نال من أجلها الثناء والمديح وبلغ من شهامة لبلاس أن امسك عن اظهار هذه الحقيقة حتى وجد لبيو صيت فى المجمع العلمى ومع هـذا كله أمره بالصمت ولولا أن بِـيو نفسه صرح بهذه الحقيقة بعد نحو خمسين سنة لبقيت سراً مكتوماً

وانا ذاكرون هنـا حكاية تروى عن صانع فرنسى اتصف بهذا الخلق خلق الأيثار، كان فى باريس بيت يبنى وكان فى مقدمته الاخشاب المنصوبة مثقلة بالرجال ومواد البناء فلم يشعر العملة الا والاخشاب قد كسرت وهوى من عليها الى الارض ولم يبق سوى اثنين شاب وكهل بقيا معلقين على حافة ضيقة جعلت ترتعد تحتهما ارتعاداً يدل على أنها أوشكت تسقط فقال الرجل لصاحبه: أى بيير انى رب أهل بيت فاجابه قولك الحق ثم ترك نفسه فهوى ميتاً ونجا صاحبه[1]

---

(١) الناقل: من عجائب ما ذكر فى الايثار ما حكاه ابو محمد الازدى.

والشجاع كريم النفس رقيق الطبع فلا يأخذ عدوه على غرة ولا يقتل الرجل اذا ما سقط فى ميدان الحرب وعجز عن أن يدافع عن نفسه وليست الحوادث التى تؤيد ذلك بقليله بل كثر وقوعها حتى فى معمعان الحرب فلقد حدث فى وقعة دُتِينجِين حين احتدم القتال أن هجمت فصيلة من فرسان الفرنسيس على فرقة من جيش الانجليز فلما اقتربوا منهم وأوشك القائد الفرنسى أن يهجم على القائد الانجليزى لاحظ انه فقد احدى يديه ولم يبق له سوى يد بهـا امسك عنان فرسه فحياه بسيفه ومر دون أن يلحق به ضرراً(١)

قال لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى احرقوه فاحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين احرقوا الخانات وكتب رقاعا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقعت عليه رقعه فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال والله ما كنت ابالى لولا أم لى وكان بجنبيه بعض الفتيـان فقال له فى رقتى الجلد وليس لى ام فخذ أنت رقعتى واعطنى رقعتك ففعل فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل

« مجانى الادب ج ٢ ص ٢٠ »

(١) روت فلرنس نيتنجيل حادثة حصلت فى سبستيل قالت اذكر ضابطاً رأس طليعة فاصيب فى رأسه وقتل جميع من كانوا معه فى الطليعة فرجع يتخبط الى حيث اقام العسكر ومر بجريح فاحتمله حتى اذا بلغ العسكر سقط مغشياً عليه فلما افاق كان أول ما فاه به السؤال عما اذا كان رفيقه حياً فأجيب بأنه

وروى عن شارلس الخامس انه ذهب الى قبر لوثر بعد أن

حي وانه القائد واذ ذاك حضر القائد الى فراش الضابط رغماً من شدة ما ناله من الجروح فقال الضابط انى لم اعرفك وفرحى الآن لا يحد ولكن سيان عندى عرفتك أم لم أعرفك فانى كنت انحيك على أى حال لأن ذلك واجب الجندية

قالت مس نيتنجيل فى سياق ذكر هذه الحادثة ان انجلترا وصمت بالطمع لما حازت من الرق فى التجارة ولما نالت من السيادة على البحار ولكن يعلم الله انها بريئة مما يرمونها به ليت شعرى هل من امة تبدى مثل ما يبديه جنودها فى ميدان القتال من الشجاعة والصبر والقدرة على احتمال الآلام من غير اظهار للالم اشهد لقد رأيت جنودا يموتون بالدسنطاريا ثم يكتمون أمرهم لئلا يكثر العمل على اخوانهم ويعمدون الى الخنادق فيتخذون منها لانفسهم قبورا لعمرى ليس فى التاريخ شيء مثل هذا وان روح الدين فيمن يبذل وقته وقوته وحياته خدمة لامته وملكه لا كثر منها فيمن يقضى حياته فى الرهبانية والزهد والصوم وهذه الروح روح بذل المرء حياته دون أن يعتقد ذلك تضحية لها لا توجد خالصة صادقة فى غير انجلترا

الناقل : قال الاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده فى هذا المعنى الاخير مبيناً أن الدين الجد والعمل وبذل النفس فى منفعة الناس واصلاح امورهم لا مجرد الاقتصار على صور العبادة الظاهرة قال بعد أن شرح معنى البر

لا يعد الشخص برا ولا بارا حتى يكون للناس من كسبه ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون الذين يظنون انهم يدركون مقام الابرار بركعات من الخشية خاليات وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات وصيحات وهيمات غير لائقات بأهل المروءات من المؤمنين والمؤمنات ثم بصوم ايام معدودات لا يجتنب فيها ايذاء كثير من المخلوقات مع عدم مبالاة

استولت جنوده على وتنبرج وبينما هو يقرأ ما نقش على القبر اذا بأحد الادنياء من حاشيته يقترح نبش القبر والقاء رفات الزنديق في يد الريح فطار طائر الامبراطور وغلى في وجهه دم الغضب للحق ثم قال لترع حرمة هذا المكان فانى لا أحارب الموتى

وصف ارسطو الرجل الكريم النفس وان شئت فقل الرجل الحق وصفاً يصدق الآن كما صدق منذ الفي سنة ونيف قال ان الرجل الحق شيمته الاعتدال والاناة فى حالتى السراء والضراء تراه يعرف ما يزين وما يشين ولا يطير فرحاً ان جد ولا يموت جزعاً ان شقى، لا يأبق من الخطر ولا يسعى وراءه لأنه لا يحفل بالامور كثيراً ، يتحفظ فى كلامه ويتئد فى حديثه واذا دعت الحال باح برأيه غير خاش لومة لائم ، يصفح عن الزلات ولا يكثر من الكلام عن نفسه ولا عن غيره لأنه لا يعنيه أن يمدح أو يذم الناس ، لا يكثر من الضوضاء فى السفاسف ولا يطلب المعونة من بشر

اما الادنياء الغثرة فلا يميلون الا لدنئ الامور وسافلها

الواحد منهم بشأن الدين قام أو سقط ارتفع أو انحط ومع حرصه وتطلعه لما فى ايدى الناس واعتقاده الاستحقاق لما عندهم لا لشىء سوى أنهم عاملون فى كسب المال وهو غير عامل وهم يجرون على سنة الحق وهو مستمسك بسنة الباطل وهم متحلون بحلية العمل وهو منها عاطل فهؤلاء ليسوا من الابرار بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار

لا نصيب لهم من الوقار ولا الكرم ولا علو النفس يرقبون فرص الضعف من غيرهم فينتهزونها ولاسيما اذا تمكنوا بسفالتهم من الوصول الى مراكز يكون لهم فيها شيء من النفوذ أولئك الأدنياء المنافقون المراءون قتلى المظاهر اذا شغلوا سامى المراكز كان احتمالهم أشق على النفس من احتمال أمثالهم فى المراكز الضئيلة لأن المجال لظهور سفالتهم وعيوبهم فى الحالة الأولى يكون أوسع والفرص أكثر فتراهم يتفننون فى ضروب العظمة ويتمسكون بالتظاهر الباطل فى جميع أعمالهم وكلما علت مناصبهم ازداد عدم ملاءمتهم لها ظهوراً فهم كما جاء فى بعض الأمثال كلما علا القرد فى تسلقه ازداد ذنبه ظهوراً

ولكيفية أداء الأعمال أثر كبير فى قيمتها فمن الأعمال ما يعد شفقة اذا سرت فيه روح الكرم واذا سرت فيه روح الحقد تبدى للنفس مؤلماً شديداً قاسياً ، مرض بن جنْسُنْ واستبدت به الفاقة فأرسل الملك اليه رسالة تافهة وشفعها بهديه فما كان من الشاعر الثابت الجأش الصريح القول الا أن قال أظنه بعث بهذه لأنى معدم لا أسكن شامخ القصور ألا أبلغوه عنى ان روحه وضيعة سافلة

يتضح مما قدمناه أن من الأمور ذات البال فى تقويم الاخلاق

شجاعة النفس وصبرها على احتمال الآلام أما ضعف النفس وتسرب الجبن اليها فطامة كبرى وداهية عظمى وما أحسن قول حكيم ان من أهم مقاصدى فى تربية أبنائى وبناتى تعويدهم ألا يخافوا شيئاً خوفهم الخوف اهـ ولا مراء فى أن تجنب الخوف عادة قابلة لان تبث فى النفوس كغيرها من العادات مثل التيقظ والجد والتحصيل والبشاشة .

ما كثير من الخوف الذى يستولى على الانسان الا من مختلقات الخيال ذاك الذى يخلق فى النفس صور المكروه الممكن وان كان وقوعه نادراً (١) ومن ثم نرى كثيراً ممن يستطيعون مكافحة الأخطار والتغلب عليها يجمدون وتستولى عليهم الحيرة لتوقع أخطار موهومة فاذا لم تضبط المخيلة ضبطاً محكماً صرنا عرضة لان نقابل الاخطار قبل ابانها ونشغل أفكارنا بالخوف منها ونحتمل من جرائها أعباء ثقيلة سولها لنا الوهم وأوجدها الفرق

لم تجر العادة باعتبار التربية على الشجاعة فرعاً من فروع تربية المرأة مع انها لعمر الحق أهم من الموسيقى والفرنسية وغيرهما وعندى ان المرأة يجب أن تربى فى نفسها العزيمة والشجاعة فان ذلك أدعى الى جعلها قادرة معتمدة على نفسها تعيش عيشة كلها

(١) الناقل : ما أحسن قول الشاعر

وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة من الروع افرخ اكثر الروع باطله

فائدة وسعادة حقة خلافا لما رآه السير تشرستيل من وجوب اتصاف المرأة بشئ من رقيق الخوف والضعف حتى تصير جاذبة مقبوله [١]

---

(١) الناقل — للفيلسوف هربرت سبنسر فى فصل التربية البدنية من كتابه فى التربيـة بحث فى ان التربيـة الجسمية للمرأة لا تسلبها الصفات التى تحببها الى الرجل وفى هذا البحث رأيه فى هذه الجاذبية أذكره بهذه المناسبة فانه لا يخلو من فائدة فى هذا الموضوع قال بعـــد أن ذكر اهتمام المربين بتقوية أجسام الذكور واغفالهم أجسام الاناث

فلم ذاك الفرق العظيم أتظن القائمات بتربية الاناث ان هناك بونا بين خلقة الذكر وخلقة الانثى أم يحسبن أن ليس للبنـات ما للاولاد من نوازع النفس الى اللعب واللهو أم يرين ان الله سبحانه وتعالى بينا جعـل من تلك النوازع فى الاولاد محرضات على الانهماك فى اللعب خلقهـا فى البنات بلا معنى ولا غرض كلا بل أحسب ان للمربيات رأياً سوى ماذكرت وذلك انهن يربأن بالبنات أن يكون لهن الخشونة والصلابة اللتان تجلبهما رياضة البدن ويرين ذلك أشبه بصفات السوقة والسفلة وانما تود المربيات ان تشبه بناتهن اولاد الملوك والعلية الاشراف ثم يرين أيضاً أنه من تمام الجمال والظرف أن تزيد رقة الغادة وتنقص قوتها وتبلد للطعام شهوتها ويشتد جبنها ويضعف ركنها على أن ذلك المثال الذى يرغب المربيات أن يصغن بناتهن على شكله لايرومه الرجال ونحن لا ننكر أن الرجل يبغض المسترجلات من النساء وان شدة الالتئام بين النوعين انما تقع باحتياج الانثى بضعفها ورقتهـا الى عاصم من بأس الرجـل ومانع من شوكته ولكن هذا الفرق بين الرجل والمرأة كائن بطبيعة الحال لايحتاج الى وسـيلة توجده وهو مادام على الفطرة التى فطره الله عليهـا حسن صالح فاذا تكلفت المربيات تزكيته وغالين فى تجسيمه عاد داعياً الى النفور لاموجباً للالفة

ولعل ذا حجة للمربيات بقول أتترك الغادات تمتاد كل عادة تناقض الرقة

ولعمرى انى لا أرى فى الضعف ما يجذب ولا فى الخوف ما يحب فان كل ضعف عقلياً كان او جسمياً نقص مناف للاستحسان والقبول اللهم ان فى الشجاعة الجمال والجلال وفى الخوف بكل أنواعه الدناءة والاستهجان على ان الرقة واللطف من ملائمات الشجاعة كتب أرى شيفر الى ابنته يقول أى بنتى ابذلى الجهد فى ان تكونى قوية النفس رقيقة القلب فهاتان الخلتان من ملائمات المرأة ، ان كل امرئ يتوقع متاعب الحياة لامحالة ولا اجد الا سبيلا واحداً لمقابلة ما ينالنا من الخيرات وماينزل بنا من الشدائد وذلك السبيل هو ان نتمسك بالشمم فى كلتا الحالتين ، علينا أن لا نيأس فان اليأس ضررلنا ولمن تجمعنا واياهم جامعة الاخاء والمحبة ، لا نصيب للانسان من هذه الحياة الدنيا الا الكد والعمل بلا ملل ولا خور عزيمه (١)

وانى لم أر أقدر من المرأة على احتمال الامراض ولا اقل منها

وتخالف الخفر زلت حجته فأولئك الصبية يدأبون فى العابهم زمن الدراسة ثم يتركون المدارس فلا تراهم يلعبون « النطه » فى الطريق ولا « البلى » فى غرف المجالسة بل ترى أحدهم متى بلغ عصر الشبيبه احتقر العاب الطفولة واحتشم ان يرى وهو بحالة الغلمان فاذا كان الذكور وهم أقل مراعاة للظواهر ترفعهم النخوة عن تعاطى العاب الطفولة فلم لا تكون النساء أجل نفوراً مما يشين كمالهن وأمعن صدفة عما يضر بتورعهن .

« نقلا عن النسخه العربيه لمحمد السباعى ص ١٣١ »

(1) Mrs. Grotes ' Life of Ary Scheffer ', pp, 144-5.

شكوى من الاكدار فان شجاعتها فيما له ارتباط بقلبها تضرب بها الامثال كما قال احد الفرنسيين يخاطب النساء لقد اخطأ من يعدكن ضعيفات فانكن بقلوبكن قويات

اثبتت التجارب ان فى استطاعة المرأة ان تساوى الرجل فى احتمال الخطوب والمصائب ولكننا لا نكلف أنفسنا مؤونة تدريبها على مقابلة تافه المتاعب والقلاقل بجأش ثابت مع أن المنغصات وأن قلت اذا غض الطرف عنها وتسربت الى نفس المرأة لا تلبث أن تنقلب انقباضاً يودى بها ويجعلها هى ومن حولها فى ضنك لا تعرف له غاية

هذه الآفة أنجع علاج لها تربية العقل والآداب تربية صحيحة لان قوة العقل ضرورية لتقويم أخلاق المرأة ضرورتها لتقويم أخلاق الرجل فهى تمدها بقدرة تساعدها على ممارسة أعمال الحياة وبتيقظ يؤهلها للتصرف وحسن الخلاص من الشدائد واذا كانت الاخلاق فى الرجل خير ضامن للفضيلة وخير مقوم للدين وخير مصلح للزمن فهى فى المرأة كذلك بلا مراء هذا وان جمال الخَلق سريع الزوال أما جمال الخُلق والعقل فلا يزال يزداد كلما تقادم عهده .

بيَّن بن جُنْسُن ما يجب أن تكون عليه المرأة الكاملة قال هى التى جمعت بين الفضائل من دعة وآداب ولين عريكة

وطهرت من آفة العجب والكبرياء والغرور وأوتيت نفساً شيمتها الشهامة وغذاؤها العلم بها تستطيع التصرف فى الامور

تقول وشجاعة المرأة محوطة بسور من الهدوّ والسكينة بعيدة عن حركة العالم والحياة العامة لاتبدو الا فى زوايا الحياة الخاصة ولكن هذا لايحط من قدرها وفى التاريخ حوادث ظهرت فيها شجاعة المرأة ظهوراً بيناً منها حادثة «جرترودفن دروَرت» اتهم بعلها ظلماً بالاشتراك فى قتل الامبراطور ألبرت وحكم عليه بأفظع عقوبة هى أن يقطع حياً واعتقدت براءته فلازمته حتى آخر لحظة من حياته وراقبته أملا فى ان تسرى عنه هموم الموت غير حاسبة لغضب زوج الامبراطور ولا لصعوبة الجو حساباً (١)

وليست شجاعة المرأة بواقفة عند هذا الحد فان المرأة قد يدفعها الحب والواجب الى ان تصير باسلة مستأسدة كما كان من امر كترين دجلس مع المؤتمرين بجيمس الثانى ملك اسكتلندا ذلك انهم لما انقضوا على داره صاح بالنساء وكن فى غرفة خارج غرفته ان يحمين بابه ما استطعن حتى يتمكن

(١) بعثت هذه المرأة الشريفة بكتاب الى صديقة لها وصفت فيه ما لحقها وبعلها من الآلام وصفاً يرق له القلب وتضطرب الحواس ونشر هذا الكتاب منذ بضع سنين فى هارلم بعنوان « جرترودفن درورت — الوفاء حتى الممات» وكتبت الشاعرة همنز فى كتابها ذكرى النساء قصيدة رقيقة مؤثرة تعيد فيها ذكرى هذه الحادثة المؤلمة

من الفرار وكان المؤتمرون قد اتلفوا من قبل كل ما بالابواب مما يساعد على اغلاقها فلما أحست كترين بمقدمهم ولم تجد ماتغلق به الباب فى وجوههم جاشت فيها الشجاعة الوراثية فى أسرتها فوضعت ذراعها وراء الباب وما زالت ثابتة فى دفاعها حتى كسر ذراعها ودخل المؤتمرون الغرفة شاهرين سيوفهم ممسكين بخناجرهم يجندلون النساء وهن يحاولن مقاومتهم وان كن عزلا

ومن هذه الحوادث التى تمثل بسالة المرأة واستئسادها دفاع شَرلُت دِلَترمُىّ عن بيت لَثُم دعتها جيوش البرلمان الى التسليم فقالت ان بعلى قد ترك لى الدفاع عن هذا البيت فلا أسلمه الا بأمره وانى أرجو من الله السلامة والخلاص . وقيل عنها انها لم تترك من معدات الدفاع شيئاً يقال جره الاهمال أو سوء الحظ وازدادت على ما اتصفت به من الصبر عزيمة ماضية فقاومت العدو دفاعا عن بيتها ووطنها سنة كاملة اشتد فيها الحصار بقدوم الجنود الموالية للملك

ثم لا تنس شجاعة السيدة فَرنكلِن اذ واصلت الليل بالنهار تتبعاً لسير فرنكلن ولم يثنها عن البحث استيلاء اليأس على من كانوا معها فنالت بذلك الفخر الأكبر وقررت الجمعية الجغرافية الملكية منحها وساما فصرح السير رُدَرك مرتشزُن بأنه بعد أن صاحبها زمناً طويلا رأى منها امرأة كريمة السجايا أهلا لان

يعجب بها الجنس البشرى ومما قاله بهذا الصدد انها لم يثنها عما عزمت عليه حبوط مساعيها المرة تلو المرة فدأبت على العمل بعزم غريب وتفان فى أداء الواجب ليس له مثيل فاليوم ترحب الأمة بمنحها هذا الوسام الذى هو بعض ماتستحقه فهى التى برحلتها الاخيرة تحت قيادة البطل « مكلينتك » اثبتت لنا أن بعلها ساح فى بحار شاسعة لم يعرفها من قبله من الملاحين وانه مات فى محاولته الكشف عن الطريق الشمالية الغربية (١)

---

(١) الناقل : ليس نصيب المسلمات فى صدر الاسلام من هذه الشجاعة بأقل من نصيب الغربيات قال صاحب أشهر مشاهير الاسلام فى سياق الكلام على وقعة اليرموك أبلى النساء المسلمات فى ذلك اليوم كما أبلى الرجال وحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل اذا لوت وينادين الى أين ياحماة الاسلام وطلاب الشهادة يشددن بذلك عزائم الرجال ويواسينهم بأنفسهن فى ساحة القتال حتى بلغن من كيد العدو مالا تبلغه منه السيوف وقمن بخدمة الاسلام كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الحتوف فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرضات يجاهدن العدو ويحرضن المسلمين ويمرضن الجرحى وربما قتلت المرأة ولد فيبعث الى ساحة الحرب أباه أو تسلت عنه بأخيه

« أبو بكر ص ٧٦ »

وقال فى الكلام عن القادسية لما أصبح القوم فى اليوم الثانى وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى الى النساء ليقمن عليهم وأما القتلى فدفنوا هناك . اه

والخنساء الشاعرة المشهورة بطل من أبطال هذا الميدان كان لها أربعة بنين فلما ضرب البعث على المسلمين لفتح فارس سارت معهم وهم رجال وحضرت

وأكثر ما يكون التفانى فى أداء الواجب هذا التفانى الذى هو عنوان الشجاعة نقول أكثر ما يكون ظهوراً فى النساء فى أعمال البر والرأفة بيد أن جل هذه الاعمال يبقى مجهولا بعيداً عن عيون العالم لانهن يعملن لمحض الرغبة فى الخير فاذا ذاع صيتهن فقد ذاع عفواً ثم قد يكون عليهن عبئاً ثقيلا ومن هؤلاء السيدة فراى والآنسة كاربنتر وقد اشتهرتا بأعمالهما فى السجون واصلاحها والسيدة تشيشلم والآنسة راى وكانتا من أعظم العاملين فى الحض على الهجرة الى البلاد الاجنبية والآنستان نيتنجيل وجرت الممرضتان هذه النسوة جميعاً اشتهرن شهرة لم يبق من أحد يجهلها

وقعة القادسية وأوصتهم من أول الليل « يابنى انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة ماهجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية ، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، وجللت ناراً على ارواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالمغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة ، فلما أضاء لهم الصبح بادروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم حتى قتلوا عن آخرهم فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر الرحمة . اهـ

ولصاحب أشهر مشاهير الاسلام كلمة فى شجاعة النساء المسلمات قال فيها ذكر ابن جرير الطبرى ان المثنى وعصمة وجريراً أصابوا فى أيام البويب غنما ودقيقا

فخروج هؤلاء من دائرة الحياة البيتية الخاصة وصيرورتهن قادة فى أعمال الخير دليل ساطع على شجاعة نفوسهن لان النساء أميل الى الهدو والراحة والابتعاد عن ضوضاء العالم وقل أن تتخطى المرأة حدود البيت طلباً لميدان للعمل أفسح ولكنها ان رغبت فى شئ من ذلك حصلت عليه بلا كبير عناء ولا مشقة لان سبل الخير أكثر من أن تحصى وهى ممهدة لمن كانت له رغبة صحيحة فى مساعدة الناس وانه ليلوح لى أن كثيراً ممن ذكرنا لم يكن لهن الخيار بل كان الواجب فى سبيلهن ورأينه أقرب شئ لديهن فشرعن فيه لا يبتغين صيتا ولا يرمن جزاء وانما كان قصاراهن ارضاء ضميرهن .

وبقراً فبعثوا بها عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس والى عيالات اهل الايام قبلهم وهم بالحيرة وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبدالمسيح بن بقيلة فلما رفعوا «أى ظهروا» للنسوة فرأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد فقال عمرو ابتهاجا بهن هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش وبشروهن بالفتح وكان على الخيل التى اتتهم بالنزل « الضيافة » النسير فأقام فى خيله حامية لهم

ولا جرم فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهم وامكان دفعهن العدو المفاجئ لما تركوهن فى الفلاة بلا حامية وتقدموا هم لحرب الفرس وقد رأيت كيف كان النساء المسلمات فى اليرموك يقاتلن مع الرجال وكذلك قاتلن فى القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضمدن جراحهن ويمرضنهن ، ذكر الطبرى فى معرض كلامه على فتح ميسان ان المغيرة سار الى أهل ميسان وخلف

اذا نظرنا نظرة فى مصلحات السجون رأينا اسم سارة مارتن اقل ظهوراً من اسم السيدة فراى مع أن الأولى أسبق الى هذا العمل وطرق اشتغالها به تمثل لنـا الشفقة الخالصة والشجاعة الحقة للمرأة

كان أبو ساره مارتن وأمها فقـيرين وماتا وهى حديثة السن فكفلتها جدتهـا فى كستر بالقرب من يارموت وكنبت

الانتقال فلق العدو دون دجلة فقالت اردة بنت الحارث بن كلدة «طبيب العرب المشهور» لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم« أى عوناً لهم» فاعتقدت لواء من خمارها. واتخذ النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين فاتهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا ان مدداً أتى المسلمين فانهزموا وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمرى غاية فى الجرأة ونهاية فى الاقدام وحق لمثلهن أن يدخلن فى مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد أطنب ادورد جبن فى تاريخ الامبراطورية الشرقية فى شجاعة النساء المسلمات التى أظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن ان هؤلاء النساء اللاتى تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمى بالنبل هن اللاتى اذا وقعت احداهن فى الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أى انسان يريدها بسوء ولقد صدق فيما قال والا فما كان لرجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال فى معامع الحرب والقتال ومن البديهى ان الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات من مخالطة الرجال فى الحل والترحال ولـكن كان لهن من الاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية مايغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذى ابتدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا فى الرفاهية وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة

« عمر ص ٣٩٥ »

قوتها من خياطة الملابس فكانت تكسب شلناً فى اليوم وحدث فى عام ١٨١٩ أن حوكمت امرأة وحكم عليها بالسجن فى يارموت لضربها طفلالها ضرباً قاسياً ومعاملتها اياه بالعنف فما لبثت جريمتها أن صارت موضوع حديث أهل البلد فأثر هذا الحكم فى نفس ساره وتاقت الى زيارة المرأة فى سجنها علها تتمكن من هدايتها وكثيراً مافكرت وهى تمر بالسجن فى دخوله لزيارة من به وتلاوة

وكان منهن فى عهد النبوة وراء الجيش من يداوى الكلمى ويسقى العطاش ويجبر الكسر ويأسو الجرح بل من يباشر قتال من يجوس خلال اخبيتهن أو يطوف بها وقصة سيدنا حسان بن ثابت فى غزوة الخندق وانه لجبنه جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ مع النساء والصبيان وكيف تمنع من قتل اليهودى الذى جعل يطيف بالحصن فقتلته صفية بنت عبد المطلب عمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعدت الحصن وقالت ياحسان انزل فاسلبه فقال مالى بسلبه من حاجة قصة مشهورة مبسوطة فى صحيح البخارى ومن كن يشتغلن بالغزل والنسيج والخياطة ونحو ذلك مما يناسبهن اعانة للرجال غير أن ذلك كله لا يشترط فيه الابتذال وعدم الحجاب كما ان هذه الاعانة ليست بالواجبة عليهن فانما خلقن للدعة والراحة والحفظ والصيانة لا لاحتقارهن بل للعناية بهن كالجوهر المكنون واللؤلؤ المصون والرجال للعمل والكد والمهنة والابتذال وتجشم الصعاب واقتحام الخطوب ولذا كانوا قوامين عليهن كما فى الكتاب العزيز أما هن فحسبهن تدبير المنزل وتربية الابناء فليس عليهن جمعة ولا جماعة ولا حرب ولا ضرب الى غير ذلك وما سمعنا منذ النشأة الاولى ان سرية أو جيشاً كانت كماته ربات الخدور أو ذوات القناع

« باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام
للمرحوم الشيخ حمزه فتح الله ص ٦١ »

الاتجيل عليهم والسعى فى اعادتهم الى المجتمع الذى لفظهم ونبذهم، لانتهاك حرمة قوانينه وكثيراً مادارت بخلدها هذه الفكرة حتى لم تمالك مقاومتها فوطدت العزم على زيارة الأم السجينة وطرقت باب السجن فردها حارسه لسبب ماولكنها عادت فأذن لها بالدخول. ثم قابلت الام وأخبرتها بما كان الباعث لها على زيارتها فسالت عبراتها وانطلق لسانها يشكر لها فكانت تلك العبرات وذلك الشكر دعامة حياة ساره من ذلك الحين فلبثت تعيش من مهنة.

وقد أجمع أئمتنا رحمهم الله تعالى على جواز الغزو بالنساء وأن يرضخ لهن أى يعطين قليلا فان قاتلن أسهم لهن ولقد كن يخرجن مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسقين العطشى ويداوين الجرحى وبعضهن يباشر القتال فانه لما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين ان أم سليم بيدها خنجر قال ماتصنعين به قالت أبقر به بطن من دنا منى فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد كفى الله يا أم سليم « كما فى صحيح مسلم »

وقد بارز كثير منهن الابطال وخاض غمرات القتال وحسبك أنباء جهيزة. أم شبيب الخارجي وأنباء زوجته غزاله فهى تخجل شجعان الرجال خجلا تلبس به الذكران براقع النسوان ولقد نذرت مرة لتصلين فى مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما سورتى البقرة وآل عمران فأقدمت على المسجد فى سبعين فارساً فصلت فيه الغداة وخرجت من نذرها وبرزت يوماً للحجاج فكشفته عن عسكره. وقصدت الراية فولى بين يديها منهزماً وفى ذلك يقول من يهجوه

أسد على وفى الحروب نعامة … فتخاء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت الى غزالة فى الوغى … بل كان قلبك فى جناحى طائر

« من الرسالة نفسها ص ٤٥ »

الخياطة وتقضى أوقات فراغها بين جدران السجن تزور من فيه وتخفف من مصابهم واتخذت لهم من نفسها اماما ومعلما اذ لم يكن لهم امام ولا معلم تتلو عليهم آيات الانجيل وتعلمهم القراءة والكتابة وفرضت لهذه المهمة يوماً فى الاسبوع عدا أيام الآحاد وغيرها من أوقات الفراغ وهى تشعر كما قالت عن نفسها بأن الله قدأنزل رحمته عليها ، علمت النساء النسيج والخياطة والتفصيل وساعدها بيع ماصنعن على شراء مايلزم للاستمرار فى هذه التربية الصناعية التى شرعت فيها وعلمت الرجال صنع القبعات والقمصان والرتق وكل مايبعد عنهم الكسل والفكر ثم جمعت من أعمال المسجونين مالا استعملته فى حملهم على أن يشتغلوا على نفقة أنفسهم ومهدت لهم بذلك سبيل العود الى العمل الشريف ومهدت لنفسها سبيل الوقوف على حقيقة أخلاقهم

بيد أن اقتصارها على عمل السجن أودى بمهنتها ففكرت فيما اذا كانت مغادرة السجن ضرورية لاستمرارها فى مهنتها وفى ذلك تقول دارت الفكرة بخلدى فما عتمت أن قدرت ماينجم عنها وصممت على رأيى النهائى ورأيت أنى ان احتجت فليس ذلك بشىء فى جانب طاعة الله بتعليم غيرى ، ومن ذلك الحين كانت تقضى ست ساعات أو سبعاً مع المسجونين فأصبح السجن يموج بالعاملين فيه ولولاها لكان ميداناً للكسل الذى ينهك المتن ويفسد

النفوس أجل انها كانت تلقى من الحديثى العهد بالسجن عناداً ولكنها تغلبت عليهم وحملتهم بما أودع فى نفسها من الرقة وفى طباعها من اللين على أن يرعوا حرمتها فأصبحت وقد خضع لسلطانها كل من بالسجن من رجال طالت سنهم وتعددت جرائمهم ونشالين من لصوص لندرة الذين شربت فى الشر نفوسهم وشبان فسدت أخلاقهم ونساء فاسقات الى غير هؤلاء من خليط الأئمة الذين تكتظ بهم سجون الثغور فكنت تراهم تحت مباشرتها يحاولون لاول مرة فى حياتهم أن يحملوا القلم أو يعرفوا الحروف الهجائية وكنت تراها تنفذ الى ضمائرهم وتراقبهم وتبكى أسفاً عليهم وتدعو لهم اذا بدت بشائر الاصلاح ساعدت على اعمائها واذا رأت يائساً قانطاً فرجت كربه رغبة فى حملهم جميعاً على السير فى طريق الخير

بقيت هذه المرأة البارة عشرين عاماً ونيفاً تقوم بأعباء هذا العمل الشريف دون أن تجد من التشجيع والمساعدة الا شيئاً يسيراً ودون أن يكون لها من وسائل العيش الا عشرة جنيهات أو اثنا عشر كل عام ورثتها عن جدتها أضف الى هذا المبلغ الزهيد ما اكتسبته من مهنتها وفى خلال العامين الاخيرين من أعوام خدمتها أوجب القانون على أولى الامر فى يارموت ان يعينوا بالسجن اماماً ومدرساً فعرضوا عليها مرتب اثنى عشر جنيهاً فى العام لعلمهم أنها بعملها كفتهم مؤونة هذا التعيين ولكنهم سلكوا

فى عرض المبلغ سبيلا يؤلم نفس الكريم وجرحوا بذلك عواطفها وآلموا طباعها الحساسة فأبت أن تكون بالسجن موظفاً مأجوراً تبدل أعمالها الخيرية مالا ولكن مجلس الادارة كان فظاً لا يقبل أعمال الناصحين فأجابها اجابة ملؤها الخشونة وقال اما الخضوع واما الطرد فاضطرت الى قبول الاثنى عشر جنيهاً وهو كل ما استطاع أولو الامر فى «يارموت» ان يقدموه لها اعترافاً باشتغالها فى وظيفتى الامام والمعلم وكانت اذذاك على أبواب الهرم والضعف وساعد على ضعفها جو السجن وعدم ملاءمته للصحة فلما كانت فى فراش الموت اخذت تقول شعراً دينياً وكانت من قبل تقوله فى أوقات الفراغ . أجل ان شعرها من الوجهة الفنية لا يثير فى النفس اعجاباً به ولكنه يتصبب اخلاصاً ويتدفق ايماناً على أن قصائد حياتها أجل من قصائد شعرها لان حياتها كانت مثالا للشجاعة الحقة والكد والخير والحكمة وان شئت فقل كانت شرحا لقولها « حب الخير للناس من الايمان »

ضبط النفس

قد لا توجد المنفعة حيث توجد الكرامة

جورج هربرت

الحرية الصحيحة أن يملك المرء نفسه

فردرك برتس

جل حسنات الجنس البشرى تظهر فى الصبر والاحتمال والحلم

أرثر هلبس

ما ضبط النفس الا صورة من صور الشجاعة وهـذا الخلق يمكن اعتباره خلاصة الأخلاق وهو ملحوظ فى قول شكسبير الانسان مخلوق يتدبر عواقب الأمور بل هو أهم ميزات الانسان على الحيوان الأعجم فان عدم فقد عدمت الرجولة الحقة

ضبط النفس أصل كل فضيلة ومن أسلم العنان لنزعات الحدة ونزوات الشهوة فقد تخلى عن حرية نفسه واحتمله سيل الحياة الجارف وصار عبداً لهواه ، اذن لا بد لمن يتوق الى التمتع بالحرية الادبية والى أن يكون خيراً من الحيوان من مقاومة نزعات الهوى والانفعال ولا سبيل الى مقاومتها الا بضبط النفس ومن ثم كان ضبط النفس الحد الفاصل بين الحياة المادية والحياة الروحانية وهذا الفاصل هو أساس الاخلاق

لم يجئ الانجيل بالثناء على البطل يأخذ البلاد عنوة بل جاء بالثناء على البطل يكبح جماح نفسه ويكون له السلطان القوى على قوله وعمله وفكره (١) ولا غرابة فان تسعة أعشار الشرور التى تحط من قدر المجتمع وتتفاقم اذا لم تدرأ فتنقلب جنايات

---

(١) «ا» عن أبي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب (تجريد أحاديث البخارى للزبيدى جزء ٢ كتاب الادب ص ٣١٩)

« ب » ألا تراه صلى الله عليه وسلم يقول حينما قفل من غزاة غزاها رجعنا

تكون عاراً عليه هذه تتلاشى أمام تهذيب النفس وضبطها ورعاية حرمتها والمرء اذا اعتاد هذه الفضائل صارت طهارة القلب ونور العقل له سجية وقامت أخلاقه على أساس من العفة والفضيلة متين

واعلم أن خير دعامة للاخلاق العادة وهى اذا حسنت كانت حاكما خيراً عادلا وكنا له رعية مخلصة خاضعة وان ساءت كانت حاكما مستبداً غشوماً قاسياً وكنا له أرقاء أذلة فهى أما معينة لنا على سلوك سبيل الخير وأما معجلة بنا الى مهواة الدمار ، والعادة يربيها تهذيب النفس ومعالجتها علاجاً دقيقاً لان التهذيب والتدريب يفعلان عجيباً أنظر كيف يخرجان من رعاع الطرق على خستهم وشبان القرى على سذاجتهم قوما أولى بأس يصبرون على الشدائد ويبذلون نفوسهم غير وجلين ويظهرون فى مواطن القتال وفى مواقف الشدة فى البحار شجاعة حقة وجرأة صحيحة

وليس تدريب النفس وتهذيبها بأقل أثراً فى تكوين الاخلاق فلولاهما لتعطل سير الحياة واختل نظامها لان عليهما المعول فى الشعور بمعنى حرمة النفس وفى تربية فضيلة الطاعة وادراك معنى

من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر جهاد النفس

« باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام
للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله ص ٨١ »

الواجب ثم أن الرجل الضابط لنفسه الكثير الاعتماد عليها يكون دائماً خاضعاً لسلطان هذا التهذيب وهو اذا قرب من الكمال ارتقت حالة الانسان الادبية وكان قادراً على مكافحة شهواته واخضاعها وتسخيرها لقواه الخيرة حتى تلبي نداء الضمير ذلك الامير الكامن فى النفس والا صار الانسان عبداً تلعب به حواسه وتستعبده نزعاته قال هربرت سبنسر ضبط النفس ركن من أركان الكمال البشرى فالغرض من التربية النفسية اذا لم نقل التربية بأقسامها أن لا يكون المرء متقلباً ينزل على حكم كل رغبة وميل بل يكون مضبوط النفس هادئها يتخذ من حواسه مجتمعة حكماً يبحث فى كل عمل من أعماله قبل أن يبت فيه اه (1)

وأول معاهد التربية الادبية وأجلها البيت كما بينا ذلك من قبل ثم تأتى من بعده دور التعليم ثم الدنيا وهى مدرسة الحياة الكبرى وكل من هذه المعاهد ممهد للآخر ومصير الرجل والمرأة متوقف على حظهما من التربية فى أول حياتهما فان حرما نعيم البيت والمدرسة وشبا غير مهذبين غير متعلمين فويل لهما وويل لمجتمع هما من أعضائه وأحسن البيوت نظاماً هو الذى يكمل فيه التدريب وتتوافر وسائله واذا لم يكد التدريب يكون محسوساً

(1) Social Statics p. 81.

فذلك لان له قوة السنن الطبيعية فى التأثير فترى من اعتادوه يستسلمون له حتى لا يكادون يدركون تأثيره أو يشعرون بسلطانه مع انه هو الذى يكوّن أخلاقهم ويكسبها شكلها الذى تستقر عليه حتى تصير محض عادة

ومن أغرب ما يمثـل الشأن الذى للتدريب البيتى الدقيق حقيقة وردت فى مذكرات السيدة شمِلـبـِنك وهى أن امرأة زارت مع بعلها أكثر ملاجئ المجانين فى أوربا فوجدت اكثر المرضى عدداً يكاد يكون دائماً أطفالا لم تقوّم ارادتهم فى أول حياتهم أما الذين من بيوت كبيرة وهذبت نفوسهم فكانوا أقل عرضة للمرض

وعندنا ان فى مقدور كل انسان أن ينظم أخلاقه ويضبطها ويهذبها وذلك بمراقبة نفسه والدأب على ضبطها وان كان مما لا نزاع فيه أن للمزاج والصحة والبيت والتربية الاولى والبيئة أثراً كبيراً فى الاخلاق ، قال معلم فاضل أن الميول والعادات يمكن تعليمها وتعلمها كما يمكن تعليم اللاتينية واليونانية وتعلمهما وقال الاستاذ جُنسُن لارادة المرء دخل كبير فى كآبته أو انشراحه فاذا لاحظنا أن هـذا القول صادر عن رجل خلق بطبيعته مستعداً للـكآبة ميالا الى الحزن حكمنا بان فى استطاعة الانسان أن يعود نفسه الصبر والقناعة أو يعودها التذمر والتبرم وأنه يمكننا أن نعود أنفسنا تجسيم الشرور التافهة وتحقير النعم الـكبيرة وأنه يمكننا

أن نصير عبيداً للقلاقل الصغيرة اذا استسلمنا لها لان عادة النظر الى الاشياء من وجهها السارة والنظر الى الحياة بعين ملؤها الامل يمكن أن تربى فينا كغيرها من العادات[1] ولم يكن الاستاذ جُنسُن مغالياً حين قال لأن يعتاد الانسان أن ينظر الى الحوادث من وجهتها الحسنة خير له من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة

ونرى حياة الرجل المستمسك بدينه مفعمة برياضة النفس وكبح جماحها لانه يكون رزيناً يقظاً يفعل الخير وينأى عن الشر ينازل الشرور التى تفتك بالنفوس ويقاوم دعاة الضلال فى هذه الحياة الدنيا، تراه من الايمان مملوء القلب ولا يسأم من فعل الخير لانه يرى أنه لا بد جان ثمر غرسه

---

(١) يقول جرمى بنتم اذا أمكننا أن نجعل قوة ارادتنا مسيطرة على أفكارنا وجب أن نجعل أفكارنا موجهة نحو السعادة والسرور وأن ننظر الى الوجهة الحسنة من الامور .... الى أن قال أن جزءا كبيرا من الحياة ينقضى فى السكون وعدم العمل والامثلة على ذلك كثيرة دائمة الوقوع فمنا من يقوم على خدمة غيره ويضطر الى قضاء وقت طويل فى مجرد الانتظار ومنا من اذا جن الليل أبى الكرى أن يغمض عينيه فالحرص على السعادة يقضى علينا فى مثل هذه الاحوال أن نشغل الفكر بالافكار السارة ، إننا اذا خرجنا نمشى أو بقينا فى البيوت لا يمكن لعقولنا أن تكون خالية بل لا بد من أن تجول بها أفكار قد تكون مفيدة أو عديمة الفائدة ذاهبـــة بالسعادة فيجب والحالة هذه أن نحسن تصريف هذه الافكار حتى تنغرس فى نفوسنا عادة الانشراح

Deontology, ii. 105—6

كذلك رجل العمل لا بد له من أن يكون خاضعاً لقانون دقيق ونظام محكم ذلك لان العمل والحياة تديرهما عدد معنوية والنجاح فيهما متوقف على نظام الطبع وتهذيب النفس هاتين الخلتين اللتين تكسبان صاحبهما السيادة على نفسه وعلى غيره لأن الحلم وضبط النفس يمهدان سبل الحياة ويفتحان أبواباً تبقى بدونهما موصدة ومثلهما اجلال النفس فان مجل نفسه يجل غيره

وهكذا الحال فى السياسة أى ان النجاح فيها يتوقف على الطبع والأخلاق أكثر مما يتوقف على الذكاء ألا ترى أن الرجل ان أعوزه ضبط النفس أعوزته فضيلة الصبر ونقص فيه حسن التصرف فعجز عن حكم نفسه وعن ادارة شئون غيره ، تناقش بعضهم بحضرة مستر بت فى الخلة التى لا غنى لرئيس الوزارة عنها فقال بعض من حضرانها الفصاحة وقال آخر بل العلم وقال غيره بل الكد فقال بت كلا هذه الخلة هى الصبر اه والصبر معناه ضبط النفس وهى خلة بلغ بت ذروتها حتى قال صاحبه جورج روز أنه لم يره البتة محتداً [1] نعم يقولون الصبر فضيلة بطيئة

---

(١) ذكر « إرل ستنهوب » فى متفرقاته خطاباً كتبه بيده ننقل منه هذه النبذة قال كان المرحوم مستر كرسمس من ذوى المناصب ذات الشأن فى مصرف انجلترا وأظنه كان فى صباه كاتباً فى المالية أو غيرها من مصالح الحكومة وأتت عليه فترة من الزمن كان فيها كاتب السرلمستر بت وكان كرسمس هذا من أحسن

ولكن بت جمع بينها وبين التيقظ والنشاط وسرعة الفكر والعمل
لا تبلغ الأخلاق حد الكمال الا بضبط النفس وبالصبر (١)

من عرفت معاملة للناس وكان بحكم عمله معرضا لكثرة الداخلين عليه ممن يقطعون عليه عمله ومع هذا لم أر قط مزاجه يضطرب أقل اضطراب ودخلت عليه يوماً فوجدته اكثر عملا منه فى سائر الايام وهو على كثرة ما لديه من الاعمال حافظ لهدوه المعتاد فلم أستطع أن أدع هذه الفرصة تمر دون أن اسأله عن سر سكونه فقال لى ذلك نصح لى مستر بت أن لا أحتد قط اذا استطعت الى ذلك سبيلا وأن لا أحتد فى أثناء عملى مهما كانت دواعى الحدة متوافرة وأنا فى هذا المصرف أعمل من التاسعة الى الثالثة ولا أحتد أبدا أثناء ساعات عملى اتباعاً لنصيحة ذاك السياسى المحنك

(١) الناقل : قال المغفور له الشيخ محمد عبده فى الصبر

الصبر خلق من أمهات الاخلاق بل مساك كل خلق قالوا فى فضل الصبر أنه ذكر فى القرآن نحو سبعين مرة وليس لنا فائدة كبرى فى تحديد العدد ولكن جاء فى الكتاب العزيز ذكر الصبر ومدح أهله وتبشيرهم بالفوز والفلاح والصبر ملكة فى النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله والرضى بما يكره فى سبيل الحق وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق وما أتى الناس من شىء مثل ما أتوا من فقد الصبر أو ضعفه ، كل أمة ضعف الصبر فى نفوس أفرادها ضعف فيها كل شىء وذهبت منها كل قوة ولنضرب لذلك مثلا نقص العلم عند أمة من الامم كالمسلمين اليوم اذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر فان من عرف بابا من أبواب العلم لا يجد من نفسه صبرا على التوسع فيه والتعب فى تحقيق مسائله وينام على فراش من التقليد هين لين لا يكلفه مشقة ولا يجشمه تعبا ويسلى نفسه عن كسله بتعظيم من يسبقه ولو كان عنده احترام حقيق لسلفه لاتخذهم أسوة له فى عمله لحذا حذوهم وسلك مسلكهم وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين

ثم هو اذا تعلم لا يجد صبرا على مشقة دعوة الناس الى علم مايعلم وحملهم على ما يعرف ولا جلدا على تحصيل الوسائل لنشر ما عنـــده بل متى لاقى أول معارضة قبع فى بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون ، يجلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه أو يكل والده من الانفاق عليه فيصرفه الى حرفة أخرى يظنهـــا أربح له فينقطع عن الطلب ويذهب فى الجهل كل مذهب وكل هذا من ضعف الصبر

يبخل البخيل بماله ويجهد نفسه فى جمعه وكنزه وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها ولاينفق درهما فى شيء منها فيؤذى بذلك وطنه وملته ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته ولو نظرنا الى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول به لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولاهله

يسرف المسرف فى الشهوات ويتهتك المتهتك فى المنكرات حتى ينفد المال وتسوء الحال ويستبدل الذل بالعز والفقر بالغنى ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره فى مقاومة الهوى وضبط نفسه عن مواقع الردى ولو صبر فى مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله وأفسد حاله

وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل وأبحث عن عللها الاولى لوجدتموها تنتهى الى ضعف الصبر أو فقده ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذى تستمد منه حياتها ما وجدت لها ينبوعا سوى الصبر أفلا يكون جديرا بعد هذا بأن يخص بالذكر فالحق حياة العلم ومستنام السكينة ومطمأن العقل ومستقر الراحة للنفس والصبر مستمد الفضائل ومدحرة الرذائل ومساك الصالحات وملاك الحسنات فجدير بهذين الاصلين الجليلين أن يخصا من بين أعمال الانسان بالاشادة بذكرها والتنويه بفضلهما ولفت النفوس اليهما خاصة لتبدأ باحرازها فتصلح بهما أعمالها كافة

« تفسير سورة العصر ص ٢١ »

الذى شهد بفضله اعداؤه وكان ذا صدر رحب وحشمة ورقة ولطف وأدب عال ، كان شفيقاً مقداماً اذا حادثته ألفيته نقى الحديث يتقد قلبه بحب الناس أجمعين ، كان قليل الكلام ولكن علو أخلاقه جعل كل كلمة تخرج من فيه كبيرة المعنى وكان قوى السلطان على نفسه معتدلا فى مأكله ذا نفوذ على شهواته ونزعاته نخضعت له شهوات غيره ونزعاتهم ، وصف أحد خصومه فى السياسة تأثيره فى احدى مناقشاتهما قال لقد كاد كل منا يأخذ بتلابيب

وقال حجة الاسلام الغزالى

المحمود التام « من الصبر » الصبر النفسىّ عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب ان كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمى عفة وان كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فان كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهواطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وان كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وان كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر وان كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وان كان فى اخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وان كان عن فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال هو الصبر لانه اكثر أعماله وأعزها اهـ

الاحياء — الرابع

صاحبه ويغمد سيفه فى امعائه لولا أن حال دون ذلك ما أوتى مستر (هَمبدِن) من الفطنة وثبات الجأش فانه قال كلمات قليلة اليها أصغينا ولجدالنا المحتدم أجلنا

ليس كل طبع حاد مذموماً غير انه كلما اشتدت الحدة كثرت الحاجة الى رياضة النفس وتهذيبها وضبطها، يقول الاستاذ جُنسُن أن الرجال كلما زاد عمرهم تحسنوا وتهذبوا بالتجارب وهذا قول صحيح الا أن تهذيبهم يتوقف على سعة مداركهم وكبر نفوسهم وكرم طباعهم فان الناس لا تودى بهم سقطاتهم ولا هفواتهم بل يودى بهم تصرفهم بعد ارتكاب السقطات والوقوع فى الهفوات أما العاقل فيستفيد مما فيها من الآلام والشدة ويتجنبها وأما الذين لا تنضجهم التجارب ولا تقوّم أخلاقهم الخبرة بالزمن وأهله فلا يزدادون الا خرقاً وشقاء واستمساكا بالرذائل

وقد تكون الحدة فى الشبان دليلا على ما فيهم من همة لمّا تنضج ولكنها تستحيل عملا نافعاً اذا مهدت لها السبل ، روى عن ستيفين جِرارْ وهو فرنسى أصاب حظاً وافراً بالولايات المتحدة أنه كان اذا سمع بكاتب حاد الطبع بادر الى استخدامه وجعله يشتغل فى حجرة منفرداً لأنه كان يرى الذين ركبت فيهم الحدة خيرة العاملين لا ينقصهم الا أن يحال بينهم وبين كل من يدعو الى الخصام والجدال ليصرفوا نشاطهم فى العمل النافع

وقد تكون الحدة ارادة قوية مضطربة اذا لم تضبط انقلبت ثوراناً فى الشهوات وان ضبطت وأخضعت كانت مستمداً للنشاط والمنفعة والخير كما يكون البخار فى آلاته ينظم سيره ويضبط قوته ذلك النظام الخاص الذى أعد له ومن ثم كان فريق من عظماء الرجال أولى طبع حاد ولكنهم أوتوا قوة عزيمة بها استطاعوا ضبط قواهم وتنظيم سيرها منهم ارل سترَفرد استولى عليه الغضب والانفعال الشديد وطالما جاهد نفسه سعياً فى تذليل طبعه ، كتب الى صديق أخلص له فكان يذكر له عيوبه ويحذره عاقبة الاستسلام لها قال تأمرنى بالصبر وأنا على يقين من أن بى من الحدة ما يزيد عن الحاجة وذلك طباع فى مركب يزيد فيه صغر السن ولكنى أؤمل فى التجارب خيراً وأرجو أن تفلّ الخبرة بالأيام من غرب حدتى وتتغلب مراقبتى نفسى على ذلك العيب الذى كاد يستحكم فىّ على أنى لست أعدم لحدتى مبرراً وهو أن غضبى لن يكون الا للشرف والحق وخدمة أمتى وليس الغضب دائماً رذيلة بل الرذيلة المذمومة التى تودى بمن استسلم لها أن يوضع الغضب فى غير موضعه [1]

ومنهم كرُمِول كان فى شبابه عنيداً عنيف الطبع عبوساً صعب المراس عسر القياد ذا نصيب وافر من نشاط الأحداث

---

(1) Strafford Papers, i. 87.

فكان لذلك يأتى كثيراً من أعمال الشبان الخبيثة واشتهر فى بلده بالتهور ولاحت عليه أمارات التمادى فى السوء فأقبل الدين فأخضع طباعه الثائرة بفضل مذهب كَلفن وتعاليمه الشديدة ونظامه الدقيق وتغير بذلك مجرى حدته فنفذت الى الحياة العامة ثم صارت صاحبة الحول والطول فى انجلترا مدة عشرين سنة

وكان أمراء بيت نَساو جميعاً متجملين بفضائل ضبط النفس والايثار وقوة العزيمة ولم يسم وليم الصامت صامتاً لعيه فانه كان اذا دعت الحال خطيباً فصيحاً مؤثراً بل سمى صامتاً لأنه كان يستطيع السكوت اذا كان من الحكمة ولأنه كان يكتم رأيه اذا كان فى اظهاره خطر على حرية أمته ، كان لطيفاً مسالماً وصفه أعداؤه بضعف العزيمة والرأى ولكنه كان عند مس الحاجة الى العمل ذا شجاعة تضرب بها الامثال وعزيمة لا تثنيها الاهوال. قال مستر مُتلى المؤرخ كان اصدقاء وليم الصامت اذا ذكروا عزيمته وثباته يشبهونه بصخرة فى اليم المضطرب هادئة بين الأمواج الثائرة

وشبه هذا المؤرخ وليَم الصامت بوُشنجتُن لكثرة وجوه الشبه بينهما فان الوطنى الامريكى كصاحبه الهُلَندى يحفظ له التاريخ أنه مثال لعزة النفس والشجاعة وطهارة القلب وكل فضيلة بشرية ولتمكنه من شهواته فى مواقف الشدة والخطر كان

من لا يعرفه حق المعرفة يظنه ذا ثبات فطرى وخلق يكاد لا يعرف التألم ولكنه كان بطبيعته شديداً متهوراً وكانت دعته ورقته وأدبه مع الناس ناجمة عن تصلبه فى ضبط نفسه وعدم ملله من رياضتها وتهذيبها وهما خلتان دأب على ممارستهما مذكان حديث السن قال مترجم حياته كان حاد الطبع ولكنه تمكن من صد شهواته وتلطيف حدته فى كل المواقف التى كان فيها عرضة للانفعال والميل مع الهوى

وقال فى موضع آخر كان لحدة طبعه ينفعل أحياناً ويحتدم غيظه ولكنه كان يكبح جماح نفسه من فوره وربما كان أخص خلاله ضبط النفس وهى خلة كان من أسبابها فيه رياضة نفسه وتهذيبها ويلوح لى أنه أوتى بالطبيعة حظاً وافراً من هذه الخلة لم يؤته غيره من الرجال اه[1]

وكان طبع ولنجتن كطبع نابليون فى غاية الحدة لم يستطع كبحه الا بضبط نفسه ضبطاً دقيقاً ثم أنه تعلم الثبات والأناة وهو محوط بالاخطار فكان فى ووترلو وغيرها يصدر أوامره فى أحرج الاوقات بصوت هادئ دون أن يظهر عليه أثر للقلق او الانزعاج[2]

وكان وردسورث الشاعر فى طفولته صلباً شرساً عنيف

---

(1) Jared Sparks' 'Life of Washinglen', pp. 7, 534.

(2) Brialmont's 'Life of Washington'.

الطبع يستخف بالعقاب ولا يقبل التأديب ولما هذبت الخبرة بالايام طباعه تعلم كيف يضبط نفسه ويكبح جماحها فأصبحت الصفات التى امتاز بها فى طفوليته مفيدة له لانهـا أعانته على الاستخفاف بما وجه اليه عداه من الانتقاد ولم يتجل فى أخلاقه شىء مثل ما تجلت رعايته حرمة النفس والعزم والشعور بالقدرة والقوة

ومن الذين لم تكن حدة طبعهم فى الصغر الا همة مخزونة غير ناضجة هنرى مَرتِن المبشر وقد كان وهو صغير عديم الصبر عنيداً فظاً فما زال يقاوم باعث الهوى ويكافح الميل الى الشر حتى انتصرت جنود الخير وقهرت جنود الشر ونال تلك النعمة التى تاقت لها نفسه طويلا وهى نعمة الصبر

ويقول تِندَل فى وصف أخلاق فَرَدِى كانت تحت رقته ودعته حمية كحمية البركان وكان بطبعه سريع التهيج كثير الحدة ولـكنه برياضة نفسه اتخذ من هذه الحدة ناراً أدار بها دولاب حياته ولم يتركها تضيع فى الانفعال على غير جدوى اهـ

ومما يستحق الذكر من أخلاقه خلق من قبيل ضبط النفس وهو الايثار وتضحية المنفعة الخاصة ، لو تفرغ هذا العلامة الى الـكيمياء لسارعت اليه الثروة ولـكنه لكرم فى نفسه لم يستمله النضار فآثر الاشتغال بالعلم قال مستر تندل كان له الخيار فى

ان يكون مثرياً أو عالماً لا ثروة عنده ففضل الطريق الثانى ومات فقيراً ولم يؤثر المال مع حاجته اليه فانه كان ابن حداد وعاملا عند مجلد كتب ولكنه أصاب مجداً كبيراً اذ رفع منزلة انجلترا العلمية مدة أربعين سنة اه (1)

وانى ذاكر لك حادثة من هذا القبيل تمثل ايثار المؤرخ الفرنسى آنكيتل ذلك أنه كان من بين العدد القليل من العلماء الذين أبت نفوسهم الترامى على أقدام نابليون فنزلت به الفاقة وعاش عيشة ضنكا لا يأكل سوى اللبن والخبز ولا يصرف الا ثلاثة دراهم كل يوم قال يوماً لصديق له أنى لا زلت أستطيع مقاومة بطل مرنجو وأسترلتز لأنى لا زلت أستطيع أن أصرف كل يوم درهمين فأجابه صديقه ألا ترى أنك أن ألم بك مرض احتجت الى ما تعيش به، لم لا تفعل مايفعل غيرك، اخضع للامبراطور فأنت محتاج الى مساعدته ان أردت أن تعيش سعيداً فأجابه المؤرخ بقوله ولكنى لا أحتاج اليها ان أردت أن أموت سعيداً اه ولم يمت فقراً بل عاش حتى بلغ أربعا وتسعين سنة وقال لصديق له لما حانت ساعته أنظر ألى تر رجلا يموت وهو متمم بالحياة

وأظهر سير جيمس آوترم شيئاً كثيراً من الايثار وان كان ذلك فى ميدان غير ميدان من ذكرنا وكان يتنحى عما ينفعه ان

---

(1) Professor Tyndal, on Faraslay as a Discoverer, p.156.

خالف ضميره فامتاز فى جميع أدوار حياته بعـدم استئثاره ولم يقصر قط فى أداء الواجب والقيام بما ألقى على عاتقه من الأعمال وان كانت مما لا يرضاه ولا يوافق عليه ، فقد كان لا يوافق من قالوا بغزو السند ولكن أعماله فى الفتح كانت من أجل الأعمال كما اعترف بذلك القائد سير تشارلس نبير ولما انقضت الحرب وأصبح هذا الفاتح متصرفاً فى الفىء قال أنا لا أوافق على هذه الحرب ولذا أرفض أن يكون لى من الغنائم نصيب اه ولم يكن ايثاره بأقل من ذلك حين أنفذ بجيش عظيم ليساعد هفلك فى الوصول الى لكنو وكان مركزه يؤهله للقيادة العامة ولكنه رأى ما عمل هفلك وهو أقل منه درجة فترك له الانفراد بفخر اتمام الفتح وعرض عليه أن ينضم الى جيشه مطوعاً

ومن أراد أن يعيش شريفاً مطمئناً فليتعلم الايثار فى الصغائر والكبائر وليصبر على ما ينزل به وليضبط نفسه حتى تبقى خاضعة لسلطان العقل وتطهر من الضيق والشدة والتهور لأن هذه ان تطرقت الى العقل صاوت قابلة للعودة اليه والمقام به ومن مستلزمات السعادة ان يضبط الانسان أقواله كما يضبط أفعاله لان من الكلمات ما يبلغ من النفس ما لا تبلغه الضربات وقد يلفظ المرء من فيه خناجر وان لم تصافح يده خنجراً ومن حكم الفرنسيين

طعنة اللسان أقطع من طعنة السنان

جراحات السنان لها التئام　　ولا يلتام ما جرح اللسان

ولكن ما أصعب ما يجد بعض الناس فى الاحجام عن الأجوبة المسكتة القارسة التى تطفو الى الشفاه واذا لفظت أرتبك لها الخصم ولم يحرجوابا قالت الآنسة بـرمر أسأل الله السلامة من شر الكلام وتدميره فان من الكلام ما يفوق السيوف القواضب فى شق القلوب ومن الكلام ما يؤلم النفوس طول الحياة اه

ومن ثم كان ضبط النفس عن الكلام القارس مظهراً من مظاهر الأخلاق الكريمة فترى الرجل العاقل الحليم المتئد يحجم عن قول ما يؤلم شعور غيره وحواسه وترى الاحمق الجاهل يلفظ كل ما يجول بخاطره ويؤثر أن يضيع صديقه على أن يضيع مزاحه قال سليمان لسان العاقل من وراء قلبه وقلب الجاهل من وراء لسانه

ومن الناس من ليس بأحمق ولا جاهل ولكنه يندفع فى قوله وفعله لعوز نفسه الى الحلم والصبر والسبب فى ذلك أن صاحب الذكاء المستسلم لهواه الذى أوتى سرعة الخاطر وحدة الكلام قد تدفعه سورة المرح الى قذف جملة تهكم ربما عادت عليه بالوبال ومن السياسيين من حبطت مساعيهم لعجزهم عن مقاومة الرغبة فى ايلام خصمهم بذكر أمور كلها تهكم قال بنتسم كم من كلمة ذهبت

بصداقة وأودت بأم اه ومن آنس فى نفسه ميلا الى كتابة شىء فى المزاح شديد فأولى به أن يكف و يبقيه فى دواته ولقد صدق الاسبان اذ قالوا فى حكمهم قد ينال اليراع من النفوس ما لا ينال برثن الضيغم

وقال كرلـيل فى عرض كلامه عن كرمـول من لا يكتم رأيه لا يعظم عمله وقال أحد أعداء وِلـيَم الصامت أنه لم يقل قط كلمة تلوح فيها الغطرسة وعدم التبصر ومثله وُشنجتـن فانه كان فى كلامه التبصر مجسما لم يأخذ مجادلا على غرة ولم يسع فى سرعة الانتصار على محاوره وقد قيل من عرف متى يسكت وكيف يصمت أقبلت عليه الدنيا ولقد عرفنا رجالا خبروا الدهر يأسفون على الكلام ولا يندمون على السكوت قال فيثاغورث اسكت أو قل ما هو خـير من السكوت وقال جورج هربرت من العقل السكوت اذا لم تقل خيراً وقال سَن فـرَنسيس دِسيل لان تسكت أولى من أن تقول الحق متذمراً فتكون كمن أفسد لذيذ الطعام بسانّ فاسد، ومن غرائب لـكـُـردير قوله السكوت أعظم قوى العالم بعد الكلام، وجاء فى حكم ويلز القديمة رحم الله امرأ يعصم لسانه من الزلل اه ومع ذلك فالكلمة فى أبانها عظيم تأثيرها

مما يمثل ضبط النفس ما كان من أمر دِلِيـْن الشاعر الاسبانى

المشهور الذى عاش فى القرن السادس عشر ذلك انه نقل جزءاً من الانجيل الى لغته وعلمت بذلك محكمة التفتيش فسجنته خمس سنين ولما أخلى سبيله وعاد الى الارشاد والتعليم حضر درسه الأول جم غفير من الناس مؤملين أن يحدثهم بما جرى له فى السجن ولكنه كان اعقل من أن ينغمس فى التهكم على ساجنيه والتنديد بأعمالهم فدخل مباشرة فى الموضوع الذى قطعته عليه المحكمة منذ خمس سنين .

أجل أن من الاحوال ما يبرر الغضب بل يحتمه كالكذب والخيانة والاستئثار والقسوة والمرء ذو الشعور الخالص والذوق السليم يغضب ان رأى من الناس الدناءة والسفالة قال برتس [1] انى لأنفض يدي ممن لا يعرف كيف يغضب فان طيبى الناس فى هذه الدنيا اكثر عدداً من خبيثهم ومع هذا نرى الخبيثين أعلى شأناً لا لسبب سوى جرأتهم ونحن مفطورون على الرضى عمن يبدى مضاء فى استخدام قواه وقد نشايعه لانه يبدى ذلك المضاء والحق يقال لقد ندمت على الكلام كثيراً ولكن ندمى على السكوت لا يقل كثرة

أن محب الحق لا يستطيع السكوت على الباطل واذا كان

---

(1) Life of Perthes, ii . 216

شعوره حياً تكلم بما يخالج ضميره والنفس اذا كرمت علمت صاحبها الترفع عن الرذائل ، علمته أن لا يتقاعد عن أداء الواجب وأن يتجنب الكذب ولا يقترف الآثام ولا يحمل الضغائن ولا يستعبد الاحرار ولكننا ينبغى لنا أن نتقى الاندفاع والتهور فى مداواة الرذائل وانى أرى الناس حتى الافاضل منهم عرضة للتسرع وقد تدفعهم حميتهم وغيرتهم الى الخروج عن حد الاعتدال (١)

وخير ملطف للتهور زيادة الحكمة واتساع دائرة الخبرة بالحياة والذوق السليم ذاك الذى يدرأ عن الرجال الارتباك الذى يوقعهم فيه التسرع وما الذوق السليم الا ملكة بها يمكن التصرف فى أمور الحياة بالحكمة والتبصر والرأفة والانصاف والمثقفون الذين حنكتهم التجارب اكثر الناس حلماً واحتمالا وصبراً والجهلة الضعاف الاحلام أقلهم تسامحاً وتساهلا والسبب فى ذلك ان الذين كبرت نفوسهم وازدادت خبرتهم يعرفون مواضع الضعف من الناس ويقدرون تأثير أحوالهم فى تكوين

---

(١) قال فرنسيس هرنر فى إحدى رسائله انك لتجد بين عشاق الحرية اكثر الناس عنادا وتصلبا يريدون لتعنتهم أن يبنوا البيوت من أعلاها ويأبون إلا أن يضعوا الزج أمام السنان لانهم لا يعرفون للاعتدال فى السياسة معنى

Francis Horner's Life & Correspondence (1843), ii. 133

أخلاقهم وعجز ضعفاء العزيمة عن مقاومة داعى الهوى فهم لذلك يلتمسون لهم عذراً قال جُيتى انى اذا تأملت ما يرتكبه الناس من الذنوب وجدت أنه كان من المحتمل أن ارتكب ما ارتكبوا ورأى بعض العقلاء مجرماً محمولا الى حيث يعدم فقال لولا رحمة الله للاقيت مثل ما لاقى

هذا والحياة صورة لما فى النفوس فهى تسر من كان ميالا الى السرور وتظلم فى وجه من كان كئيباً حزيناً لاننا نرى امزجتنا منعكسة فيمن حولنا فان كانت طبيعتنا التذمر والحمق وجدناهم كذلك وان لم نتغاض عن سيئاتهم لم يتغاضوا عن سيئاتنا ، سهر بعضهم مع فئة من أقرانه يتسامرون فلما قفل راجعاً الى بيته شكا الى الشرطى الذى صادفه ان امرأ عبوساً يقتفى أثره واتضح أن هذا المرء الموهوم ظله ، هذا مثل الحياة أى انها خيال لأنفسنا صورة لما يجول بضمائرنا

فان شئت أن يحسن الناس فى معاملتك ويبالغوا فى اكرامك ورعاية حرمتك فارع حرمتهم واعلم أن لكل امرئ عادات وأخلاقاً خاصة به لا تتعداه الى غيره كما أن له خلقاً خاصاً به دون سواه ولا بد من أن تعاملهم بالحلم ان أردت أن يعاملوك به أجل قد لا تكون شاعراً بغرائبك وأحوالك الخاصة بك ولكن ذلك لايمنع من وجودها فيك ، فى أمريكا الجنوبية قرية فشا فيها ورم

الاعناق حتى أنهم يعدون السلامة منه نقصاً فى الخلق وحدث مرة أن نزل بهذه القرية نفر من الانجليز فالتفت حولهم شرذمة من أهلها وجعلوا يهزأون ويسخرون ويصيحون ويصخبون ويقولون ألا تعالوا انظروا الى هؤلاء القوم الذين لم تنتفخ أعناقهم

ومن الناس من يحمّلون نفوسهم عناء فى سبيل الوقوف على آراء الناس فيهم ومن يبالغون فى الركون الى وجهة السوء فلا يظنون الا شراً والحقيقة أن سوء رأى الناس فينا أن وجد لا يكون فى الغالب الا خيالا أوجده عوز نفوسنا الى الرفق وطباعنا الى اللين وقد يكون الهم الذى نحمله من مختلقات الوهم ومبتكرات الخيال ولو سلمنا أن من نعيش فيهم لا يحسنون الظن بنا فهل نحن بمتجنبين ذلك ان سخطنا وبالويل والثبور عليهم نادينا كلا بل قد نعرض أنفسنا أن فعلنا لخبثهم وترهاتهم وما أحكم قول جورج هربرت أن الشر الذى يخرج من أفواهنا مآله صدورنا

بذل الفيلسوف فَرَدى لصديقه الأستاذ تِيندَل نصيحة عالية ملؤها الحكمة المتولدة عن طول الخبرة قال أقول لك وقد بلغت من الكبر عتيا واستفدت من التجارب انى كنت فى عنفوان شبابى أسيء الظن بالناس مع أنهم لم يكونوا اذ ذاك يوجهون الىّ من الاساءة ما ظننت أنهم يوجهون وعندى أنه خير

للمرء أن يكون بطيء الفهم للعبارات التى تشم منها رائحة الحنق والغيظ سريع الاحساس بما تشم منه رائحة الرأفة والشعور الحسن واعلم أن الحق الصراح يظهر لا محالة وأن المعارضين ان اخطئوا كان الحلم فى اجابتهم ادعى الى اقناعهم من ازعاجهم بالأجوبة المفعمة بالشدة ومجمل قولى أن الأولى للانسان أن يتغاضى عن التحامل ولا يغفل عن حسن النيـة ولا أخال المرء الا سعيداً اذا سعى وراء ما يدعو الى الوئام والسلام ونأى عمـا يدعو الى الشقاق والانقسام وانك لا تكاد تدرك مقدار اضطرابى حين كنت آنس من معارضى غطرسة وحيداً عن سبيل الحق ولكنى كنت أتمكن من اجتناب اجابته بمثل قوله وأنى لعلى يقين من أن هذه الخطة لم تلحق بى ضرراً قط اه [1]

وكان من عادة المصور برى وهو فى رومه أن يشغل نفسه بمنازعة من معه من المتفننين والصناع منازعة عنيفة وعلم بذلك مواطنه إدمند برك فكتب اليه يقول انى أؤكد لك أيها الصديق الحميم أن الوسائل التى بها ندرأ ما بالعالم من المفاسد والخلال التى بها تحلو لنا الحياة ونحلو لها هى الاعتدال والتأنى والرقة وشيء من التساهل للناس وعدم الاذعان لكل ما يقوم بنفوسنا وليست

(1) Professor Tyndall, on Faraday as a Discoverer, pp. 40-1.

هذه الخلال ناتجة عن الضعة كما يرى بعضهم بل هى خلال عالية كريمة تصعد بنفوسنا وتعين على راحتنا وسعادتنا ولا شىء يزرى بالنفوس الكريمة كقضاء الحياة فى المشاغبات والمنازعات مع من حولنا فوجب اذن أن نجعل الوئام سائداً بين أبناء جنسنا حرصاً على مصلحتنا ان لم نحرص على مصلحتهم [1]

ولا نعرف أحداً فطن لقيمة ضبط النفس اكثر مما فطن الشاعر برنز ولم يستطع أحد أن يعلمها الناس بفصاحة أقوى من فصاحته ومن أجل قصائده قصيدة كتبها وهو ابن ثمان وعشرين عنوانها « على قبر شاعر » تنبأ فيها عن حياته وقال فى ختامها اعلم أيها القارئ رفيعاً كنت أو وضيعاً ان أساس الحكمة ضبط

(١) على أن برك مع استطاعته أن ينصح برى هذه النصيحة الثمينة لم يكن طبعه خالياً من العيب وانى ذاكر حادثة تثبت ما أقول . لما مرض عاده فكس وكان قد وقع الخلف بينهما لخلاف فى الآراء السياسية أوجدته الثورة الفرنسية فلم يقبل مقابلته ورفض رؤيته رفضا باتا فلما فصل فكس من عنده قص خبره على صديق له فأسف على عناد برك ولكن فكس اجابه بكل بساطة قائلا هون عليك أيها الصديق أنى ما رأيت ارلندياً قط الا وفيه شىء من العناد اهـ

على أن فكس حين سمع بقرب وفاة برك دعاه كرم طبعه الى كتابة خطاب ملؤه الاخلاص بعث به الى زوج برك عبر فيه عن مزيد حزنه وعظيم اسفه ولما مات برك كان فكس أول المقترحين دفنه فى مدفن العظماء ولم يحل دون ذلك الا وصية برك القاضية بدفنه فى بلده

النفس اذا اقترن بالتبصر والحذر

ولكن برنز كان اذا آن أوان العمل يعجز عن ضبط نفسه عجزاً بيناً ولا يستطيع أن يحرم نفسه سرورها بالتهكم على الناس والسخرية منهم قال أحد مترجميه ليس من المبالغة أن يقال أنه كان اذا مزح عشر مرات خلق له مائة عدو اه ولم تقف عيوبه عند هذا الحد بل بلغت به الحال أن صار لا سلطان له على شهواته فاسلس لها العنان واستسلم لها فحط سفسافه من قدره ودنس سمعته ولوث اسمه ولم يكن له من الايثار ما يحمله على اخفاء الأبيات التى قصد بها السرور فى مجالس السلاف والتى لا تزال تبث الفساد فى عقول الشبان ولعمرى لست مبالغاً أن قلت أن الضرر الناجم عن كتاباته المنافية للآداب لأكثر من فائدة كتاباته الطاهرة على كثرتها ورقتها وعلو مكانتها فى عالم الأدب وليس من الغلو أن يقال ان الأولى بمؤلفاته أن تبدد وتنسى لو أمكن أن تبدد معها أغانيه المخالفة للآداب الخارجة عن حد الحشمة والوقار

وهذا الرأى ينطبق على برنجيه وهو عند بعضهم برنز فرنسا فانه كان ذا قريحة وقادة مؤثرة ولكنه كان أشبه الناس ببرنز فى حبه اللهو وشغفه بأن يكون مقبولا عند الناس واذا كان قد بلغ بالأنفة الفرنسية غايتها فانه صور الملاهى التى تنهمك فيها

أمته تصوير المصور الماهر ومن مضار أغانيه انها ساعدت هى وتاريخ تيير على اعادة الملك لبيت « نابليون » ولكن هذا ضرر تافه ان قورن بالضرر اللاحق بالأخلاق من جرائها لأن انتشارها فى بيوت فرنسا ينشر من الفساد والرذائل ما يكفى لفساد أمة بأسرها

كانت معاقرة الخمر احدى الرذائل التى انهمك فيها برنز والخمر أم الخبائث وأصل لكثير منها نعم أنه لم يك مفرطاً فى شربها ولكنه كان يستسلم لما تستدعيه من الفساد فأفسد بذلك نفسه (١) ولم ينهمك فى معاقرة الخمر برنز وحده فان الشهوة الدافعة اليها كانت فى عصره كما هى الآن اكثر الرذائل انتشاراً وأشدها تدميراً وافساداً

لو قام بيننا مستبد طاغية يسلبنا أموالنا ويأمرنا بتعاطى مادة تحط من قدرنا وتنتزع صفات الانسانيـة من نفوسنا حتى نصير أشبه بالبهائم ثم تقضى على راحة بيوتنا وتبذر فينا بذور المرض والموت العاجل لأصبحنا وكلنا جماعات ساخطة تعقد ومظاهرات ضخمة تنظم وخطباء مفوهون للحرية ينتصرون والخلاص مما ألم

(١) فى سنة ١٨١٠ زار بعضهم بيت برنز فوجده انقلب حانة ووجد الرجل الذى اختاره دليلا ثملا من السكر ثم أشار الى ناحية من نواحى المحل وقال هذه هى البقعة التى ولد فيها ربرت برنز قال الزائر كنت شديد الاسف من قبل على قريحة الرجل الوقادة وما آل اليه أمره ومثل لى ضحك صاحب الحانة وهو عمل العيب الذى أودى بالشاعر فغلبنى البكاء وسالت عبراتى اه

من الظلم يطلبون مع أن هذا الحاكم المستبد مقيم بيننا لا تقوى عليه الجنود ولا تسقط جبروته الاصوات ونحن بالاذعان لسلطانه والنزول على حكمه راضون ، ذلك هو سلطان الشهوات

ألا لا سبيل الى ازال هذا الطاغية عن عرش جبروته الا بالوسائل الأدبية أى بتهذيب النفس ورياضتها ومراعاة حرمتها وضبطها وكل وسيلة غير هذه للخلاص من استبداد الشهوات عديمة الجدوى وليس تهذيب القوانين ولا تحسين طرق الانتخاب ولا اصلاح الحكومات ولا التعليم المدرسى برافعة من أخلاق قوم ينهمكون فى الملاهى بمحض رغبتهم والانهماك فى الملاهى غير الشريفة يدعو لا محالة الى نقص السعادة الحقة لأنه يقضى على الآداب ويضعف الهمم ويذهب برجولية الأفراد وصحتهم وسلامة الأمم وعظمتها

واعلم أن فضيلة ضبط النفس تظهر فى أمور كثيرة ولكنها فى المعيشة الشريفة أظهر لأن الذين حرموا فضيلة ضبط النفس عبيد لشهواتهم أرقاء لغيرهم يقلدون من حولهم ويعيشون عيشتهم ويبذرون تبذيرهم غير حاسبين للعواقب حسابا وقد يكون المقلدون عائشين عيشة أعلى مما تسمح به حالتهم فتراهم جميعاً يندفعون وراء غيرهم ويهوون معهم دون أن يكون لهم من الشجاعة الأدبية ما يوقف سيرهم ثم انهم لا يقوون على ردع نفوسهم عن المعيشة

الراقية ولو استمدوا وسائلها من غيرهم فلا يزالون يلجئون الى الدين حتى يثقلهم وكل ذلك جبن وضعف فى النفوس وخور فى العزيمة ونقص فى الاستقلال والاعتماد على النفس

أما ذو العقل السليم فنفسه تأبى عليه أن يظهر بغير حقيقته ويدعى ثروة اكثر من ثروته أو يعيش عيشة لا تبررها حالته فتراه وقد حل بقلبه من الشجاعة ما يجعله يؤثر العيش الشريف بما عنده على العيش غير الشريف بما عند غيره وعندى أنه لا فرق بين اللص وبين من يحمل نفسه الدين طلباً لمعيشة لا تسمح بها ثروته فكلاهما لا شرف له

قد يرى بعضهم فى ذلك الرأى تطرفاً وغلواً ولكنى أرى أنه الحقيقة عينها لان العيش بمال الناس ضعة وخيانة فى الفعل كما أن الكذب خيانة فى القول والتجارب شاهدة على صحة قول جورج هربرت المدينون كذابون قال شفتسبرى أصل فساد الآداب شدة الشوق الى الحصول على ما لا نملك والظهور بغير حقيقة أمرنا (١) ولا عبرة بقول مِسَربو من شغل نفسه بدقائق

(١) بحث بعضهم فى الاسباب الداعية الى الخيانة ثم أبدى رأيه فى ذلك فقال أنى بعد خبرتى بجنايات السلب والنهب والسرقة وهى خبرة بنيتها على درس أخلاق كثير من المسجونين أرى ان الخيانة ليس منشؤها الجهل ولا السكر ولا الفقر ولا ازدحام السكان ولا الثروة التى تحيط بالفقراء ولا غير ذلك من الاسباب التى يعتقدها الناس بل السبب الرئيسى للخيانة الميل الى الحصول على الاشياء بعمل اقل مما يلزم للحصول عليها

الآداب حرمت عليه الاخلاق العالية فهذا قول ضار بله كونه مخالفاً للحقيقة فلا نزاع فى أن أساس الرجولية الخالصة والأخلاق الكريمة التمسك بدقائق الآداب

أما الرجل الكريم النفس فيقتصد ويعيش شريفاً نزيهاً لا يسعى وراء حمل الناس على الاعتقاد بأنه مثر ولا يلجأ الى الدين ويعاهد بذلك الدمار والقليل الكسب الضابط لشهواته ونزعات نفسه لا يكون فقيراً والغنى من زاد دخله عن حاجته رأى سقراط شيئاً كثيراً من الأثاث والرياش محمولا فى موكب فاخر يسير فى طرق أثينا فقال الآن علمت كم من أشياء فى هذه الحياة الدنيا أنا فى غنى عنها وقال برتس لو تبصر الناس فى العيش على قدر كسبهم لما احتاج أحد الى أن يشغل حياته ويواصل ليله بنهاره مفكراً فى المال أللهم الا ذا الفقر المدقع اه

ومن الناس من لا يحفل بالمال رغبة عنه فيما هو خير منه وأبقى كفردى فانه رغب عن الثروة رغبة فى العلم ولكن من شاء التمتع بالطيبات فليحصل عليها بالطرق الشريفة لا من أموال الناس كما يفعل أولئك المدمنون على أخذ الدين وهم على يقين من عدم استطاعتهم رده ، سئل مجن وكان دائماً مثقلا بالديون عن مقدار ما كان يصرفه فى الخمر فقال لا أدرى وكل ما أعلم أنهم يخطون شيئاً فى دواوين حسابهم[1]

---

(1) S. C. Hall's 'Memories'.

هذا التقييد فى دواوين الحساب أودى بكثير من ضعفاء العقول الذين لا يستطيعون صبراً عما لا يقدرون على دفع ثمنه ولا أخال المجتمع الا مستفيداً فائدة كبرى لو أن القانون الضامن للدائنين حقوقهم يمحى من الوجود اذاً لقل الخطب فان التجار بتسابقهم فى ميدان التجارة مهدوا للناس سبيل الوقوع فى الدين واعتمدوا على القانون فى حفظ حقوقهم ورد دينهم.

ذكر هزلت قسمين من الناس استويا فى نظره فأما أهل القسم الأول فهم الذين لا يقدرون على حفظ مالهم وهم دائماً فى حاجة الى المال لأنهم اذا ملكوه لا يلبثون أن يصرفوه كأنهم يريدون الخلاص منه بحال من الاحوال وأما أهل القسم الثانى فهم الذين لا يكفون أيديهم عن مال الناس يصرفون مالهم ثم يقترضون من كل من يقرضهم وهؤلاء يوردهم نهمهم بالتداين مورد الحتف والهلاك ومن هؤلاء البائسين شردن فانه كان متخبطاً مهملا فى تدبير ماله يقترض ويقبل الدين من كل من يأتمنونه ولما ناب عن وستمنستر كان غير مألوف غير مقبول لكثرة دائنيه قال لورد بلمرستن كم من فقراء تكأكأوا حول محل الانتخاب يطلبون منه أن يدفع لهم أموالهم التى اقترضها ولكن شردن كان والشدائد تحوطه خلواً من الهم لا يعبأ بتلك الشدائد ولا

يحفل بعواقبها ولطالما لجأ الى المزاح وسخر من دائنيه

على أن شردن وان نقصت أخلاقه فيما يتعلق بدينه كان شريفاً نزيهاً فيما يتعلق بأموال الأمة حدث مرة وهو فى وليمة حضرها لورد بيرن أن أشار بعض من حضر الى ثبات الاحرار فى مقاومة الحكومة والتمسك بمبادئهم فالتفت شردن الى القائل وقال من السهل على أصحاب الالقاب والاموال أن يفخروا بالوطنية ويجتنبوا ما تسوله النفس لما لهم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولكنهم لا يدرون ما قوة نفوس الذين لا يقلون عنهم شرفاً وذكاء وشهوة ولم يملكوا فى حياتهم ذهباً ولا فضة قال لورد بيرن قال شردن ذلك القول ودمعه يذرف [1]

كانت الذمم اذ ذاك ضعيفة فيما يتعلق بالامور المالية وكان الاختلاس فى السياسة لا يعد جرماً ماساً بالكرامة وكان زعماء الاحزاب يستميلون أتباعهم بصرف أموال الأمة عن سعة فكانوا بذلك كرماء يجودون كثيراً ولكن بغير مالهم كالحاكم الذى يكرمه بنى قنطرة من مال محكوميه وأول من تنحوا عن هذا الاختلاس والاغتصاب لورد تشتم وكان ابنه مثله نزاهة فبينما المسجد يسيل فى أيدى بت اذا هو يعيش فقيراً ويموت فقيراً ولم يستطع أحد من الذين اختلقوا عليه الاكاذيب أن يمس نزاهته بأذى

(1) Moor's 'Life of Byron' 8 vo ed. p .182

ومن الذين يعتبرون مثالا للنزاهة وسلامة الذمة سير وُلتَر سكُت وهـذا مجهوده العظيم فى دفع ديونه وان شئت فقل ديون المحل التجارى الذى اشترك فيه يشهد كل منصف بأنه من أجل ما بذل الرجال ، ولما أفلس طابعو كتبه وناشروها رأى الدمار بعينيه ورقت فئة من اصدقائه لحاله فعرضت عليه أن تجمع من المال ما يساعده على تسوية حسابه مع دائنيه فقال هذه يدى اليمنى ستقوم بسداد دينى ، وكتب الى صديق له يقول ان فقدنا كل شيء فأقل ما فى الامر أننا نحمى شرفنا من أن يدنس[1]

ولما انهكت قوته واضمحلت صحته من كثرة العمل لم يكف عنه بل استمر يكتب حتى عجز عن تحريك يراعه نعم أنه فقد قواه فى أعماله العظيمة ولـكنه حافظ على شرفه وكرامة نفسه .

وكل من قرأ عنه شيئاً يعرف كيف الف مؤلفات شتى وهو محوط بالآلام والدمار والاحزان منها ترجمة نابليون وكان يظن

(١) أثبت بيزل هول حديثاً جرى بينه وبين سكت هوهذا

قلت يجول فى نفسى أن فى الناس نزعة الى اكبار ضياع مالهم وأراه أهون ما فى الحياة من شرور جسيمة فينبغى أن يكون من بين أخفها حملا

قال أتعد الضياع فى المسائل المالية نكبة تافهة

قلت على أى حال ليس فيه من الغضاضة ما فى فقد الاخوان

قال مسلم

قلت ولا هو كفقد الاخلاق

قال هذا أيضاً صحيح

فيها موته[١] وكل ما جاء من هذه المؤلفات اعطى لدائنيه وفى ذلك يقول لو لا هذه المؤلفات ما ذقت للنوم لذة كما أذوق له الآن وانا اشعر بشكر الدائنين لى وبأداء واجبى شريفاً كريماً انى أرى أمامى طريقاً صعب المسلك مظلماً وعراً ولكنه يفضى الى سمعة طاهرة وصيت ليس فيه شية من العيب وان مت فى أثناء العمل مت كريماً وان قمت بواجبى ارتاح ضميرى[٢] وشكر لى كل من لهم علاقة بهذا الواجب

ثم جاء من بعد هذه المؤلفات مؤلفات أخرى ولم يزل يكتب حتى أصيب بالفالج وما كاد يقوى على حمل اليراع حتى استأنف

قلت اهو كفقد الصحة

فتمتم وقال لقد تمكنت منى قالها وقد بدا عليه من الاسى ما وددت معه لو اننى لم افتح باب الحديث ولكنى مضيت فيــــه وقلت ما ضياع المال اذا قيس بضياع راحة البال

فقال متبسطاً فأنت بالاختصار تريد أن لا ترى بأساً أن يغرق الانسان فى دين لا يستطيع منــه خلاصاً

قلت أظن شيئاً من ذلك كثيراً يتوقف على كيفية جر هـذا الدين وعلى ما يبذل من الجهد فى أدائه وعلى مبلغ المدين من سلامة النفس

قال سكت وهو مطمئن مستبشر أرجو أن يكون الامر كما تقول

(١) كتب فى جريدة يومياته لقد قضت هذه الحروب على خلق كثير وقد يكون فيها القضاء على

(2) Scott's Diary, Dec. 17 th, 1827.

العمل وكتب شيئاً كثيراً وطالما تقدم اليه أطباؤه أن يكف عن العمل فلم يسمع لقولهم وقال يوماً لاحدهم ان أمرتنى بالكف عن العمل فانما تأمر الماء فى المرجل أن لا يغلى وتحته النار ولئن اخلدت الى الكسل لاموتن

وبالربح الذى جاءه من هذه المؤلفات قلّت ديونه كثيراً وأمل أن يصير بعد بضع سنين رجلا حراً ولكن ذلك لم يكن ، أجل أنه استمر فى اخراج المؤلفات ولكن مهارته فى التأليف قلّت وأصابه الفالج مرة أخرى فشعر اذ ذاك بقرب الاجل واضمحلت قوته وتغيرت أحواله ولكنه لم ينقص شيئاً من العزم ، كتب فى مذكراته اليومية يقول لقد اشتد الالم والضعف بجسمى دون عقلى واصبحت أتمنى أن أنام النوم الاكبر ولكن سأقاوم ان استطعت اه وتماثل بعد ذلك للشفاء فاستطاع أن يكتب مؤلفاً آخر ظهر فيه ضياع خبرته ثم سافر الى ايطاليا طلباً للراحة والصحة وكان وهو فى نَبُلِى يشتغل كل يوم عدة ساعات فى تأليف رواية جديدة لم يثنه عن ذلك لوم اللائمين ولا انذار المنذرين الا أن هذه الرواية لم يكن لها نصيب من الظهور وعاد من ايطاليا الى ابتُسفُرد حيث مات ولما عاد اليها قال لقد رأيت كثيراً ولكن لم أر شيئاً كوطنى اه ومن آخر ما قاله فى أوقات صفوه عبارة هو بها جدير قال اظننى أكثر الناس فى هذا العصر مؤلفات وان

الراحة لتدب فى نفسى اذا ذكرت أنى لم اسع قط فى زعزعة عقيدة ولم أفسد مذاهب أحد ولم أكتب شيئاً أتمنى وأنا على فراش الموت أن أمحوه

وكانت آخر وصية منه لصهره قوله أى لُكهَرت وقد لا أستطيع مخاطبتك الا لحظة كن مُستمسكا بالفضائل معتصما بحبل الدين ، كن صالحا فانه لا شىء الا الصلاح ادعى الى راحتك اذا حانت منيتك ووقفت موقفى هذا اه وقد اخلص لُكهَرت لسكُت اخلاصاً يليق به ومكث سنين عدة يكتب ترجمة حياته ولم يأخذ منها شيئاً لانه دفع ما اكتسبه منها لدائنى سكُت ليسد دينا لم يكلفه بل دفعه الى سداده كرم نفسه وحبه للفقيد الكبير النفس الكامل الروح

الواجب - الصدق

ايها الواجب ، انك لامر غريب ، وشيء عجيب ، لا تعرف المجاملة ولا التملق ولا الوعيد ، بل تقف مجرداً أمام النفوس فتخشع صاغرة ، وتخضع لقوتك القاهرة ، ولا تزال لك فيها قيمة وان خالفتك ، انت الذى تتقلص امامك الشهوات ويخرس داعى الهوى

كَنت

من جعل سلاحه الاخلاص ووجهته الحق الصراح ولم يجعل نفسه رهن اشارة غيره ولم تستعبده شهواته ولم تشمئز نفسه من الموت فى سبيل الحق ولم تغره الدنيا بزخرفها فهو السعيد الذى اطلق نفسه من سجن الذل وصدع عنها قيود الطمع فصار بنفسه مليكا واتخذ من عزته مُلكا وان كان فقيراً معدماً

وُتسُن

كان اذا قال لا لا يتنازل عنها البتة واذا قال نعم لم يمنعه ان يفى مانع ، كان شديد التبصر قبل الوعد لا تجد تباينا بين قلبه ولسانه ومن ثم كان قوله عليه حجة

« نقش على قبر .بَرون شتَين »

الواجب مالزم القيام به وتحتم اداؤه على كل من اراد ان يطهر من الخزى وينجو من الذل والا تكون عاقبته خراب الذمة وضعف الهمة وان شئت فقل الواجب دين لا سداد له الا بالسعى فى هذه الحياة الدنيا والكد عن رغبة

الواجب ملازم للانسان فى جميع أدوار حياته ففى البيت واجب الابناء للآباء وواجب الآباء للابناء ثم واجب البعولة والازواج والخدم والسادة وفى غير البيت واجبات الخلان والجيران والخادمين والمخدومين والحاكمين والمحكومين

قال أحد الحواريين اد للناس حقوقهم وقم بالواجب عليك لهم ولا تجعل لهم عندك الا حب الخير فمن احب الخير للناس فقد أطاع الله

الواجب ملازم لنا من خروجنا الى هذا العالم الى خروجنا منه فواجب لمن فوقنا وواجب لمن دوننا وواجب لأمثالنا وواجب للرب وواجب للمربوب واينما وجد العمل وجد معه الواجب وهل نحن الا خدم نعمل لمصلحتنا ومصلحة الناس

الواجب دعامة الاخلاق وهو الذى يشد عضد الانسان فى اكبر مواقفه فان جهله المرء اضطرب وعجز متى لاحت له شدة أو همس فى اذنه داعى الهوى أما الضعيف فاذا دعاه الواجب انقلب ضعفه قوة وجبنه شجاعة قالت السيدة جيمسن الواجب هو الذى

يحفظ النظام الادبى قويا متيناً فان عدم الواجب فلا بقاء للقوة ولا بقاء للخير ولا العقل ولا الصدق ولا النعيم ولا الاخلاص بل كل نظام الحيـاة يتلاشى ويغادرنا بين اطلال بالية ندهش لخرابنا ونعجب من الدمار الذى حل بنا

الواجب اساسه الشعور بعدل توحيه المحبة وهى أجل مظاهر الخير وليس الواجب شعوراً مؤقتاً بل هو قانون تتشبع به الحياة فيبقى ما بقيت ويظهر أثره فى افعال المرء واكبر مؤثر فيهـا ماله من الذمة والارادة

الذمة يظهر أثرها فى اداء الواجب ولولا الذمة وقوتها لـكان الذكاء وان عظم كالضوء الذى يكشف لصاحبه سبل الضلال ولا يهديه سبيل الرشاد ، الذمة تأخذ بيد العاثر والارادة تملؤه قوة ينهض بها ، الذمة صاحبة السلطان على القلب والسيطرة على صالح الاعمال وصالح الافـكار والعقائد ولا تبلغ الاخلاق كمالها الا بها

على ان الذمة وان علا صوتها وارتفع نداؤها اذا لم تساعدها قوة الارادة قد تلقى آذانا صماء والارادة حرة فى التمييز بين الرشد والغى ولـكن لا فائدة من هذا التمييز الا اذا أعقبه العمل والتنفيذ فاذا كان الانسان متشبعاً بمعنى الواجب واذا ما كان طريق العمل واضحاً جاءت الارادة القوية تعضـدها الذمة لحملته على المضى فى سبيله وتنفيذ ما آربه ومقاومة كل ما يعرض

له من المصاعب وتخطى كل ما يصادفه من العقبات فان لم ينل مآربه ولم يصل الى غايته بقى فى نفســه السرور بانه لم يقم الا بالواجب عليه

قال هنزلـكن ايها الشاب اذا ما اثرى من حولك بالخداع والنفاق والـكذب والرياء فكن فقيراً وعش فقيراً واذا ما رأيت النـاس يرقون بالذلة والمسكنة كأنهم من بنى ساسان فعش بلا منصب ولا قوة وقابل خيبة الامال بثبات الجنان اذا ما رأيت غيرك يصلون الى آمالهم بالمداهنة والنفاق وفر من لثم الايدى الذى يستكين له غيرك ويستميت ثم ارتد رداء من فضلك وعلو نفسك واسأل الله قوتك وصديقاً حميا حتى اذا اشتعل رأسك شيباً ولم يلحق شرفك غبار فمت حامداً لله شاكراً

قد يؤثر الافاضل ذوو المبادئ الراقية ضياع كل عزيز لديهم على التقصير فى اداء واجبهم وهذا التفانى فى اداء الواجب عرفت به الامة الانجليزية من قديم الزمان وهو ظاهر فى قول أحد شعرائها لحبيبته وقد التحق بالجيش دفاعا عن ملكه أى حبيبتى لولا حبى النبل وهيامى بالمجد ما تفانيت هذا التفانى فى حبك والاخلاص لك[1] وقال سر تـُريوس ينبغى لمن له نصيب من كرامة

---

(1) From Lovelace's lines to Lucosta (Lucy Sacheverell), 'Going to the Wars.'

الاخلاق ان يجعل سلاحه شريف الوسائل ولا يلجأ الى المذلة يدفع بها الاذى عن نفسه

ولما ألح أمراء ايطاليا على مركيز بسكارا ورغبوا اليه ان يتخلى عن شد عضد الاسبان وكانت كرامتــه تدعوه الى شد عضدهم ذكرته امرأته بواجبه فكتبت اليه تقول لا تنس شرفك فهو يغنيك عن المجد الدنيوى ويرقى بك الى ما فوق درجة الملوك وبه وحده لا بضخم الالقاب تنال المجد وتسعد وتفخر بتسليمه الى أبنائك لم تشبه شائبة العار اه هذا كان رأيها فى شرف بعلها ولما مات فى بنيا رغب فيها كثيرون من المعجبين بجمالها [1] فأبت الا الوحدة وغاشت حزينة على فقيدها تذكر جليل اعماله

العيش الصحيح فى العمل بالهمة والحياة جهاد وحرب عوان يجب ان يكافح فيها مكافحة الابطال والانسان الذى اشرب قلبه الشرف يجب ان يدافع عن موقفه ويموت اذا دعت الحال وان من نعم الله علينا ما أودع فينا من قوة الارادة قلت أو كثرت فيجب ان لا نقضى عليها بأهمالها ولا ندنسها باستخدامها فى غير الشريف من الاعمال ولقد صدق رُبَرتسَن البريتنى فى قوله ليست عظمة الانسان فى السعى وراء الراحة ولا الصيت ولا الرقى ولا الحرص على الحياة ولا الجرى وراء المجد بل السعادة كل

---

(١) من بين هؤلاء اريوستو وميخاييل أنجلو

السعادة فى ان يقوم الانسان بواجبه

واعظم ما يحول بين المرء والقيام بالواجب التقلب واضطراب الرأى وضعف العزيمة ذلك أن الارادة يؤثر فيها عاملان قويان الذمة ومعرفة الخير والشر من جهة والخمول والاستكبار وحب اللهو والشهوات من جهة أخرى فالارادة الضعيفة التى لم تهذب تبقى معلقة بين هذين العاملين فترة من الزمن ولكنها لا تلبث أن تخضع لاحدهما فان اهاب بها صاحبها ونبهها واستعملها خضعت للمؤثر الاول والا خضعت للمؤثر الثانى فبقيت قابلة لا مؤثرة واستولى عليها سلطان الاستئثار والشهوة واذ ذاك تنحط فى المرء صفات الرجولية وتضيع حريته وتضمحل اخلاقه ويصبح عبداً خاضعاً لحواسه لا حول له ولا قوة

ومن ثم كان من الامور الضرورية فى تقويم الاخلاق وتهذيب النفوس تدريب الارادة وتعويدها سرعة العمل بما توحيه اليها الذمة حتى تقاوم الميل الفاسد وقد يحتاج الانسان الى تأديب طويل وتدريب مستمر حتى يعتاد فعل الخير ويقاوم البواعث على الشر ويكافح الشهوات ويتغلب على الاستئثار الغريزى ولكنه متى تعلم القيام بالواجب صار ذلك له عادة ثابتة يسهل عليه العمل بها فالانسان الصالح اذن هو الذى ادب نفسه بتدريب ارادته حتى صار الخير عادته كما أن الطالح الشرير هو الذى

ترك ارادته خاملة لا عمل لها وأرخى العنان لنفسه وهواه حتى اعتاد الشر وحتى قيده الشر بسلاسل لم يستطع الى الخلاص منها سبيلا

أجل لن يكون المرء ثابت الرأى صادق العزم الا باستعمال ارادته ولا تقوم له قائمة الا بسعيه واجهاد قواه لا باتكائه على دعامة من مساعدة الناس له والانسان صاحب النفوذ على نفسه صاحب السلطان على افعاله فان شاء تجنب الكذب وصار صادقا وان شاء فر من الشهوات فصار عفيفاً وان شاء نأى عن القسوة وصار محسناً رءوفا ، كل هذه الامور لارادة الانسان فيها التأثير وتنطوى تحت ضبط النفس وتهذيبها وعلى الانسان نفسه تتوقف حريته وطهارته وصلاحه أو استعباده وفساده وبؤسه وشقاؤه

من قول إبكتيتس لا يختر الانسان عمله فى الحياة ثم يتركه فان الواجب فى أداء هذه الأعمال المختارة اداء حسنا : ان العبد قد ينال من الحرية ما ينال الأمير والحرية أجل النعم لا قيمة لما عداها ان عدمت ولا حاجة لما عداها ان وجدت ولا يحصل الانسان على نعمة ان فقدت . . . الى أن قال علموا الناس ان السعادة ليست حيث يلتمسونها وهم فى ضلالتهم يعمهون ، ليست السعادة فى القوة فلم يكن ميرون سعيداً ولا أُفليُس وليست فى الثروة فلم يكن كَرُسَس سعيداً وليست فى النفوذ والسلطان فلم يكن القناصل سعداء وليست فى كل هذه الصفات معا فاننا عهدنا

خيرون واشور بنبال واجمنن يتأوهون ويبكون ويتحسرون فكانوا عبيداً للحوادث فرائس للاوهام ، انما السعادة فى نفوسكم ، فى الحرية الصحيحة ، فى الطهارة من الخوف المذموم والجبن المرذول ، فى حكم المرء نفسه ، فى القناعة والطمأنينة ، ولو فى الفقر والنفى والمرض وفى طريق الموت(١)

ان الشعور بالواجب قوة عاضدة حتى للشجعان تشد أزرهم وتملأهم قوة ، حاول أصدقاء عمي ان يقنعوه بالعدول عن السفر الى روما فى يوم عاصف وقالوا انك ان فعلت عرضت حياتك للخطر فقال وما اكرمه قولا أرى الذهاب ضرورياً ولست أرى الحياة كذلك اه فعل ما رآه صواباً ولو قابل الخطر ونازل العواصف هذا وقد كانت روح الواجب العامل القوى فى حياة وشنجتن

---

(١) راجع كتاب ف . و . فرر واسمه « المبتغون وجه الله » فان صاحبه يقول فيه لم يكن ابكتتس مسيحيا ولم يشر الى المسيحيين فى مؤلفاته الا مرة واحدة سماهم فيها الغاليين الذين قابلوا الآلام بنوع من الجمود ولم يكترثوا للملاذ الدنيوية وقال أبكتتس ان ذلك لم يكن ناجا الا عن مجرد العادة اه وان مما يؤسف له ان هؤلاء الفلاسفة لم يقيض الله لهم الوقوف على تعاليم المسيحية فقد حسبوا أهلها يحاولون تقليد النتائج التى وصل اليها الفلاسفة تقليدا لم يسبقه التأديب اللازم وقد نظروا اليها نظر المرتاب ولم يعدلوا فى حكمهم عليها ولو علموها لرأوا فيها وفى سواها من الاديان كمالا دونه أقصى آمالهم « المؤلف »

وهو ما ينتظر من مثل هذا الرجل العظيم ؛ هذه الروح كانت الحاكم الآمر فى نفسه والعنصر الذى اكسب أخلاقه نظاماً وقوة ومتانة فكان اذا رأى الواجب واضحاً فى طريقه يأخذ فى القيام به بعزيمة لا تنى ولو أحاطت به الاخطار من كل جانب وهو فى أدائه لم يفكر فى المجد ولا فى الصيت ولا فى الاجر وانما فكر فيما يجب أن يعمل وفى خير السبل لعمله

وكان مع هذا لا يرى نفسه كبيراً ، عرضت عليه قيادة الجيش الوطنى الامريكى فتردد فى قبولها ولم يرض الا بعد ان الحوا عليه ولما قام فى المؤتمر يعترف بانه نال الشرف كل الشرف باختياره لهذا العمل الذى ترتب عليه مستقبل امته قال انى اليوم اعلن صريحاً انى لا أرى نفسى اهلا لما شرفتمونى به وانى لآمل ان يبقى ذلك على بال منكم لئلا يحدث من الحوادث ما يسيء سمعتى اه وقال فى خطاب بعث به الى زوجه يخبرها باختياره للادارة العامة: لقد بذلت كل ما فى وسعى فى التنحى وليس السبب مقصوراً على عدم رغبتى فى مفارقتك انت وأهلى بل انى أشعر بان ما كلفته فوق طاقتى وانى أرى فى بقائى معكم شهراً سعادة حقة آمل أن أجدها اذا غادرتكم ولكن اذا كان القدر قد القى هذا العبء على كاهلى فانى ارجو وآمل ان يكون ما جرت به المقادير خيراً واعلمى انى لم أجد قط سبيلا للرفض دون ان أعرض نفسى.

لا تنقاد مُرّ يلحق بى العار وباصدقائى الألم وانى لعلى يقين من ان ذلك لا يرضيك ولو فعلت لاستصغرت نفسى(١)

ولقدكان وِشنجتُن فى قيادة الجيش ورآسة الجمهورية سالكا طريقا مستقيما غير مقصر فى اداء الواجب ولم يكن يحفل باستحسان الناس لعمله بل كان يقوم بما يراه صوابا رضى الناس أم غضبوا ولو عرض نفوذه وسلطانه للخطر فقد حدث ان الح عليه قومه فى رفض معاهدة اتفق عليها مستر جِيْ والحكومة البريطانية ورأى فى رفضها مساساً بكرامة أمته فأبى الاصغاء الى من طلبوا الرفض وأظهرت الامة المعارضة وقامت قيامتها وابدت الرغبة عن تلك المعاهدة ولبث وِشنجتُن فترة من الزمن مبغضاً حتى قيل ان العامة رموه بالحجارة ورأى هو واجبه يقضى بالموافقة على المعاهدة ففعل مع ما سمع من ضجة الناس فى كل ركن من اركان المملكة ومع ما انهال عليه من طلبات رفضها وقال للمعارضين لقد طالما رأيت من الامة استحسانا أشكره لها من صميم فؤادى وأرانى غير أهل لهذا الاستحسان اذا فعلت غير ما توحيه الىّ ذمتى

ومثل وِشنجتُن فى ذلك وِلنجتُن فانه جعل شعاره الواجب

---

(1) Sparks' 'Life of Washingtin,' pp. 141-2.

ولم يتفان أحد فى التمسك بواجبه تفانيه[1] روى عنه انه قال لا أكاد أرى فى الحياة شيئاً جديراً بأن يتطلبه الناس ولكن أرى أن يبادر كل منا الى أداء واجبه اه ولم يدرك احد معنى الطاعة والخدمة عن رغبة كما أدرك هو والناس ان لم يعرفوا كيف يخدمون فهم عن ادارة شئون غيرهم عاجزون .

علم ولنجتن ان أحد الضباط استاء من تكليفه عملا غير لائق بقدره فقال ولنجتن لقد كنت فى الجيش اكلف قيادة فرقة صغيرة بعد ان كنت أقود فرقة كبيرة فأطيع ما أومر به دون أن أرى فى ذلك غضاضة أو حطة، وكان ولنجتن وهو يقود الجيوش المتحدة فى البرتغال يرى أخلاق أهلها غير لائقة وغير منطبقة على ما يدعو اليه الواجب وفى ذلك يقول أرى فى أهل هذه البلاد حماسة كثيرة ونداء بقولهم (ليحى) وارى أينما سرت أنواراً تضاء وأغانى وطنية ومحافل ولكن الذى ينقص هؤلاء القوم أن يقوم كل منهم بواجبه فى عمله حق القيام ويخضع للسلطان الشرعى كل الخضوع

وهذا الشعور الكامل بمعنى الواجب كان العامل القوى فى

---

(١) كان جزاء « ولنجتن » على تمسكه بما يراه صوابا كراهة الناس اياه حتى لقد هاجت الغوغاء عليه فى شوارع لندن وحطموا نوافذ بيته ولاقى سير « ولترسكت » من العامة مثل ذلك

أخلاق ولنجتن ، كان الواجب اكثر شيء حضوراً فى ذهنه وكان المسيطر على جميع أعماله وقد أثر هذا الخلق فى مرءوسيه فاشتغلوا معه بروح مستمدة من روحه ، أقبل وهو فى وترلو على فرقة من جيشه وبعضها ينضم الى بعض بعد أن نقص عددها لكيما تستعد للقاء الجيش الفرنسى فقال للجند وهو مقبل عليهم الثبات الثبات واذكروا ما سيقال عنا فى بلادنا فاجابه الجندقالوا ليطمئن بال مولانا فانا نعلم واجبنا

كذلك كان الواجب الفكرة الرئيسية فى نفس نلسن والروح التى بها خدم أمته ممثلة ظاهرة واضحة فى الكلمة التى أعلنها للاسطول لتكون له شعاراً قبل أن يخوض غمار الحرب فى الطرف الاغر [1]. وفى آخر كلمة قالها قبل أن تفيض روحه وهى قوله الحمد لله الذى وفقنى للقيام بواجبى

وكان كلنجوود مثل رئيسه نلسن متفانياً فى أداء الواجب. ولطالما حض الشبان المقبلين على معترك الحياة بقوله ابذلوا قصارى جهدكم فى القيام بواجبكم اه ومن نصائحه الغالية لاحد الشبان قوله كن على يقين من أن راحتك ورقيك متوقفان عليك اكثر من توقفهما على غيرك فاذا ما وجهت عنايتك الى الدقة فى أداء واجبك وسلكت فى معاملة الناس من رؤسائك وغيرهم

---

(١) هى ان انجلترا لتنتظر من كل رجل منكم أن يقوم بواجبه (الناقل)

مسلك التؤدة والوقار ضمنت اجلالهم اياك ونلت ما تتمنى من الجزاء فاذا لم تنله فكن أعقل من أن يتطرق اليأس الى نفسك وحذار أن تظهر عليك امارات التذمر فانك ان فعلت آلمت أصدقاءك وأرحت منافسيك ولم تحصل من وراء التذمر على خير قط ، اعمل عملا تستحق عليه أقصى ما يمكن أن يصل اليك فاذا لم يصل اليك ما تستحق بقي صدرك منشرحاً بشعورك باستقامتك وحسن عملك ، اطمح الى أن تكون أول القائمين بالواجب ، لا تدقق فى انتظار «دورك» بل كن مستعداً لكل عمل وثق بأن رؤساءك لا يلقون عليك من العمل اكثر مما يصيبك منه اللهم الا اذا استحكمت فيهم الغفلة

نقول وكأن هذا التفانى فى أداء الواجب صفة لازمة للأمة الانجليزية ومما لا نزاع فيه انه كان من ميزات فحول رجالنا ولا أظن أن فى الأمم الاخرى قائداً يخوض غمار الحرب بشعار كشعار نِلسُن فانه لم يدع جنده الى المجد ولا الى النصر ولا الى الشرف ولا الى الوطن وانما دعاهم الى عمل الواجب وما أقل الامم التى تلبي نداء هذه الدعوة الى الحرب

ولما غرقت السفينة برِكنهيد على شاطئ افريقية وغرق الضباط والجند وهم يطلقون نيران الفرح بعد أن رأوا النساء

والاطفال سالمين فى الزوارق كتب رُبَرتسَن البرَيتنى كتابا أشار فيه الى هذه الحادثة بقوله أجل ان الخير والواجب والايثار لهى الخلال التى تجلها انجلترا ، لا ننكر أنها تلقاء السفساف والفضول والمظاهر قد تدهش وتحملق كالفلاح الخشن ولكن لا يصل الى أعماق قلوبها شىء سوى الحق ، وهى لا رأى لها فى الازياء ولا رقة فى حفلات الرقص ولكنها اسبغ الله عليها النعم تعرف كيف تعلم أبناءها أن يسلموا انفسهم لليم ويغرقوا بين الامواج والحيتان بلا مظاهرة ولا ضوضاء كانما الواجب أمر فطرى ولا تلبث الا يسيراً حتى تميز الخبيث من الطيب وتعرف من المخلص ومن المنافق (١)

هذا التفانى فى أداء الواجب من الميزات الكبيرة فى الامم ولا محل لليأس من مستقبل الامة ما بقى فيها أثر لروح الواجب أما ان أزهقت من أبنائها هذه الروح أو خمدت فيهم نارها واطفىء سراجها وحل محلها النهم باللهو والجرى وراء العظمة والمجد المنبعثين عن الاستئثار فويل لتلكم الامة قد حان انحلالها واذا كان المفكرون وذوو النظر الثاقب قد اجمعوا على سبب لتهدم بنيان الامة الفرنسية فذلك السبب هو ذهاب هذا الشعور بالواجب من نفوس الفرنسيين وزعمائهم وشهادة البَرون ستُوفل الملحق

(1) Robertson's 'Life and Letters', ii. 15,

الحربى فى السفارة الفرنسية ببرلين هى القول الفصل فى هذا الموضوع فقد كتب قبل حرب السبعين الى أمبراطور فرنسا تقريراً بين فيه ان الامة الالمانية الراقية المتأدبة شاعرة بمعنى الواجب وان الالمان لايستنكفون أن يبجلوا كل أمر شريف جليل وان الفرنسيين مغايرون للالمان كل المغايرة فان الناس فى فرنسا هزئوا بكل شىء حتى فقدوا القدرة على اجلال ما يستحق الاجلال وأصبحوا يعدون الفضيلة والمعيشة البيتية والوطنية والشرف والدين مواضع للسخرية والاستهزاء والاحتقار (١) وان

---

(١) نقتطف هنا من ذلك التقرير الجليل عبارات خالدة ، قال كاتبه

هل ينكر من عاش فى برلين أن البروسيين ذوو همة ووطنية تفيض نفوسهم بنشاط الشباب ، هل ينكر انهم لم تفسدهم الملاهى ولا الشهوات وان فيهم شهامة الرجال وعقائد الامم الحية العاملة ولا يستنكفون ان يجلوا من صميم أفئدتهم ما كان راقياً جليلا ، وما أبعد فرنسا عن كل ذلك ، ان فرنسا ما زالت تستخف بالامور حتى أصبحت لا تبجل شيئاً وأصبحت لا تعد الفضيلة والمعيشة البيتيه والشرف والدين الا مواضع للسخرية والاستهزاء والاحتقار واصبحت الملاهى معاهد ينزع فيها الحياء ويدنس العفاف ، ان السم ليسرى رويدا رويدا الى قلب ذلك المجتمع الجاهل المضطرب فلم يبق له من الهمة ولا من بعد النظر ما به يصلح شأنه أو يصير بالامور ابصر وبالادب أكثر تمسكا وان مزايا هذه الامة لاخذة فى الضياع يتلو بعضها فى ذلك بعضاً فاين ما كان لنا من كرم وفينا من اخلاص ومحاسن وأين ما كان لنفوسنا من الرق ، انه ان دام هذا الحال فلا يبق من هذا العنصر الفرنسى الا عيوبه ، الا يجول بخاطر فرنسا انها آخذة فى

الاضمحلال وان غيرها من الامم العاملة الحية تهجم عليها خلسة وتسبقها فى ميدان الرقى وتهيء لها فى العالم محلا وضيعاً

انى لاخشى ان لا تصادف آرائى هذه قلوبا واعية فى فرنسا لانها وهى صائبة مباينة كل التباين لما يقال فيها فهل لافراد من فرنسا نيرى البصائر ثاقبى الانظار ان يأتوا الى بروسيا ويدرسوا حالتها درساً وافياً . انهم ان يفعلوا يعلموا انهم بين امة جد وقوة وذكاء وفطنة نعم انها خلو من الرقة والجمال الفتان ولكنها لا تنقصها صفة من صفات القوة والمتانة . امتاز أهلها بالكد والمثابرة والنظام والاقتصاد والوطنية وعلموا معنى الواجب وأدركوا قيمة نفوسهم وحرصوا على كرامتها ثم لحسن حظهم لم يمنعهم ذلك ان ينقادوا لقانونهم ويعرفوا أقدار اولى الامر منهم ، لو جاء اؤلئك النفر من الفرنسيين الى بروسيا لرأوا أمة ذات نظام متين سليم وأخلاق راقية قويمة زعماؤها لمناصبهم أهل قد نالوا من التعلم أوفره وانقطعوا لخدمة الامة يعلمونها كيف تكون الوطنية ثم عرفوا كيف يحافظون على مالهم من السلطان الذى نالوه بحق ، لو جاء اولئك النفر من الفرنسيين الى بروسيا لرأوا حكومة ليس وراء ادارتها ادارة . حكومة وضع بها كل أمر موضعه وساد النظام المحكم الغريب فى كل جزء من نظامها الاجتماعى والسياسى ، ما اشبه بروسيا ببناء شاهق متين ضخم ليس فيه ما يسر النظر أو يناجى القلب ولكن الناظر اليه لا يتمالك التأثر بنظامه المحكم يبدو فى اساسه الضخم كما يبدو فى سقفه المتين . اما فرنسا فليس المجتمع فيها الا خليطاً مشوهاً لا نظام له ، فرنسا الآن أمة يرى كل فرد من أفرادها انه أهل لان يشغل أرقى مناصبها وقل فيها من يعلم انه لابد لمن يلى المناصب التى تكثر فيها المسئولية من عقل موزون وأدب محكم وخبرة بالايام وذكاء خاص

ولكن قد أتى على فرنسا زمن كان لها فيه كثير من أبنائها العظماء الذين اشربت قلوبهم معنى الواجب ولكنهم أجمعين وجدوا فى أزمنة قديمة فكأن بيار ودُوجسكلن وكُلنيي ودُكسن وتُرن وكُلبير وسلى ومن على شاكلتهم ماتوا بغير عقب وقد قام قليل من الفرنسيين فى فترات فى الازمنة الحالية يدعو الى الواجب ويحض على الاستمساك به فذهب دعاؤهم صيحة فى واد ومن هؤلاء دِتُكفيل ولكنه كامثاله اضطهد ونفى وسجن وأبعد عن ميدان العمل ، كتب الى صديقه كِرجُرلى يقول انى مثلك ازداد على الايام شعوراً بالسعادة التى يجدها الانسان فى أداء الواجب

فرنسا أمة أغلب مراكزها العالية يشغلها طائفة من الجهلة لا ميزة لهم الا الجاه وشىء من الرقة والحذق فى أدب المعاملة فما أشأم هذه الحال وما أفسدها ولا غرابة مع دوامها ان يكثر العاطلون فى فرنسا لا يعرفون لهم مهنة ولا يجدون عملا ولكنهم مع ذلك يحملون الحقد والضغينة لذوى المهن ومن لهم عمل

ليس للفرنسيين من المزايا ما يحبب اليهم تعميم التجنيد والانتفاع به وليس بغريب ان يعارض أناس هذا مبلغهم من الغرور فى امر جديد لا يصل اليه ادراكهم ولا يقوم به الا من عرف الايثار وفهم الواجب وتأهب لضياع مصالحه فى سبيل مصالح أمته وهى صفات لا يعرفها الفرنسيون وليس لها أثر فيهم . الا انه اذا كان الافراد لا تقوم أخلاقهم الا بالحادثات والشدائد فكذلك كثير من الأمم لا بد لهم من عقاب صارم يوقظهم من غفلتهم ويعلمهم ضرورة اصلاح ما فسد من نظامهم السياسى وقد كانت بروسيا فى حاجة الى ذلك حتى كانت وقعة « يينا » فأصبحت بعدها كما ترى سليمة البنية قويتها اهـ

وانى لعلى يقين من انه لا سعادة الا هذه السعادة وليس فى العالم شىء يستحق أن نعمل له الا شىء واحد هو مصلحة الجنس البشرى (١)

لم تخلد فرنسا الى السكون ولم تجنح الى السلم منذ ولى لويس الرابع عشر ملكها ولا تزال متحفزة للوثوب متأهبة للاضطراب ومع ذلك قام فيها نفر من أبنائها المخلصين الصادقين ورفعوا أصواتهم عالية داعين الى السلم ساخطين على ما رسخ فى طبائع الامة من الاضطراب وما استحكم فيها من الميل الى الحرب ولم يقتصروا على الدعوة بألسنتهم بل حاولوا قرن القول بالعمل فمن أثبت هؤلاء جأشاً وأشدهم فى هـذا الميدان صبراً وجلداً "سن

(١) قد كان فى طبع دتكفيل مع ما جبل عليه من حب الخير شىء من ضيق الصدر فانه يقول فى الخطاب الذى اقتطفنا منه العبارة السالفة ان من الناس من يسعى فى ايصال الخير اليهم وهو لهم محتقر وعليهم ناقم ومنهم من يسعى فى ذلك وقلبه مفعم بحبهم .واذا تأملت ما يقوم به الصنف الاول من الخدمات رأيت فيه شيئاً من الخشونة وأحسست بشىء من الغلظة والاحتقار مما لا يدعو الى الثقة بصاحبه ولا يخرج له الشكر من صدور الناس وانى لأتمنى ان اكون من الصنف الثانى ولقد طالما عجزت عن ذلك وانى أحب الناس غير انى لا أفتأ أصادف أفراداً تشمئز نفسى من دناءتهم ، وانى أشعر بميل الى احتقار الناس قاطبة ولكنى لا آلو جهداً فى مقاومة هذا الشعور

Memoirs & Remains of De Tocqueville, vol. i. p. 313.
(Letter to Kergorlay, Nov. 13, 1833.)

بيير هذا الذى جرؤ على التشهير بلويس الرابع عشر وحروبه ولم يخش أن يصرح بان ذاك الملك لم يكن أهـلا لان يلقب بالاكبر وكانت عاقبـة جرأته هذه وقوة عزيمتـه اخراجه من الندوة العلمية الفرنسية ولم يكن هذا القس بأقل حمية وسعياً فى وضع نظام للسلم بين الأمم من الداعين الى ذلك فى عصرنا هذا فانه انتهز فرصة اجتماع المؤتمر فى اُتـرخت وشخص الى ذلك البلد يدعو أعضاء المؤتمر الى الاشتراك معه فى ايجاد مجلس يكون من شأنه ضمان السلم بين الأمم كما ذهب جوزف مِرج الى بطرسبرج يستميل قيصر الروسيا الى آرائه فلما وقف أعضاء المؤتمر على ما أراد سَن بيير عدوه من المتحمسين شديدى الغيرة الذين يدفعهم التحمس الى الغلو وقام كَردِنال دُبْوَا يقول ان هذا المشروع حلم رجل طاهر القلب شديد الاخلاص قال الكردنال ذلك ولم يدر بخلده ان صاحب المشروع استمد حلمه هذا من الانجيل وانه لم يجد سبيلا للتشبه بسيده والاستنان بسنته خيراً من السعى فى الاقلال من فظائع الحرب وما تجره من الويلات ولقـد كان المؤتمر مجمعاً من رجال يمثلون أمما مسيحية ولم يطالبهم صاحب المشروع باكثر من العمل بالدين الذى يزعمون أنهم يدينون به ولكنه حاول عبثاً ولم يجد من أعضاء المؤتمر ولا من ملوكهم الا آذاناً صماء

فانت ترى ان صاحب هذا المشروع جاء سابقاً لأوانه ، جاء

قبل زمنه بمئآت من السنين وعول على أن يحفظ مشروعه هذا من الضياع فكتب فى سنة ١٧١٣ كتاباً اسماه « مشروع السلم الدائم» دعا فيه الى عقد مجلس من أهل أوربا يمثل الامم الاوربية كلها يعرض عليه المختصمون شكواهم ويطلبون تسوية ما يشجر بينهم من الخلاف قبل أن يخترطوا السيوف ويشن بعضهم على بعض غارات الحرب

وبعد أن مضى على نشر هذا الكتاب ثمانون حولا كتب فُلنى كلمة فى هذا الموضوع قال فيها هل الامة فى المجتمع الانسانى الا فرد وهل الحرب الا مبارزة بين فردين من أفراد المجتمع أفلا ينبغى للمجتمع اذا اقتتل طائفتان منه أن يصلح بينهما، كان ذلك فى زمن سن بيير يعد حلماً ولكن من حسن حظ الانسان ان أخذ هذا الحلم يتحقق اه فوا أسفاً على تنبوء فُلنى اذ دخلت فرنسا فى خلال الخمسة والعشرين عاماً التالية لتنبئه فى معمعان حروب شعواء لم يشهد العالم مثلها من قبل

لم يكن صاحب هذا المشروع صاحب أحلام بل كان من رجال الخير والاصلاح الذين لا يألون جهداً فى تنفيذ مآربهم ولقد أشار بكثير من ضروب الاصلاح عمل بها الناس بعده فكان أول من أنشأ المدارس الصناعية لتعليم الفقراء من الاطفال وتدريبهم على المهن التى تؤهلهم اذا شبوا لطلب العيش من

وجوهه المشروعة الشريفة ، كان يدعو الى تنقيح القانون وهى فكرة قام بتنفيذها نابليون الاول ، حمل بقلمه على المبارزة والترف فى العيش وعلى الميسر والرهبانية واستشهد بقول سجرى الرهبانية قضاء على العقل ، صرف ماله فى أعمال البر التى تمد الفقراء من أطفال ورجال ونساء بالوسائل التى تمكنهم من أن ينفعوا نفوسهم ولم يتصدق بماله لانه كان يرمى الى نفع من يساعدهم نفعاً يبقى معهم ما بقوا ولم يفارقه حب الحق ولا حرية القول حتى آخر رمق من حياته وكان يقول وقد بلغ الثمانين اذا كان الغرض من الحياة السعادة فان نصيبى منها وافر وسأله فلتير وهو يحتضر قال كيف تراك الآن فقال كانى أتأهب لرحلة فى الخلاء وفاضت روحه وهو على ما رأيت من الاطمئنان والارتياح وقد أبوا على مُبرتيو خلفه فى الندوة العلمية أن يرثيه لما كان من جهره بعيوب أولى المقامات الرفيعة فلم يرث فى الندوة الا بعد أن مر على موته اثنتان وثلاثون سنة رثاه دلمبير ، وعلى قبره انه كان شديد الحب للناس وهى كلمة حق تليق بهذا الفاضل الذى عاش محباً للحق جاهراً به ناصراً له

واعلم ان الواجب كثير الارتباط بخلة أخرى هى الصدق ، والصدق فى القول والعمل أول صفات الرجل العارف معنى الواجب لا أجد بين أقوال لورد شسترفيلد قولا يصادف هوى فى

أفئدة الكمل اكثر من قوله ان نجاح الانسان متوقف على الصدق وقال كلرندن يصف فوكلند وهو من اكمل أهل عصره. واتقاهم لقد تشدد فى حب الحق حتى كان يرى الحيد عنه كالسرقة.

ومن أجل ما قالت السيدة هتشنسن فى بعلها قولها انه كان صادقاً يركن اليه فما قال قط غير ما قصد ولا وعد القيام بما فوق قدرته ولا قصر فى أداء ما قدر عليه

وكان ولنجتن شديد الاعجاب بالحق وهاك مثالا ، أصيبت احدى أذنيه فاستشار طبيباً خصيصاً بالآذان فعالجه بصنوف العلاج بلا جدوى ولما أفرغ ما فى وطابه لم يجد سبيلا الا حقن الاذن بكاو قوى آلمه جد الالم فاحتمله بما عهد فيه من الثبات وعاده طبيب بيته فوجد وجهه قد ورم وعينيه قد ثار فيهما الدم واذا قام تمايل تمايل النشوان واستأذنه فى فحص أذنه فرأى التهاباً شديداً اذا لم يوقف لم يلبث أن يصل الى المخ ويقضى عليه لذلك أسعفه بالعلاج حتى أوقف الالتهاب ولكن الاذن صمت فلما علم طبيب الآذان ما أصاب المريض من جراء علاجه خف الى بيته ليبدى أسفه ولكن الدوق قال له كفى اعتذاراً خيراً فعلت فقال الطبيب انه يسقط اذا قيل انه السبب فى كل ما لحق الدوق من الالم وما أحاط به من الخطر فقال ولنجتن لا تخف ولا تحزن ، اكتم وثق بانى لا أبوح بذلك لانسى ، قال الطبيب هل

يسمح لى مولاى ان أعوده حتى يعلم الناس انك لا زلت بى واثقاً فقال الدوق برفق تصحبه الشدة حاشا لقد كلفتنى ما لا طاقة لى به ، هذا غير مستطاع ، فانى ان فعلت كنت كاذباً اه ذلك لان الكذب بالفعل والكذب بالقول كانا لديه سواء[1]

ومن أمثلة القيام بالواجب والتمسك بالصدق فى انجاز الوعد ما كان من القائد بلوخر ذلك انه فى الثامن عشر من شهر يونيه سنة ١٨١٥ كان يشجع جنوده وهو يجد فى قطع صعب الطرق لمساعدة ولنجتن بقوله صمداً أبنائى صمدا فاجابوه بقولهم لقد كلفتنا شططاً فذلك محال ولكنه ما زال يشجعهم وهو يقول أبنائى لا مناص تقولون محال وأقول لا مفر ولا مناص لقد وعدت أخى ولنجتن وعدته فهل أنتم سامعون أو يرضيكم أن أخلف وعدى اه وقد نجح

الصدق ملاك المجتمع الانسانى ولولاه لفنى وتداعى بناؤه.

---

(1) Cleig's 'Life of Wellington' pp. 314, 315.

أتى بلال وصهيب أهل بيت من العرب فخطبا اليهم فقيل لهما من أنتما فقال بلال أنا بلال وهذا اخى صهيب كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فاعتقنا الله وكنا عائلين فاغنانا الله فان تزوجونا فالحمد لله وان تردونا فسبحان الله قالوا بل تزوجان والحمد لله فقال صهيب لبلال لو ذكرت مشاهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اسكت فقد صدقت فزوجك الصدق

« باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام

للمرحوم الشيخ حمزه فتح الله ص ٢٧ »

فأصبح فوضى والكذب لا يدعم البيوت ولا الامم قال تومس برون ليت شعرى هل يكذب الشياطين ثم قال لا فانهم لو كذبوا لما قامت لجهنم قائمة اه وانى لا أجد مبرراً للحيد عن الصدق فانه يجب أن يحل المحل الاول فى كل أعمال الحياة

قد يكون الكذب أحقر الرذائل وقد يكون الباعث على الكذب العناد وفساد النفوس ولكنه فى الغالب نتيجة جبن النفوس الفاسدة ومع هذا فمن الناس من يستهين به حتى أن أحدهم ليأمر خادمه بالكذب له وهل يدهش بعد هذا اذا وجد خادمه عليه يكذب

قال سير هنرى وُتُن فى وصف السفير السفير رجل شريف يكذب لمصلحة بلاده ومع انه لم يرد الا الفكاهة جر بهذه العبارة غضب جيمس الاول عليه لان أحد خصومه اتخذها حجة على الملك اما ان ذلك لم يكن رأى القائل الخالص فواضح من كلمته فى صدر هـذا الفصل حيث يثنى على من جعل سلاحه الاخلاص ووجهته الحق الصراح

وللكذب مظاهر شتى كالسياسة والحيل وهو فى شكل ما من اشكاله ومظهر ما من مظاهره كثير الشيوع فى المجتمع ومن اشكاله المراوغة والتملص والتلوى وذكر الامور بحيث تؤدى فى

ذهن السامع غير المراد منها وهذا نوع من الكذب قال فيه أحد الفرنسيين انه الحومان حول الصدق

ومن ضعاف العقول فاسدى النفوس من يفخرون بحذقهم فى الالباس ومهارتهم فى المراوغة فى القول يتلوون تلوى الافاعى حتى يصدفوا عن الصدق ملتمسين لذلك صنوف الحيل وأنواع المخارج لكى يتسنى لهم اخفاء آرائهم ولا يتحملوا ما يكون من وراء جهرهم بها ولا خير فى البناء يقوم على مثل هذه الحيل ولا بقاء له قال جورج هربرت الكذب وان بالغت فى تحسينه زائل مغلوب اه وان الكذب الصراح مع مافيه من الشر وما يستدعيه من صفاقة الوجه لاحسن حالا من هذا الاحتيال وتلك المراوغة

وللكذب غير ما قدمنا مظاهر شتى منها التحفظ والغلو والتنكر والاخفاء وادعاء المشاركة فى الرأى والظهور بمظهر مجاراة يضل وان يعد الانسان صراحة أو ضمنا وهو لا ينوى وفاء وان يحجم عن قول الحق حين يدعو الواجب الى قوله

ومن الكذابين المنافقون المتلونون الذين يلبسون لكل امرئ ما يلائمه يقولون غير ما يفعلون كذى الوجهين فى قصة بنتين أولئك يحسبون انهم يخدعون الناس وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون أولئك لخلوهم من الاخلاص لا يصادفون من الناس ثقة بهم وتكون عاقبة أمرهم الفشل وانهم دجالون

ومن الكذابين المدعون فتلى المظاهر الذين ينسبون لانفسهم ما ليس فيهم اما الصادقون فشعارهم التواضع لا يعلنون عن أنفسهم ولا عن أعمالهم ، لما مرض بِت مرضه الذى مات فيه جاءت الانباء من الهند بما أتاه ولنجتُن من جليل الاعمال فقال بِت كلما كثرت عندى أخبار أعماله ازددت اعجاباً بالتواضع الذى يقابل به ما يصاغ له من عبارات المدح والثناء وهو الفرد الذى لم يتسرب اليه الزهو والفخر على انه أحق الناس بهما

قال الاستاذ تندال فى فرَدى كان أبغض الصفات اليه الادعاء ومن قبيله فى التمسك بالصدق والرجولية وفى الحرص على أداء الواجب مرشال هول وصفه صديق له حميم قال كان يهتك حجاب الكذب وسوء النية أينما لقيهما ويقول لا أرضى ولا أستطيع أن أقر الكذب وكان اذا تبين الحق من الباطل سار فى طريق الحق مهما كلفه لا يصرفه عنه ذرة من مصلحة ولا ميل مع هوى

ولم يدأب الاستاذ اَرنُلد فى غرس فضيلة فى نفوس النشء دأبه فى غرس فضيلة الصدق لانه كان يراها رأس الشهامة الحقة والبق الفضائل بالرجال وكان لا يعدل بالصدق فضيلة أخرى وكان اذا رأى الكذب عده جرماً كبيراً وعاقب عليه عقاباً صارماً ولكنه كان يصدق ما يقول الطلبة ويثق به ويقول للطالب يكفينى أن تقول ذلك وانى لا بد مصدقك اه وبهذه

الثقة بتلاميـذه واعتقاده ما يقولون ربى فيهم فضيلة الصدق وصاروا يقول بعضهم لبعض من العار أن نكذب على آرنلد لانه يصدق كل ما تقول[١]

وممن تضرب بأخلاقهم الامثال فى الجد والصدق وادراك معنى الواجب جورج ولسن الاستاذ فى جامعة ادنبرا[٢] واذا ضربنا أخلاقه مثلا للواجب فهى تصلح أن تضرب مثلا للشجاعة والبشاشة والكد لانها جمعت بين هذه الخلال

والحق يقال ان حياة ولسن من أعاجيب الكد مع البشر والانشراح فهى تمثل قوة الروح تنتصر على قوة الجسم وتكاد تكلفه ما فوق طاقته

كان ولسن فى شبيبته على ضعف بنيته حاد الذهن مملوءا نشاطاً ولم يكد يدخل فى دور الكهولة حتى أخذت اعراض الامراض تبدو عليه فبدأ قبل أن يتم العقد الثانى يشكو الأرق والانقباض وظن ذلك من تأثير الصفراء ، اذ ذاك قال لأحد أصدقائه لا أظن انى أعيش طويلا وكأنى بنفسى تموت ولا بد لجسمى من اللحاق بها وهو رأى غريب ممن لا يزال فى دور

(1) 'Life of Arnold', i. 64.

(2) See the 'Memoir of George Wilson, M. D., F. R. S. E.' By his sister (Edinburgh, 1860.)

الشباب غير انه لم يشفق على صحته ولم يدع لجسمه مجالا بل كانت حياته كلها عملا عقلياً ودرساً وجهاداً وكان لا نظام له فى رياضته بل لم يلجأ اليها الا فجأة فكان ضررها اكبر من نفعها ، اعتاد كثرة المشى فى نجود اسكتلندا حتى تنهك قواه فكان يرجع منها الى العمل الفكرى لا مستريحاً ولا متجدد القوى

وأصيبت قدمه مرة وهو يجهد نفسه فى مشى أربعة وعشرين ميلا بالقرب من بلدة سترلنج فرجع مريضاً وأعقب ذلك خراج وآلام طال عهدها وانتهت ببتر القدم اليمنى ولكنه مع هذا كله لم يقلل من عمله ولبث يؤلف ويحاضر ويعلم الكيمياء ثم أصيب بالرُوَمـتزم وبالتهاب حاد فى عينيه فعولج بأنواع العلاج ولم يستطع فى تلك الحال الكتابة فجعل يملى محاضراته على أخته وما زال الألم ملازمه ليل نهار حتى لم يستطع النوم الا بالمخدر وبينما هو فى هذا الضعف العام بدأت اعراض مرض الرئة تبدو عليه ولم يزل يلقى محاضراته الأسبوعية التى كلفها من قبل مدرسة الفنون بإدنبرا لم يرفض منها شيئاً مع ان القاءها على جماهير المستمعين كان ينهكه جد الانهاك ، رجع من احدى تلك المحاضرات فخلع معطفه ثم قال هذا مسمار آخر دق فى تابوتى وكان لا يكاد ينام عقب القاء هذه المحاضرات

ولما بلغ سبعاً وعشرين كان يحاضر فى الاسبوع عشر ساعات

أو يزيد وجسمه ميدان للاختلال وآثار الحراقات وكان يسميها اخلاءه ثم شعر بدنو أجله وعمل وهو يشعر بان لم يبق له الا أيام معدودة ، كتب الى صديق له يقول لا تدهش اذا أصبحت يوماً ما وقد نعاني اليك الناعون اه ومع هذا لم يتسرب الى نفسه الجزع ولم تجل فى ذهنه خيالات الامراض بل لبث يعمل ممتلئاً بشراً وأملا كأنه فى عنفوان قوته ويقول أشد الناس تنعماً بالحياة أقلهم خوفاً من الموت

كان فى بعض الاحايين يضطر الى الكف عن العمل لما يصيبه من الوهن حتى اذا استراح أسابيع وبدل الهواء عاد كما كان وهو يقول أرى البئر يرتفع فيها الماء وبقى يلقى ما اعتاد القاءه من المحاضرات لا يعوقه ان علق الداء برئتيه وأخذ ينتشر فيهما وسبب سعالا لا يطاق ولكى يزيد الطين بلة عثر المترجم له وأجهد ذراعه وهو يحاول أن يقال فكسر العظم قريباً من الكتف ولكنه كان يخرج من بلائه وينجو من حوادثه على كثرتها كأنه الغاب تأتيه الزوابع فينحنى ولا يكسر حتى اذا مرت الزوابع استوى كما كان

لم يعرف المترجم له الهم ولا الغم ولا الملل ولا الضجر ولكنه عرف البشر والصبر والجد فبقى والآلام تأتيه من كل مكان هادئ الفكر مطمئن البال وقام بأعماله وعليه سيمى السعاده كأن

به من القوة أضعاف ما بغيره ولم يكن له هم وهو يعلم أنه على وشك الموت الا أن يخفى حاله عمن حوله من أهل بيته ولو عرفوا حقيقة حاله لعظمت آلامهم وكان يقول أنا بين غرباء وانى لرجل ميت (١)

وما زال يدرس كما كان من قبل ويلقى محاضراته فى مدرسة العمارة ومدرسة الفنون وفى يوم من الأيام رقد ليستريح بعد أن ألقى محاضرة فما كاد يستقر فى مضجعه حتى أيقظه انقطاع عرق من عروقه ففقد بذلك قدراً من الدم لا يستهان به ولم يشعر بما شعر به كيتز من اليأس حين نزلت به مثل هذه الفاجعة (٢).

---

(١) ليس مثل هذه الحادثه بقليل الوقوع فانا نعرف فتاة من مواطنى الاستاذ ولسن أصيبت بسرطان فى ثديها فكتمت الامر عن والديها خشية وقع المصاب عليهما وما زال الالم بها حتى أصبحت العملية ضرورية ولما حضر الاطباء لعملها قابلتهم بالباب طلقة المحيا يلوح فى وجهها البشر وصعدت بهم الى غرفتها واستسلمت لما يعملون ولم يعلم أحد من أهلها حتى انتهت العملية غير ان المرض كان قد استأصل واستعصى فماتت الفتاة ولم يبد عليها أثر للضجر ولا للشكوى

(٢) عاد كيتز حوالى الساعة الحادية عشرة ليلة من الليالى وهو فى حالة اضطراب جسمانى يكاد من لم يعرفه يظنه فى حالة سكر شديد وقال انه جلس خارج المركبة التى أقلته وانه أصيب ببرد شديد وشعر بحمى خفيفة ثم قال ولكنى لا أشعر بها الآن وأشير عليه بالذهاب الى الفراش فامتثل ولما استقر فى فراشه سعل خفيفاً قبل ان يمس رأسه الوسادة وقال هذا دم من فمى آتونى شمعة انظر فيها هذا الدم ثم أطال النظر بضع ثوان ونظر فى وجه صديق الى جانبه وقد

وان علم كما علم كيتز ان رسول الموت قد جاءه واستعد للقائه فحضر الطعام مع أهله كعادته وحاضر مرتين فى اليوم التالى غير أن مجهود الكلام سبب نزيفاً فاشتد ألمه وزاد مرضه وشك فيما اذا كان يعيش بعد الليلة ولكنه عاش ولما نقه نيطت به وظيفة عامة فجعل مدير المتحف الاسكتلندي الصناعى وظيفة استدعت عملا كثيراً أضف الى ذلك ما كان عليه من المحاضرات

ومن ذلك الحين امتص متحفه العزيز كما سماه هو كل ما فضل من قواه ثم جعل يجد ويكد فى جمع ما يلزم لهذا المتحف ويقضى ما فضل من وقته فى القاء المحاضرات ولم يدع لنفسه سبيلا الى الراحة الفكرية ولا الجسمية ولم يصبُ الى مصير سوى أن يموت مشتغلا عملا ولم يكل فكره ولكن جسمه اضطر الى التسليم فاضطر هو الى الاقلال من العمل لما اشتد النزيف من

لاحت فى محياه سكينة فجائية لا تنسى وقال انا بلون هذا الدم عليم هذا دم شريانى انا لا أخطىء الحكم على هذا الدم الا ان هذه النقطة شهادة بوفاتى انا لا محالة زائل

« من ترجمة كيتز لهوتن ص ٢٨٩ من طبعة ١٨٦٧ م »

أما الدم فى حالة جورج ولسن فكان من المعدة أول الامر ثم صار النزيف بعد ذلك من الرئتين كما كان فى كيتز ولما ظهرت تراجم لام وكيتز قال ولسن فى كتابته عنهما انه قرأهما والحزن آخذ منه كل مأخذ قال ان فى محبة لام الشريفة الاخوية شية من البشر ولمعة من السرور تخففان بعض هذا الحزن اما فراش كيتز الذى مات فيه فديجور حالك لا ينيره شعاع من النور اه

الرئتين ومن المعدة وفى ذلك يقول لقد أسرت وأصبت بسهم من الثلج فى رئتى وقضيت معظم الشهر المنصرم أتأفف مرة واحترق أخرى ومازلت أبصق الدم ويمتقع لونى بالسعال والآن تحسن الحال وغداً ألقى خاتمة محاضراتى وأنا أحمد الله الذى أعاننى حتى تمكنت مع ما أنا فيه من القلاقل والتعب من أن لا أضيع محاضرة من المحاضرات فى جامعة الفنون التى أنا منها

حتام تدوم هذه الحال ذلك سؤال جال فى خاطره ووجد العجب الى نفسه سبيلا لانه طالما شعر بدنو الاجل وأحس برحيل العمر ثم صار بعد ذلك ضعيفاً سئما متحيراً لا يصلح لعمل حتى صارت كتابة خطاب تكلفه مجهوداً وعناء وصار يرى الرقاد والنوم كل ما يصح أن يعمل وسع هذا كتب محاضرة فى أبواب العلم مساعدة لمدرسة أسبوعية ووسع فى أبوابها حتى تألف منها كتاب ثم استرد من القوى ما مكنه من الاستمرار فى القاء محاضراته فى المعاهد التى هو مرتبط بها وهو فى اثناء ذلك يتبرع باداء عمل عن غيره وكتب اذ ذاك لأخيه يقول أنا فى نظر الناس صالح مجذوب لانى رأيت أحد المدرسين فى معهد الفلسفة غائباً فخللت محله وألقيت محاضرة ولكنى أحب العمل وهذا عيب ورثته عن أهل بيتى

بعد ذلك توالت القلاقل المزمنة فليال ساهرة وأيام كلها آلام

وبصق دم قال يصف هذه الحال لا أجد لحظة خلواً من الألم الا وأنا ألقي محاضراتي اه وقد شرع هذا الرجل الذى لا يمل يكتب وهو فى هذا الضعف والمرض ترجمة ادْوَرد فُوربز فكان فى هذه الترجمة كما فى غيرها من الأعمال مقتدراً ومع هذا كله لبث يلقى ما اعتاده من المحاضرات

ألقى يوماً فى ندوة للمدرسين محاضرة فى فوائد العلوم الصناعية من وجهة التربيـة فلما خطب فى المجمع ساعة ترك لهم حرية البت فيما اذا كان يستمر فى خطبته فصاحوا به أن استمر نصف ساعة وبعد زمن يسير كتب يقول انى أعد ما بقى من حياتى بالاسابيع لا بالأعوام

هذا وقد أنهك النزيف من الرئتين قواه غير أنه لم يفقده القدرة على القاء المحاضرات وسره اقتراح أحد أصدقائه أن يقام عليه وصى يحافظ على صحته ولـكنه لم يمتنع من العمل ما دامت فيه بقية من قوة

وفى يوم من أيام خريف عام ١٨٥٩ رجع من القاء محاضرة فى جامعة ادنبرا وهو يشكو فى جنبيه ألماً شديداً ولم يكد يقوى على أن يصعد السلم فأتى له بالطبيب فقرر انه مريض بذات الجنب والتهاب الرئتين ولم يستطع جسمه بعد ما أنهكه الضعف أن يقاوم مثل هذا المرض الشديد فاستراح الراحة التى تاق اليها كثيراً

أحسبت البكا يحلّ على الميْـ ت اذا كان موته للحيـاة

بعدهذا الجهادوالصبر والعز م حياةٌ جليـلة الآيات

ولربما كانت ترجمة جورج ولسن وقد روتها أخته رواية جمعت بين الابداع والمحبة من أجلّ ما حفظ التاريخ وأعجب ما دوّن فيه من حوادث الالم المصحوب بالمثابرة والجد فى العمل النافع وحيـاته شرح مسهب لمـا جاء فى رثائه صاحبه الاستاذ جُن رِيد اذ يقول

وكنت مدى الحياة أجل درس لتعليـم العزيمـة واليقـين

وأدهشت الجميع وأنت حيّ ويغبطك الجميع على المنون

جبلت على التواضع لا صغاراً ولم تك فى الخطوب بمستكين

وتحمـل ما تئن له الرواسى بلا صخب ولا شكوى حزين

الطبع

الطبع تسعة أعشار الدين

الاسقف ولسن

اذا بدا من شبابي شيء من الخشونة وأنا أعلم ان الشباب عرضة لمثل ذلك فاني لا أزال على مر الايام أصقل من تلك الخشونة الباطلة حتى يصير طبعي في شيخوختي في لين اوراق الشجر

سوذى

ليس للقوة نصف ما للطف من السلطان

لي هنت

قالوا للطباع مثل ما للمواهب العقلية من الأثر فى النجاح الدنيوى واذا كان ما قالوا موضعاً للنظر فما لا مشاحة فيه ان سعادة الانسان متوقفة على ما به من اعتدال فى المزاج وقوة على الصبر وقدرة على أن يملك نفسه تابعة لما فيه من رفق بمن حوله من الناس ومراعاة لهم ومن الصواب ماذهب اليه أفلاطون من اننا ونحن نعمل لما فيه الخير للناس نوفق لما فيه الخير لنا

من الناس من سبقت لهم السعادة فأوتوا القدرة على رؤية جانب الخير من كل ما يصادفهم فما من مصيبة وان جلّت الا ويستخلصون لانفسهم منها سلوًا وما من جو مكفهر الا ويلمحون فى ناحية من نواحيه شعاعاً تنبسط له أساريرهم حتى اذا ماحجبت الشمس عن أبصارهم فلا أقلّ من أن يطمئنوا الى انها لا تزال مشرقة وان حيل بينها وبينهم لحكمة فيها الخير لهم

أولئكم يغبطون على أن ركبت طبائعهم هذا التركيب السعيد، أولئكم فى احداقهم نور يلمع، نور سرور، نور فرح، نور دين، نور فلسفة أو ما شئتم أن تسموه، أولئكم يحيط النور بقلوبهم وتزين نفوسهم بألوانها الزاهية كل ما يحيط بهم واذا ما ثقلت اعباؤهم حملوها ووجوههم ضاحكة مستبشرة فلا يجزعون ولا يتذمرون ولا ينهكون قواهم فى ندم لا يجدى بل يسيرون فى طريقهم جادين جدّ اولى العزم ولا يفوتهم أن يلتقطوا ما قد

يكون من زهر فى طريقهم

ولا تحسبن أمثال من وصفنا ضعافاً قليلى الادراك فكبار الرجال وأبعدهم نظراً هم فى العادة اكثرهم بشراً وأشدهم محبة وأكبرهم أملا وأثبتهم يقيناً وليس أسرع الى لمح النور المعنوى فى نواحى الموقف المكفهر ممن أوتى الحكمة وبعد النظر فيرى فى الشر الواقع الخير المنتظر وفى ألم المرض معنى مجهود الفطرة تحاول استرداد العافية وفى البلوى الاصلاح والتهذيب ثم اذا ألم به ملم اكتسب منه عزماً وعرفاناً وتجارب حكمة

لما تضعضعت حال جِرِمى تيلر فنهبت داره واخرج أهله من ديارهم وصودرت موارد رزقه كتب عن نفسه يقول ارانى قد وقعت فى أيدى من لم يبقوا على شىء مما لى ثم ماذا بعد هذا انى أفكر فيما آل اليه أمرى وارجع الى نفسى فأراهم لم يسلبونى الشمس ولا القمر ولم يحرمونى زوجا تجمعنى واياها جامعة المحبة بل قد تركوا لى اخلاء عدة يرثون لى ويسرون عنى ثم ما زالت فىّ القدرة على القول والبحث ولم ينتزعوا منى اللهم الا ان انا شئت طلاقة المحيا ولا انبساط النفس ولا طهارة الذمة ثم عناية الله فوق متناولهم ولا سلطان لهم على دينى ولا على ما وعد الله به عباده من نعيم الآخرة بل لم يسلبونى احسانى اليهم ثم لا زال لى نصيبى من نوم هنىء وأكل طيب وشراب سائغ ولا زال لى حظى

من الدرس والتفكير وان امرأ يهيأ له هذا القدر من اسباب النعيم فيغمض دونه بصره وتعرض له هذه البواعث الكبرى على الفرح فينآى بجانبه عنها ويأبى الا أن يتخذ من بضع منغصاته مضجعاً نابياً انه لمتيّم غم وأليف تذمر[1]

والبشاشة وان كانت فى الاكثر خلقاً غريزياً قابلة لان تربى بالتعهد وتستفاد بالعادة والتدرب فان الرضى عن الحياة والسخط عليها داخلان فى دائرة أفعالنا الاختيارية واستخلاص النعيم والبؤس منها يرجع فى الاكثر الينا ذلك ان للحياة دائماً ناحيتين نيرة ومظلمة ولنا الخيار فى النظر وفى مقدورنا استخدام قوة الارادة فى الاختيار فان شئنا ربينا فى أنفسنا ملكة السعادة وان شئنا ربينا ملكة البؤس وفى استطاعتنا أن نقوى عادة النظر الى ناحية النور بدل النظر الى ناحية الظلمة ثم اذا ما تلبدت أمامنا الغيوم لم نغمض أبصارنا عما يتمشى فى حواشيها من النور

وان ما أشرنا اليه من النور فى الاحداق ليفيض على الحياة بجميع مظاهرها ، يفيض عليها رونقاً وجمالا ، يسطع ذلكم النور على الفتور فيحيي مواته وعلى الكرب فيفرجه وعلى الجهل فتنقشع سحبه وعلى الحزن فيبدله سلواً ، ذلكم النور فى الاحداق يصقل الذهن بل الجمال نفسه يزيد به بهاء ولولا ذلكم النور فى

(1) Jeremy Taylor's 'Holy Living'.

الاحداق ما أحس الانسان من الحياة بضياء ولا تمتع بثمر ولا أدرك لعجائب السموات والارض كنها ولأصبح الكون عنده قفراً وعراً

واذا كانت البشاشة مصدر النعيم فى الحياة فأنها أيضاً ضمانة كبرى لسلامة الاخلاق ، سئل احد الاتقياء من كتابنا بم نتقى وساوس الشيطان فقال بثلاث الاولى البشاشة والثانية البشاشة والثالثة البشاشة اه ولا غرو فهى خير تربة ينمو فيها الصلاح وتنبت الفضيلة ، هى التى تملأ القلب ضياء وتكسب النفس مرونة ، هى رفيق الاحسان ومنبع الصبر ورأس الحكمة ، هى خير مقو للنفس والعقل قال مرشـل هول لمريض كان يعالجه خير ما يرد اليك العافية ان تكون هشاً بشاً وقال سليمان البشاشة تنفع كما ينفع الدواء اه

وسئل لوثر عن دواء يشفى من الكآبة فقال خير ما يدرأ الاحزان عن الناس شيوخاً وشباناً الجذل وقوة العزم [1] وكان أحب الاشياء الى لوثر بعد الموسيقى ان لم يكن قبلها الاطفال والأزهار فأن الرجل على صلابته كان كالمرأة فى رقة قلبه [2]

---

(1) Michelet's 'Life of Luther' pp. 411-12.

(٢) الناقل : قال انس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان « باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام للمرحوم الشيخ حمزه فتح الله ص ٢٨ »

والبشاشة من أجل ما يعين على الجلد ويحول دون سرعة البلى حتى لقد قيل فيها انها للقلب الجو الصحو وللنفس منها وزن ونظام ، هى غناء وان خلت من الالفاظ ، هى أخت الراحة لانها تجدد للنفس نشاطها على حين ان الهم والتذمر يضعفانها لما يجران من البلى وانهاك القوى

ليت شعرى كيف أتيح لا مثال لورد بلمَرستُن ان يظل الى سن الشيخوخه تحت نير العمل يحمل اثقاله الى أواخر أيامه ويؤديه اداء من لم تفتر له همة ولم ين له عزم ، لا مراء فى ان ذلك يرجع غالباً الى ماكان فيه من هدو المزاج وملكة البشاشة ، أولئكم انما دربوا نفوسهم على الجلد وعودوها ان لا تكون سريعة التهيج وربوا فيها ملكة الصبر والحلم فلا يضطربون لما يصوب اليهم من قول جارح أو يلصق بهم من تهم باطلة ولا يحملون من تافه الهموم ما يهلكهم أسى ، ولقد روى صديق حميم للورد بلمرستن لازمه عشرين عاما انه لم ير اللورد مغضباً الا مرة واحدة لما اتهمت وزارته بمناسبة النكبة فى الافغان بالكذب ونقض الميثاق والتلاعب بالرسمى من الاوراق

وفحول العبقريين على مانعلم من تراجمهم كانوا فى الغالب من ذوى البشاشة والرضى والقناعة فلم يكونوا من الجادين وراء

الصيت ولا الثروة ولا النفوذ بل كانوا قابلين للتنعم يستلذون الحياة ويستمرئونها وأثر ذلكم كله ظاهر في مؤلفاتهم فهكذا على ما يظهر لنا كان هُمِيروس وهُراس وفرجيل ومُنتَني وشكسبير وسرفَنت لانا نرى البشاشة تبدو سليمة مطمئنة فيما أنتجته قرائحهم من العوالم الكبيرة وقد نعد من قبيل أولئكم الذين تحلت نفوسهم بالبشاشة لوثَر ومور وبيكُن ودَفنسي ورفائيل وآنجلو ولعل سبب بشاشتهم وسعادتهم كثرة اشتغالهم بأطيب الاعمال أعني اخراج المبتكرات من كنوز عقولهم الكبيرة

وانه ليخيل الينا ان مِلتُن كان ذا نصيب وافر من البشاشة وعلى جانب عظيم من مرونة الطبع فانه وان كف بصره وهجره صحبه وتجهم له دهره وصار ما بين حلكة تقدمه وخطر بصوته المنكر يشيعه لم ين له عزم ولم ينقص رجاء في فرج بل تجلد ومضى في سبيلة قدما وكذلكم هِنرى فيلدِنج احتمله تيار الحياة الجارف الى حيث أثقله الدين وانتابته الشدائد واستولى على بدنه السقم وهو الذى تقول فيه ميرى ورتلى مُنتيجو انها أميل الى الاعتقاد بانه حظي من بسمات الدنيا بما لم يحظ به انسان سواه وما ذلكم الا بفضل ما ركب فيه من البشاشة

وكان جُنسُن من اولى العزم والبشاشة وهو مع الدهر في

حرب عوان تنتابه الشدائد ولا تكف عنه المحن فرضي عن الحياة رضا تمثلت فيه الشهامة ولم يأل جهداً في توطين نفسه عليها وحملها على أن تعيش فيها عيش فرح وجذل عرف ذلك منه معاشروه فقد علمنا فيما وصل الينا من أخباره ان قسيساً شكا في حضرته من عيشة الريف وخمولها وان أهله لا حديث لهم سوى العجول وكان في المجلس سيدة فقالت للقسيس يا مولاي ان الاستاذ جنسن ليحب أن يتعلم التحدث في العجول تمنى انه رجل يرضى عن موقفه وينتفع به كائناً ما كان ولقد قيل ان الاستاذ عد ذلك الرأي فيه مما يغبط عليه

وكان جنسن يرى أن الانسان يتحسن مع الزمن وانه كلما تقدم في السن لان طبعه ونضج وهذا الرأي في الطبيعة البشرية أقرب الى البشاشة من رأي لورد تشسترفلد فانه كان ينظر الى الحياة بعين الناقم عليها حتى ذهب الى أن سن المرء لا أثر لها في تحسين حالة نفسه وان قلبه لا يزداد مع الزمن الا صلابة وعندنا ان كلا الرأيين صواب على حسب الوجهة التي ينظر منها الى الحياة وعلى حسب المزاج الغالب على الناظر فالصالحون يزدادون صلاحاً لما يستفيدون من التجارب وما يروضون نفوسهم عليه من الضبط على حين أن الطالحين الذين لا تؤثر فيهم التجارب لا يزدادون مع الزمن الا سوء حال

وكانت نفس سير وُلتَر سكُت تفيض بما احتوت من طيبات الجنان لم يره مخلوق الا أحبه وكان من مزاياه انه لم يكد يستقر به المقام فى بيت ما الا وبدت لكل من فيه من ناطق وصامت شفقته عليهم وحنينه اليهم ولقد روى سكت لبيزِل هول حادثة من حوادث صباه تدل على ما ركب فى طبعه من الرقة قال انه رأى كلباً مقبلا عليه فرماه بحجر كبير فكسر رجله ومع هذا بقى فى الكلب من القوة مابه استطاع ان يزحف الى راميه ثم جعل يلحس رجليه قال راوى الحادثة عن نفسه انه مافتىء بعدها يندم على فعلته ثم علق عليها قال ان حادثة من هذا القبيل تصادف الانسان فى صباه اذا أحسن التفكير فيها والاتعاظ بها تركت لا محالة أحسن الاثر فى اخلاقه ما دام حياً

وكان سكُت يقول من لى بالضاحك يضحك من أعماق نفسه ولا غرو فقد كان هو ممن يضحكون الضحك من أعماق نفوسهم، كان ينفح كل من صادفه كلمة طيبة وكان عطفه على الناس يبعث فيمن حوله فيبعد ما قد يستشعرون فى حضرته من الهيبة والخشية قال حارس اطلال دير ملروز لوُشنجتُن ارفنج كان «يريد سكت» يأتى فى بعض الاحيان ومعه من كبار الرجال فاول ما اعرف من قدومه صوته وهو ينادينى باسمى حتى اذا ما خرجت اليه حيانى لا محالة بفكاهة أو كلمة طيبة ثم وقف معى ومازحنى

وضاحكني وناهيك بذلك من رجل علمه بالتاريخ غزير

ومن قبيل هؤلاء في التودد الاستاذ أرنلد فقد كان رجلا ملؤه العطف والحنان لا تشوب أخلاقه شائبة من تصنع ولا تظهر في وداعته شية من دعوى التنازل قال فيه كاتب الابرشية في للهم ماعرفت امرأ بلغ مبلغ الاستاذ من التواضع فانه يسلم علينا يداً بيد كأنه واحد منا وقالت عجوز في جيرة «نكس هاو» كان يدخل عليّ ويكلمني كما تكلم كبرى السيدات

ومن الذين تمثلت فيهم قوة البشاشة سدني سميت وكان من دأبه أن يظن بالامور خيراً فلا يفوته أن يرى في حالك السحب ما يتمشى في حواشيها من نور يلمع وكان وهو نائب خوري وخوري شفيقاً عميلا صبوراً مثالا للكمال لا يسلك سبيلا من سبل الحياة الا تبدت منه روح المؤمن وشفقة التقي وشرف الانسان ثم كان في أوقات فراغه يعمل قلمه في الدفاع عن العدل والحرية وفي النضال عن التربية والتسامح ولا ينزل فيما يكتب الى مستوى السوقة على ما به من حلو الفكاهة ولم تؤخذ عليه مداهنة ولا ميل مع هوى. وبفضل بشاشته وقوة بنيته لم يفته قط حلو فكاهته ولما أتى عليه المرض في شيخوخته كتب الى صديق له يقول بي النقرس والربو وسبعة أمراض أخر أما فيما عدا ذلك فانا على ما يرام وفي رسالة من اخريات رسائله الى السيدة كرلَيل كتب يقول اذا بلغك انه

ستة عشر أو ثمانية عشر رطلا من لحم تتطلب صاحبها فاعلمى أنها لى

ولقد كان فحول المتضلعين من العلوم الكونية فى الغالب ذوى صبر وكد وبشاشة فكذلكم كان جِلِليُو ودِكَرت ونيوتُن ولَبلاس ومن أظهر الأمثلة على ذلكم يُلر الرياضى وهو من أكبر فلاسفة العلوم الكونية فقد كف بصره فى أواخر أيامه ومع هذا لبث يؤلف هشًا بشًا وأغناه عن بصره حيل آليّة غاية فى الأبداع وزيادةٌ فى قوة ذاكرته فقد وصلت الى غاية من القوة ليس وراءها غاية وكان أحب شىء اليه أن يكون بين أحفاده يعلمهم بسائط العلم خلال اشتغاله بمعضلاته

ومثله فى ذلكم الاستاذ رُبِسَن أول المشتغلين بدائرة المعارف البريطانية كان وقد أقعده عن العمل طويل المرض شديده لا يلذ له شىء كأن يكون مع حفيده فقد كتب الى جيمس وَت يقول إنى لأطير فرحاً بمباشرتى نمو نفسه وبمشاعره التى لا تكاد تعرف لها نهاية وكانت من قبل تمر بى دون أن أفطن لها وانى لأشكر للباحثين من الفرنسيين فانهم هم الذين دفعوا بى الى التيقظ لقدرة الله وفعلها فيه وانى لألمحها فى كل حركة من حركاته غير المألوفة وفى كل نزعة من نزعاته الغريبة بل انى لأرى فيهم أجمعين حسن القيام على حياته ونشأته وقوته ولعمرى انى

لشديد الجزع من أنى لا يتيسر لى زمن أتفرغ فيه كل التفرغ للبحث فى الطفولة وما يطرأ عليها من التطور

وما رأينا فيما عرفنا محكا للطبع والصبر كنكبة نزلت بالفيلسوف السكونى أبزى أيام اقامته بجنيف وهى نكبة تشبه فى كثير من الوجوه فاجعة فجع بها نيوتن فلم يجزع بل صبر لها صبر أبزى ذلكم أن أبزى كان يبحث كثيراً فى البرُمتر وتقلباته لكيما يستنبط النواميس العامة التى يسير عليها الضغط الجوى فلبث سبعة وعشرين عاماً يرقب البرُمتر مرات عدة كل يوم ويدون ما يرى على أوراق أعدها لذلك وحدث يوماً أن جاءت الى بيته خادمة جديدة فما عتمت أن أخذت تظهر حميتها للعمل بتقويم المعوج وتعديل المائل فنظفت ونظمت مكتب سيدها كما فعلت مثل ذلك بسائر حجر البيت ولما عاد رب البيت الى مكتبه قال لخادمته ماذا فعلت بما كان حول البرمتر من الأوراق قالت يا مولاى رأيته قد اتسخ فأحرقته واستبدلت به هذا الورق وهو كما يرى سيدى جديد لا غبار عليه فلما فرغت من قولها وضع أبزى ذراعيه على صدره وبعد هنيهة غلت أثناءها مراجل الغضب فى نفسه قال بصوت المطمئن المستسلم لقد أتيتِ على ثمرة كدى سبعة وعشرين عاماً فلا تمسى بعد اليوم شيئاً مما فى هذه الحجرة

وانى لأحسب دراسة التاريخ الطبيعى يصحب المشتغلين بها

من البشاشة واعتدال المزاج ما لا يصحب المشتغلين بغيرها من العلوم الكونية ولعل من أثر ذلك أن علماء التاريخ الطبيعي على وجه الاجمال أطول أعماراً من سواهم من علماء الكون فقد روى لنا أحد أعضاء الجمعية اللّينيّة أن اثنين من أربعة عشر عضواً ماتوا عام ١٨٧٠ كانا قد نيفا على التسعين وكان متوسط عمر الأعضاء الذين ماتوا ذلك العام خمسة وسبعين عاماً

وكان آدَنسُن النباتي الفرنسي يناهز السبعين أيام أن تأججت نار الثورة الفرنسية ثم ضاع كل ما كان يملك لما زلزلت فرنسا زلزالها ففقد ماله وعقاره لكن صبره لم يخنه ولا عزيمته ثم اشتد به الضيق والضنك وأعوزه حتى المأكل والملبس فلم ينل ذلك كله من حميته فى البحث والتنقيب ، دعاه مجلس المعارف الى حضور جلسة من جلساته لكونه من أقدم أعضائه فاعتذر عن الذهاب بأن لا نعل له يقول كُفييه لقد كان مما يؤثر فى النفس تأثيراً عجيباً أن يرى الرجل وهو شيخ مكباً على نار ضئيلة تحاول يده على ضعفها أن تخط شيئاً على قصاصة ورق وينسيه مرارة العيش رأى فى التاريخ الطبيعي مبتكر عرض له فكأنه لم يعرض الا ليؤنس وحشته اهـ ثم هدى الله الادارة ففرضت له ما يعيش به وجاء نابليون ففرض له ضعف ما فرضت وجاء بعد ذلك الموت المريح لنجدته وهو فى التاسعة والسبعين وفى وصيته ما

يبين كنه خلقه فانه أوصى بأن لا يزين تابوته شيء من أدوات
الزينة سوى اطار من الازهار يكوّن من الثمان والخمسين فصيلة
التي كان هو المهتدي اليها ليكون ذلك على ضآلته رمزاً مؤثراً
لما شاد لنفسه من أثر خالد

وما أولئكم الذين ضربناهم مثلا للبشاشة الا قليل من كثير
ممن يصح الاستشهاد بهم فان البشاشة والأمل من صفات كل من
كان رحب النفس سليمها ومن خواص من كانوا كذلك انتقال
ذلك الخلق منهم الى من حولهم وانتشاره فيهم انتشاراً ينعشهم ،
قيل في سيرجُن مَلكُلم أنه كان اذا حل في معسكر من معسكرات
الهند قد نزل به ما يحزنه أثر وجوده فيه كما يؤثر نور الشمس فلم
يفصل من عنده أحد الا باسما ذلكم لأنه كان محالا أن لا يتأثر
من في حضرته بما في مجلسه من بشر يأخذ بمجامع القلوب(١)

وكان في طبع إدمَند بِرك مثل ما قدمنا من خلق الفرح
فقد وصل الينا من أخباره أنه كان قد دعي الى طعام عند سير
جُشيوا رِنلدس فلما أفضى بهم الحديث الى صنوف الخمر وما
يلائمها من مختلف الأمزجة قال جُنسُن عندي أن الكلَرت للشبان
والبورت للرجال والبرَندي للأبطال فلما سمع ذلك برك قال اذن
عليَّ بالكلَرت فاني أحب أن أكون شاباً وأن أنعم بما يكون في

(1) Sir John Kaye's 'Lives of Indian Officers.'

ايام الشباب من لهو لا تشوبه شائبة من هم أو عناء اه والواقع أن من الشبان من هم الى الشيوخ أقرب ومن الشيوخ من هم بالشبان أشبه نعم من الناس من هم فى الشيخوخة أشبه بالشبان فرحاً وبشاشة ومنهم من هم على الرغم من صباهم لا يقلون كآبة عن الشيوخ الذين قد حيل بينهم وبين الفرح

ولقد ضمّنا وطائفة من أولئكم الشبان الذين حالفوا التبرم والكآبة مجلس فيه شيخ من ذوى البشاشة فسمعناه يقول كأنى بنا على أبواب عهد لا نرى فيه الا شباناً شيوخاً اه ومحال أن تكون البشاشة من خلق أولئكم الذين يحالفون الكآبة والتبرم فهى بما تستلزمه من كرم وانبساط فى النفس واخلاص وجذل فى القلب منافية لطباعهم ولقدكان جُيتى يقول عن هؤلاء الجدّيين المغالين وددت لو أنهم يجرءون على ارتكاب حماقة كان يقول ذلك وهو يرى فيهم أنهم تنقصهم الحمية والحماسة الفطرية وكان يقول انهم أصنام جميلة ثم يولى مدبراً

والبشاشة انما يؤسس بنيانها على المحبة والأمل والصبر فان المحبة تبعث المحبة وتولد الرأفة وتربى حسن الظن بالناس فهى داعية البر والرقة والاخلاص والهادية الى الخير المتجهة الى جوانبه من الامور ولا يزال صاحبها مولياً وجهه شطر السعادة وهى ترى كما قيل ما فى النبت من جلال وما على الزهر من ضياء

وتعين على السعادة وتعيش فى جو من البشاشة ، نعم انها لا تكاد
تكلف صاحبها شيئاً ولكنها مع ذلكم اكبر من أن يعدلها شىء
ذلكم لأنها لصاحبها بركة وفى صدور غيره من الناس شجرة طيبة
تثمر من السعادة شيئاً كثيراً حتى آلامها بالسرور متصلة
ودموعها حلوة

من القواعد المقررة عند بنتم أن سرور الانسان يزداد
بنسبة ما يعود على الناس منه فان شفقته تبعث الشفقة وسعادته
تزداد بما يبذل من خير وفى هذا المعنى يقول لا تكلف الكلمة
الطيبة اكثر مما تكلف الخبيثة وعن الكلمة الطيبة يصدر صالح
الاعمال وليس ذلك الأثر مقصورا على من تلقى اليه بل هو
وقائلها فى ذلكم سواء ولا يكون هذا الاثر مصادفة ولا اتفاقاً
بل عادة الى أن قال نعم قد يتفق أن يخطىء الخير من قصد ايصاله
اليه فلا ينتفع به ولكنه متى استعملت الحكمة فى توجيهه ينفع
فاعله لا محالة هذا وقد يقابل حسن المعاملة بما لا يليق من الكفران
ولكن الكفران من المنتفع لا يذهب بما يعود على من نفعه
من المكافأة بسبب ما يجد من الرضى عن نفسه وفى مقدورنا
أن نبذر بذور الدعة والرفق فيما يحيط بنا لا نكاد نكلف فى
سبيل ذلك عناء ولا بد لبعض ما يبذر من أن يصادف من
نفوس الناس تربة صالحة فينمو خيراً أما فى نفس من بذر فالبذر

كله لا بعضه مثمر فيهـا ثمر السعادة فللفضائل أجر دائمـاً وقد يكون لها أجران (1)

وللشاعر رُوجرز حكاية عن صبية لم يعرفها أحد الا ألفها قال سئلت لم يحبك كل من رآك حباً جماً فقالت احسب ذلك لأنى احب كل من رآنى حباً جماً اه هذه قصة على بساطتها قابلة لأن يتوسع فيها فان سعادتنا متناسـبة عادة مع عدد من نحب ومن هو لنا محب هذا ولا نرى فى النجاح الدنيوى وان كان السبيل اليه شريفاً الا قليلا من الأثر فى توفير أسباب السعادة ما لم يكن صاحبه على جانب عظيم من الاحسان الى الناس

ولا مراء فى ان الرفق من القوى الكبرى فى الحياة وانا لنرى لي هنت محقاً فى قوله ليس للقوة نصف ما للطف من السلطان اه فان الناس انما يتوصل الى اخضاعهم عن طريق ميولهم القلبية وفى الامثال الفرنسية انما يستعبد الانسان بالاحسان ومن قبيله وان خشن المثل الانجليزى يقع من الزنابير فى العسل اكثر مما يقع فى الخل اه ويقول بنتم ان الرفق الا نفوذ وذخر من الصداقة مكنوز ولم لا يستخدم النفوذ فى ايجاد السرور بدل أن يستخدم فى خلق الألم

ليس الاحسـان فى العطايا بل فى اللطف وكرم النفس وقد

---

(1) 'Deontology' pp. 130—1, 144.

يجود الرجل بماله يخرجه من جيبه ثم يضن بالاحسان يبعثه من قلبه وليس الاحسان يبذل المال بالشيء الكثير بل قد يصحبه من الشر بقدر ما يصحبه من الخير أما الاحسان الذى لا يفارق الخير عاقبته فالاحسان من طريق العطف الصحيح والمعونة الحقة

ولا تلتبسنّ الطيبة التى مظهرها الاحسان بالبله أو السذاجة فان تلكم الطيبة فى أجل مظاهرها ليست من حالات الحياة الجامدة بل من حالاتها الحيـة العاملة فلا تكون أثراً من آثار التواكل وعدم الاكتراث بل مظهراً كبيراً من مظاهر العطف والحنان ولا تتمثل فيها ادنى حالات الحياة الانسانية واحطها نموا بل أعلاها وارقاها نظاماً ، انما الاحسان قوة من شأنها أن تحرك وترقى فى صاحبها كل الوسائل الرشيدة لعمل الخير هذا فى الحال أما فى المآل فلا يزال من اثرها تمشى تلك الروح وانبعاثها فى السير نحو تحقيق المرجو من ترقية الجنس البشرى وتوفير سعادته

والذين ركب الاحسان فى طباعهم هم رجال العالم العاملون أما المستأثرون والمشككون الذين لا يعرفون الحب لغير انفسهم فهم العاطلون ومن رأى بُـفـَن أن لا خير فى الشاب يبدأ حياته وهو لا يعرف للتحمس معنى فان أقل ما فى تحمس الشاب ما فيه من معنى الاعتقاد بشيء فيه أثر للخير أو الجلال أو كرم الطباع ولو لم يكن الى الوصول اليه سبيل اما الاستئثار والتشكك فمن

شر ما يتخذه الانسان رفيقاً له فى الحياة وهما اكثر ما يكونان منافاة للفطرة فى الشباب ، الا وأن المستأثر أخو المتعصب لا يزال بنفسه مشغولا حتى ينسى الناس وشئونهم فلا يطرق موضوعا الا ويشير الى نفسه ولا يفكر الا فى نفسه ولا يبحث الا فى نفسه حتى تصير نفسه الحقيرة معبوده الحقير

ومن شر الناس المتذمرون الناقمون على الحظ الذين يرون كل ما فى العالم فساداً ثم لا يعملون على اصلاحه والذين يرون كل شيء فى الدنيا خلوا من الخير أولئكم أقل الناس عونا على الحياة وكما أن شر العملة اسبقهم الى الاضراب فاقل العاملين من أعضاء المجتمع اسبقهم الى الشكوى وشر البكر ما يسمع له صوت

ومن الناس من يهيمون بالتذمر حتى يموت فيهم الاحساس والمرضى باليرقان يصفر فى وجههم كل ما يحيط بهم والمضطربون يحسبون كل شيء معوجا ويرون العالم كله مضطربا فكل شيء عندهم باطل محرج وفى الحياة نظير الصبية الخيالية فى بَنْش تلكم التى رأت عروسها محشوة قشاً فقالت بتجوف كل شيء وهمت باعتناق الرهبانية ومن الناس من لا يقلون عن تلكم الفتاة ضعفاً فى الحكم كانهم يتلذذون بالضعف حتى لتحسبهم يرونه نوعا ما من أنواع المتاع ولا يزالون يقولون رأسي وظهرى وما شا كلهما حتى يصير ذلك خير مايملكون ولعلهم يجدون فى الشكوى

مبعثاً للعطف عليهم اذا عدموه لم يبق لهم فى الدنيا شأن

فلا بد لنـا من ان نتقى تافه القلاقل التى يخشى ان تكبر فى نظرنا اذا ما نحن عملنا على انمائها والذى لا مرية فيه أن أكبر منابع الهم فى الحيـاة شر خيالى من نحو منغص حقير وكرب تافه فان المصاب اذا عظم تلاشت أمامه القلاقل الحقيرة غير أننـا قابلون لان نتخذ من المنغصات ابنا نضمه الى صدورنا ولا يزال لدينا مرفها مدللا حتى ينمو ويشتد وقد يكون من مختلقات الخيال ولكننا نغفل ما قد يكون مهيأ لنا من وسائل السعادة فلا نزال فى تسامح مع ذاك الابن الفاسد حتى يتحكم فينا ، نغلق أبوابنا دون البشاشة ونحوط أنفسنا بالكدر و نصبغ حياتنا بصبغته فلا نلبث أن نصير عبيـداً للتذمر والانفعال خلوا من العطف والحنان ثم يصبح حديثنا وملوءه الاسف وحكمنا على الناس وملوءه القسوة ، نصبح نافرين ونحسب غيرنا النافر ونتخذ من صدورنا مستودعا للآلام نقذف بها على أنفسنا وعلى الناس

هذا طبع يشاهد عليه الاستئثار بل هو فى الغالب استئثار محض لا يمتزج به شيء من العطف ولا الاعتداد بالذى فيمن حولنا من احساس ، بل هو خلق معكوس عمداً أقول عمداً لأن تجنبه ميسور وليقل الجبريون ما شاءوا فاننا نرى حرية الارادة والعمل

ملكا للانسان يتصرف فيه كيف شاء وهذه الحرية منبع للمجد أحياناً ومنشأ للعار كثيراً ، يتوقف ذلك على كيفية استخدامنا اياها فلنا أن نرضى عن الحياة ولنا أن نسخط عليها ولنا أن نتمسك بما صلح من الافكار وننبذ منها ما فسد ولنا أن نوجه أفكارنا وميولنا وجهة الهدى أو الضلال على حسب ما تقتضيه ارادتنا فالدنيا لكل منا متكيفة بالشكل الذى يريده وأهلها هم الباشون فانها لمن يتمتع بها

على أننا لا نجد بداً من الاعتراف بأن من حالات النفس ما لا تصل اليه يد الاخلاق ، شكا مريض قد أنهكه المرض سوء حاله الى طبيب فقال الطبيب لا أراك محتاجاً الا الى ضحكة من أعماق قلبك فعليك بجِرِمَلدى قال المريض يا أسفا علىّ أنا هوه ولما ثقلت على سمُلِيت وطأة المرض وتنقل فى أوربا يلتمس الشفاء كان لا يرى شيئاً الا مصبوغاً بلون عينيه وقد فعل فيها اليرقان

واعلم أن فى الطبع الجامح القلق المتذمر المستعد للتهافت على الهم ومقابلته فى نصف الطريق اليه القضاءَ على السعادة وهدو البال ولطالما نرى الناس من رجال ونساء وكأنهم من أجسامهم فى شوك فلا يكاد أحد يقوى على الاقتراب منهم خشية أن يصيبه أذى من شوكهم وفى المجتمع الانسانى قدر من الشقاء عظيم سببه عوز قدر من ضبط الطبع يسير يقلب رغد العيش مراً

ويجعل الحياة أشبه بسفر ينتعل فيه الشوك قال رتشرد شارب مسلم أن تافه الشر كضئيل الحشرات قد يسبب من الالم شيئاً كثيراً وأن الشعرة قد تعطل الآلة الضخمة مسلم هذا ولكن السر فى الراحة أن لا نمكن سفساف الامور من تنغيصنا وأن نخلق من حكمتنا مجموعة من صغائر الامور السارة ما دام التمتع طويلا بالعظائم لا تهيأ أسبابه الا نادراً [1]

ولسن فرنسس دسال نظرة فى هذا الموضوع من الوجهة الدينية قال ما أحوجنا الى الحرص على الفضائل الصغيرة التى تنبت تحت الصليب ولما سئل أى الفضائل يعنى قال الانكسار والصبر والوداعة والرفق والتعاون والتواضع ورقة القلب والبشاشة والاخلاص والرحمة والعفو عن الاساءة والبساطة وصفاء النية وكل ما الى هذه من الفضائل الصغيرة التى هى كالبنفسج تحب الظل وتقوى بالندى والتى ظهورها كظهور البنفسج ضئيل وان كانت تفيض على كل من حولها رائحة زكية اهـ[2] ويقول ان كنتم ولا بد متطرفين فليكن تطرفكم الى جانب الرفق فان النفوس البشرية طبعت على مقاومة العنف والخضوع للين والكلمة اللينة تكسر سورة الغضب كما يطفئ الماء اللهب

---

(1) 'Letters & Essays', p. 67

(2) Beauties of St. Francis de Sales

وبالرحمة يحيـا الموات وكلمة الحق إما صب جمر على الرأس واما رمى ورد فى الوجه وكيف يقاوم عدو سلاحه اللؤلؤ والماس (١)

ألا وانا لا تتغلب على الشر بتوقعه واذا ما أبينـا الا حمل أثقالنا معنا أينما سرنا فسرعان ما ننوء تحتها نعم اذا نزل المـكروه وجب أن ننظر فى أمره نظرة ملؤها الشهامة والأمل ومن النصائح القيمة ما كتب برتس الى شاب رآه ممن يميل الى المغالاة فى احتضان تافه الآلام قال أقدم وملؤك الأمل والثقة تلك نصيحة شيخ حمل قسطه من أثقال الحياة واعلم أن علينا أن ننصب قاماتنا وليكن ما يكون ولهذا وجب أن نستسلم مستبشرين الى ما لهذه الحياة المختلفة الألوان من المؤثرات المتعددة الأشكال والأجناس ، قد ترى فى ذلك خفة ونزقاً وفيما ترى شية من الحق ولـكن هذه الخفة ركن من أركان الطبيعة البشرية ولولاها لناءت بحمل الحياة وما دمنا على الأرض فلا بد لنا من أن نلعب بالأرض وبما يونع ويذبل على سطحها ولا ينافى أن نمرح بها ونلعب علمنا أن هذه الدنيا الفانية مرقاة الى ما هو خير منها وأبقى فان لم تفعل قضى على ما فينا من الهمة (٢)

---

(1) Beauties of St. Francis de Sales.

(2) 'Life of Perthes', ii. 449.

ومن ملازمات البشاشة الصبر وهو أصل من أصول السعادة وركن من أركان النجاح فى الحياة قال جورج هربرت من شاء أن يسود فليصبر وقيل فى الملك ألفرد كان بشاً صابراً كأن الله آتاه السعد يلازمه وكان مرلبرا ممن أوتوا نصيباً وافراً من فضيلة الصبر فكانت من الاسرار الكبرى فى نجاحه فى قيادة الجند ، كتب الى جُدُلفن عام ١٧٠٢ يقول الصبر يتغلب على كل عقبة وفى أزمة من الازمات فيها انقلب عليه حلفاؤه قال أما وقد بذلنا جهد المستطاع فلم يبق الا أن نستسلم صابرين اه

وآخر النعم وأكبرها الامل أكثر الملك شيوعا قال حكيم حتى من لا يملك شيئاً يملك الامل اه والامل عون المعدم حتى لقد قالوا فيه أنه قوت الفقير اه وهو أيضاً ملاك جلائل الاعمال والموحى بها روى عن الاسكندر الأكبر أنه لما ولى ملك مقدُنيا فرق على اخلائه جل ما آل اليه من ضياع أبيه ولما سأله بردِكاس ماذا أبقى لنفسه قال أكبر ملك ، الامل

هذا وان ما فى الذكر من لذة وان عظمت لفاتر اذا قورن بلذة الامل فالامل أصل كل مجهود ، وكلٌّ موهبة كريمة الاصل يمدها الامل بروح دائم فهو الآلة المعنوية التى تحرك العالم وتبقيه حياً ولنا وراء كل شيء ما يسميه رُبَرتسَن الالٰهى الامل الاكبر

قال بَيرُن ماذا عسى أن يكون المستقبل لولا الامل ، أنه لا يكون الا سعيراً ومن العبث ان نبحث فى مقر الحاضر فجلنا يعلمه أما الماضى فالسائد فى الذكر منه رجاء خائب اذن لم يبق ما يركن اليه فى كل أمور البشر سوى الأمل[1]

---

(1) Moor's 'Life of Byron,' 8 vo Ed., p. 483.

أدب المعاملة - الفنون الجميلة

لا بد من اللطف حتى يكون الانسان انساناً

شكسبير

ليس حسن الادب عبثاً باطلا بل هو ثمر الاخلاص والطبع الكريم

تنيسن

جمال الاعمال فوق جمال الاشكال ، يبعث فى النفس ارتياحاً دونه الارتياح للصور والتماثيل ، فهو أجمل الجميل من الفنون

إمرسن

ما أكثر ما يهمل حسن الادب على ضرورة حاجة الناس اليه من رجال ونساء ، الاوان الحياة لأقصر من أن تسمح بالتخلص من نقيصة أدبية ، هذا والآداب صور الفضائل

سدنى سميث

حسن الأدب من أكبر المحاسن الظاهرية للأخلاق ، حسن الادب حلية الاعمال فلقد يزين أبسطها بكيفية أدائها وبه من حسن تناول الامور ما يحلى دقائق الحيـاة فيجعل العيشة طيبة راضية

لسنا نرى الادب من التفاهة والحقارة بحيث يراه بعضهم فانا نجد فيه عوناً على الحيـاة يمهد من شئونها ويسهل فيها سبل المخالطة ويحلى المعاشرة قال الاسقف مِدلتُن ان الفضيلة نفسها لمنفرة اذا هى اقترنت بسوء الادب اه وللادب دخل كبير فيما يكون للانسان بين الناس من مقام بل قد يكون فى سياسة الناس أفعل من مواهب أمتن منه جوهراً وأبعد غوراً ومن خير وسائل النجح أدب يجمع بين الاخلاص واللطف وان قوماً وكثير ما هم لتحبط أعمالهم لما يعوزهم من الادب [1] ألا ترى أن شيئاً كثيراً يتوقف على الآثار الاولى فى النفس وان هـذه انما تروقنا أولا تبعاً لادب من نلقى وحسن لقائه

---

(١) ذهب لك الى ان الادب وحسن الخلق فى المربى أكبر شأناً من ان يكون عالما جد عالم ، كتب الى « لورد بيتربرا » بشأن تربية ابنه قال تأبون الا ان يكون معلم ابنكم عالما محققا ولكنى لا يعنينى ان يكون عالما أو غير عالم وحسبى منه أن يجيد اللاتينى وان يكون على شىء من العلم بالعلوم الكونية وانما الذى اخشه ان يكون مؤدبا حسن الخلق اه

واذا كانت الفظاظة تسد المسالك وتقبض القلب فان الرفق وحسن المعاملة وفيهما ينحصر الادب تفعلان فعل الرقى ، تفتح لهما أبواب القلوب فيحل صاحبها فيها بلا استئذان ، قالوا الآداب تكوّن الانسان ولكن قد يكون أكثر امعاناً فى الصدق أن يقال الانسان يكوّن الآداب نعم قد يكون الانسان خشناً بل فظاً على سلامة قلبه وقويم أخلاقه ولكنه لا ريب أحب الى الناس وأنفع لهم اذا كان على شىء من لين الجانب وحسن الأدب فانهما للانسان كمال على كماله

فى ذلك الوصف البديع الذى صورت فيه امرأة هتشنسن بعلها أجلّ تصوير وقد أشرنا اليه من قبل تعرضت لبيان تواضعه وأدبه المتمثلة فيه الشهامة قالت لست أدرى أكان كبير الاباء أم قليل الكبرياء فما عرفته قط للصغير محتقراً ولا للكبير متملقاً بل كان لأصغر الناس منه مؤدب حلو الحفاوة مقبولها ولقد كان يقضى الكثير من أويقات فراغه بين أبسط الجند وأفقر العمال وهو مع هذا يرتب الفته لديهم بحيث لا تصل بهم الى درجة احتقارهم اياه بل يبقى له فى قلوبهم مع تلك الألفة الاجلال والمحبة (1)

ان أدب الانسان ليدل بعض الدلالة على أخلاقه لانه العنوان

(1) Mrs. Hutchinson's 'Memoir of the Life of Lieut.-Colonel Hutchinson', p. 32.

الظاهرى لباطن فطرته العنوان الذى تستبين منه ذوقه وميوله وطبعه ومن اعتاد مخالطتهـم ومن الادب ما هو صناعى وليس بشىء يذكر أما الادب الذى يدل على الشىء الكثير فالادب الفطرى خلاصة المواهب الغريزية قد هذبها التثقف المكتسب

جمال الادب نفثة من نفثات الاحساس والاحساس منهل تجد فيه النفوس الكاملة ما شاءت من لذة فهو على هذا الاعتبار لا يكاد يقل شأناً عن المواهب الفطرية والمزايا المكتسبة بل قد يكون أقوى منهما أثراً فى تهيئة الاذواق وتكييف الاخلاق ذلكم لأن الاحساس يفتح لصاحبه قلوب الناس وليس أثره فى صاحبه هدايته سبل الآدب والظرف فحسب بل هو يكسبه رأياً ثاقباً ويكشف له عن أسرار الحكمة ويقرب أن يعد أبهج حلى الآدمية

أما قواعد الادب الصناعية فضئيلة الفائدة وما الذى يسمونه رسوم الادب الا سوء أدب وعدم اخلاص فى الغالب فما جل تلكم الرسوم الا تصنع يشف عما وراءه وخير ما فيها لا يتعدى أن يكون بديلا من حسن الادب على أنها فى الاغلب لا تكون الا أدباً زائفاً

قالوا فى الادب انه فن به يظهر الانسان بعلامات خارجيـة ما يبطن للناس من رعاية ولكنا نرى ممكناً أن يكون المرء فى

معاملته الناس غاية فى الادب دون أن يكون لهم فى نفسه اعتبار فليس اللطف اذن الا جمال المسلك لا يزيد ولا ينقص وحسن ما قيل من أن جمال الاعمال فوق جمال الاشكال يبعث فى النفس ارتياحاً دونه الارتياح للصور والتماثيل فهو أجمل الجميل من الفنون

أما الادب الصحيح فمن الاخلاص ولا بد من أن يكون مصدره القلب والا فأثره زائل اذ لا يغنى عن الاخلاص الرياء وان كثر ولا بد من أن يترك الخلق الفطرى حراً يبدو طلقاً خالياً من كل تكلف ، نعم خير الادب ما كان على رأى سَن فرَنسيس دِسال كالماءأجوده أصفاه وأبسطه وأخلاه من كل طعم ولكن لا بد من التسامح مع الفحول أولى العزم فمن النبوغ ما يستر كثيراً من العيوب ولولا تلكم المتانة الصريحة والشخصية المتمثلة لضاع قسط لا يستهان به من بهجة الحياة وما فيها من الرجولية الحقة والاخلاق القويمة

والادب الصحيح من لوازمه الرفق ومن مظاهره الميل الى عمل ما فيه سعادة الناس وتحاشى ما قد يكون مدعاة لتنغيصهم ومن لوازمه عرفان الجميل لموليه وغريب أن تكون هذه الخلة خلة عرفان الجميل معروفة حتى بين أهل أُغَنده على سواحل بحيرة نِيَنزا فى مجاهل أفريقية فهناك على رواية سبيك

يعاقب المرء على نكران الجميل أو اغفال الشكر لمن أسدى اليه معروفاً

ومن أخص مظاهر الادب الحق أن يعرف المرء للناس أقدارهم ومن طلب لنفسه الاجلال فليجل ما للناس من شخصية وليحفل بآرائهم وان خالفت رأيه ولقد يكون من بواعث اجلال الناس لذى الادب أن يحسن الاستماع اليهم وهم يحدثونه فهم يرون فى مسلكه هذا تحية لهم طيبة ، وذو الادب حليم يتحاشى قاسى الحكم على الناس ومن قسا فى حكمه عليهم فهو خليق ألا يجد منهم الا القسوة فى الحكم عليه

على أن عديم الادب المضطرب قد يؤثر الفكاهة على الصداقة ومن الحماقة والخرق أن يشترى الانسان عداوة الناس بلذة لحظة قال برونل المهندس وكان من ألين الناس جانباً أن الحقد وسوء النية من أكثر اللذات تفقة وقال جنسن ليس للانسان أن يقول قولا خارجاً عن حدود الادب كما لا يحق له أن يعمل عملا خارجاً عن حدود اللياقة وليس له من الحق فى أن يجبه صاحبه ببذىء القول الا بقدر ما له من الحق فى أن يضربه فيجدله

ومن كان مؤدباً مميزاً لا يظهر بمظهر أنه خير من صاحبه ولا أنه أكثر منه عقلا ولا مالا ولا يفخر بحسبه ولا ببلده ولا يضع

من أقدار الناس عنده أنهم لم يولدوا ولهم مثل ما له من مزايا ثم هو لا يتيه عجباً بمزاياه ولا بمهنته ولا يفتح باب التحدث بعلمه كلما فتح فاه بل هو فى كل قول له أو عمل متواضع لا يعرف عريض الدعاوى بل يبدو خلقه الصميم فى العمل لا فى الزهو وبالفعل لا بباطل القول

والاصل فى عدم مراعاة احساس الناس الاستئثار فى العادة ومنشئوه جمود فى الطبع ونفور والحقد لا يحركه بقدر ما يحركه عوز العطف والرقة وعجز النفس عن أن تفطن وتتيقظ لطائفة من الدقائق تافهة فى ظاهرها وهى فى الواقع تبعث فى الناس سروراً أو تحرك فيهم ألماً ولا غرو فالفرق بين سوء النشأة ونقيضها ينحصر فى الاغلب فى مقدار ما يبديه المرء فى المعاملات الاعتيادية من الايثار ونكران النفس ان شئت

وقد يصبح المرء لا يطاق فى المجتمع ان لم يكن على شىء من ضبط نفسه وان أحدا من الناس لا يرتاح الى مخالطة من كان هذا شأنه لأنه دائماً منبع لا يذاء من حوله ولتجدن كثيراً من الناس لا ينفكون ما حيوا يكافحون عقبات هم يخلقونها ويضربون بين أنفسهم وبين النجاح بسور من تعسفهم وبعدهم عن مقتضيات الظرف على حين أن غيرهم وان كانوا أقل استعداداً ومواهب ينجحون ويوفقون

لا لسبب سوى ما فيهم من قوة الصبر واعتدال المزاج وضبط النفس

قالوا للطبع مثل ما للمواهب العقلية من الأثر فى النجاح الدنيوى واذا كان ما قالوا موضعاً للنظر فما لا مشاحة فيه أن سعادة الانسان شديدة الارتباط بمزاجه ولا سيما باستعداده للبشاشة وعلى ما به من تودد ولين فى المعاملة ورغبة فى ارضاء الناس وهى دقائق فى المعاملة ما أشبهها بصغير النقد فى التعامل كلاهما لا يستغنى عنه

قد يبدو اغفال المرء الواجب عليه للناس فى أساليب شتى من سوء الادب كأن يتراخى فى العناية بلباسه أو لا يراعى النظافة أو ينهمك فى عادات تشمئز منها النفس ومن جعل بدنه غير مقبول بالاستسلام للوساخة والقذارة فقد هاج أذواق الناس واحساسهم وهو بحكم ذلك فظ لا أدب فيه وان اختلف أسلوب فظاظته وعدم أدبه

كان داود أنسيلن وهو من وعاظ الهجينو الجذابين يعنى جد العناية ببحث خطبه وتحضيرها ويقول من قلة الحفاوة بالسامعين عدم التعب فى التحضير وليس من يخرج يوم الزينة فى لباس نومه بأكثر خرقاً لحرمة اللياقة ممن يخرج الى الناس يخطب وهو لم يحسن اعداد ما سيلقى عليهم

واعلم أن كمال الادب فى عدم تكلفه على أن يكون عدم التكلف فطرياً لاشية من التصنع فيه فان التصنع لا يلتئم وصراحة الادب الجميل قال رُشفكو لا يحول شىء بيننا وبين سهولة الفطرة بقدر ما يحول شغفنا بأن تبدو فينا تلك السهولة اهـ اذا تقرر ذلك فقد تقرر رجوعنا الى خلتى الاخلاص والصدق وهما تبدوان فى الظرف والدعة والرفق ومراعاة احساس الناس ألا ترى الرجل الصريح المخلص القلب يصدع عمن حوله قيود الكلفة وينفث فيهم روح الحياة ويرفع من شأنهم ويملك قلوبهم ومن ثم كان الادب فى أرقى أشكاله كالاخلاق فى أرقى أشكالها من حيث أن كلا منهما قوة محركة حقة

قال كَنُن كنجزلى لا أحسب ما نال ذلك الشهم الحق والمحب المخلص (يريد سير سدنى سميث) من الميل والاعجاب من كل من خالطه غنياً كان أو فقيراً الا نتيجة شىء واحد قد لا يكون هو نفسه قد فطن له وهو أنه لم يفرق فى معاملته بين غنى وفقير ولا بين خدمه والاشراف من ضيوفه بل كان يسوى بينهم فيما يبذل من حفاوة ورعاية وهشاشة وبشاشة ومحبة فكان أينما حل وحيثما وجد يترك بركة ونعمة ويجنى بركة ونعمة

والمفروض فى حسن الادب عادة أن يكون من لوازم كريم

المحتد كريم النشأة ومن خواص الناشئين فى الطبقات العليا دون الدنيا من المجتمع ولا مراء فى أن هذا حق فى الغالب لما يتوافر لاهل الطبقات العليا من حسن البيئة فى أوائل عهدهم بالحياة على أننا لا نرى ما يقعد بفقراء الحال عن أن يتأدب بعضهم مع بعض كما يفعل الذين أوتوا بسطة فى الرزق

فالذين يكلّون من عمل أيديهم على الاحتفاظ بكرامتهم واحتفاظ بعضهم بكرامة بعض قادرون وهم ومن لا يعملون بأيديهم فى ذلك سواء ولا أدل على اجلالهم أنفسهم واجلال بعضهم بعضاً من سلوكهم وان شئت فقل من أدبهم ولا تكاد ترى ساعة من عمرهم الا وهم على مضاعفة التنعم بها قادرون لو أنهم يستمسكون بما قدمنا من الرفق سواء أ كانوا فى محال عملهم أم فى الطرق أم فى عقر ديارهم وأن العامل الوديع لينال بدعته سلطاناً على اخوانه ولا يزال بهم ان هو ثابر على الرفق والدعة حتى يحملهم على التشبه به وقد قالوا أن بنيَمين فرنكلين استطاع وهو عامل أن يصلح من عادات العاملين فى معمل بأكمله

وقد يكون المرء ذا أدب ورفق على قلة ما يملك من مال فالادب وان كان كبير الاثر واسع المجال بعيد المدى لا يكلف صاحبه شيئاً ، هو أرخص السلع وأقل الفنون الجميلة نفقةولكن

فائدته كبيرة وما يبعثه من السرور عظيم حتى ليكاد يعد فى طبقة المهذبات الانسانية

ولست أرى كالادب خلة تعوز طبقات العمال من الانكليز اكثر مما يعوزهم غيرها وتمس الحاجة الى تعلمهم اياها من اخوانهم فى القارة الاوربية فان الفرنسيين والالمان حتى أحط طبقاتهم ذوو ظرف وتودد وبشر وحسن تربية ، ترى غير الانجليزى من العمال اذا لقى أخاه حسر عن رأسه وحياه تحية طيبة وليس فى هذا المسلك تنازل عن شىء من الرجولية بل فيه ظرف وكرامة ونرى الفقر المدقع فى غير الانجليز من العمال لا ينقلب بؤساً ولا نرى لذلك من سبب سوى ما فيهم من البشاشة والبشر وهم وان كانوا أقل مالا من عمالنا لا ينغمسون فى الشقاء ولا يتخذون من الخمر قبراً يوارون فيه متاعبهم بل يحتالون على الرضا بالحياة والتمتع بها ولو مع الفقر

ومن عوامل الاقتصاد الصحيح حسن الذوق والسبيل اليه ميسور فهو لا يستدعى سعة فى الرزق على أنه يحلى عيش الكادّ فى طلب قوته والراتع فى بحبوحة النعيم بل هو أحلى مذاقاً اذا اقترن بالجد والعمل على أداء الواجب وبه يحسن حال الفقير ومظهره حسن التدبير فى شئون البيت وبه يكتسب أصغر المساكن رونقاً وجمالا ومن آثاره أنه يؤدى الى صقل النفس

ويبعث على حسن النية ويخلق حوله جواً من البشاشة فهو اذن اذا اقترن بالرفق والعطف والفطنة قد يرفع ويزين حتى حياة المعدمين

والبيت لا يزال أول بيئة وخير بيئة تكتسب فيها الآداب وتقوّم الاخلاق وانما كان كذلك لأن التعليم فيه منوط بالمرأة وما آداب المجتمع فى الجملة الا صورة الآداب المكتسبة فى مجموع بيوتنا لا تزيد عنها ولا تنقص على أن فى استطاعة الانسان على رغم ما يقاسى من آفات بيته المكتئب أن يعالج تأديب نفسه وتثقيف عقله وأن يكتسب بالاقتداء بغيره حسن المعاملة فانا نرى كثيراً من الناس أشبه بالجواهر وهى على الفطرة لا بد دون تبين جمالهم وظهور رونقهم من صقلهم وانما صقلهم بالاحتكاك بغيرهم ممن هم خير منهم غرائز ومن الناس من لم تصقل منهم الا ناحية واحدة من نواحيهم فلم يستبن من باطنهم الا دقة تركيبه فلا بد دون ظهور مزاياهم كاملة من أن تحنكهم التجارب ويهذبهم الاختلاط فى الحياة الخارجية بمن يكونون فى الاخلاق قدوة

ويرجع قسط كبير من اكتساب حسن الأدب الى حسن السياسة وانما كانت المرأة أبلغ أثراً فى تعليم الأدب وأوسع سلطاناً ونفوذاً لأنها على وجه العموم أحسن من الرجل سياسة

نعم المرأة أقدر من الرجل على حكم النفس وهى بفطرتها أكثر ظرفاً وأدباً ومن مزاياها سرعة العمل مدفوعة بسرعة الخاطر وهى أصدق من الرجل فراسة فى الاخلاق وأكثر منه تمييزاً وحسن لقاء وفى الدقائق الاجتماعية يحضرها الحذق والمهارة كأنهما فيها فطرة غريزية ومن ثم نجد أحسن الرجال أدبا قد اكتسبوا حسن أدبهم عادة بمخالطة النسوة ذوات الدعة والحذق والاستقامة

وحسن السياسة فن من فنون حسن الادب تهدى اليه سرعة الخاطر دون تفكير طويل وهو فى اجتياز العقبات خير من الذكاء ومن العلم قال أحد الكتاب الذكاء قوة لكن حسن السياسة مهارة واذا اعتبرنا الذكاء بمثابة الثقل فى الجسم فحسن السياسة بمثابة العزم فيه وبالذكاء نعرف ما الذى يعمل ولكن بحسن السياسة نعرف كيف نعمل والذكى أهل لان يبجل ولكن حسن السياسة يبجل بالفعل وان شئت فقل الذكاء ثروة وحسن السياسة نقد حاضر.

تمثل الفرق بين حاضر البديهة فى حسن التصرف ومن لا نصيب له من حسن التصرف فى حديث جرى بين لورد بالمَرسْتُن ومستر بهنز النحات ذلك أن النحات فى آخر مقابلة بينهما افتتح الحديث بقوله هل من أخبار يا مولاى عن فرنسا وما موقفنا مع لوى نَبُلْيُن فرفع وزير الخارجية حاجبه لحظة ثم

قال بهدو وربك لا أدرى فانى لم أطلع على الصحف اه ولا غرو فقد كان يهتز على كثرة مزاياه الفائقة وتعدد مواهبه العقلية من أولئكم الذين ضلوا سواء السبيل فى الحياة لما تقصهم من حسن السياسة

وكان ولكز وهو من أقبح الناس صورة يقول أن أجمل الناس فى انجلترا لا يسبقه بأكثر من ثلاثة أيام الى استمالة غانية ما وفى قوله هذا بيان لمبلغ حسن الادب من القوة اذا صحبه حسن السياسة

لكن لا يغبين عنا وقد جرنا البحث الى ذكر ولكز أن نشير الى ضرورة عدم الاغراق فى التعويل على حسن الادب وما له من الشأن فليس حسن الادب بمعيار صحيح للاخلاق وقد يكون حسن الادب كما رأيت من ولكز مجرد ممثل يلعب دوراً لغرض ليس من حسن الخلق فى شىء وحسن الأدب كسائر الجميل من الفنون يحرك فى النفس ارتياحاً وتجد العين فى النظر اليه لذة ليس وراءها لذة غير أنه قد يدعيه من لا يعرفه ويتزيا به الخلو منه كما يدعى الفضل العاطل من الفضل ويتزيا بزيه أبعد الناس عنه وما حسن الادب الا دليل ظاهرى على حسن السلوك ولكنه مع هذا قد لا يصل من المتظاهر به الى ما وراء الظاهر من جلده وقد يكون أرق الناس ظاهراً أفرغهم باطناً وأفرغهم نفساً وقد يكون أدبه العالى مجرد حركات رشيقة وعبارات رقيقة

على أننا مسلمون من جهة أخرى بأن من أخصب الناس نفوساً وأكرمهم طباعاً من يعوزهم الظرف وينقصهم حسن الادب فقد يكون وراء الظاهر الخشن طبع سليم ونفس طبعت على الرفق بل قد يكون الانسان مع فظاظته وغلظته على جانب من الاخلاص والرفق والدعة

ما كان جُون نُكس ولا مَرتن لوثر ممتازين بالظرف بل كانت مهمتهما تتطلب القوة والعزيمة أكثر مما تتطلب حسن الادب ولقد كان الرأى فيهما أن بهما من العنف والغلظة ما لا حاجة بهما اليه قالت ميرى ملكة اسكتلندا يوماً لنكس ومن أنت حتى تدعى تعليم أكابر هذا البلد وملكته فقال أنا فرد ولد فى هذا البلد قالوا ولقد أبكى الملكة ميرى غير مرة بجرأته وان شئت فقل بغلظته وخشونته ولما علم بذلك نائبها قال لان يبكى النساء خير من أن يبكى الرجال

وحدث أن حضر نكس مجلس الملكة و بينما هو قائم على نية الانصراف سمع بعض الحاشية يقول لصاحبه لا أراه خائفاً فالتفت نكس اليهم وقال ولم يزعجنى المحيا الطلق وقد رأيت وجوه المغضبين فلم يتطرق الى شىء من الخوف ولما مات نكس بعد أن أنهكه الكد وأخنى عليه الهم واضطجع الضجعة التى يستريح فيها أطل نائب الملكة على اللحد وقال كلمة حق كانت شديدة الوقع

قال هنا مضجع من لم يخفه وجه آدمى

وعند بعضهم أن لوثر لم يكن الا خليطاً من الخشونة والعنف ولكنه عاش كما عاش نكس فى زمن خشونة وعنف وما كان عمله ليتم بالدعة واللطف بل كان لا بد له دون ايقاظ أربا من غفلتها من أن تتمشى القوة بل والعنف فيما يقول وما يكتب على أن عنفه لم يكن الا فى عبارته فلقد كان وراء خشونة ظاهره قلب حى وكان فى حياته الخاصة من ذوى الدعة والمحبة وكان أنيساً سهلا لدرجة البساطة وكان ميالا الى التمتع بالطيبات بعيداً عن التقشف والجمود ذلك لأنه كان حساس القلب يعرف البشاشة بل والمرح وكان فى حياته بطل الجماهير من أمته ولا يزال هذا شأنه فى المانيا حتى عهدنا هذا

وكان صمول جُنسُن خشناً فى معاملته ولكن لا يغيبن عنا أنه نشأ فى وسط خشن فلقد جمع الفقر فى أيامه الاولى بينه وبين رفقة غريب أمرهم، رفقة من كل فج وصوب، وكان يهيم على وجهه فى الطرقات ليالى ومعه سفج وقد عجزا عن كسب ما به يحصلون على فراش عليه ينامان ولما هيأت له عزيمته ومثابرته مكاناً فى المجتمع كان لا يزال به بقية مما ترك تراكم الاحزان وتوالى الكفاح وكان بفطرته قوى البنية سليمها ثم جعله ما لاقى فى حياته عنيداً صلباً لا يلين، سئل يوماً لم لا يدعى الى ولائم

الكبراء كما يدعى تجرك فقال لان عظماءنا رجالا و نساء لا يحبون أن يُلجموا وتسدّ أفواههم اه والحق أن جُنسُن كان من كبار الملجمين ومن يسدون الافواه وان كان قوله دائماً جديراً أن يصغى اليه

كان اخوانه يسمونه الدب الاكبر ولكن جُلدسميث يقول فيه لا أعرف فى الاحياء أرق منه قلباً وليس فيه من الدب سوى جلده ولقد بدا ما فيه من رفق فى كيفية مده يد المساعدة يوماً لامرأة وهى تعبر شارع فليت ، مدّ اليها يده وقادها دون أن يفطن الى أنها كانت ثملة على أن كونها كذلك لا يقلل من روح الرفق التى أبداها جنسن ويذكرنا هذا الرفق من جانب جنسن فظاظة تاجر كتب طلب جنسن عنده عملا فلما رآه ضخم الجسم أشعث الشكل قال له أخلق بك أن تكون حمال أثقال ولو أن تاجر الكتب أدى نصيحته هذه على أرق الاساليب لما كان ذلك مخرجها عن أنها فى غاية الوحشية

واعلم أنه اذا كانت المماحكة والجدل واعتراض كل ما يقال عادات يأباها الطبع وتشمئز منها النفس فقد يقاربها استهجاناً نقيضها من اقرار كل عبارة تقال أو حركة انفعال تبدو والانحياز اليها ، هذا خلق ينافى الرجولية ويحس بما وراءه من نفاق ، يقول رتشرد شارب قد يرى من الصعب التزام التوسط بين الخشونة

واللين وبين الثناء على من هو أهل للثناء وكيل الملق جزافاً ، لكن ذلك أمر هين فكل مايطلب حتى نوفق الى الصواب من الاعمال والى وجه الصواب فى أدائها البشاشة والرفق واجتناب التكلف (1)

هـذا وكثير من الناس ينقصهم الأدب لا عن عمد ولكن عن جهل بغير ما هم عليه ، لما نشر جِبُن الجزء الثانى والجزء الثالث من كتابه فى اضمحلال دولة الرومان وانتساخها لقيه دوق كَمبَرلَند فابتدره بقوله كيف تجدك يا جِبُن أراك على عهدك القديم لاتزال تخط وتخط وتخط اه قد يكون غرض الدوق أن يحيى المؤلف فلم يوفق الى خير من هذه الطريقة الخشنة

ثم من النـاس من يظن بهم جفاء وأنفة وما بهم الا حياء والحيـاء خلق فى جل الامم التيوتونيـة ويسميه بعضهم الولع الانجليزى ولكـنه شائع على تفاوت فى القدر بين أمم الشمال جميعاً والانجليزى اذا غادر بلده وجاب البلاد حمل معه متاعه من الحياء اينما سار فتجده جافيـاً لَخـمَـةَ خلواً من الرشاقة جِبساً جامداً تحسبه مجرداً من خلق العطف حتى اذا ما تصنع الخفة بقى فيه اثر من حيائه يعجز عن ستره ، هذا خلق ينكره الفرنسى وهو الألوف الرشيق بفطرته فلا يزال يتخذ من الانجليزى موضعاً

(1) Letters and Essays, p. 56

لفكاهاته والمضحك من صوره فى هزلياته وتنسب جورج صن صلابة أهل البيُن الى السائل البريطانى الذى لا يفارقهم فطباعهم بسببه جامدة مهما تغيرت بهم الاحوال ومن شأنه كما تقول هى أن يحول بينهم وبين الجو الذى يحوطهم فلا ينفذ اليهم منه الا كما ينفذ الهواء الى فأرة فى جوف آنية قد أفرغت من هوائها (١)

ان الفرنسى والارلندى ليفوق الأنجليزى والالمانى والامريكى حفاوة واقبالا ولين جانب لا لسبب سوى أنهما فطرا على ذلك فتراهما اكثر ألفة واقل اعتماداً على النفس من ذوى الأصل التيوتونى واكثر منهم ظهوراً واقل نفوراً واكثر منهم اختلاطا واوسع فى المحادثة مجالا وفى المخالطة صدرا ، على أن الأمة قد تبدو عليها آثار من لين الجانب والمرح والخفة ثم يعوزها من المزايا ما يبعث على توقيرها ، قد تتوافر فيها كل محاسن الأدب و يتمكن منها الاستئثار ، والتقلب وجمود القلب ، قد لا تنفذ اخلاقها الى ماوراء الظاهر منها ولا تقوم على أساس من متين الصفات

ولا يختلف اثنان أى الفريقين أحسن لقاء سواء فى الاعمال والاجتماع والمعاملة المعتادة فى الحياة ألسهل الرقيق أم الجامد اللخمة أما أيهما يكون أمتن صداقة وأوفى عهداً وأخلص قياما بالواجب فهذا أمر آخر

(1) Lettres d'un Voyageur

ولا نزاع فى أن الانجليزى الجاف الانجليزى المقيد الأرجل كما يقول الفرنسيون غير مقبول اذا لقيته أول الأمر فقد تحسبه بالعصا محراك نار لانه حيى ويحرك الحياء فى الناس ، جبس لا عن كبرياء بل عن حياء ولو أراد ما استطاع أن ينفض عنه حياءه ولا تعرونا الدهشة اذا علمنا أن الكاتب البارع الذى يصف فلسطين الانجليزى وفظاظته وخلوه من الرقة كان هو نفسه من أشد الناس حياء

اذا التقى حييان حسبتهما قطعتى ثلج فان كانا فى غرفة انسلا وتدابرا وان فى مركبة وهما على سفر انزويا فى ركنين متقابلين والانجليزى وهو حيى اذا ازمع السفر بسكة الحديد سار فى القطار يلتمس عينا خالية يستقر فيها فاذا ما انزوى واطمأن ودخل عليه داخل كرهه من صميم فؤاده ثم اذا دخل الانجليز غرفة الطعام فى ناد من أنديتهم بحث كل حيى منهم عن خوان ليس عليه أحد حتى لقد يحدث أحيانا أن يكون على كل خوان فى الغرفة آكل واحد وما كل هذا الذى تحسبه نفوراً الا حياء هو خلق الانجليز القومى

عن مستر آرثر هلبس ان أصحاب كنفسيوس يروون عنه أنه كان فى حضرة الأمير يبدو عليه أثر من قلق التأدب ولا أكاد أرى من المستطاع الاتيان بكلمتين اثنتين أحكم من هاتين

وصفاً لحالة جل الانجليز فى المجالس ولربما كان هذا الاحساس فيهم
هو الذى حدا بسير هنرى تيلر أن يوصى فى كتابه عن السياسى
بأن يكون الوزير فى ترتيب المقابلات أقرب الى الباب ما استطاع
حتى إذا ما انتهى الحديث لجأ الى الغرفة المجاورة لغرفته بدل أن
يشيع محدثه خارجا يقول فان الحييين المأخوذين يجلسون وكأنهم
قد ساخت قوائمهم حيث يجلسون متى شعروا بأنهم اذا فصلوا من
عنده اضطروا الى اختراق الغرفة ، وختام الحديث سهل مقبول
اذا ما قرب الباب عند النطق بآخر عبارة منه(١)

وكان المرحوم الامير آلبرت من اكثر الناس اعتكافا وهو
من اكثرهم لطفاً ودعة ولقد غالب حياءه كثيراً فلم يغلبه ولم يقو
على اخفائه وفى بيان أسباب هذا الحيـاء فيه يقول مترجمه كان
حياؤه حياء طبع حساس لا يوقن انه يُرضى وينقصه الاعتداد
والغرور وهما فى الكثير من صفات الذين يروق ظاهرهم(٢)

على أن الامير لم ينفرد بهذا العيب بل شاركه فيه بعض فحول
الانجليز ولربما كان سير نيوتن أكثر أهل عصره حيـاء لانه
أبقى بعضاً من اكبر مستنبطاته فى طىّ الكتمان خشية أن تشوه

---

(1) Sir Henry Tayolr's 'Statesman',p. 69.

(2) Introduction to the Principal Speeches and Addresses of H. R. H. the Prince Consort, 1862.

سمعته و بعد أن اهتدى الى نظرية ذات الحدين وما طبقت عليه من المسائل الخطيرة ثم لما استنبط ما هو أعظم أى قانون الجاذبية بقى الاثنان مكتومين سنين ولما بعث الى كُلِنز بحله نظرية دوران القمر حول الارض حظر عليه ذكر اسمه معها وقال قد يزيد ذلك ان فعلته فيمن أعرفهم ويعرفوننى وهو ما أعمل على تجنبه

ويستخلص من مجموع ما هو معلوم عن شكسبير انه كان غاية فى الحياء لان كيفية اخراجه رواياته للناس (ونقول هنا لا يُعلم انه نشر أو أجاز أن تنشر له رواية) وتواريخ ظهور رواياته مسائل تخمينية ، ثم ان ظهوره فى الادوار الثانوية من رواياته وعدم اكتراثه للشهرة بل وكرهه أن يذيع صيته بين اهل عصره ومغادرته لندن (وهى مقر التمثيل الانجليزى ومركزه) بمجرد بلوغه القدر المعتاد من الجدارة فى صناعته وركونه وقد بلغ حوالى الاربعين الى حياة لا ظهور فيها فى قرية غير كبيرة من قرى المقاطعات الوسطى كل ذلك قد يكون أدلة متضافرة على ما كان فى طبيعة الرجل من حياء لا يمكن التغلب عليه

ويحتمل أن شكسبير لم يكن نصيبه من موهبة الامل كبيرا هذا فضلا عن حيائه وقد يكون عرجه سبباً فى زيادته كما كان عرج بيرُن سبباً فى زيادة الحياء فيه ، ومن عجيب أحوال

ـكسبير ندرة عباراته التى يرد فيها ذكر الامل على كثرة تصويره
فى كتاباته غير الامل من المواهب والعلاقات القلبية والفضائل ثم
اذا هو ذكر الامل ذكره عادة بنغمة يتمشى فيها اليأس والقنوط
كما فى قوله

وسوى الآمال لا يـ   ـملك ذو البؤس دواء

وكثير من أغانيه قد نفث فيها من روح اليأس وقطع الامل[1]
وفيها يندب عرجه[2] ويعتذر عن احترافه التمثيل[3] ويبدى خوفه

(١) اذا أنا والايام والناس قد جفت   خلوت بنفسى سوء حالى اندب
وازعج بالصيحات منى مقادير قد جرت   وصمت فصيحاتى هباء ستذهب
وانظـــر فى حالى فارثى لشقوتى   وقسطا من الامال أوفر اطلب
أود لو انى كنت فى الناس مشبهاً   أخا أمل فيـــه الاخلاء ترغب
واطلب شأو الناس فى كل حاجة   وارغب عمـا فى يدى واصخب
ذكرتك والافكار تترى تجيئنى   ونفسى الى التحقير عندى أقرب
(الخ ما جاء بالاغنية التاسعة بعد العشرين)

(٢) وانا الذى من فرط ما نقم الشقا   منه رماه وهو يشـــأر بالعرج
(الخ ما قال فى الاغنية السادسة بعد الثلاثين)

ويقول
وقواى عطلهـــا بوطأته العرج
(الخ ما قال فى الاغنية السادسة بعد الستين)

ويقول
ان يذكروا عرجى وقفت لساعتى
(الخ الاغنية التاسعة بعد الثمانين)

(٣) يحز فى القلب ما عانيت من نقل   ووقف نفسى على الانظار أسليها

من الثقة بنفسه وحبه الضائع ويحتمل أن يكون قد صادف غير أهل له ويتوقع أن يقضى عليه ويدعو الموت المريح دعاء مؤثراً

قد يتوقع بطبيعة الحال أن يتغلب على خلق الحياء ان كان فطريا فيه بممارسته التمثيل وكثرة ظهوره على مسرحه بين جماهير النظّارة ، ولكننا نقول ليس من الميسور التغلب على خلق الحياء اذا كان غريزيا فى النفس[1] وهل يتصور انسان أن المرحوم شارلس مَتْيُز كان بفطرته من اكثر الناس حياء وقد كان يحيي الليالى فى البيوت المكتظة ولكن الواقع انه كان على عرجه يلف فى أزقة لندن حتى لا يعرفه أحد وعن زوجه انه كان اذا عرف انزوى واضطرب واذا سمع الناس فى الطرقات يذكر بعضهم

فكرى بقرت ويخساً بعت قيمه ثم المصائب قد جددت باليها
(الخ ما جاء بالاغنية العاشرة بعد المائه)

وقوله

ألا من اجلى لوموا الحظ جهدكم أرى على الحظ أثم السوء من عملى
ما هيأ الحظ لى سبلا أعيش بها أولى من العيش فى قوم ذوى خطل
اسمى تلوث بل نفسى معرضة بحكم مهنتها للخرق والزلل
متى تباشر يد الصباغ صنعتها فلا نجاة لها من صبغة العمل

(١) روى عن « جرك » أنه لما أعلن شاهداً فى قضية « برتى » وحضر أمام المحكمة أخذ وارتج عليه وهو الذى ألف التمثيل ثلاثين سنة بكل ثبات فى حضرة الآلاف من الناس أخذ وارتج عليه حتى أن القاضى أخرجه من موقف الشهود وعده شاهداً لم يستطع تأدية الشهادة

لبعض اسمه همساً غض من بصره واحمر وجهه[1]

وما كان أحد لأول وهلة يتوقع أن يكون لورد بَيرُن مصابا بآفة الحياء ولكنه كان بها مصاباً فقد روى مترجمه انه وهو ضيف على السيدة بجُت فى سَونوِل كان اذا رأى ضيوفاً قادمين بادر الى الخروج من النافذة حتى لا يلقاهم

وأقرب عهداً ممن ذكرنا وأكثر منهم مدعاة للدهشة المرحوم هوِتلى رئيس الاساقفة ، تملكه الحياء فى صباه واستبد به حتى آلمه وكانوا يسمونه وهو فى أُكسفُرد الدب الابيض لبياض رذائه الخشن وقبعته وقد طابق اسمه أحواله كما روى عن نفسه فاشير عليه على سبيل العلاج ان يقلد ذوى الظرف ممن يراهم فى المجالس فلم تزده محاولة ذلك الاحياء على حيائه ولم يصادف سوى الفشل لانه كان دائم التفكير فى نفسه لا فى الناس على حين ان اب الادب أن يفكر الانسان فى الناس أكثر مما يفكر فى نفسه

لما رأى هوتلى فشله قنط وقال فى نفسه لم أقاسى ما حييت هذا العذاب على غير طائل لقد كان لى أن أحتمل هذا العناء أكثر مما احتملته لو أنى رجوت شفاء فاذا كنت لا أرجوه

---

(1) Mrs. Mathews' Life and Correspondence of Charles Mathews' (Ed. 1860), p. 232.

فلأمت موتاً هادئاً بلا مزيد تجرع للدواء ، لقد بذلت قصارى الجهد ومع هذا سأبقى ما حييت أجلف من دب فلأعملن اذن على أن لا أفكر فى هذا الا كما يفكر الدب ولأعقدن العزمة على احتمال ما لا سبيل الى علاجه ثم ما زال بعد ذلك يعمل على الابتعاد عن التفكير فى وسائل أدب المعاملة وعلى ألا يحفل بما يوجه اليه من نوم ما استطاع الى ذلك سبيلا يقول فلما سلكت هذه السبيل نجحت نجاحاً لم يكن يخطر لى على بال ولم أتخلص مما كنت أقاسى من الحياء فحسب بل تخلصت من جل عيوب الأدب التى يسببها التفكير والتنبه وما عتمت أن صرت فى أحوالى أكثر مرونة والى الفطرة أقرب ، نعم تطرفت فى عدم الاكتراث لأنى تشددت فى مقاومة رأى الناس لاقتناعى بأنه لابد ضدى وكنت خشناً لأنى رأيت الرقة مما لا قبل لى به وعددتها تقعرا ولكنى مع هذا كنت فيما آتى متساهلا غير مكترث ينم سلوكى على حقيقة شعورى نحو الناس وهو حسن النية[1]

وكان وِشنجتُن انجليزى الحياء كما كان انجليزى الآباء وصفه مستر جُشْتِيا كنسى بأنه على شىء من الخشونة شكلا وعلى جانب من التحرج والتقيد خلقاً غير بين الاطمئنان والاستقرار

---

(1) Archbishop Waiely's Commonplace Book

فى حضرة الناس تحسبه اذا رأيت حاله قرويا لم يألف مجالس الناس متكلفاً اذا خاطب وخوطب

وليس فى أذهاننا استعداد لأن نظن فى الأمريكيين حياء ولكن ربما كان أكبر مؤلفيهم لعهدنا هـذا وهو تَشَنيل هوثُرن حييا أصبح الحياء فيه داء وبيلا وعهدناه اذا دخل عليه غريب يوليه ظهره خشية أن يعرفه على أنه كان اذا ما أزيل غشاء حيائه أكثر الناس بشراً وأجملهم محضراً

رأينا فى مذكرة من مذكراته نشرت حديثاً [1] انه اتفق له أن ضمه ومستر هلبس مجلس فوجده جافياً ولا مراء عندنا فى أن مستر هلبس رأى فيه مثل هذا الرأى وتلكم الحالة منهما لم تكن سوى حالة الحييين يلتقيان كل يظن صاحبه جافاً نافراً ثم يفترقان قبل أن يتاح لهما شىء من مخالطة الود والاقبال يذهب

---

(١) قيل أن امرسن كان فى ذهنه (تثنيل هوثرن) وهو يكتب العبارة التى نوردها هنا من كتاب (الاختلاط والعزلة) قال كانت أحب تحية منك اليه أن تشير الى أنك لم تره اذا ما اتفق أن ضمك واياه بيت أو طريق لانه كان يؤذيه أن يراه أحد أينما كان ويتعزى بأنه فى كثير من الاماكن التى غشيها لم يره أحد وكل ما يتطلبه من خياطه أن يهيىء له من لون ملابسه وطراز تفصيلها ما لا يلفت النظر لحظة وكان يندم ندماً يؤدى الى اليأس على عيوبه فى المجالس ويمشى أميالا لينفض عن وجهه انقباضه وعن ذراعيه وكتفيه اضطرابها واهتزازها وكان يقول قد يغفر الله الذنوب ولكن ذنوب اللخمة لا تغفر فى الارض ولا فى السماء اه

بما عليهما من غشاء الحياء فتتبين حقيقة أمرهما ، تلك حال يحسن
فيها قبل التسرع فى الحكم أن يذكر صاحبها قول هلفيتيوس
لا بد دون محبة الناس من شىء من التمهل والتريث وهى حكمة
وجد يفتتم منها كثيراً كما قال عن نفسه

الى هنا كان بحثنا فى الحياء من حيث أنه نقص وبقيت وجهة
أخرى للنظر اليه هى أن له جانب الخير وفيه عنصر من عناصره
نعم أولو الحياء من الأفراد ومن الأمم خلو من وسائل الظهور
عطل من جمال الرقة واللطف لأنهم من حيث المجتمع والمجالس
لا يألفون ولا يؤلفون اذا قيسوا بمن هم على غير شاكلتهم وهم
بسبب ما ركب فيهم من النفور من الاجتماع وعدم السعى اليه
لا نصيب لهم فيما امتاز به ذوو الالفة من الظرف فى المعاملة وهو
مما يكتسب بكثرة المخالطة ، ثم هم يعروهم الحياء فى حضرة الاجانب
عنهم بل فى بيوتهم وبين أهليهم يسترون محبتهم القلبية بستر
من التحفظ فاذا ما اتفق اذعانهم لشعورهم لم يكن ذلك الا فى
ناحية قاصية منعزلة على أن الشعور موجود ولا يقلل من نقائه
وخلوه من كل شائبة انهم لا يحفلون باعلانه للناس

لم يكن بالمستغرب فى وصف قدماء الجرمان أن يسميهم البكم
من حولهم من الامم وقد كانوا أ كثر منهم الفة وظهوراً وهو
اسم يصح اطلاقه على الانجليز لهذا العهد اذا قورنوا بمثل الفرنسيين

والارلنديين من جيرانهم وهم أرشق منهم حركة وأكثر مخالطة وأخف منطقاً

غير أن فى الانجليز ميزة كانت للامم التى منها تناسلوا هذه الميزة هى شغفهم ببيوتهم فالانجليزى اذا ما ملك بيتاً صار للمجالس غير مكترث الا يسيراً وأنه من أجل أرض يحوزها وتكون له ملكا ليجوز البحار ويتوطن القفار ويقيم فى الغابات الانف ويتخذ لنفسه هناك بيتاً ولا يرهب وحشة القفر بل يكفيه من المجالس مجلس يضمه وزوجه وأهله ثم لا يحفل بعده بغيره من المجالس والمجتمعات ومن ثم كانت الامم الجرمانية الاصل وهم الذين منهم الانجليز والامريكان خيرة المستعمرين ولا يزالون ينتشرون فى كرة الارض بين مهاجر ونزيل لا يغادرون ركناً قابلا لسكنى الآدمى الا غشوه

أما الفرنسيون فلم يكونوا يوماً ما ناجحين فى الاستعمار والسبب الجوهرى فى ذلك شدة نزعاتهم الاجتماعية وهى سر أدبهم وظرفهم أضف الى ذلك أنهم يستحيل عليهم أن ينسوا أنهم فرنسيون [1] ولقد مر بهم عهد كان من المتوقع فيه أن يصبح

---

(١) تنبه «مريس صن» الى ميول الامريكى المنافية لحب الاجتماع خلافاً للفرنسى وأبدى الكاتب رأيه فى ذلك فى مقالات له نشرت تباعاً فى مجلة العالمين الفرنسية تحت عنوان (ستة الآف فرسخ بالبخار) وفيها يصف اسفاره فى

جل القارة الامريكية الشمالية فى حوزتهم فلقد كانت معاقلهم
تمتد من كندا السفلى على نهر سنت لورنس ومن فن دولاك
وهى على بحيرة سپيريور وعلى نهر سن كروا وعلى نهر المسيسبى الى
مصبه عند نيواورليتز غير أن الانكليز العظيم المعتد بنفسه العمل
أخذ يمعن فى سيره نحو الغرب صامتاً مبتدئاً من بضعة منازل له
على شاطئ البحر وما زال ينزل بكل مكان ويستقر ثابتاً فى كل
أرض هناك حتى لم يبق الآن من أثر لاحتلال الفرنسيين أمريكا

امريكا الشمالية وهو يقول عن الامريكى أنه متشبع بروح الفردية وعن الفرنسى أنه متشبع بروح الجمعية ويرى فى امريكا الفرد ينسخ الجماعة وفى فرنسا الجماعة تنسخ الفرد وفى ذلك يقول

هذا الشعب من الانجلوسكسون رأى أمامه الارض وهى آلة العمل لا تنفد أو على الاقل وجدها موفورة لما تنفد فأخذ يستغلها مدفوعاً بعامل الاعتداد بالنفس أما نحن معشر الفرنسيين فلم ندر ماذا نعمل بها لاننا فى العزلة لا نستطيع شيئاً الى أن قال

يحتمل الامريكى العزلة بجلد عجيب أما الفرنسى فغير ذلك الرجل لانه يحب قريبه وصاحبه ورفيقه حتى جاره فى الحافلة أو فى دار التمثيل اذا راقته منه ملامحه لانه يراه ويبحث عن مستقر نفسه واذا طالت به العزلة ذبل واذا لازمته مات. اه قول السائح

نقول هذا كله حق وفيه تفسير ما ترى من انتشار الالمان والانجليز والامريكان فى كرة الارض وهم أقل من غيرهم ألفة واختلاطاً على حين أن الفرنسيين شديدو التودد لعجزهم عن أن يطيب لهم عيش اذا لم يخالط بعضهم بعضاً وهم يؤثرون البقاء فى ديارهم فتعجز فرنسا عن أن تمتد الى ما وراء حدودها.

الا آكاديا فى كندا السفلى

وحتى فى اكاديا مثال غاية فى البيان لشدة الفة الفرنسيين التى تربط بعضهم ببعض وتحول دون انتشارهم واقامتهم فى أرض غير ارضهم شأن العناصر التيوتونيه فبينما النازلون فى كندا العليا من نسل الانجليز والاسكتلنديين يوغلون فى الغابات والبيد حتى لقد يقيم كل منهم على بعد أميال من جاره ترى أهل كندا السفلى من النسل الفرنسى متكأكئين فى القرى وهى عادة سلسلة من البيوت على جانبى الطريق وراءها مروجهم قد جزئت حتى تناهت فى التجزئة وهم من أجل اجتماع بعضهم ببعض يرضون بهذا الأسلوب من الزراعة على ما فيه من عيوب ويرونه أولى من أن يأووا الى القاصى من الغابات المنعزلة كما يفعل أمثالهم من الانجليز والألمان والأمريكان والواقع أن الامريكى المقيم بتلك الغابات النائية لا يألف العزلة فحسب بل هو يؤثرها على غيرها حتى اذا ما دنا منه فى الولايات الغربية النازلون وحسب البلاد تضيق بنازليها نفر من زحف الجماعات عليه فجمع متاعه فى عجلة وهاجر بأهله باشا ليتخذ لنفسه منزلا فى النواحى الغربية النائية

فأنت ترى أن التيوتونى هو المستعمر بسبب ما ركب فى طبيعتـه من الحيـاء فالانجليزى والاسكتلندى والألمـانى والامريكى سواء فى استعدادهم لقبول العزلة ما دام ميسوراً

لهم أن يتخذوا الا تفسهم بيتاً ويؤووا أهلا وكان من أثر تفورهم من المجتمعات والمجالس أن انتشروا فى الارض يفلحونها ولسلطانهم يخضعونها أما ما ركب فى غرائز الفرنسيين من شدة الميل الى المجتمعات فقد عاق سبيلهم الى الاستعمار وان نتج عنه تفوقهم فى رقة المعاملة وحسن الأدب وليسوا حيث توطدت قدمهم كما فى الجزائر وغيرها الا اشبه بالحاميات(١)

وفى الانجليزى عدا ما قدمنا صفات ولدها فيه عدم الالفة والنفور من المجتمعات فحياؤه ونفوره علماه الالتجاء الى نفسه وصيراه بها معتداً وعليها معتمداً ولكون المجالس والمجتمعات غير لازمة لسعادته تراه يعكف على المطالعة والبحث والاختراع أو قد يجد راحة نفسه فى الصناعة فيكون خير الصناع ثم هو لا

---

(١) ان الارلنديين من وجوه كثيرة أشبه بالفرنسيين فى ميولهم الاجتماعية فهم فى الولايات المتحدة يجتمعون بحكم فطرتهم فى البلاد الكبرى ولهم فيها كما لهم فى انجلترا (الاحياء الارلندية) بل هم فى الولايات المتحدة أكثر ابرشية منهم فى انجلترا ولا ينسون انهم ارلنديون الا كما ينسى أبناء فرنسا أنهم فرنسيون قال « مستر مجوير » فى كتابه الذى ظهر حديثاً عن الارلنديين فى أمريكا أنى أتمسك كل التمسك بعجز اللغة عن أن تطاوع الواصف حتى يفى بوصف الآفات المترتبة على ميل الارلنديين الى الاجتماع فى مدن أمريكا الكبرى وهو ميل فيه شقاؤهم اه وهذا الميل الشديد للمجتمعات هو الذى أدى الى رقة حالهم وعدم السعة فى أرزاقهم فى الولايات المتحدة أينما وجدوا وحيثما حلوا

يخشى أن يزج بنفسه فى وحشة البحار فيكون صياداً ملاحاً كاشفاً ومذ سكن الاوائل من رجال الشمال البحار وكشفوا عن أمريكا وبعثوا بسفنهم الى سواحل أوربا وأوغلوا بها فى البحر الابيض ونجم ملاحة الامم التيوتونية فى صعود

هذا وليس الانجليز بأهل الفنون الجميلة بسبب عدم اقبالهم على المخالطة والالفة فلقد يجيدون الاستعمار والملاحة والصناعة ولكنهم لا يجيدون الغناء ولا الرقص ولا التمثيل ولا الفنون الجميلة ولا طراز الازياء ولا يتأنقون فى الملبس ولا فى التمثيل ولا فى الحديث ولا فى الكتابة بل يعوزهم حسن الاسلوب وتعوزهم الرشاقة ثم هم يسلكون فى أداء أعمالهم الطريق المستقيم ولكنهم لا يتوخون فى أدائها الرشاقة ولقد ظهر ذلك بأجلى مظهر فى معرض دولى للماشية أقيم منذ سنوات فى باريس فلما انقضى أجل المعرض جاء المتسابقون بماشيتهم التى استحقت الجوائز ليتسلموا جوائزهم فجاء أولا اسبانيولى أنيق وكان فاخر الهيئة جميل البزة وأخذ جائزة من أقل درجات الجوائز فتسلمها وهو على حال من الهيئة والمسلك تليق بوجيه من أعلى الطبقات وجاء على أثره فرنسيون وطليان يفيضون رشاقة وأدباً وظرفاهم فاخرو الملابس وماشيتهم تزينها حتى رؤوسها أزهار وأشرطة ملونة قد تأنق فى نظمها ناظمها وآخر الامر جاء صاحب الجائزة الاولى فكان جبساً فى مشيته

بسيطاً فى بزته قد لف على ساقيه ما يلف الفلاحون ولم يحل صدره ولو بزهرة فى عروة ردائه وتساءل النظارة قالوا من هذا فأجيبوا بانه الانجليزى ، عجب الحاضرون وقالوا أهذا الانجليزى أهذا ممثل بلاد عظيمة ، والواقع أنه كان الانجليزى من جميع وجوهه بعثت به بلاده لا ليعرض نفسه ولكن ليعرض خير ماشية وقد فعل ونال خير جائزة على أنه لم يكن لينقص من قدره ولا ليحط من شأنه أن يضع زهرة فى عروته

ولقد نشأ بيننا مذهب يدعو أهله الى بث الفنون الجميلة علاجا لما هو مسلم به من نقص الرشاقة فى الامة الانجليزية وعوز الذوق الفنى فى ابنائها فللجمال الآن معلموه والداعون اليه ويراه بعضهم ضربا من الاديان فينادون بمثل قولهم الجمال هو الحق والجمال بشير الخير ويرون فى اتقان الفنون الجميلة تحسيناً لأذواق الامة وفى تأمل الجميل من الاشياء تطهيراً لنفوسها وفى اخراج أبنائها من حمأة الملاذ الجسمانية اذا ما تأملوا جميل الاشياء تهذيبا لاخلاقهم ورفعاً من شأنهم

على ان الواجب ان لا نغلو فى أثر هذا النوع من التهذيب وان رأينا فيه شيئاً من رفع مستوى الاخلاق وتطهيرها من شوائب تشوبها ، نعم فى الرشاقة ما يحلى الحياة ويزينها وهى على

هذا الاعتبار خليقة ان تربى فى الامة ، والموسيقى والتصوير والرقص والفنون الجميلة كل هذه مناهل تستمد منها النفس راحة لها وهى وان لم تكن شهوانية مصدرها جثمانى غير انه لا يعزب عن الاذهان أن لا تلازم بين تربية النفس أو تقويم الاخلاق وتربية الذوق على ادراك جمال الشكل أو اللون أو الصوت أو الوضع ، لا ننكر ان تأمل الاعمال التى تمثل جميل الفنون يحسن الذوق ويبعث فى النفس الاعجاب بما ترى غير ان اتيان عمل واحد نبيل على مرأى من الناس يكون من حيث أثره فى نفوسهم وحفزهم الى تقليده أفعل من وقوع نظرهم على أميال من التماثيل أو أفدنة من الصور والذى يجعل الانسان عظيما النفس والروح والقلب لا ذوق الفنون الجميلة

والحقيقة ان الشك قائم فيما اذا كان تقدم الفنون الجميلة وهو فى العادة مدعاة للترف قد كان على تقدم الأنسان ذلكم العون الذى ظنوه بل قد يحتمل أن يكون الغلو فى الاقتصار على بثه فى النفوس مؤديا الى مسرأ الأخلاق لا الى صلابتها لانه يهيئها لأطاعة مغريات الحواس ، قال سيرهنرى تيلر من طبيعة المزاج الخيالى الذى تربيه الفنون الجميلة أن يقوض بناء العزيمة ويجعل الرجال أسهل قيادا بما ينقص من قوة أخلاقهم (١)

---

(1) 'The Statesman,' p. 35.

الا وان موهبة المتفنن لمباينة لموهبة المفكر لأن اقصى ما يتطلع اليه أن يفرغ موضوعه تصويرا كان أوموسيقى أو ادبا فى قالب تخرج به فكرته — وقد لا تكون من ابعد الفكر — على هيئة رائعة الجمال يكون فيها تأليهها وخلودها

ولقد جرت العادة ان تبلغ الفنون الجميلة غايتها من الرقى فى دور الاضمحلال من أدوار حيـاة الامة حين تستخدم الثروة الفنون الجميلة وتتخذ منها وسيلة للترف ولقد شاهدنا فى تاريخ اليونان والرومان تعاصر رقى الفنون وانتشار الفساد فلم يكد فدياس وِ اقطينوس يتمان البرتنون حتى دالت دولة اتينا ومات فدياس سجيناً وشاد أهل اسبرطة تماثيل نصرهم وهزيمة أهل أتينا وهكذا كان الحال فى روما ففيها بلغت الفنون الجميلة ذروة رقيها حين كان الناس قد فسدت أحوالهم ولقد كان نيرون متفننا وكذا دِمشيان وهما من أكبر طغاة الدولة الرومانية ولو كان الجمال هو الخير لكان كمدوس من خير الناس ولكنه كان من شرهم على ما انبأنا به التاريخ

ثم اذا تمشينا الى العصور المتأخرة وجدنا أعظم عصور الفنون الرومانية الحديثة عصر البابا ليو العاشر وقد قيل فى زمنه أنه انتشر فيه بين الناس ورجال الدين الفسق والفجور كما انتشر بلا رادع ولا كابح منذ زمن الاسكندر السادس ، كذلكم كان عصر

بلوغ الفنون غايتهـا من الرقى فى الاراضى الواطئة العصر الذى أعقب القضاء على حريتها سياسياً ودينياً وتداعى الحياة القومية تحت اصر استبداد الاسبان ولو ان الفنون ترفع من شأن الامم وكان فى تأمل الجميل مايجعل الناس خياراً لكان فى باريس قوم من احكم الناس وخيرهم وهذه روما مدينة من أكبر مدن الفنون ومع ذلك تدهور فيهـا فضل قدماء الرومان ونجدتهم الى فضول من الولع بسفساف الاشياء الظريفة ثم اذا صدق ما جاءت به الانباء حديثاً فالمدينة نفسها قذرة قذارة يضيق عنها نطاق الوصف (١)

بل قد يحصل ان تدل الظواهر على تلازم بين الفنون

(١) يقول « تتنيل هوثرن » فى كتابه المسمى (أول آثار فرنسا وايطاليا فى نثـى) ان رأيه فى قذارة أهل روما لهذا العهد قد بلغ من السوء انه لا يكاد يهتدى الى طريقة التعبير عنه وله فى هذا المقام قوله انواقع انه يتحتم عليك التيقظ لخطواتك وانت تمشى فى « القوردم » او اينما سرت الى ان قال لا ادرى لعل فى عقول أهل هذى البلاد مايساعدهم على انتزاع البشاعة فى الصغائر من الجمال والجلال فى العظائم . انهم ليبصقون على بلاط كنيسة القديس بطرس وهو جليل ويبصقون على غيره أينما شاءوا ويضعون تحت عقوده الجليلة مقـاعد اعتراف من الخشب حقيره ويزينونها بصور للصليب صغيرة ملونة تافهة القيمة ويعلقون قلوبا من الصفيح وغيرها من السفساف على ذى البذخ من مشاهد القديسين وفى المعابد وهى مغطاة بالجواهر أو بما يكاد يماثلها نفاسة من الرخام ويضعون تماثيل للقديسين قد صنعت من الورق تحت قبة « البنتين » وبالاختصار يقربون ما بين الجليل والسخيف ولا يحرك تجاورهما شيئاً من القلق فى نفوسهم اه

والقـذارة فقد روى عن مستر رسكين وهو يبحث عن آثار الفنون في مدينة البندقية ان تابعه في ابحاثه كان يشمّ كريه الروائح فاذا ما أحس بشدة فيها قال نحن قادمون الآن على شيء عتيق جميل يريد من حيث الفن [1] ولقد يكون أفعل من تعليم الفنون الجميلة وافيد قليل من تعليم النظافة للعاطلين منها ، حسن أن نلبس وقاية للجيد ولـكن حمقاً أن نتوسع في العناية بها حتى نهمل القميص الذي تحتها

وعلى هذا فمع القول بحقية تربية الظرف والتأدب والرشاقة وكل الفنون الجميلة التي تعين على جعل الحياة راضية جميلة نحتم أن لا تجر تربيتها ألى اغفال الامانة والاخلاص والصدق وهي امتن وأبقى ولا بد من أن يكون ينبوع الجمال في القلب قبل العين فما أقل فائدة الفنون اذا لم تؤد الى حياة جميلة وعمل جليل وخطر التلطف قليل اذا لم يصحبه ادب العمل فقد لا يتعدى الظرف ظاهر الجلد ويكون مقبولا جذابا ولا يمنعه ذلك أن يكون ابعد ما يكون من القلب ثم أن الفن منبع للذة الطاهرة وعون ذو شأن على رقي التهذيب ولـكن يحتمل أن لا يتعدى

(1) Edwin Chadwick's 'Addres to the Economic Science & Statistic Section,' Birtish Association (Meeting 1862.)

الحواس اذا لم يؤد الى رقى التهذب واذا اقتصر الفن على الحواس ولم يتعدها كان فى الاضعاف وجر الانحطاط افعل منه فى التقوية ورفع الشأن ولا يخفين أن العزيمة الصادقة اكبر قيمة من الظرف مهما كان مقداره وأن طهارة الباطن خير من رشاقة الظاهر ونظافة الجسم والنفس والقلب خير مما شئت من جميل الفن

والخلاصة أنه مع وجوب العناية ببث المحاسن الظاهرة يجب أن لا يغيب عن الاذهان ان من الفضائل ما هو فوقها وأجل منها نعم من الفضائل ما هو أكبر من السرور أكبر من الفنون أكبر من الذكاء أكبر من العبقرية نعنى طهارة الاخلاق وسموها وكل ما فى العالم من ظرف ولطف ورشاقة وفن لا يجدى نفعاً فى انقاذ الامة أو الرفع من شأنها ما لم يقم على أساس من خيرية الفرد متين سليم

عشرة الكتب

قد عرفنا الكتب عالماً غزيرة المادة نقي الجوهر كثير الخير فمنها تنبت راحتنا وسعادتنا وعليها تعلق ممسكة بعلائق في قوة اللحم والدم

وردسورث

تكاد التراجم تكون الشيء الواحد الذي يحتاج اليه في المألوف من حديث الناس عادة بل وفي كل الفنون وهي ان لم تكن خلاصة مركزة باقية لما في مقدور الأنسان من قول يقال أوفعل يبدو ينبغي لها أن تكون تلك الخلاصة

كرليل

أفكاري مع الغابرين فمعهم في سالف الازمان أعيش وبحسناتهم أهيم وعلى سيئاتهم اسخط وفي تعاليمهم أطلب الهداية خاشعاً فأجدها .

سوذي

قد تعرف الرجل بالكتب التى يقرؤها كما تعرفه بالجلساء الذين يطمئن اليهم فالكتب كالناس لنا منها جلساء وينبغى للأنسان أن يخالط من الكتب ومن الناس الاخيار

ولقد يكون الكتاب الصالح من خيرة الاصدقاء لانه على حاله ثابت فهو اليوم كما كان من قبل لا يتغير ولا يتحول وهو أكثر الرفاق صبراً وبشراً لا يصدف عن رفيقه فى شدة ولا فى ملمة بل يتلقاه فى كل حين برفقه المعهود فللشباب منه متعة وهدى وللشيب راحة وسلو

وقد يجد الناس سر انجذاب بعضهم نحو بعض فى الحب الذى يستشعرونه جميعاً لكتاب واحد كما يهدى الصديقين الى صديق لهما اعجاب كل منهما به ، فى امثال الاقدمين من احبنى أحب كلبى ولان يقال من أحبنى أحب كتابى أقرب الى الحكمة فان الكتاب أصدق رابطة وأعلى صلة وقد يكون أحب المؤلفين الى الناس واسطة فى اتفاقهم تفكيراً واحساساً وتبادل عطف

قال هزليت الكتب تسرى فى القلوب والبيت من شعر الشاعر يجرى فى مجارى الدم ، نقرأ الكتب أحداثاً فنذكرها كهولا ، نعرف منها ما وقع للناس فنجده لنا واقعاً وحيثما كنا نجدها لنا ميسورة زهيدة الثمن طيبة العنصر وما نحسن بمستنشقين سوى جو الكتب ولمصنفيها علينا فى هذه الهمجية الفضل كل الفضل

وقد يكون الكتاب الصالح خير مستقر لحياة بأسرها فيه تثوى خيرة الافكار التى تسنى لصاحب تلك الحياة ان يأتى بها وما حياة الانسان فى أكثر الاحوال الا عالم الافكار مما تنتج قريحته ومن ثم كانت خيرة الكتب كنوزا من طيبات الكلم ونفائس الفكر ومنها اذا ما وعيناها والفناها يكون لنا الرفقة الثابتون المسلون قال سير فليب سدنى لن يكونوا وحيداً من صحبته الافكار الجليلة اهـ بل الفكرة الصالحة الصادقة فى وقت الفتنة رسول رحمة تطهر الروح وتمنعها ان تزل ثم فيها عناصر العمل فان الكلمة الطيبة تلهم الاعمال الطيبة لا تكاد عن طبيعتها هذه تشذ

لهذا كان سير هنرى لرنس يرى لمؤلف ورد سورث فى اخلاق المحارب السعيد مالا يرى لغيره من المؤلفات ويعمل على أن يكون ممثلا فى حياته فلم يفتر عن اتخاذه اماما به يهتدى وكان لا ينكف عن التفكير فيه ويقتبس منه عبارات يسمعها غيره من الناس قال مترجمه لقد كان يبذل الجهد فى أن يجعل حياته واخلاقه مطابقة لما جاء فى ذلك المؤلف وقد نجح كما ينجح كل جاد فى الاخذ فى الأسباب (١)

وفى الكتب روح الخلود فهى ابقى آثار المجهود الانسانى لا يدانيها فى ذلك مدان الم تر الى الهيا كل يأتى عليها العفاء والى

(1) Kaye's 'Lives of Indian Officers'.

الصور والتماثيل يذهب بها الفناء والكتب باقية فالدهر لا يصيب. عظائم الأفكار بل هى اليوم على جدتها يوم ان مرت بخاطر اصحابها منذ اجيال ولا تزال اقوالهم وآراؤهم ترن فى آذاننا حية وتسمعنا صوتها من الصفحات المكتوبة ولم يكن للزمن من أثر فيها سوى تمحيصها من رديئها لان الادب لا يعمر منه الا جيده [١]

والكتب تدخل بنا فى خير المجالس وفى حضرة أوفر من عاشوا عقولا فنعلم ما كان لهم من قول وفعل ونراهم كأنهم بيننا عائشون ثم نشاركهم فى آرائهم نعطف معهم اذا عطفوا ونفرح معهم اذا فرحوا ونألم اذا ألموا فتصبح خبرتهم لنا خبرة ونشعر كأننا لدرجة ما نمثل معهم الأدوار التى يصفونها

هذا والعظماء الخيرون لا يموتون بل ارواحهم فى الكتب باقية سيارة فالكتاب صوت حى وعقل لا يزال الانسان يصغى اليه لهذا لا نزال خاضعين لتأثير عظماء الزمن الغابر فهم وان ماتوا

---

(١) يقول امرسن فى كتاب (الاخلاق والعزلة) ليس من السهل لنا المعاصرين التفرقة بين البعيد الصيت فى الرداءة والبعيده فى الجودة فاستوثق وأنت تقرأ من أنك لا تقرأ حقير الكتب ولا تعتمد فى اختيارها بما يخرج من الصحافة وما تسمع من لغط الساعة وانى مقترح قواعد ثلاثا عملية هى أن لا تقرأ كتابا لم يكن قد حال عليه الحول وأن لا تقرأ غير المشهور من الكتب وأن لا تقرأ الا ما تحب اه وقاعدة لورد « لتن » ان يقرأ فى العلوم احدث الكتب وان يقرا فى الادب اقدمها

ملوك متوجون ومن مستقر رفاتهم لارواحنا حاكمون

الاوان سلاطين العقول لأحياء الآن كما كانوا أحياء منذ قرون فلا يزال هُمِيروس حيا وشعره اليوم جديد كأنه حديث عهد بالخروج من ذهن صاحبه وان كان تاريخه محجوبا فى غياهب القدم ولا يزال افلاطون يعلم فلسفته العالية ولا يزال هُراس وفِرجيل ودَنتى ينشدون كما انشدوا قبل أن يفارقوا الدنيا أما شِكسبير فلم يمت نعم ووريت رفاته التراب عام ١٦١٦ ولكن عقله اليوم حى فى انجلترا حياته فى عهد أسرة تيُودَر ومدى بنات افكاره لا يزال كما كان فى عهدهم

وفى مقدور أقل الناس ان يغشى مجالس هذه الارواح العظيمة دون أن يظن به تطفل واذن الدخول عليهم فى يد كل من استطاع القراءة فان طلبت الضحك ضحك معك سِرفَنت أو رَبلى وان شكوت وجدت تُومَس اَكِمبِس أو جِرِمى تيلَر يشاركك ويسرى عنك ولا نزال ما حيينا نرجع الى الكتب وارواح العظماء المحفوظة فيها اذا تطلبنا سلوا أو ارشادا أو تخفيف مصاب سواء فى الفرح والحزن والرخاء والشدة

والانسان الذ المخلوقات للانسان لا ينجذب عادة الى شىء بقدر ما ينجذب الى كل ما له ارتباط بالحياة البشرية محنها وملاذها وآلامها وجليل أعمالها فالانسان يهتم بأحوال الناس

لانهم اخوانه واعضاء معه فى المجتمع قل اهتمامه هـذا أو كثر
وعلى قدر نصيب الانسان من التأدب والتثقف يكون مجال
شعوره وعطفه في كل ما يكون ذا أثر فى سعادة جنسه

ولاهتمام الأنسان بالأنسان مظاهر شتى تبدو على هيئات
عدة تبـدو فى الصور التى يصورها وفى التماثيل التى ينحتها وفى
الأخبار التى يرويها بعضهم عن بعض قال إمرسن ليس فى مقدور
الأنسان أن يصور شيئاً أو يفكر فى شىء يخرج عن دائرة الأنسان
اه واكبر مظاهر هذا الاهتمام تفانيه فى الميل الى سير الأفراد
يقول كَرلَيل كون الأنسان مدنيا بطبعه ظاهر مهما اسهب فى
التدليل عليه من حقيقة واحدة ولو لم يكن غيرها هى ارتياحه
لتراجم الأفراد ارتياحا لا يفى ببيانه وصف اه

والواقع ان اهتمام الناس بالتراجم كبير واللذة التى يستشعرونها
منها عظيمة وهل تلكم الروايات التى تلقى من القراء الجماهير
الا تراجم مما ركبه الخيال وهل فى القصص التمثيلية سوى تراجم
تؤدى على المسارح، وغريب اشتغال اكبر العقول بالتراجم الخيالية
على حين ان كثيرين من المشتغلين بالحقيقى منها ليس لهم من الاقتدار
الا القدر الاعتيادى

على ان الصورة الصحيحة لسيرة الآدمى وتجاربه ينبغى أن
تكون اللذة بها فوق اللذة بما هو خيالى لما فى الأول من جمال

الواقع ولكل انسان أن يستفيد من سجل حياة غيره ولقد يستشعر من اللذة حتى فى التافه من اعمالهم واقوالهم شيئا كثيرا لانها نتيجة حياة خلق مثله

ولبيان ماأتى الصالحون من الأعمال فى حياتهم فائدة خاصة هى أن أعمالهم تؤثر فى قلوبنا وتبعث فينا الامل وتعرض علينا المثل العظيمة واثر الانسان لايزول كله اذا ما كان قد ادى واجبه فى الحياة بروح عالية فالحياة الطيبة كما قال جورج هربرت لن يفوت أوانها

ويقول جُيتى ليس من الناس من تبلغ به الحقارة ان لايجد فيه الحكيم ما يأخذه عنه اه وما رافق سير وُلتَرسكُت قوما فى سفر الا وتلقط منهم شيئا جديداً يعلمه أو اهتدى الى خلق جديد فيهم يعرفه [1] وقال جُنسُن ما من رجل فى الطرقات

---

(١) حاول أحد اخوان « سير ولتر سكت » وكان مثله فى هذه العادة وممن يفخرون بمقدرتهم فى أساليب الحديث أن يجر الى الحديث رجلا كان الى جانبه فى مركبة سفر فلم يصادف فيما أراد نجحا ولما يئس تنزل الى العتب واللوم فقال لجليسه ايها الاخ لقد حادثتك فى كل المألوف من موضوعات الحديث حادثتك فى الادب ، فى الفلاحة ، فى التجارة ، فى الصيد وقوانينه ، فى سباق الخيل ، فى قضايا المحاكم ، فى السياسة ، ثم فى النصب والاحتيال والكفر والفلسفة ، فهل من موضوع تتكرم على بفتح الحديث فيه فقلب الرجل سحنته تقليبا اخرج منها ابتسامة غريبة ثم قال يا مولاى ألاك فى شق الجلد رأى يروق فكان جوابا عتيدا

الا وددت الوقوف على سيرته ومعرفة تجاربه فى حياته وشدائده وعقباته وحوادث فشله ونجاحه فما بالك بمن امتازوا فى تاريخ العالم وجمعوا لنا ذلك التراث العظيم من المدنية ، ان كل ما له صلة بأمثال هؤلاء مملوء لذة وامتاعا وارشاداً وتشجيعاً وقدوة من عاداتهم وآدابهم وأساليب معيشتهم وتاريخهم وكيفية حديثهم وقوانينهم فى الحياة وفضائلهم وعظمتهم

وخير ما يكتسب من التراجم اظهارها ما يمكن ان يكون عليه الانسان وما يستطيع أن يعمل وهو فيما لا مطمع وراءه من حالاته والحياة الجليلة أن حسن تدوينها كانت للناس الهاما لأنها تبين لهم الى أى مدى يمكن ان يصل الانسان بحياته وهى تجدد لارواحنا نشاطها وتشجعنا على آمالنا وتمدنا بالقوة والعزيمة وحسن العقيدة فى الناس وفى أنفسنا ثم هى تلهب حميتنا للطموح وتحفزنا للعمل وتستحثنا على ان نكون لصاحبها فى اعماله شركاء والعيش مع اصحابها فى تراجمهم واستمداد الروح من الاقتداء بهم عيش مع خيار الناس ومخالطة لخير الاصدقاء

هذا وفوق التراجم كلها الترجمة الكبرى كتاب الكتب فما كتابنا المقدس وهو اقدس الكتب وافعلها فى نفوس اهله شباباً وهدايتهم كهولا وسلوهم شيوخاً ماهو الا سلسلة من سير فحول الابطال والقضاة والملوك والصالحين والانبياء تختم باعظم

السير كلها وهى السيرة المودعة منه فى العهد الجديد وما اكثر ما عاد على المجتمع الانسانى من المثل العليا الواردة فيه وكم من اناس اكتسبوا منها القوة الصحيحة والحكمة العالية والغذاء الصالح والتوبة النصوح ولقد صدق احد عظماء الكاتوليك فى وصف الانجيل بانه كتاب كلماته تبقى فى الاذن كنغمات موسيقى لا يأتى عليها النسيان كأصوات نواقيس الكنائس لا يجد معتنق الدين سبيلا للاستغناء عنها وكان ما فيه من السعادة يكاد يكون اشياء ملموسة لا مجرد الفاظ مسموعة بل هو جزء من عقل الامة ومرساتها ومتكؤها اذا جد جدها ففيه ذكرى الاموات ثم تقاليد الطفولة مسطورة فى آيه وقوة احزان الانسان وشدائده مخبوءة تحت كلماته وهو ممثل خير أوقاته وكل ما له به صلة من اللين والرفق والطهارة والندم والخير يناديه الى الابد من انجيله ، هو ملكه المقدس لم يخالطة الشك ولا دنسه الشقاق وليس فى طول البلاد وعرضها بروتستنتى فيه لمعة من التقوى الا وترجمته الروحانية فى الانجيل [1] اه

(١) بين كلردج فى (عظة العامة) حقيقة تاريخية هى أن قسطا كبيرا من علمنا ومدنيتنا يرجع الفضل فيه مباشرة أو بالواسطة الى الانجيل وان الانجيل كان الاداة الكبرى فى رفع اوربا اديبا وعلميا الى المستوى العالى الذى هى فيه الآن ويبين الفرق الواضح الجلى بين هذا الكتاب وغيره من الكتب التى الف الناس الاسترشاد بها والرجوع اليها فى الاخلاق والسياسة والتاريخ ثم

ولو اننا حاولنا مجاوزة الحد فى بيان أثر العلماء والصالحين فى ترقية أخلاق البشر ما استطعنا الى ما نحاول سبيلا ، قال اسحق دزرِيلى فى خيرة التراجم اتصال بالحياة البشرية فى أبهى حالاتها ويستحيل على الانسان أن يدرس حياة الصالحين بله الملهمين دون أن يستنير بنورهم ويرق برقيهم وان لم يشعر حتى يصير قريباً من افكارهم وأعمالهم بل لا تخلو حياة من هم دون هؤلاء من ذوى الامانة والاخلاص الذين أحسنوا فى أداء واجبهم من أثر فى رفع أخلاق من جاؤا بعدهم

وخير ما يدرس به التاريخ نفسه التراجم بل لو حققنا النظر ما وجدنا التاريخ غير تراجم فما هو الا بيان حال الانسانية جميعاً يؤثر فيها الافراد ويتصرفون ويقول اِمرسُن هل التاريخ الا أثر الافكار وسجل قوى الانسان الهائلة التى يبعثها فيه طموحه الذى لا ينتهى الى غاية وفى صحائفه نرى الافراد أكثر مما نرى المبادىء والآراء وجل ما نشعر به من لذة الحوادث التاريخية حاصل من

يقول فى الانجيل كل عامل يبدو ويعمل فردا حيا ، كل له حياته الخاصة ولكن له وجود فى الحياة ، والجبر والاختيار تآخيا فى قوة اعلى مصدرها الذات الالهية الموجودة فى كل مكان تقدر المجموع فى دائرة اختيار الاجزاء المكونة له والانجيل لا يحمل هذا يغيب عنا فلا يفصل الجذر عن تربته بل الله فى كل مكان والخلق كلهم لامره خاضعون ، الصالح يؤدى ما امر به والعاصى يجزى بما جنت يده اهـ

اتصالها باحساس من تمت على أيديهم وآلامهم وفى التاريخ نرى حولنا من كل جانب اناسىّ ماتوا من قديم ولكن عاشت أقوالهم وأعمالهم حتى لتكاد تسمع رنين أصواتهم وفى أعمالهم اللذة التى نجدها فى التاريخ فنحن لن نستشعر لذة فردية فى جماهير النـاس ولكننا نتبادل الشعور والعواطف مع أفراد العاملين منهم وفى تراجم هؤلاء أبهى آيات روايات التاريخ

هـذا ولربما كان بلُتَرك ومُنتَنى من بين قدماء الكتاب أكثرهم أثراً فى تكوين أخلاق عظماء الفكر وعظماء الفعل بأن بين أحدهما نماذج البطولة لمن يحذو حذوها وتقب الثانى عن الامور كثيرة الوقوع مما كان موضع اهتمام العقل الانسانى اهتماما ما عليه من مزيد وجل مؤلفاتهما قد صيغ فى قالب التراجم وأبهى شواهدهما منحصرة فيما يعرضانه فى مؤلفاتهما من الاخلاق والتجارب

ولا يزال كتاب التراجم لبلترك وان ألفه صاحبه منذ ما يقرب من ألف وثمانمائة سنة حافظا مكانته التى له أى كونه أعظم المؤلفات التى من نوعه ومثله فى ذلك الياذة هُميروس ولقد كان أحب الكتب الى مُنتَنى وله عند الانجليز منزلة خاصة لانه عمدة شكسبير فى رواياته وعند منتنى ان بلترك استاذ ذلك الضرب من التأليف يعنى

الترجمـة وكان يقر بأنه لا يكاد يلقى عليه نظرة حتى يكتسب منه شيئاً

وأول ما مال بألفيرى الى الادب وبعث فيه الهيام به مطالعة كتاب بلترك وفى ذلك يقول قرأت فيـه تراجم تِمُليـن وقيصر وبروتس و بِلـبيدس أكثر من ست مرات قرأتها بصيحات وسكب دموع وانفعال حتى كدت أفقـد صوابى وكلما صادفت سجية من السجايا الرائعة فى هؤلاء الفحول عرانى من شدة الانفعال ما لم استطع معه سكوتاً اه

وكذلك كان كتاب بلترك أحب الـكتب الى كثيرين من متنوعى العقول من شِلر الى بنيامين فرنكلين ونابليون والسيده رُولَن ولقد بلغ من افتتان هذه السيدة بالـكتاب ان كانت تحمله معها الى الـكنيسة فى زى كتاب أدعية وتقرؤه خلسة أثناء الصلاة

كذلك كان هذا الـكتاب غذاء لنفوس ابطال من نحو هِنرى الرابع ملك فرنسا وتُرِن وبنى نَبير وكان أحد احب الـكتب الى سير وِلـيَم نبير فى صباه وبه تشبعت نفسه بشدة الاعجاب بأبطال الاقدمين ولا ريب أنه كان ذا أثر كبير فى تكوين اخلاقه وتهيئة سبيله فى حياته ، روى عنه أنه وهو فى مرض الموت وقد بلغ منه الضعف وانحطاط القوى حن الى أبطال بلترك فكان يحدث ختنة

على ابنته بجسيم أعمال الاسكندر واَنِبال وقيصر ولو اننا استطعنا أخذ أصوات جماهير القراء الذين كان للكتب أثر فى نفوسهم وتوجيهها الى وجهاتها لاحتمل اذا استثنينا الانجيل ان تكون أغلبية الاصوات العظمى لكتاب بلترك

فكيف اذن أمكن لبلترك ان يثير لذة فى كتابه لا تزال حتى اليوم تجذب ميل القراء اليه وتثبتهم فيه على اختلاف أزمانهم وتباين طبقاتهم أمكن له ذلك لسببين أولهما أن موضوع كتابه عظماء كانت لهم مكانة فى تاريخ العالم وثانيهما ان كانت له عين يبصر بها وقلم يصف به أكبر الحوادث والاحوال فى حياتهم ولم يقتصر امره على ما قدمنا بل انه أوتى قوة على تصوير ميزات أبطاله الخاصة وهى التى تكسب التراجم محاسنها ولذتها فالجانب الذى يسترعى الانظار من العظماء هو جانب حقيقة أمرهم لا جانب أعمالهم والعامل فى ذلك جاذبيتهم الخاصة لا قدرتهم الذهنية ومن ثم كان من الرجال من حياة أعماله اصدق بيانا من أقواله واخلاقه الخاصة به أعظم قدراً من عمله

وليلاحظ ان الكثير من صور بلترك فى كتابه ليست الا اَنصافا وان كان اجودها وأكثرها تهذيباً فى حجمها الطبيعى وهى جيدة التناسب غير أنها مكتنزة مقبولة المدى فقد تقرأ الواحدة من اجودها كسيرة قيصر وسيرة الاسكندر فى نصف

ساعة وهى على هذا الايجاز أكثر هيبة من التمثال الضخم لا حياة فيه أو المبالغ فى مد نواحيه وليست مثقلة بالافاضة فى الوصف والامعان فى الاخذ والرد وانما هى الاخلاق يكشف عن حقيقتها بلاتكلف ، نعم ان منتنى شكا من ايجاز بلترك ولكنه شفع شكواه بقوله لا شك فى ان ذلك الايجاز زيادة له فى الميزة وان كان لنا زيادة فى الآفة وان بلُتَرك ليؤثر استحساننا صحة حكمه على ايماننا بسعة عامه ويرى تركنا على حدة الشهوة للقراءة أولى من مغادرتنا وقد اصابتنا تخمة مما قرأنا ولقد علم حق العلم ان الكاتب قد يقتصر على القدر المستحسن حتى فى خير المباحث ولكن قليل المادة يحاول أن يسد بالكلام نقصه كما يحشو النحيف الضئيل بالملابس جسمه (1)

ولقد كان بلترك حاذقاً فى أظهار ما لطف من خصائص النفس وما دق من ميزات الخلق ثم بيان عيوب ابطاله ونقائصهم وكل ذلك لا غنى عنه فى التصوير الصحيح الدقيق ، يقول منتنى تراه يلتقط العمل التافه فى حياة الرجل أو الكلمة لا تحسب ذا شأن يذكر فيكون ذلك منه بمثابة بحث مستفيض اه بل أنه ليتنزل الى الاخبار بالخاص التافه من التفصيلات كقوله أن الاسكندر

---

(1) Montaigne's Essay (Book I. chap. xxv) — Of the Education of Children.

كان يميل برأسه تصنعاً وأن ألسبيادِس كان متأنق الملبس وبه لثغة كانت تناسبه وتكسب حديثه ظرفاً ونغمة تُلين وأن كاتو كان أحمر الشعر أزرق العينين وأنه كان مرابياً حريصاً يبيع عبيده اذا هرموا وصاروا لصعب الاعمال غير صالحين وأن قيصر كان أصلع ولوعاً بالزاهى من الملابس وأن سِسِرو كان يهتز أنفه على غير ارادة منه نقول وكذلك كان لورد برو م

قد يرى بعض الناس هذه الدقائق أقل من أن تليق بكرامة الترجمة ولكن بلترك رآها لازمة لتهذيب الصور الكاملة التى صورها التهذيب الواجب لها وانما يعيننا على تصور الرجال كما عاشوا هذه الدقائق كالخلق الخاص والملامح والعادات والميزات ، وميزة بلترك الكبرى تنحصر فى تنبهه لهذه الصغائر دون أن يتعدى فى شأنها القدر اللازم أو يغفل ما هو أكبر منها شأناً ولقد يمثل الخلق الفردى بحكاية يوردها تكشف عن الخلق الذى هو بصدده أكثر مما يكشف المستفيض من الوصف البليغ وفى بعض الاحوال يذكر أحب الحكم الى البطل الذى يترجم له وقد يكون فى مثل ذلك بيان لحقيقة ما انطوت عليه النفس

ثم لنرجع الى النقائص والعيوب فنقول ليس الناس مهما عظموا بكاملين عادة بل لكل عيبه أو انحرافه أو مسه وانما بالعيب فى الانسان يستبين اشتراكه فى الادمية مع سائر الناس ولقد

نحسبه ونحن على بعد منه فى طبقة الآلهة فنعجب به ولكننا متى اقتربنا منه وجدناه بشراً مثلنا غير معصوم[١]

ولا يخلو بيان عيوب العظماء من الفائدة فانه كما قال جنسن اذا لم يبد من اخلاقهم سوى ناحيتها الناصعة قنط الناس و ظنوا محالا الوصول الى شيء مما وصل اليه العظماء فكفوا عن التشبه بهم

وان بلُتَرك نفسه ليبرر طريقته فى الوصف ببيان أن وجهته كتابة تراجم لا تاريخ و يقول أن الأعمال لا تبين لنا على الدوام بياناً صحيحاً ما فى الناس من فضيلة ورذيلة ولقد يكون فى المسائل الصغيرة من فعل أو فكاهة بيان لاخلاقهم وميولهم أوفى من بيان يستخلص من وقائع يقتل فيها عشرات الآلاف أو من تعبئة الجيوش وحصار المدن واذا كان المصور يدقق فى خطوط الوجه ومخايله و نظرات العينين لما تبدى من الاخلاق ولا يعبأ بسائر اجزاء الجسم فليسمح لى بأن اعنى بالتدقيق فى نفوس الناس وما تدل عليه فانا بهذه الوسيلة احاول تصوير حياتهم وادع لغيرى تصوير الحوادث الكبرى والوقائع العظمى اه

وقد يكون خطيراً ما تحسبه حقيراً سواء فى التراجم

(١) يقول فلتير ان الذى رفعته مواهبه فوق سائر الناس تدنيه منهم عيوبه ولماذا لم ترفع المواهب صاحبها فوق الآدمية

« من سيرة فلتير »

والتاريخ كما قد يؤثر صغير الحوادث فى جسيم النتائج ومن ملاحظات بسكال انه لو كان انف كيلو بطره اقصر مما كان لاحتمل أن يكون وجه الكرة على حال غير التى هو عليها ولولا حظيات بين البادن لكان محتملا ان يملك العرب أوربا فانه لم يوقف تيارهم سوى ما كان من هزيمتهم على يد ابنه غير الشرعى شرل مرتل هزمهم فى تور ثم انتهى الامر باخراجهم من فرنسا

وقد لا يعد خليقاً بأن يلاحظ فى ترجمة سير ولتر سكت ان رجله التوت وهو يجرى فى أحدى الغرف فى طفولته على أن نزول هذا الحادث به كان السبب الذى ترتب عليه وجوداً يفنهو وأولد مرتيلتى وكل روايات ويفرلى فلقد روى انه لما اظهر ابنه رغبة فى الالتحاق بالجيش كتب هو الى سوذى يقول ليس من حقى ان ابطل اختياراً لولا مصابى فى رجلى لكان اختيارى انا أيضاً اه فلولا عرج سكت لكان من المحاربين فى حرب الجزيرة ولحلت النياشين صدره ولاحتمل اذن ألا يكون لدينا شيء من مؤلفاته التى خلدت له ذلك الاسم وأفاضت على بلاده ذلك المجد وكذلك تالرن حال عرجه بينه وبين الخدمة العسكرية وكانت قد اختيرت له فلما وجهت عنايته الى دراسة العلم ثم الى دراسة الناس صار من أقطاب السياسة فى زمنه

ولربما كان للتشويه فى قدم بيرن اثر فى شاعريته غير

قليل فلولا ان ذلك التشويه حزَّ فى قلبه لكان محتملا أن لا تجود قريحته ببيت من الشعر وأن يكون أنبل المتأنقين فى زمنه ولكن تشويه قدمه نبه ذهنه والهب حميته وجعله يرجع الى مواهبه ونحن بما ترتب على ذلك عالمون

وما قيل فى بَيرُن يقال فى سكَرُن رجع الفضل فى شعره المر الى أحديدابه ويقال فى بوب فان هجاءه كان لحد ما نتيجة العيب فى خَلقه لأنه كان كما قال جنسُن منتفخاً من أمام ومن خلف ولا مراء أن رأى لورد بيكُن فى التشويه فيه من الصحة شىء كثير فانه يقول من كان فى جسمه عيب ثابت يبعث على احتقاره قام فى نفسه باعث دائم يلهب حميته لانقاذ نفسه وتخليصها من الاحتقار لهذا تجد ذوى العاهات على شىء من الجرأة عظيم اه

والترجمة كالتصوير لا بد فيه من الظل والنور فلا المصور يختار لمن يصوره الوضع الذى يظهر عيوبه ولا المترجم يبالغ فى بيان عيوب المترجم له وليس من الناس كثيرون فيهم صراحة كرُمول حين جلس الى كُوبَر ليصوره فقال له صورنى كما أنا بكل ما فىّ حتى الثآليل اه ولا بد من تصوير الوجوه والأخلاق كما هى أن اريد ان تكون الصورة صحيحة ، قال سير وُلتَر سكُت ان لذتى من التراجم وهى اكبر ممتع من أنواع الكتابة لتضيع اذا لم تراع الصحة والدقة فى بيان الظل والنور فى المترجم له

وانى لا استريح من المترجم همه أن يكيل المدح الا بقدر ما استريح من البطل عريض الدعوى على مسرح التمثيل اهـ [1]

وكان أدِسن يحب أن يعلم اكثر ما يمكنه علمه عن ذات المؤلفين الذين يقرأ كتبهم وعن أخلاقهم لأن ذلك العلم كان يزيده ارتياحاً لمؤلفاتهم ، كان يحب أن يعلم ماذا كان تاريخهم وتجاربهم وماذا كانت طباعهم وميولهم وهل كانت حياتهم شبيهة بكتبهم ولقد كانوا جليلي الافكار فهل كانوا جليلي الاعمال ويقول سير اجرتن بروج الا تبتهج نفوسنا لو اننا وقفنا الى تاريخ صريح نعلم منه كيف عاش وكيف شعر امثال وردسورث وسوذي وكلردج وكمبل وروجرز ومور وولسن ويكون رواية عنهم ولو أننا علمنا من عاشروا صغاراً وكيف استقرت ميولهم على طريقهم وماذا احبوا وماذا كرهوا ولو أننا علمنا مصاعبهم وعقباتهم وأذواقهم وشهواتهم والصخور التى يدركون أنهم بها اصطدموا وحالات ندمهم وأسفهم واذعانهم واعتزازهم بانفسهم [2]

هذا ولما لاموا ميسُن على نشر رسائل جري الخاصة قال أتريدون ان لا يظهر أصحابى للناس الا بكامل ملابسهم اهـ وكان

(1) ' Life ', 8 vo ed., p. 102.

(2) Autobiography of Sir Egerton Bruges, Bart., Vol. i. p. 91.

جُنسُن يرى لازما ان يعرف المترجم المترجم له اذا ما أريد ان تجيء الترجمة صحيحة غير ان هذا الشرط ساقط فى بعض من خيرة التراجم التى بين ايدينا [1] أما لورد كمبل فاحسب صلته الخاصة بلورد لندهرست ولورد بروم آفة كبرى لانها حملته على النقص من مزاياهما وتجسيم ما فى اخلاقهما من العيوب وجُنسُن يقول على من كتب سيرة ان يكتبها على حقيقتها فينبغى ان يذكر غرائب صاحب السيرة بل ورذائله لانها تكشف النقاب عن اخلاقه اهـ غير ان هناك عقبة لا تزول هى انه مراعاة للاحياء لا يتسنى فى جميع الاحوال نشر دقائق الاخلاق صالحة كانت أو سيئة وان كان خير مصدر لها المعرفة الخاصة بين المترجم والمترجم له واذا حان الوقت الذى يتسنى فيه سردها تكون قد أصبحت ولا أثر لها ولقد كان جُنسُن نفسه يستنكف ان يذيع كل ما كان يعلمه عن أهل عصره من الشعراء ويقول انه ان فعل أحس كانه يمشى على رماد لا يزال تحته وميض نار

لهذا ولغيره من الاسباب قل ان تجد من اقارب الرجل

---

(١) كان هذا الشرط ساقطا فى حالة بلترك وسوذى فى ترجمة نلسن وفرستر فى ترجمة جلد سمث على انه لا مندوحة من الاعتراف بان المعرفة الشخصية سر الجمال الاكبر فى اجركولا لتستس ومور لروبر وسفدج وبوب لجنسن وجنسن لبزول وسكت للكهرت وسترانج لكركيل وبيرن لمور

صورة لاخلاقه لم يصقلوها ويهـذبوها وهى من الرجل العظيم.
نفسه أبعـد مع ما فى ترجمة الرجل لنفسه من امتاع فان الرجل.
اذا كتب مذكراته لا يقول كل ما يعرفه عن نفسه وسنت
أجستين نادر لا حكم له فقل من الناس من يعملون عمله ويعرضون.
ماهم عليه من غرور واستئثار ومن حكم أهل نجد اسكتلندا لو ان
سيئات خير النـاس كتبت على جبينه لغطاها بقبعته وقال فُلتير
ما من انسان الا وفيه خلق يذم وما خلا امرؤ فى دخيلة نفسه.
من وحشية ولـكن قل من يصدقوننا الخبر عن كيفية سياستهم
الوحش الذى فى نفوسهم اه ولقد زعم روسو انه فى اعترافاته.
يكشف عن حقيقة امره وجلى انه كتم أكثر مما افشى بل ان
شَمفُور وقدكان آخر من يخشى رأى معاصريه أوقولهم فيه يقول
اظن مستحيلا على الانسان والمجتمع كما ترى ان يظهر سر نفسه
ويعرض تفصيلات اخلاقه كما يعرفها هو ولا سيما عيوبه ورذائله.
حتى على اصدق اصدقائه اه

نعم قد تكون ترجمة الانسان لنفسه صحيحة فى جملتها ولـكنها
قدتترك أثرا غير صحيح اذا لم تذكر من الحقيقة غير ناحية وقد.
تظهر صاحبها فى زى غير زيه فتظهر مما كان يود ان يكون أكثر
مما تظهر ما كان وقد تكون لصاحبها التماس اعذار وقد تكون.
الصورة الجانبية صحيحة ولـكن ما يدرينا لعل فى الصفحة الاخرى.

أثرا الجرح أو فى العين غير البادية حولا لو ظهر احدهما أو كلاهما
في الصورة لغير منظر الوجه وهؤلاء سكت ومور وسوذي
كلهم بدءوا لانفسهم تراجم ثم لم يتموها لما احسوا من أضر
المضى فيها وحرجه

هذا والادب الفرنسى حافل بضرب من مذكرات ترجمية
ليس فى الانجليزى من مثلها الا القليل كمذكرات سلى ودِكمين
ولوزن ودُرتز ودِتو ورشفكو وغيرهم وهى تتضمن ما لا يحصى
من دقيق أخبار الكثيرين من رجال التاريخ وتكثر فيها الاخبار
التى تمثل الحياة والاخلاق والدقائق التى قد تعد فضولا مما يغمر
بالنور الأعصر التى تكتب عنها فتنكشف عاداتها الاجتماعية
وحالة مدنيتها العامة بل فى مذكرات سن سيمن ما هو
اكثر من ذلك فيها تشريح للاخلاق عجيب فهى ابدع مجموعة
للتراجم التحليلية ويكاد سن سيمن يعد عيناً على بلاط لويس
الرابع عشر ، تملكته شهوة استطلاع الاخلاق ومحاولة استنباط
البواعث والنوايا بالتفرس فى وجوه من حوله وعباراتهم
واحاديثهم ولهوهم فانه يقول انى أدقق فى فحص الناس فارقب
افواههم واعينهم وآذانهم لا افترعن ذلك اه

وكان يدون ما يسمع ومايرى تدويناً حياً تتمثل فيه الجرأة
وكان بحذقه ونشاطه وقوة ملاحظته يهتك حجاب الحاشية

ويلتقط أسرارهم كأن دأبه على دراسة أخلاق الناس لا يقف عند حد بل لا أحسبه الا قاسياً قال سَن بوف لم يكن الطبيب أسرع منه الى اغماد المجس فى الجسم ليبحث عن الداء الذى أعياه.

وكان فى لَبْرِيير مثل هذه الموهبة موهبة الدقة وثاقب النظر فى الاخلاق فقد كان يرقب كل انسان حوله ويدرس طباعه. وكان يعمل على استكناه أسرار الناس حتى اذا رجع الى بيته أخذ يصفهم ويصورهم تصويراً ثم يرجع اليهم من آن لآخر ليعدّل ميزة فيهم بيّنه ويعكف عليهم شغفاً بهم كما يعكف المصور على صورة صادفت منه هوى ثم لا يزال يضيف اليها ويزيد فى تهذيبها حتى تخرج الصورة كاملة والشبه تاماً

قد يقال ان الذى يبعث اللذة والارتياح فى التراجم ولاسيما ما كان منها على الطراز المألوف الى سخيف القول أقرب كما يكون ذلك فى المذكرات الفرنسية التى أشرنا اليها من قبيل التشنيع وهو قول وجيه الا أن التشنيع وسخيف القول يبينان مبلغ اللذة التى يستشعرها الناس بعضهم فى بعض وظهورهما على هيئة تراجم هو الذى يبعث فى المطلعين عليهما أعظم الارتياح والسرور ويهذبهم خير تهذيب والواقع ان التراجم هى قسم الادب الذى يصادف هوى فى القسم الاكبر من القراء لانها غريزية فى الانسان.

سواء أكانت خيالا أم خواطر تبنى على القصص أم رواية انسان من نفسه

ولا مجال للشك فى أن اللذة الكبرى التى يستشعرها جل الناس فى المؤلفات الخيالية شعراً كانت أو نثرا أصل منشئها ما فى المؤلفات الخيالية من عنصر التراجم فان الفضل فى القبول الذى تحوزه الياذة همروس لدى القراء راجع الى المقدرة التى أظهرها مؤلفها فى تصوير أخلاق البطولة على أنه لا يسهب فى وصف أبطالها بقدر ما يدع أعمالهم تصفهم وتظهرهم قال جُنسُن فيما كتب هُمِروس من الابطال وصفات الابطال ما لا يحصى حتى أن القوى البشرية مجتمعة لم تخلق من عهد كتبه بطلا الا ومزاياه فى تلك الكتب اه

كذلك اقتدار شكسبير بدا فى وصف أخلاق الناس ونشأة انفعالهم وأن القارىء ليحسب الناس الذين فى كتبه حقيقيين لا خياليين حتى يكاد يراهم أمامه أحياء وكذا سرفنت فانا نجد بطله سنكو بنزا مملوءاً آدمية وان كان اعتيادياً غير راق وأن الاشخاص فى جل بلاس للساج وفى قسيس ويكفيلد لجلد سمث وفى مؤلفات سكت وهى أشبه بسجل جيوش كل هؤلاء الاشخاص نكاد نحسبهم حقيقيين موجودين كالاشخاص الذين نعرفهم بالفعل وما أكبر مؤلفات ديفو الا طائفة من التراجم

صورت بدقة تفصيلية قد طبعت كل صفحة من صفحاتها بطابع الحقيقة حتى انه ليصعب الاعتقاد بأن رُبِنسَن كروزو وكُلُنيل جاك خياليين لا حقيقيين

وعجيب أن يقل عدد العبقريين الذين يعالجون تأليف التراجم على حين أن أخصب الروايات الخيالية محصور فى حقيقة الحياة الانسانية وعلى حين أن التراجم لوصفها أقواماً أحسوا فعلا بأفراح الحياة وأحزانها ومارسوا فيها الفوز واعتراض العقبات قابلة لان تكون أكثر جاذبية من أحسن الروايات الخيالية سبكا فالمؤلفات الخيالية الكبرى كثير عديدها ولكن التراجم الكبرى تعد على الاصابع وربما كان لسبب مثل هذا ان المرحوم جُن فِلِب وهو من كبراء مصورى صور الانسان كان يفضل تصوير الموضوعات دون الاشخاص ويقول لا يأتى تصوير الانسان بما يوازى التعب فيه اه ولا يخفى أن كتابة التراجم تستدعى مجهوداً فى البحث وعناية فى جمع الحقائق وحكمة فى معرفة ما يرد وما يقبل وحذقاً فى التمحيص ودراية بصوغ المترجم له فى أكثر القوالب قبولا وأقربها الى الحياة أما فى الروايات الخيالية فذهن الكاتب حر فى خلق الاشخاص ووصفهم لا تعطله حاجة الى مراجع ولا تقيده تفصيلات السيرة الحقيقية لمن يكتب عنه

والمذكرات الضخمة ليست بالقليلة ولكنها لا حياة بها

فكثير منها لا تفضل السجلات الا قليلا وقد استعمل فى تأليفها المقص بقدر ما أجرى القلم وما قاله كُنستبل عن مصور غير ماهر ينطبق على طائفة كبيرة من الصور مكتوبة ومصورة قال ان هذا المصور ليخرج من رءوس من يصورهم كل ما فيها من مخ وعظم اﻫ نقول والمذكرات التى نحن بصددها كهذه الصور ليس فيها من الحياة الا بقدر ما فى صور الشمع أو صور الملابس على أبواب الخياطين ، نريد صورة المترجم له كما عاش ولا نجد الا معرضاً للمترجم نفسه ، نترقب ان نجد قلباً محنطاً فلا نجد الا ملابس

وان فى تصوير الصورة بالكلام لفناً عالياً كما فى تصويرها بالالوان فنٌّ عال ولا بد دون الاجادة فى كل من النظر الثاقب والريشة الماهرة والمصور الساذج المعتاد لا يرى غير ملامح الوجه فينقلها ولكن المصور القدير يرى الروح الحية ساطعة من خلال الملامح فينقلها ، طلب الى جنسُن أن يساعد قسيساً فى كتابة ترجمة لاسقف مات فلما أخذ يسأل عن المعلومات من القسيس وجده لا يكاد يستطيع ان يقول شيئاً ومن هنا اهتدى جنسُن الى قوله قل بين من يعاشرون الرجل من يعلم ماذا يقول عنه اﻫ

أما فى ترجمة جنسُن فقد استطاع بُزِول بنظره الثاقب أن

يلاحظ ويدخر الدقائق من عادات المترجم له وحديثه وهذا جل ما يجعل التراجم ممتعة وبسبب بساطة بُزِول فى محبَّته واعجابه ببطله نجح حيث يحتمل أن يفشل جل الناس ولقد تنزل فى الترجمة المذكورة الى دقائق تبدو فى ظاهرها تافهة وهى غاية فى البيان من ذلك أنه يعتذر عن احاطة القارىء علماً بأن جُنْسُن كان فى أسفاره يحمل فى يده عصا بلوط انجليزية ضخمة ويقول أذكر أن آدم سميث أخبرنا فى درس البلاغة بجلاسجو أنه فرح لما علم ان مِلتُن كان يستعمل فى حذائه الخصف لا الابزيم اهـ ثم أن بُزِول ينبئنا كيف كان جُنْسُن ينظر وأى لباس لبس وماذا كان كلامه وعيوبه وهكذا تراه قد صوره بكل ما فيه وأبدع بها من صورة ربما كانت أحكم ما صور كتابة من صور العظماء

ولولا ما كان بالمصادفة من اتصال هذا المحامى الاسكتلندى بجُنسُن واخلاصه فى الاعجاب به لكان محتملا أن لا يكون لجُنسُن هذه المنزلة العالية التى له بين رجال الادب فانما حياته الحقة فى الصفحات التى خطها بُزِول ولو لا بُزِول لجاز أن يبقى جُنسُن مجرد اسم فغيره من المؤلفين خلفوا للسلف مؤلفات كبرى ولا يعرف من حياتهم ما يعد شيئاً مذكوراً

فهل من شيء لا نجود به فى سبيل الحصول على ترجمة لشكسبير كترجمة بُزوِل لجنسن واننا لنعلم من حياة سقراط وهوراس وسِسِرو واُجَستِن أكثر مما نعلم من حياة شكسبير لاننا لا نعلم ما عقيدته ، ما مذهبه السياسى ، ما تجاربه ، ما علاقاته مع معاصريه ولا نحسب أهل زمانه أدركوا مقدار عظمته وكان عند الناس لِبن جُنسُن منزلة اسمى مما كان لشكسبير عندهم وبِن جنسن كان شاعر البلاط وكان شكسبير يحفظ شعره وينشده على مسرح التمثيل وكل ما نعرفه عن شكسبير أنه كان ناجحاً فى ادارته التمثيلية وأنه فى مقتبل العمر اعتكف فى مسقط رأسه وفيه مات لم يكرم عند وفاته الا بجنازة من جنازات القرى ولم يكن القسم الاعظم من تأليف ترجمته الا نتيجة الاستنتاج لا نتيجة ملاحظات من معاصريه ولا مدونات من اخباره وخير سيرة الرجل الداخلية مسطور فى الاغانى من شعره

وليس للناس دائما دقة فى تقدير معاصريهم فالسياسى والقائد والحاكم ملء عيون جيلهم وآذان أهله وقد يكون الواحد منهم عند أهل الجيل الذى بعده كأن لم يكن وكان المصور جروز يسائل ابنته من المَـلِك اليوم يسائلها والثورة الفرنسية على أشدها والعظماء المؤقتون يطفون طفرة ثم يذهبون فلا يرجعون ثم يقول جروز من الملك اليوم أنى لأرى اخواننا هُمِروس ورفائيل

أبقى على الدهر من اخواننا من عظمائنا الذين لم اسمع باسمهم من قبل اه على أنا لا نعلم شيئاً من سيرة هميروس الخاصة وقليل ما نعلمه عن سيرة رفائيل بل هذا بلُتَرك وهو المجيد فى الترجمة لغيره لا ترجمة له ولم يذكر اسمه أحد من كبار كتاب الرومان الذين عاصروه وكذلك كُرِجيو وهو المجيد لاخراج ملامح الناس لا تعرف له صورة صحيحة

لكن من الناس من أثروا فى عصرهم تأثيراً كبيراً وكانت سمعتهم فى الاجيال التى جاءت بعدهم أكبر منها فى جيلهم هذا وعلمنا بسيرة وِكلِف أبى الاصلاح الدينى ضئيل ولم يكن نداؤه الا صرخة فى واد ولا نعلم على التحقيق من الذى الف « التشبه بالمسيح » وهو كتاب ذاع وشاع واتسع نطاق تأثيره فى العالم المسيحى وينسبونه عادة الى تُومَس آ كمِبِس غير أن هناك ما يدعو الى الظن بأنه لم يكن الا ناقله والكتاب الذى له حقيقة (1) أقل كثيراً من التشبه حتى أنه ليصعب علينا الاعتقاد بأن الكتابين بقلم واحد والرأى الأكثر احتمالا للصواب ان المؤلف الحقيقى جن جرسُن رئيس جامعة باريس المتوفى سنة ١٤٢٩ وكان من اعلم الناس واتقاهم

ومن أكبر العبقريين من تراجمهم اقصر التراجم وليس لدينا

---

(1) The 'Dialogus Novitiorum de Contemptu Mundi'.

سيرة خاصة لافلاطون وهو أحد الذين يعدون أصولا للفلسفة الادبية ولا نسمع شيئاً عن زوجه واولاده ان كان له زوج وأولاد اما ارسطو فتضارب الآراء فى سيرته كثير فمن قائل كان يهوديا ومن قائل كان تاجر عقاقير ويذهب آخر الى أنه كان ابن طبيب ويزعم غيرهم انه كان ملحدا وعند آخر انه يقول بالتثليث وهلم جرا ويكاد علمنا بكثيرين ممن هم أقرب منه عهدا لا يزيد على علمنا به فما أقل ما نعلم عن سيرة سبِنصَر وعن سيرة بَتْلَر غير أنهما عاشا مجهولا أمرهما وماتا معدمين وما أقل ما نعلم عن جرِمى تيلَر الواعظ وهو من نود لو علمنا عنه شيئا كثيراً

قال مؤلف فِلِب فَن آرتفِلد الدنيا لا تعرف شيئاً عن خولها اه ولا مراء فى ان النسيان قد اتى على كثيرين ممن قاموا باعمال عظيمة ويقول أُجستِن فى رُمَنينس أنه أكبر من وجد من العبقريين على أننا لا نعرف عنه الا اسمه ، نسى كما نسى بناة الاهرام ولقد كانت الكتابة على قبر جُرِدِيَانِى بخمس لغات فلم يكن ذلك جُنَّةً له دون النسيان وكم من سير خليقة أن تدون ولَم واحسن الناس حظا من هذه الوجهة المؤلفون فلهم لدى الادباء جاذبية ليست لمن حياتهم فى أعمال يأتونها ولقد كتبت تراجم لشعراء الملوك على أنهم لم يكونوا الا رجالا اعتياديين من رجال عصرهم دون غيره وبعضهم كَادمَند سمِث وغيره يرد ذكرهم فى

تراجم الشعراء لجنسن مع أن شعرهم غير معروف الآن ومن رجال الادب كجلد سميث وستيرن وستيل من كتبت لهم تراجم عدة على حين ان كبار رجال العمل ورجال العلوم الطبية ورجال الصناعة لا يذكر عنهم شيء (١)

قدمنا ان الرجل قد يعرف بجلسائه من الكتب فنذكر الآن طائفة من احبها الى أشهر الرجال ، سبقت الاشارة الى المعجبين بپلُتَرك وزيدان مُنتَنى كان رفيقاً لجل المفكرين وعجيب ان يكون كتاب منتنى هو الكتاب الذى نعلم يقينا أنه كان فى مكتبة شكسبير وان كان شاعرنا قد درس كتاب بلُتَرك دراسة دقيقة ونقل عنه كثيرا حتى أنه كان ينقل بعض عبارات بنصها فلقد وجد اسم شكسبير بخطه فى نسخة من ترجمة المقالات لفلُريو وفى صدر هذه النسخة أيضاً اسم بِن جُنسُن بخطه

أما ما كان أحب الكتب الى ميلتُن فكتب هُميروس واُفيد ويُربيدس وكان كتاب الاخير منهم أحب الكتب الى فُكس وكان يرى فى دراسته فائدة خاصة للخطيب ثم ان بِت كان يستشعر لذة خاصة فى كتابة ملتُن ويرتاح لان ينشد من الفردوس الضائع خطبة

(١) ترجم لسير تشارلس بل وهو من أكبر علماء الفسيلوجيا عندنا فرنسى هو أمدى بشو ولا يزال باب كتابة ترجمته مفتوحاً وان كانت رسائله الى أخيه قد نشرت وقد يكون لنا أن نقول هنا أن خير ترجمة لجيّى كتبها انجليزى وخير ترجمة لفردريك الاكبر كتبها رجل من أهل اسكتلندا

بليال فى اجتماع بَندِمونـيَم ولـكن فكس كان لا يجد فى كتاب ملتن لذة وكان من بين أحب الـكتب الى بِت كتاب [١] لنيوتن ثم ان أحب الـكتب الى ارل تشـتَم كان (عظات بِرو) وكان يقرأها كثيراً حتى يستطيع ان يلقيها عن ظهر قلب اما رفاق بِرك من المؤلفين فدِمستين و مِلتُن وبُلِنجبروك وآراء الليل ليَنج

وكان أحبها الى كَرَن هُمرِوس وكان يقرؤه مرة فى العام وكان من احبها اليه فرِچيل وعن مترجم حياته فِلِبس أنه رآه مرة يقرأ «اينيد» فى مخدع من مخادع هولِهِد على حين ان جميع من حوله كانوا ملقين مصابين بدوار البحر

وفى الشعراء كان أحب الـكتب الى دَنتى فِرچيل واحبها الى كُرِنىّ لوكَن واحبها الى شِلَر شكسبير واحبها الى جرِى سبِنْصر وكان كلرِدج يعجب بكلِنس وبولز وكان دنتى نفسه أحب الشعراء الى أغلب المفلقين منهم من تشوسَر الى بَيرُن وتِنِسُن وكذلك لوردبرَوَم ومكولى وكَرلَيل كانوا يعجبون بشاعر ايطاليا العظيم ويمتدحون شعره وكان أول من ذكرنا من هؤلاء يقول للطلبة فى جلسجو ان قراءة شعر دنتى خيرمايعين بعد دِمُستينِس الخطيب والمدره على الفصاحة وكان رُبَرت هول يلتمس بقراءة شعر دنتى راحة مما كان يقاسيه من الآلام فى مرضه بالنخاع الشوكى

---

(1) Principia

وكان سِدنى سمِث فى شيخوخته يلتمس الراحة والسلو فى شعر هذا الشاعر ومن خصائص جُيتى ان كان أحب الـكتب اليه الاخلاق لاسبنوزا وكان يقول أنه يجد فيه راحة وسلوا لم يوفق الى مثلهما فى غيره من الـكتب(١)

وكان احبها الى بَرْو كِرسُتمُ والى بُسوى هُمِروس والى بَنيَن الاسطورة القديمة لسِر بِقِس أُف سوَتمبتُن وربما كانت هى التى أمدته بأول فكرة من قصته الشهيره ويقول جُن شارب وهو من خيرة رؤساء الاديان فى انجلترا شكسبير والانجيل هما اللذان جعلانى كبير اساقفة يورك وكان افعل الـكتب فى نفس جُن وِزلِى زمن شبابه كتاب التشبه بالمسيح وكتاب تقوى العيش والموت لجِر مِى تيلَرعلى ان جُن وِزلى كان يحذر الشبان من اخوانه الاكثار من المطالعة ويقول لهم حذار ان تبتلعكم الـكتب فأن قليل المحبة خير من كثير العلم

وكثيرون من مفكرى القراء يحبون ترجمة وِزلى ويقول كُلِردج فى مقدمة ترجمة وِزلى لـكاتبها سَوذى انها كانت أكثر من سائر كتبه تداولا فى يده ويقول كانت هذه الترجمة وترجمة رِتشَرد بَكستَر ملاذى كلما احسست لمرضى وملى بالحاجة الى صديق

(١) غريب أن يرى «شلير ماخر» وهوذلك التقى فى كتاب سبنوزا ومزاياه مثل مارأى جيتى مع أن اليهود يقولون بحرمان سبنوزا والمسيحيون يقولون بزندقته

قديم لا أمل مجلسه وكم من ساعات نسيت فيهـا نفسى ترجع الى سيرة وِزلى وكم ناقشتها وساءلتهـا وجادلتها والححت عليها ثم استسمحتها ثم عدت أصغى اليها وأصيح هذا حق ، هذا رائع ثم فى أوقات الشدة الـكبرى أرجع اليها وكأنى أتوسل اليها ان تحادثنى لانى سمعت منها وأصغيت اليها وأطمأننت وان لم استطع جوابا[1]

ولم يكن لسوميه فى مكتبته الا كتب قليلة جداً ولـكنهـا كانت من خيرة الـكتب لانها كانت همروس وفرجيـل ودنتى وكـمُيـنز وتَستو وميلتُـن واماالكتب القليلةالتى كان يحبهادِكونسى فـكانت دُنْ وتشِـلِنجورث وجِرِمى تيـلَر وميلتُـن وسَوث وبَرو وسير تومَس برَون وكان يقول عن هؤلاء المؤلفين انهم سـبعة انجم لا نظير لهم من الـكتاب فى بابهم وانه يستطيع ان يخرج من مؤلفاتهم مذهبا فلسفيا كاملا

اما فِـردرِك الـكبير فبدت ميوله الفرنسية القوية فى مختاره من الـكتب وكان أحبها اليه بيل وروسو وفُـلتير ورُلَـن وفلورى ومَلبرَنش وانجليزى واحد هو ُلك وكان اخصها بحبه قاموس بيل أول كتاب تمكن من نفسه وبلغ من منزلته عنده أنه اختصره وترجمه الى الالمانية والترجمة مطبوعة ومن المـأثور عن فردرك قوله الـكتب جزء من السعادة لا يستهان به وفى شيخوخته كان

(1) Preface to' Southey's 'Life of Wesley' (1864)

يقول ستكون آخر شهواتى شهوة الادب.

وكان أحب الكتب الى مرشل بلوخر (المسيح) لكلبستك وربما رأيت ذلك غريبا كما ترى غريبا ان يكون أحب الكتب الى نابليون ديوان أُسيان وآلام فِرتر غير ان قراءة نابليون كانت بعيدة المدى واسعة النطاق تناولت هُميروس وفرجيل وتَسو وروايات من كل بلد وتواريخ لكل زمن وعلوما رياضية وتشريعاً وفقهاً وكان يبغض ما يسميه هراء فُلتير وغثه وكان لا يمل مدح هُميروس وأُسيان قال لاحد ضباطه وهما فى السفينة بلرُفُن أ كثر من قراءة شعر شاعر اشيل واقتل شعر أُسيان بحثا فشعرهما الذى يصعد بالروح ويكسب الانسان العظمة الضخمة (١) .

---

(١) كان نابليون يعنى بقراءة شعر ملتن روى عنه سير كولن كمبل وكان معه فى جزيرة « البا » انه استمد حركة من حركات (مدفعيته) كان لها اثر بين فى انتصاره فى وقعة « استرلتز » من ابيات لملتن وردت فى الباب السادس وفيها يصف الشاعر خدعة لابليس فى حربه مع ربه فيقول :

ذو دهاء اتى بعدة حرب جرها فى مربع محجوب
بكراديس من جميع النواحى كسياج تخفى خداع الحروب

قال مستر أدوردس فى كتابه عن خزانات الكتب كون هذه الابيات لها وهو ما لا مرية فيه صلة أو مناسبة بحركة من الحركات ذات الشأن فى وقعة استرلتز يجعل لهذه الحكاية وجه لذة خاص لكن نسبة الظفر فى الوقعة المذكورة الى هذه الحركة اثر من آثار الخيال العالى واما بقية حواشى الحكاية فلا اعلق عليها الا بأن مما يؤسف له ان نابليون كان قبل ان يعرف شيئا عن ملتن قد حذق من فنون الحرب الشيء الكثير اهـ

وكان دوق ولِنجتن كثير المطالعة وكان أحب الكتب اليه كلَرِندُن والاسقف بَتلر وثروة الامم لسميث وهيوم والارشدوق تشارلس ولزلى والانجيل وكان يعجبه بنوع خاص الفرنسى والانجليزى من المذكرات ويقول مستر كليج أن الانجيل وتقوى الحياة والموت لتيلَر و « الخواطر » لقيصر كانت فى ولمر قريبة من الدوق ولا بد من أنه كان يقرأها كثيراً ويرجع اليها كما يرى مما عليها من علامات الاستعمال

واذا كانت الكتب من خيرة الرفاق فى الشيخوخة فهى فى كثير من الاحوال خير ملهم فى الشباب وقد يكون أول كتاب يصادف هوى فى نفس الشباب العامل فى تكوين الدور الاكبر من حياته فلقد ينبه قلبه ويلهب حماسته ويترك فى أخلاقه أثراً باقياً بما يحدثه من توجيه مجهوده وجهات لم تكن متوقعة وقد يكون لنا من الكتاب الجديد نتعارف فيه بصديق جديد مكوِّن لبداية خطيرة فى الحياة

فيوم أن قدم الى جيمس ادورد سميث أول كتاب من كتب دراسته فى النبات ويوم أن وفق سير جوزف بانكس الى كتاب جِرَرد فى الأعشاب ويوم أن قرأ ألفيرى لأول مرة كتاب بلُتَرك وعرف شِلر شكسبير وقتل جِبُن الجزء الأول من التاريخ العام بحثا كل واحد من هذه الأيام كان تاريخاً لالهام

عال هبط على صاحبه فأحس كأن حياته لم تبدأ الا اذ ذاك

هذا وكان لَفُنتين في أوائل شبابه معروفاً بخموله ولكن يقال أنه سمع قصيدة لملِرب تنشد فصاح وقال وأنا أيضاً شاعر ثم انتبهت عبقريته وأول ما بعث في نفس شرل بُسويه حب القراءة اطلاعه في أوائل أيامه على تقاريظ رجال العلوم الطبيعية لمؤلفه فُنتِينِل ولفنتنل مؤلف آخر في تركيب العوالم كان ذا الأثر في نفس لَلَند وهو يتخير لنفسه مهنة ويقول للند نفسه في مقدمة لهذا الكتاب اعترف والسرور ملء قلبي بفضله عليّ في قدرتي على البحث وهي قدرة أول ما بعثها في نفسي وأنا في السادسة عشرة قراءته وهذه القدرة لم تفارقني حتى الساعة

كذلك لَسبيد وجهه الى دراسة التاريخ الطبيعي قراءة كتاب بُفُن وكان قد عثر عليه في مكتبة أبيه وما زال يقرأه حتى كاد يحفظه عن ظهر قلب وكان لقراءة جُيتي رواية جلد سمث المسماة قسيس وِكفيلد ابان تفتق ذهنه تأثير فيه كبير والى هذه الرواية ينسب جيتي كثيراً من أفضل تربيته كذلك قراءته ترجمة نثرية لجِترفُن برلشنجن دفعته الى وصف أخلاقه شعراً وكان يقول لقد حرك في أكبر عطف صورة عصامي على الفطرة حسن النية في زمن عصيب عمت فيه الفوضى

وكان كيتز في صباه قارئاً لا يقنع غير أن أول ما أزكى نار عبقريته قراءته ملكة الجن وهو في السابعة عشرة من عمره ويقال أن هذه القصيدة نفسها هي التي ألهمت كولي وكان قد وجد نسخة مصادفة على نافذة في حجرة أمه وبقراءتها والاعجاب بها صار كما يقول هو عن نفسه شاعرا لا يرجى برؤه من الشعر .

ولكليردج كلام في الأثر العظيم الذي كان لقصائد بولز في تكييف ذهنه وبهذه المناسبة يقول ان مؤلفات الاعصر الخالية يخالها الشاب لجنس غير جنسه أما كتابات أهل عصره ففيها له حقيقة وهي تلهمه صداقة فعلية كصداقة الانسان للانسان وهذا الاعجاب الذي يقوم بنفسه كالريح الطيبة تهب على أمله وتغذيه والقصائد تتجسم أمامه حتى تصير لحماً ودماً (١) .

ولم يقتصر تأثير الكتب في الناس على تنبيههم الى المضي في مهنة الأدب بل قد نبهتهم الى سلوك سبيل الجد في أعمال الحياة الخطيرة فلقد اشتد ميل هنري مرتن الى سلوك سبيل التبشير وكانت حياته فيه مفعمة بالبطولة وكان سبب هذه النزعة فيه اطلاعه على ترجمة هنري برنير ودكتور كيري لأنهما خطا له الخطوط التي مضى فيها وبذر بذوره

ووصف بنتم ما كان لقراءة تليماك من التأثير الشديد في نفسه

---

(1) Biographia Literaria

أيام صباه وفى هذا يقول التى الىّ كتاب آخر أعلى نزعة (يعنى من قصص جنّ يشير اليها) ذلك كتاب تلماك ففى خيالى وفى سن ست أو سبع سويت بين نفسى ونفس هذا البطل وكان يخيل الىّ أنه نموذج الفضيلة التامة وفى كل حادثة من حوادث حياتى مهما كانت كنت أقول فى نفسى لِمَ لا اكون كما كان تلماك ، ألا وان هذه القصة ليصح اعتبارها أساس بناء أخلاقى كلها وبداية شوط حياتى وعندى أنه قد يرجع اليها أول ما لاح فى ذهنى من فجر كتابى أصول المنفعة (١)

وأول كتاب نال الحظوة لدى كُبت « قصة السلة » لسوفت نال الحظوة لديه لانه لم يملك كتابا غيره وكان قد اشتراه بثلاثة بنسات ولا نزاع فى أن قراءته اياه المرة بعد المرة لها دخل فى تكوين أسلوبه الكتابى وما فيه من ابداع واستقامة ومتانة ويحتمل أن الابتهاج الذى بدا فى بوب وهو صبى بالمكتب عند قراءته هُمِروس كان الدافع الى كتابة الالياذة الانجليزية كما كانت مجموعة برسى فى الشعر القديم (٢) الدافع الى كتابة سكُت أغانى التخوم لما

(1) Sir John Bowring's 'Memoirs of Bentham,' p.10.

(٢) هى مجموعة شعر انجليزى قديم نشرها عام ١٧٦٥ تومس برسى أسقف درمور فى ارلنده وهى مبنية على مجموعة بخط اليد وجدها برسى هذا مع خادم وكانت على وشك أن توقد بها ناراً

أذكت من ذهنه الفتى وحركته الى المضى فى جمع تلك الاغانى وتدوينها ، وقراءة كيتلى الفردوس الضائع وهو فى صباه جرت الى تأليفه فيما بعد ترجمة مِلتُن وفى ذلك يقول كيتلى أن قراءة الفردوس الضائع لأول مرة لتكوّن أو ينبغى لها ان تكوّن دوراً خطيراً فى حياة كل من كان ذا ذوق واحساس شعرى ولا يزال هذا الدور حاضراً فى ذهنى ومن عهده لا زلت أدرس شعر ملتن ولى منه فى الرخاء ينبوع نعيم وفى الشدة ينبوع جلد وسلوّ

فأنت ترى أن الكتب الصالحة من خيرة الرفاق وأنها بمثابة جُنة دون أسافل البيئات لما تحدثه من النهوض بالافكار والآمال، يقول توَمس هُد ربما كان لى من ميلى الفطرى للمطالعة والاعمال العقلية جنة دون الدمار الادبى الذى يهدد من حرموا فى أوائل أيامهم ارشاد آبائهم وانى لأرى كتبى قد وقتنى شر زمر السوء والبؤر والمواخير وبيوت الدعارة فان العقل ذا الاتصال المتين ببوب وأدِسُن والنفس التى ألفت حديث شكسبير وحديث مِلتُن الجليلين على صمتهما لا يكادان يسعيان الى فاسد البيئات أو يندمجان فى جماعات الطغام اه

ولقد قيل وهو قول حق أن خير الكتب ما كان بصالح الاعمال أشبه لأنها تنقى وترفع وتقوى وتوسع العقل وتطلقه من عقاله وتقيه سفالة الدنيا وتبث فى الانسان البشر الراقى

واعتدال الأخلاق ثم هى تكيف النفس وتشكلها وتكسبها الانسانية ، وفى الجامعات الشمالية يسمون المدارس التى تدرس فيها الآداب القديمة معاهد الانسانية وهو اسم يلائمها (١)

بل يذهب ارَسمَس وهو الخبير بالكتب وما حوت الى أن الكتب من ضرورات الحياة وأن الملابس من كمالياتها ولقد طالما أجّل شراء ما يلزمه من الملبس حتى يحصل على ما يريد من الكتب وكان أحب الكتب اليه مؤلفات «سِسِرو» ويقول أنه كان يحس بتحسن فى نفسه اذا قرأها ثم يقول لا أستطيع قراءة ما كتب سسرو فى الهرم والصداقة ولا قراءة كتابه (٢) دون تقبيلها تقبيل المشوق ودون أن يملكنى اجلال ذلك العقل

---

(١) لا مشاحة فى أن دراسة الآداب تهذب العقل اكبر تهذيب رغماً مما رميت به حديثاً منى أنها مضيعة للزمن على غير جدوى فان آداب القدماء أرق نماذج الفن الادبى واكبر الكتاب هم اكثر الناس انكباباً عليها وكانت التربية الادبية الوسيلة التى استخدمها ارسمس ورجال الاصلاح فى تطهير أربا ، وزعماء الوطنية فى القرن السابع عشر امتازوا بالتفوق فيها ولا تزال من ذلك العهد ميزة فى اكبر ساستنا ، قال أحد كتاب الانجليز لا أدرى لعل الاخذ والعطاء مع الاقدمين يحدثان عند المثابرين على ممارستهما اصالة فى الرأى وتثبيتاً فى صحة الحكم على كتب الادب بل وعلى الحوادث والناس فتراهم كأنهم اكتسبوا خبرة عظيمة وهم اكثر من غيرهم من الناس قدراً للحقائق الواقعة واكثر استقلالا عن أساليب القول المألوفة بين من هم معهم عائشون اهـ

(2) Tusculan Disputations

الذى يكاد يكون مهبط وحى اه

وقراءة سنت أجستن كتاب هرتنسيس لسسرو (وكانت مصادفة) هى أول ما انتشله من الفساد وكان قبلها شهوانياً منهمكا فى المفاسد، انتشلته وهدته الى طريق البحث والدرس الذى أدى به الى أن صار أعظم السلف من رءوس الكنيسة وكان من عادة سير وليم جونز أن يقرأ ما كتب سسرو مرة فى كل عام وكانت حياة سسرو القدوة العظمى له كما قال مترجمه

ولما سرد بكستر ذاك الشيخ الصالح الأشياء القيمة الممتعة التى يحرمه اياها الموت اتجه ذهنه الى السرور الذى كان يجده فى الكتب ودراستها فهو يقول اذا مت فارقت الملاذ الحسية بل فارقت معها ملاذ هى بمقام الرجولية أليق تلك ملاذ الدراسة والعلم ومباحثة الكثيرين من الحكماء والملهمين وفارقت كل ما أجد من لذة فى القراءة والتلقى والعبادة فى الجماعة وفى الانفراد، اذا مت تركت مكتبى ولم أعد أقلب صفحات تلك الكتب الجميلة وحتم علىّ أن لا أظهر بين الأحياء وأن لا أرى وجوه أصدقائى الأمناء ولا يرانى من البشر أحد فالبيوت والمدن والحقول والاقطار والمدائن والمتنزهات كلها تكون لى كلا شىء ولن يصل الى سمعى شىء من شئون الدنيا ولا من أخبار الناس ولا الحروب ولا غيرها من الانباء ولا أشهد

ما يكون من أمر الحكمة والتقوى والسلم وهى التي أحبها وأتمنى لها السيادة اه

ولا نرى الحاجة ماسة الى الافاضة فى بيان الأثر الأدبي العظيم الذى كان للكتب فى مدنية العالم من الانجيل الى ما جاء بعده ففيها كنوز العلم الآدمي ، والكتب دواوين ما كان فى العلوم الكونية والفلسفية والدين والاخلاق من مجهود وانتاج وتفكير ونجاح وفشل بل هى أكبر القوى المحركة فى جميع العصور قال دِبْنَال الكتب من عهد الانجيل الى عهد العقد الاجتماعى هى التى أحدثت الانقلابات اه ولو حققنا النظر لوجدنا الكتاب العظيم فى كثير من الاحوال أكبر شأناً من الوقعة الحربية بل قد كان للكتب الخيالية فى بعض الاحايين أثر فى المجتمع كبير فربلى فى فرنسا وسيرفنت فى إسبانيا نسخا دولة الرهبانية ودولة الفروسية لا يستخدمان فى ذلك سلاحاً غير الاستخفاف ، وهو بالفطرة الضد لطغيان الانسان ، فضحك الناس وأحسوا بالطمأنينة وكذا تليماك ظهر فرد الناس الى أنظمة الفطرة

ويقول هزلت الشعراء أبقى من الابطال وأكثر منهم استنشاقاً لجو الخلد وأكمل منهم بقاء بأفكارهم وأفعالهم وانا لنعلم كل ما ألف فرجيل وهُمِروس كأننا عاصرناهما ونستطيع

أن نجعل مؤلفاتهما فى أيدينا أو نضعها على وسائدنا أو نلثمها بشفاهنا أما الابطال الصناديد فلا يكاد يبقى لهم على الارض أثر تراه العين فالمؤلفون وان ماتوا أحياء تراهم فيما كتبوا يتنفسون ويتحركون وغزاة العالم رماد فى وعاء ذلك لان العاطفة والشعور ان شئت بين الفكر والفكر أمتن وأقوى من الشعور بين الفكر والعمل فالفكر متصل بالفكر كما يتصل اللهب باللهب أما ما ينال الابطال الغابرين من الاعجاب فأشبه بالبخور يحرق فى أثر من الرخام ، والاقوال والفِكَر والاحساس تجمد بمضى الزمن وتنقلب مادة أما الاشياء والاجسام والاعمال فتفنى وتنقلب صوتاً وهواء رقيقاً وليست أعمال الرجل وحدها هى التى تزول بزواله وتفنى بفنائه بل فضائله وسجاياه تموت بموته أيضاً لا يخلد الا ذهنه فيرثه الخلف من بعده موفوراً ولا شىء غير القول يبقى الى الابد [1]

---

(1) Hazlilts' Table Talk: 'On Thought and Action'

عشرة الزوجية

جعلت حبى لذات الرفق والدعة   لا للمليحة ذات الحسن والخفر

شكسبير

حكمة من البعولة ورقة من أزواجهم

جورج هربرت

لو قضى ربك أن تكون المرأة قوامة على الرجل لخلقها من رأسه ولو أرادها عبداً له لخلقها من قدمه لكنه أرادها صاحبة له ونداً فخلقها من جنبه

سنت أُجَستِن

من الموفق الى المرأة الفاضلة ، انها أغلى من الياقوت ، بعلها يعرف فى المجالس ويجالس الكبراء ، لباسها القوة والشرف ونصيبها فى الآخرة النعيم ، ان نطقت فبالحكمة وفى لسانها شريعة الرفق ، تحرص على مزاج بعلها ولا تتبلغ بزاد الخمول ، يدعو لها أبناؤها وبعلها يثنى عليها الثناء الجميل

من حكم سليمان

أخلاق الرجل والمرأة تتأثر كثيراً بالعلاقة بينهما فى كل دور من أدوار الحياة ولقد سبق لنا الـكلام فى أثر الام فى أخلاق أولادها وعلمنا أنها الموجدة للجو الادبى الذى يعيشون فيـه تقوم به عقولهم وأرواحهم كما تقوم بالجو المادى الذى يستنشقونه أجسامهم وأبدانهم ، والمرأة بفطرتها مربية الرضيع ومعلمة اليافع ودليل الشاب وناصحته ورفيق الرجل وموضع سره تبعاً لعلاقاتها به من أمومة وأخوة وحب وزيجة فتأثيرها قل أم كثر حسن أو ساء يتناول كل مصير للرجل

ولقد بينت الفطرة ما لـكل من الرجل والمرأة من وظيفة وما على كل من واجب فى المجتمع فلقد خلق الله الرجل وخلق المرأة ليؤدى كلٌ ما يصلح له وليسد الفراغ الذى من أجله خلق فلا يتسنى لاحدهما أن يحل محل الآخر أو يؤدى وظيفته بل وظائفهما المختلفة بينة منفصل بعضها عن بعض ، فللمرأة كيانها كما للرجل كيانه وبينهما على استقلال كل منهما عن صاحبه صلات ، ومقتضيات الجنس البشرى تستدعى وجودهما معـاً ولا بد من دخولهما فى كل اعتبار لرقى المجتمع

وهما وان تساويا رَفَاقَـة متفاوتان قوة فالرجل أقوى بنية وأمتن عضداً وأصلب عوداً والمرأة أكثر رقة واحساساً وتنبه أعصاب والرجل أكبر من المرأة ذهناً أما هى فأكبر منـه قلباً

واذا كان للرأس الحكم والغلبة فللقلب التأثير والنفوذ وكل من الرجل والمرأة مهيأ لما خلق له من الاعمال فى الحياة فمن العبث أن يُحمل الرجل على عمل المرأة أو تُحمَل هى على عمله نعم قد يكون الرجل بالنساء أشبه وقد تكون المرأة بالرجال أشبه لكن ذلك نادر لا حكم له وشاذ ينصر القاعدة

اذن مع التسليم بأن صفات الرجل أكثر صلة بالعقل وصفات المرأة اكثر صلة بالقلب لا بد من أن نربى قلب الرجل كما نربى ذهنه ونربى ذهن المرأة كما نربى قلبها فالرجل بلا قلب والمرأة بلا تمييز ولا فطنة سواء فى عدم الصلاحية للمجتمع الراقى المتحضر ، وتقوية جميع نواحى الانسان الادبية والذهنية لازمة فى تكوين الرجل والمرأة حتى يكونا سليمى الاخلاق قويميها فالرجل بلا عطف ولا مراعاة لاحساس الناس مخلوق حقير ناقص مبتذل استئثارى والمرأة وان راع جمالها اذا لم يرب ذهنها لا تكاد تفضل اللعبة قد تُؤنق فى الباسها

كان الرأى المألوف فى المرأة أن أكبر البواعث على الاعجاب بها ضعفها وكونها عالة على غيرها قال سير رتشَردستيل اذا مثلنا الكرامة فى الرجل وصفناه بالحكمة والشهامة لانهما من لوازم الرجولية أما المرأة الفاضلة التى يجب لها الثناء فينبغى أن يتوافر فيها اللين فى دعة والخوف فى رقة وكل السجايا التى تفرق بينها

و بين الرجل مع شيء من انحطاط عنه يحببها اليه اهـ

فأنت ترى أنهم كانوا يذهبون الى وجوب أن تنمى فيها مواضع الضعف لا مواضع القوة وحماقتُها لا حكمتُها والى أن تكون مخلوقة ضعيفة خوّافة بكّاءة ناقصة لا خلق لها ولا تمييز سوى شيء يسير يكفى لفهم ليّن السفساف الذى يدلى به اليها الجنس الذى هى دونه وكانوا يرون أن تربى لتكون متاع زينة للرجل لا مخلوقاً مفكراً مستقلا من حيث هى زوج أو أم أو رفيق أو صديق

ويزعم بوب فى رسالة من رسائله الاخلاقية أن جل النساء عطل من الاخلاق ويقول أيضاً

تلوُّن الغيد نصف الحسن فى الغيد
الغيد تنظر مثل اللون فى الزهر
يُجمّلُ الغيد ان النقص شيمتها
ورقة الغيد بنت الضعف والخَوَر

هذا الهجو وارد فى رسالته الى مَرثا بلَونت صديقته التى تملكته تملك المستبد الطاغية وفى الابيات ذاتها حملة على السيدة ميرى وُرتلى مُنتيجو وكانت قد شغفته حباً وعرض نفسه عليها فرفضته رفض اهانة واحتقار ، لكن بوب لم يكن بالصحيح الحكم على النساء ولم يكن فى حكمه على الرجال على شيء كثير من

الحكمة ولا من التسامح

ولا يزال مألوفاً بيننا تشجيع مواضع الضعف دون مواضع القوة من المرأة والعمل على جعلها جذابة بدل أن نعلمها الركون الى نفسها فصحتها بدناً وعقلا تضحى فى سبيل تقوية جانب الحس منها وليس لها عيش ولا حركة ولا كيان الا من عطف غيرها عليها بل زوجها ملحوظ فيه أن ينجذب اليها ثم هى تجمل بالمحاسن لكى يقع عليها الاختيار وهى لضعفها وخورها وكونها عالة على غيرها عرضة لأن تصير كما فى الحكمة الايطالية بالغة من الصلاح درجة لا تصلح معها لشيء

أما تربية الناشئين من الذكور فلا تزال مدعاة لغلبة الاستئثار عليهم فالولد يبث فى ذهنه أن يكون جل ركونه الى مجهوده وهو يشق له فى الحياة طريقاً والبنت تنفث فيها روح الاتكال على غيرها فهو مراعى فى تربيته اعتبار نفسه وهى مراعى فى تربيتها اعتباره ، هو يعلم الاستقلال والركون الى نفسه وتعلم هى ضعف الثقة بنفسها والاتكال على غيرها والايثار على نفسها فى كل الأمور فأحدهما تضحى عواطفه فى سبيل تقوية ذهنه والاخرى يضحى ذهنها فى سبيل تقوية عواطفها

ولا نزاع فى أن أرقى سجايا المرأة تظهر فى صلتها بالناس عن طريق عواطفها فهى بالفطرة ممرضة البشر وهى ملتجأ الضعيف

ومغذية الاعزاء علينا وفى كِنّ البيت هى الرئيس الأعلى وفيه توجد جواً من الهدو والاطمئنان يلائم تكوين الأخلاق فى خير أشكالها وهى بحكم خلقتها رحيمة وديعة صبورة مؤثرة على نفسها ولما فى طبيعتها من المحبة والأمل تفيض عينها بشراً أينما حلت ، تسطع على الجامد فتحركه وعلى المكروب فتفرج عنه

اذا الخطب ادلهم تفيض منها وان خفيت نصائح قيمات
الى حصن القلوب تحث سيراً فتظفر والشكوك مخيمات

قيل المرأة رسول الرحمة الى البائس فهى متأهبة لمساعدة الضعيف واقالة العاثر والتفريج عن المكروب ومما يلتئم وطبيعة المرأة أنها كانت أول من بنى مستشفيات المرضى وأنفق عليها وقيل أينما حل بآدمىّ مكروه فهو بتأوهاته يدعو امرأة الى جانبه

روى أن منجو برك لما أخرجه أهل قرية من قرى أفريقية منها ووطن نفسه وهو لا يجد أنيساً ولا صديقاً ولا ما يكسر به شرة الجوع على أن يقضى ليلته تحت شجرة معرضاً لهاطل المطر وضارى الوحش بصرت به زنجية وهى آيبة من حقلها فرقت لحاله وأخذته الى كوخها وأطعمته وآوته[1]

---

(١) صرح منجو برك بأن هذه الحادثة تركت فى نفسه من الاثر أكثر مما ترك غيرها من الحوادث التى وقعت له فى رحله وأنه لما رقد على الحصيرة

ولكن اذا كانت أخص سجايا المرأة تبدو عن طريق العواطف والمحبة فمن الضرورى أيضاً لسعادتها باعتبارها مخلوقاً مستقلا أن ترقى وتقوى أخلاقها وذلك بأن ينبت فيها القدر الكافى من تهذيب النفس والركون اليها وضبطها ، لسنا بمحبذين أن تُسد مسالك القلب الجميلة حتى لو كان ذلك فى الامكان وليس أجل ما يمكن من الركون الى النفس يناقص شيئاً من العواطف الانسانية غير أن سعادة المرأة يتوقف الشيء الكثير منها على كمال أخلاقها ومثلها فى ذلك الرجل ، وهذا الركون الى النفس الذى ينشأ عن ترقية المدارك اذا صحبه تهذيب القلب والذمة التهذيب الصحيح أعانها على أن تكون فى الحياة أنفع وأسعد وعلى أن تبث الحسنات عن تمييز وتعقل وتتمتع بها

التى فرشت له على أرض الكوخ لينام عليها جمعت المحسنة اليه نساء البيت فجعلن يغزلن القطن حتى مضى هزيع من الليل قال الرحالة وكن يخففن من تعبهن بأغانى منها واحدة ارتجلنها كنت أنا موضوعها وكانت تغنها شابة منهن ويرد عليها سائرهن وكانت النغمة حلوة تشجى وهذه هى الترجمة الحرفية للاغنية المشار اليها : عصفت الريح وهطل المطر فجاء الابيض المسكين وجلس تحت شجرتنا وقد أعياه التعب لا أم له تأتيه باللبن ولا زوج تطحن له اه وعلى ما فى هذا الكلام من سخف فقد كانت الحادثة من أكبر الحوادث تأثيراً فى نفسى وأنا فى تلكم الحالة التى وصفتها ولقد استبد بى هذا الجميل فنفى عنى الكرى

ولا سيما ما كان منها ناشئاً عن التعاون وتبادل الشعور في المجتمع

ولكى نرفع من مستوى العفة والطهارة فى المجتمع لا بد من تناسب فى تربية الجنسين وتوافق فى تمشى تربية أحدهما مع تربية الآخر فلا بد دون طهارة الرجل من طهارة المرأة ، كلاهما خاضع لقانون أخلاقى واحد وان مما يقوض بنيان الفضيلة الذهاب الى أن اختلاف الجنس يُحِلّ للرجل أن يتهجم على الآداب فيقدم وهو فى مأمن من العقاب على ما لو أقدمت عليه المرأة للوثت أخلاقها الى الأبد، اذن لا بد من توافر العفة والفضيلة فى الرجل والمرأة سواء ان أريدت صيانة العفة والفضيلة فى المجتمع ، ولا بد من أن يكون الاثنان سواء فى اجتناب كل ما فيه انتهاك لحرمة القلب أو الاخلاق أو الذمة فانه سم متى سرى فى الجسم استحال استئصاله منه استئصالا تاماً فيبقى وينغص على صاحبه سعادته قليلا أو كثيراً

وهنا نتجلد ونعطف على موضوع دقيق ، الاخلاقى يتجنبه والمربى يستنكفه ، والآباء تحرمه وان كان ذا بال يعنى الناس جميعهم لشدة ارتباطه بمصلحتهم

نفروا من الخوض فى الحب حتى كادت الاشارة اليه تعد مساساً بالادب وخروجاً عن حدود الحشمة وصار الاحداث

لا يعرفون منه الا ما يتصيدونه من قصص العشق وأحاديث الغرام التى انتفخت بها بطون الكتب السيارة ولا حقيقة لها فى الخارج ، هذه العاطفة الكبيرة ، هذه الحاجة الى الحب التى خلقت ، لحكمة جليلة ، قوية فى المرأة تترك أثراً ما فى جميع أدوار حياتها على حين أن الرجل قد يتأثر بها فى دور واحد من أدوار حياته ، تغفل عادة وتهمل وتترك وشأنها تنمو مطلقة وتشب جامحة لا ضابط لها ولا مهذب ولا دليل

لا ننكر أن الطبيعة تأبى أن تسير مسائل الحب على قوانين وضعية ولكن مهما يكن من الأمر فمن المستطاع أن يبث فى عقول الاحداث آراء فى الاخلاق تكون لهم عوناً على التمييز بين الحق والباطل وتربى فيهم ملكة اجلال الطهارة والاستقامة وغيرها من صفات الكمال التى لا تكون الحياة بدونها الا ميداناً لصنوف الجنون والحماقة وضروب البؤس والشقاء ، نعم قد يتعذر تعليم الاحداث كيف تكون الحكمة فى الحب ولكن يستطاع أن تقيهم نصائح الآباء تلك الحماقات والسخافات التى يطلق عليها اسم الحب زوراً وبهتاناً

الحب كما يراه جمهور الناس ويتصوره الدهماء والعامة جنون ولكنه فى صفائه وطهارته وجلاله ورفعته وما يستدعيه من الايثار نتيجة الكمال الخلقى ودليل عليه وأن الاحساس بالجمال ونسيان المرء

نفسه فى الاعجاب الذى يتولد عنه لدليل على علو منزلته وما له من التأثير فى تربية الخلق فذلكم الاحساس بالجمال ذلكم الحب هو تغلب ما فى طبائعنا من الايثار على ما فيها من الاستئثار

انما هذه العاطفة الروحانية وسيلة لبقاء العالم حافظاً لرونق جدته وشبابه ، هى نغم الانسانية الجميل الخالد ، هى التى تغمر الشباب بالنور وتحوط الشيخوخة بهالة من ضياء ، أشعة نورها تكسو الحاضر جلالا وتفيض على المستقبل ضياء ورونقاً وجمالا ، والحب اذا تولد عن الاجلال والاعجاب فأثره فى الاخلاق تطهيرها والرفع من شأنها واطلاق المحب من قد الاستئثار الذى يسترقه فذاك الحب يكون رافعاً خالصاً لا أثر للجشع فيه يطلب لذاته لا يبغى صاحبه ثمناً له سواه ثم هو يبعث فى النفس الدعة والعطف وحسن الظن والثقة ويشحذ الذهن ويرفعه فكل حب كما يقول الشاعر برَوننج يعلم قدراً ما من الحكمة ولقد كان أكثر الناس حظاً من المواهب العقلية أخلصهم حباً والحب يعظم بعظمة أرواح المحبين فانهم يرفعون من شأن كل لذة صحيحة ويجعلونها مقدسة بل عاطفة الحب تظهر سجايا قد كانت من قبل الحب خاملة لا يظن لها وجود وترقى الآمال وتعظم النفس وتنبه القوى العقلية ومن أجمل ما أثنى به على امرأة قول ستيل فى السيدة إلزبت هستِنجس الغرام بها تربية واسعة اه والمرأة على

هذا الاعتبار مربية بأرقى ما يفهم من مدلول مربية لأن لها على غيرها من المربين هذه الميزة هى أنها تربى بالانسانية والمحبة

ولقد قيل لا يكون الرجل والمرأة قد تمت خبرتهما بالحياة حتى يكون الميل القلبى الواسطة فى احتكاكهما بالعالم والمرأة لا يتم لها معنى الانوثة حتى تعرف الحب وكذلك الرجل لا يتم له معنى الرجولية حتى يعرفه وكان أفلاطون يرى أن كلا من الحب والمحب يتطلب وجه شبه له فى صاحبه وأن الحب ليس الا اتحاد النصف المفقود من الانسان الاصلى مع نصفه الباقى غير أنه يخيل الينا أن الفلسفة فى هذا لم توفق الى الصواب فان الحب لعدم التشابه بين المتحابين ليس بأقل وقوعاً من الحب لوجود هذا التشابه

هذا والرابطة الصحيحة تكون لا محالة بالعقل والقلب معاً وتقوم على أساس من تبادل الاجلال والمحبة جميعاً قال فشتى لا يكون حب صحيح باق من غير اجلال وكل حب أسس على غير هذا الاساس يجر وراءه حسرة وندامة ولا يليق بنفس آدمية شريفة اه ولا يمكن للانسان أن يحب ما كان مرذولا حباً صحيحاً بل الحب الصحيح لا يكون الا لمن نجله ونعجب به ونرعى حرمته وقصارى القول أن الوفاق الحق لن يقوم الا على أساس من الصفات الخلقية فلها وحدها السلطان فى الحياة الخاصة البيتية

والحياة العامة الدنيوية

غير أن فى رابطة الرجل بزوجه ما هو فوق مجرد الاجلال ورعاية الحرمة ، والاحساس الذى هو مساك تلك الرابطة أبعد غوراً وأكثر رقة ولا نظير له البتة فى رابطة الرجل بالرجل ولا فى رابطة المرأة بالمرأة يقول نَيْثَنيل هوثُرن فى مسائل الميل القلبى يكون بين الرجل والرجل دائماً هوة لا تعبر فكلاهما لا يجد سبيلا الى أن يضم يده الى يد صاحبه الضم التام ولذا لن يجد الرجل من الرجل مساعدة حقة ولا تقوية عزيمة وانما يجد هذا من المرأة من أمه ومن أخته ومن زوجه اه [1]

الحب باب يلج منه الرجل الى دنيا جديدة من السرور والحنان واللذة الانسانية يدخل الى دنيا جديدة من بيته بيت من صنعه يغاير من كل الوجوه البيت الذى نشأ فيه وفى بيته هذا الجديد يرى كل يوم دواعى السرور والخبرة تأتيه تترى وقد يدخل أيضاً فى دنيا جديدة من الشدائد والآلام ولكن قد يكتسب منها خير ما يكتسب من التهذيب والتدريب قال سَن بوف قد تكون الحياة البيتية ملأى بالشوك والهموم ولكن شوكها مثمر وكل شوك غيره لا ثمر له وقال اذا لم يضم بيت الرجل فى دور معين من أدوار الحياة أولاداً فقد يحتمل أن

(1) 'Transformation,' or 'Monte Beni'.

يكون مفعماً بالحماقات أو بالرذائل [1]

أما الحياة التي لا تقضى الا في مسائل الكسب الدنيوى فمن شأنها أن تجنح بصاحبها لضيق الاخلاق وجمودها فان صاحبها لا يكاد يشتغل بغير نفسه ولا يزال محصوراً بين عاملين يتنازعانه ترقب المصلحة لنفسه وتوقى الأذى من غيره حتى يصبح وان لم يفطن كثير الظنون قليل التسامح ولسنا نرى علاجاً لهذه الحالة خيراً من العلاج البيتى أى انتشال الذهن من الخواطر التى لا تخرج عن المكاسب الدنيوية واسكانه حرماً آمناً من البيت حتى يستقر وينشط

بحيث يسطع نور البشر أصدقه ويغمر المرء مهما كل من تعب

قال سير هنرى تيلَر الاعمال الدنيوية تدمر المسالك المؤدية الى القلب على حين أن الزواج من القلب بمنزلة الحامية المقيمة بالحصن تذود عنه اه وكيفما كانت مشاغل الرأس متجهة شطر الطموح أو شطر الكسب الدنيوى فما لم يكن القلب متشبعاً بمحبة الناس والعطف عليهم فالحياة فشل وان حسبها نجحا من لم يبصرها عن كثب [2]

---

(1) Portraits Contemporains, iii. 519

(٢) قال مستر أرثر هلبس وهو قول حكيم ترى الرجل يزداد على مر الايام ثراء أو رقى منصب أو بعد صيت فى صناعته فتعده فى الحياة ناجحاً ولكنى

هذا وان أخلاق الانسان الحقة لتبدو فى بيته أكثر مما
تبدو فى غيره من الامكنة وحكمته أبين فى أسلوب حكمه فى بيته
منها فى أساليبه التى يلجأ اليها فى الاعمال الدنيوية الكبرى
والحياة العامة ولقد يكون ذهنه كله منصرفاً الى تلكم الاعمال ولكن
لا بد دون سعادته من أن يكون قلبه منصرفاً كله الى بيته ففى
بيته دون غيره تبدو مزاياه الخالصة وفيه تظهر خلائقه من صدق
وحب وعطف ورعاية لغيره واستقامة ورجولية وان شئت فقل
تظهر أخلاقه جميعاً ولقد تكون الحياة البيتية عذاباً أليماً اذا لم
يكن الميل القلبى هو الاصل السائد فيها وان فقد العدل أيضاً
فيه فلا حب ولا ثقة ولا حرمة وعلى الحرمة يقوم كل نظام
بيتى صحيح

وعن ارسمس أن بيت سيرتوُمَس مور كان للتقوى معهداً

أعده غير ناجح اذا ما كان بيته مضطرباً لم تمتد أسباب المحبة بين أهله واذا
ما كان معاشروه فيما مضى (وقد كان له منهم أكثر مما يذكر) يعدون عشرته
عاطلة من الرفق قولا وفعلا ومهما كان نصيبه من تراث الدنيا موفوراً فلا يغيبن
عن الاذهان أنه ترك وراءه معقلا خطيراً لم يستول عليه وما حياة الانسان بالطيبة
اذا ضل احسانه فلم يأو الى بيت يتخذه له مقاماً نعم قد يكون احسانه قد
انبعثت عنه أشعة فى نواحى متعددة ولكن ينبغى أن تلتقى هذه الاشعة وتجتمع
فى مركز من الحب ذلكم هو المستقر البيتى الذى يتكون حول قلب الرجل
الطيب اهـ Claims of Labour

فلم يكن يسمع فيه خلاف ولا كلمة مبعثها الغضب ولم يكن أحد ممن فيه يعرف الخمول بل كلهم بواجبهم قائمون مع قدر معتدل من البشاشة، ولقد كان سير تومس بما جبل عليه من الدعة يحمل قلوب من حوله على طاعته وكانت الطيبة البيتية له شعاراً ودثاراً وكان سلطانه على بيته مستمداً من اللطف والحكمة لذا كان جو بيته مشبعاً بالمحبة وبمعرفة الواجب ولقد كان هو نفسه اذا ذكر تبادل أعمال الرفق مع أفراد أهل بيته يقول أن لها من وقته حقاً لا يقل قوة عما لغيرها من الاعمال العامة التى يحسبها الناس أكثر خطراً وأعظم شأناً

على أن عواطف الرجل اذا انبعثت عن بيته لا تبقى محصورة فى ضيق دائرته بل اذا امتدت فى أهله انتشرت وذاعت فى العالم الخارجى فان الحب كما يقول إمرسن نار تأجج جذوتها الأولى فى ركن ضيق من قلب فرد بما يلاقيها من شررة جوالة من قلب فرد آخر فاذا ما اشتعلت لمعت واتسعت حتى ينتفع بخيرها وضوئها أقوام كثير عديدهم ثم تسطع على قلوب الناس أجمعين فيضيء سناها العالم كله اه

ألا وأن المحبة البيتية لخير ما يكوّن قلب الرجل وينظمه والبيت مملكة المرأة ودولتها بل عالمها الذى تحكم فيه بالمحبة

وبالرفق وبما فى الدعة من قوة ، ولا شيء يسكن من ثائرة الرجل كارتباطه فى الحياة بامرأة عالية النفس فان له منها راحة وسروراً وسعادة واطمئنان ذهن واستقرار نفس وله منها خير ناصح لأن ما ألهمته من حسن السياسة يهديه الصراط المستقيم اذا ما عرض عقله للزلل وهو منفرد، والزوج الحقة تكأة يستند اليها فى أوقات المحنة ولا تجدها ينقصها العطف والتسلية اذا ما نزلت الملمة أو عبس الدهر وهى فى الشباب راحة وزينة فى حياة الرجل ثم لا تزال له عوناً مخلصاً اذا بلغه الكبر وأدركته السن العالية وأصبحت الحياة حقائق لا آمالا

ما كان أسعد ادمند برك اذ استطاع أن يقول فى بيتـه كل هم يزول عنى عند دخولى بيتى اه ولوثر وقد كان ممتلئاً بالمحبة الانسانية يقول فى زوجه أنى لا أستبدل بفقرى معها ثروة قارون بدونها وفى الزواج يقول أكبر نعمة يسبغها الله على الرجل زوج صالحة تقية يستطيع أن يعيش معها فى هدو وسلام وأن يأمنها على ما يملك بل وعلى حياته وسعادته ويقول التبكير فى القيام من النوم والزواج فى الصغر أمران لا يندم عليهما من يأتيهما اه

ولـكيما ينعم الرجل بالراحة الحقة والسعادة فى الزواج لا بد من ان يكون له من زوجه معين ورفيق نفس ولـكن ذلك لا يستلزم ان تكون زوجه صورة منه فالرجل لا يرغب من زوجه

أن تكون بالرجال أشبه كما لا ترغب الزوج من بعلها أن يكون بالنساء أشبه وخير سجايا المرأة لا يرجع الى ذهنها بل الى ميولها القلبية فان الذى ينعش منها عواطفها لا معارفها يقول أُلِفَر وِندِل هُومز لا نرتاح الى نساء الذهن ارتياحنا لنساء القلب[1] اهـ وكثيراً ما يسأم الرجال حالتهم فيتهيئون للاعجاب عما يرون فى غيرهم من الصفات والاذواق التى تباين صفاتهم وأذواقهم ، يقول مستر هيلبس لو أننى فوجئت بطلب أقامة دليل على رحمة الله بنا لقلت أنهـا ظاهرة بأجلى ما يمكن من البيان فى الفرق الدقيق بين نفس الرجل ونفس المرأة وقد خلق ذلك الفرق ليهيء من أسباب العشرة المريحة الجميلة أكثر مما يمكن أن يتصوره عقل

---

(١) القلب وهو حام يبعث بكل عواطفه الى الذهن وهو صاف لتحلل فيه وتبرد وتقصر فتكون عقلا خالصاً ، هذه الحالة لا نريدها فى المرأة من حيث هى امرأة بل ينبغى أن يكون اتجاه التيار على العكس من ذلك أى ينبغى أن يكون سير الفكرة الرقيقة الهادئة المطمئنة وهى فى النسوة تكون بسرعة لا يتسنى لهن معها أن يدركن أنها فكرة أقول ينبغى أن يكون سير الفكرة هذه الى الشفاه عن طريق القلب وانه لكذلك فى النسوة اللاتى يحببن الناس ويعجبون بهن أما نساء الذهن فلن تشعر نحوهن بالارتياح الذى تشعر به نحو نساء القلب وأبيض الورد أقل وقعاً فى النفس من أحمره

The Professor at the Breakfast Toble, by Oliver Wendell Holmes.

الانسان[1] اه ولـكن كون الرجل لا يتوقع منه أن يحب المرأة لعقلها لا يكون حجة لها فى عدم لزوم تثقيفه فقد يكون خلاف فى الاخلاق ولـكن لا بد من وفاق فى العقل والعاطفة ، لا بد من مخلوقين عاقلين وقلبين متحابين

قليل ممن كتبوا فى الزواج من كتب بحكمة كما كتب سير هنرى تيلر وما يقوله عن أثر القران السعيد من حيث علاقته بنجاح السياسى فى مهنته يصدق على جميع احوال الحياة وهو يقول الزوج الحقة ينبغى أن يكون لها من السجايا ما يجعل البيت موطناً للراحة ما أمكن ذلك ولهذا ينبغى ان يكون لها من التمييز والقيمة ما يكفى لاعفاء بعلها بقدر المستطاع من اعبـاء الادارة البيتية ولا سيما من التعرض للدّين يقول وينبغى ان تروق نظره وذوقه فان الذوق يتغلغل فى نفوس الرجال ويفعل فيها عجيباً ولا يكاد الحب يفترق عنه واذا ما كانت الحياة حياة مجهود وحركة لم يتسنّ للبيت اذا لم يكن مقراً للحب ان يكون موطناً للراحة من المجهود والسكون من الحركة فان راحة الفكر واطمئنان النفس لا يكونان الا عن طريق الحنان القلبى فينبغى ان يتطلب الرجل فى المرأة الذهن النير والبشاشة والتيقظ أكثر مما يتطلب المرح والتوقد وأن يسعى الى رقة المزاج فى دعة ويؤثرها على

(1) The War & General Culture, 1871.

النفس المتفززة شهوة فان التوقد فى بيت الرجل المتعب ينبهه تنبيهاً يؤذيه ومجاوز الحد من الانفعال يجره الى اضطراب لا يستقر معه فينبغى أن يكون الحب بينهما

ضرباً من الحب لا ارهاق يتبعه
ولا انثناء عن الغايات والأمل

ولا يصيب بفرط الوجد صاحبه
فيُنضِبُ العزم من نفس الفتى البطل

بل يعرض اللهو فى رفق وصاحبه
ان شاء أعرض أو لبى على مهل

لهو يرد على الابدان راحتها
اذا اشتكت اثر الاجهاد والعمل

لهو يكون لمن ضاقت نفوسهم
نعم المجير من الادواء والعلل

حب أخو الحب فيه غير مضطرب
ولا أسير ولا حيران او وجل

من ثم تلقاه عند الحب متئداً
حلوَ الوداع اذا نودى الى جلل (1)

---

(1) The Statesman',p p. 73 — 75.

ومن الناس من يخيب أملهم فى الزواج لانهم يرجون منه أكثر من حقيقته وأكثر منهم من يخيب أملهم فيه لانهم يخلون عشرة الزوجية من القدر المناسب لها من البشاشة والرفق والصبر والتمييز ولقد يكون خيالهم قد صور لهم فى الزواج حالة مثلة يوفق اليها أحد فهم اذا مارسوا الزوجية على حقيقتها ورأوا متاعبها وهمومها انتبهوا فجأة كأنهم من أحلامهم مستيقظون أو قد يرجو الرجل ممن اختارها زوجاً له شيئاً يقرب من الكمال ثم يجد بالتجربة أن أكمل الكمال لا يخلو من عيوب ، على أن النقص فى الطبائع البشرية لا الكمال فيها هو الذى يتطلب من الناس الصبر والعطف وقد يخلق فى الطبائع المحبة الحساسة أمتن الروابط

ألا وان خير قاعدة تتبع فى حياة الزوجية أن تحتمل وتصبر فالزواج كالحكومات سلسلة من الاتفاقات ولا بد للمتزوجين من الاخذ والعطاء والتأنى وضبط النفس والاحتمال والصبر وربما عجز الانسان عن ان يغمض عينيه دون نقائص غيره ولكن لا أقل من أن يصبر عليها صبراً كريماً وليس من بين السجايا سجية أليق بحياة الزوجية من لين الجانب فأنه اذا صحبه ضبط النفس علّم صاحبه الصبر والاحتمال والاصغاء بلا رد والحلم حتى تمر سورة

الغضب وما أبين فى حياة الزوجية صدق قولهم الجواب اللين يذهب بالغضب

والشاعر برنز فى كلامه عن صفات الزوج الصالحة يقسمها عشرة أقسام يجعل منها اربعة لحسن الخلق واثنين لحسن التمييز وواحداً لسرعة الخاطر وواحداً للجمال من وجه مليح ونظر فصيح وشكل أنيق وقوام رقيق والجزءان الباقيان يجعلهما لغير ما ذكر من المزايا التى تكون فى الزوجة أو تتعلق بها كثروتها وذويها وتربيتها من حيث سموها على التربية الاعتيادية ونسبها الى نحو ذلك ويقول قسم هذين الجزءين كيف شئت وما عليك الا أن تذكر أنه لا بد من الدلالة على الصفات الصغيرة بكسور فليس من بينها صفة حقيقة بكرامة الواحد الصحيح اهـ

قيل الغوانى يجدن نسج الشباك وخير لهن من هذا أن يتعلمن صنع الاقفاص فان الرجال كالطيور سهولةَ اصطياد ولكنهم مثلها صعوبةَ احتباس واذا لم تجد الزوج سبيلا الى جعل بيتها بيت بشر وسعادة بأن يكون من حيث النظافة واللطف والبشر خير مأوى لزوجها يأوى اليه اذا ما أنهكته الحياة الخارجية باعبائها ومتاعبها اذا لم تجد الزوج سبيلا الى ما قدمنا فايتدارك الله بلطفه بعلها البائس لانه فى حكم الشريد لا بيت له

ولا يقدم عاقل على زواج أكبر البواعث عليه الجمال نعم قد

يكون الجمال قوى الجذب أول الامر ولكنه يصبح بعد ذلك قليل الجدوى ، لا نريد أن نقول بالتقليل من شأن الجمال فان لطف القوام وجمال الملامح من مظاهر الصحة اذا ما توافر فى صاحبهما غيرهما من عناصرها ولكن اكبر الزلات الزواج من ذات الشكل المليح وهى من الاخلاق عاطلة وذوات الملامح الفتانة وهى بالاحساس وطيب النفس غير متجملة فكما يصبح المنظر الطبيعى وان راع جماله أمراً اعتيادياً اذا ألفته العين يصبح أجمل الوجوه بالالفة اعتيادياً ما لم تسطع منه نفس جميلة والجميل اليوم عادىّ غداً أما الطيبة مع الجمال المعتاد فمحبوبة أبداً ثم هذا النوع من الجمال يزداد حسناً مع قدم السن ، والزمن بدل أن يقضى عليه يزيده نماء وقلّ بعد العام الاول من الزواج أن يفكر كل من الرجل وزوجه فى ملامح صاحبه وفى مبلغها من الجمال أو غير الجمال ولكن لا يغيب عن أحدهما ادراك ما عليه الآخر من الخلق والطبع قال أَدِسُن اذا ما رأيت رجلا عبوس الوجه مقطبه لم استطع منع نفسى ان ترثى لزوجه واذا ما رأيت ذا الوجه المستبشر انصرف ذهنى الى سعادة اخوانه به وآل بيته وذوى قرابته اهـ

وقد سبق لنا ان اوردنا رأى الشاعر بِرنز فى الصفات اللازمة فى الزوج الصالحة فلنذكر الآن نصيحة بذلها لورد بِرلى لابنه

وقد تضمنت خبرة سياسي حكيم ورجل من رجال الدنيا بأحوالها عليم قال اذا أراد الله ودخلت فى دور الرجولة فكن فى اختيار زوجك بصيراً حذراً ففى ذلك منشأ ما أعد لك فى مستقبلك من خير أو شر وانها لخطوة فى حياتك كخطة الحرب لايخطئ الرجل فيها غير مرة فى العمر واحدة الى أن قال جدّ فى البحث عن مزاجها وكيف كانت طباع أهلها وميولهم فى صباهم [1] ولا تخترها فقيرة مهما كرم محتدها فالانسان لا يشترى شيئاً من السوق بكرم الأصل ولا تختر الوضيعة لا لشيء سوى مالها فانها تبعث فى الناس احتقارك وتبعث فيك الكره لها ثم لاتختر قصيرة ولا حمقاء فان الاولى تلد لك أقزاما والاخرى تكون عاراً لا يفارقك واذا سمعت كلامها قلقت ولتعلم أنه لا شيء ينفّر كما تنفر الحمقاء اه

هذا والرجل بالضرورة يتأثر أدبياً بزوجه تأثراً كبيراً فذات النفس الوضيعة تهوى به وذات العالية ترقى والاولى تميت عواطفه وتشتت مجهوده وتشوه حياته أما الاخرى فبموافقتها ميوله تقوى الركن المعنوى من نفسه وبتهيئة أسباب راحته تنبه قوى ذهنه ثم أن المرأة عالية الآمال ترفع آمال زوجها ومقاصده وان لم

---

(١) أما فلر مؤرخ الكنيسة فى الكلام عن اختيار الزوج يقول بكل اختصار خذ بنت الام الطيبة

يشعر كما تحط منها وان لم يدر واطئة الامل ولقد كان دِ تـُـكفيل شديد التأثر بهذه الحقيقة وكان يرى أن الرجل لا يجد فى الحياة متكأ خيراً من عشرة زوج حسنة الخلق عالية الرأى ويقول أنه فى حياته رأى ضعافاً من الرجال يبدون فى الحياة العامة مزايا حقة لما كان الى جانبهم من أزواج كرائم الاخلاق يدعمن حياتهم ويقوين من آرائهم فى الواجب العام على حين أنه شاهد على العكس من ذلك كثيراً من الرجال ذوى المواهب العظيمة الكريمة ينقلبون خداماً لا تقسبهم دنيئين لاتصالهم بنساء صغيرات النفوس نهمات بحماقات من اللهو خاليات الاذهان من معنى الواجب وأنه المحرك الاكبر

ومن نعم الله على دِ تـكفيل ان منّ عليه بزوج هى آية[١] وفى رسائله الى الاخصاء من أخلائه يشير بكل ارتياح وشكر الى الراحة والقوة اللتين استمدهما من عزيمتها واعتدال مزاجها ونبل أخلاقها وحقيقة الامر أن دِ تـُكفيل كان كلما زاد بالدنيا وبالحياة علماً زاد اقتناعاً بضرورة الحياة البيتية السليمة لرجل يريد أن ينشأ فى الفضيلة والتقوى[٢] وكان على الاخص يعد

---

(١) كانت انجليزية ومن بين كبار الفرنسيين الذين تزوجو بانجليزيات سسمندى والفرد دفنى ولمرتين

(٢) كلما بلوت الدنيا رأيت أن ليس فيها سوى السعادة البيتية ما يصح أن يكون شيئاً مذكوراً Ouvres et Correspondance .

الزواج ذا شأن ليس كمثله شأن من حيث سعادة الرجل وكان يعد زواجه أحكم عمل أقدم عليه فى حياته ويقول لقد أتيح لى شيء كثير من وسائل السعادة ولكنى أحمد الله على ان انعم علىّ بالسعادة البيتية الصحيحة فهى اجل نعم الاله على عباده وكلما تقدمت فى السن زاد فى نظرى شأناً ذلك الجزء من الحياة الذى كنت لا احفل به فى شبابى وعزانى عن ضياع كل ما عداه ثم يقول فى رسالة الى صديقه الحميم دكرجرلى عندى ان اجل نعم الله علىّ توفيقى الى مَرى ولبس بمستطاع ان تخيل ما هى فى الشدة فهى على دعتها عادة تصير فى الشدة قوية ذات همة تراقبنى على غير علم منى وتروّح عنى وتقوى من عزيمتى فى شدائد اضطرب انا لها وتبقى هى رابطة الجأش [1] وفى خطاب آخر يقول انا عاجز عن ان اصف لك السعادة التى تنشأ عادة عن عشرة المرأة اذا كنت ترى فى نفسها صورة الحسن من نفسك بل صورته مهذبة فأنا ذا قلت شيئاً او اتيت امراً احسبه صواباً لا ألبث ان ارى فى ملامح مَرى دليل الرضى والاغتباط وهذا يرفعنى درجات ثم اذا انبنى ضميرى اكفهر وجهها تواً وانا وان كنت ذا سلطان على نفسها أراها توقع فىّ الهيبة وتجدنى بذلك مسروراً وما دمت احبها

---

(1) De Tocqueville's ' Memoir and Remains,' vol. i. p 408.

كما احبها الآن فأنا على يقين من انى لا آتى منكراً

ولقد اضمحلت صحة دتُكفيل وهزل وصار سريع التهيج كثير الغضب لما أن سدفى وجهه بسبب صلابته باب الحياة السياسية وعاش عيشة الاديب وتراه وهو يؤلف آخر مؤلفاته (النظام القديم والثورة) قد كتب يقول بعد جلوس خمس ساعات أو ست على مكتبى أرانى لا أستطيع الاستمرار فى الكتابة فان الدولاب يقف ويأبى أن يدور ، ألا أنى شديد الحاجة الى الراحة الطويلة وقد تستطيع أن تتصور مبلغ حياتى من الشقاء اذا أضفت الى ما قدمت لك ما يكتنف المؤلف من الحيرة والارتباك اذا قارب الفراغ من مؤلفه وما كنت لاجد سبيلا الى المضى فى عملى لولا عشرة سرى وما فيها من طمأنينة تجدد من نشاطى وأنه ليستحيل الاهتداء الى مزاج يخالف مزاجى مخالفة أسعد من مخالفة مزاجها فانلى منها ، وأنا دائم الاضطراب جسماً ونفساً ، ملجأ طيباً لا أعدمه أبداً (١)

وكذلكم مسيو جزو كانت زوجه الكريمة تدعم وتقوى من عزيمته وغير الدهر تكتنفه واذا كان خصومه السياسيون قد قسوا فى معاملته فقد كان له سلوٌ من الحنان الذى ملأ بيته نوراً

(1) De Tocquevilles, Memoir and Remains vol. 1 p. 408

وضياء ومع أن حياته العامة كانت منبهة شاحذة للهمة فقد كان يراها خامدة مجهدة لا تشبع الروح ولا ترفع الاخلاق وهو يقول فى مذكراته أن الانسان ليتوق الى سعادة أكمل وأرق من السعادة التى يجدها فى كل ما يبذل من نشاط وما يصيب من شأن فى الحياة العامة

وأن الذى أعلمه اليوم علم اليقين وأنا فى آخر شوطى كنت أحس به وأنا فى أول الشوط وفى أثنائه وهو أن المحبة البيتية أساس الحياة حتى فى معمعان الاعمال الجسام وأن حياة الانسان مهما بهرت لنا قصة اللذة اذا لم يوفق صاحبها الى النعيم الذى فى رابطة البيت ورابطة الصداقة

هذا وأن الظروف التى أحاطت بخطبة مسيو جزو وزواجه لغريبة وطريفة ذلكم أنه وهو شاب يعيش فى باريس من شق قلمه يؤلف الكتب وينشر المجلات ويترجم اتفق له أن تعرف بآنسة ذات مواهب كبرى هى بولين دِمُلَن وكانت اذ ذاك تحرر (السياسى) ثم نزلت بها نازلة بيتية فمرضت وعجزت زمناً عن مباشرة العمل الادبى الشاق المتعلق بجريدتها ففى هذه الازمة ألقى اليها يوماً كتاب غفل من التوقيع فيه يعرض عليها صاحبه أن يمدها بمقالات يرجو أن تليق بمركز الجريدة ثم وصلت اليها تلك المقالات فى حينها وقبلتها ونشرتها وكانت هذه المقالات

تتناول موضوعات شتى فى الفنون والادب والتمثيل والنقد العام ولما أبلت صاحبة الجريدة من مرضها أظهر كاتب المقالات حقيقة أمره وتبين أنه مسيو جزو وتمكنت الرابطة بينهما ثم نضجت فصارت محبة ولم يمض زمن طويل ثم صارت الآنسة دِمُلَن له زوجاً

ومن ذلك الحين قاسمته أفراحه وأتراحه وكثيراً من عمله وقبل اقترانهما سألها أجال بخاطرها أنها يزعجها تنكر الايام له وكان قد رأى بوادره فأكدت له أنها ترتع فى بحبوحة توفيقه ولا تنفس الصعداء فى قد فشله ولما صار مسيو جزو وزير لوى فيليب كتبت الى بعض صاحباتها تقول أنا الآن ألتقى بزوجى أقل مما أحب على أننى لا زلت أراه واذا أبقى الله كلامنا لصاحبه بقيت أسعد الخلق واذا اكتنفتنى الشدائد والمشاغل اه وبعد ستة شهور ونيف من كتابة هذه الكلمة ووريت هذه الزوج المخلصة التراب وبقى بعلها يعانى الوحشة فى سفر الحياة .

وكان برك ينعم نعيماً خاصاً باقترانه بالآنسة نجنت وكانت امرأة جميلة متحببة راقية العقل وقد كانت سعادته البيتية خير عوض له من حياته العامة واضطرابها وقلاقلها وأحسب سعادته البيتية كانت قد بلغت حد الكمال وكان يقول وهو قول يدل تمام الدلالة على أخلاقه أن محبة الزمرة التى نحن منها أساس كل المحبة العامة

ولربما كان وصفه زوجه فى شبابها من أجمل الاوصاف فى اللغـة الانجليزية قال :

جميلة بيد أن جمـالها ليس منشؤه تقاطيعها ولا لونها ولا شكلها ، نعم انها بلغت فى حسن هذه الثلاثة مبلغاً عظيماً ولـكن لا بهذه تحل فى القلب بل أن جمالها كل ما يتمثل فى المحيا من حسن طباع واحسان وسـلامة قلب ورقة احساس فلها وجه لا يعدو عند أول نظرة أن يلفت نظرك ثم لا يزال مع كل لحظة يزداد تملكا لك فيأخذك العجب من أنه أول الامر لم يعـدُ أن لفت نظرك

وعيناها لطيفة النور لـكنهما توقعان الخشية متى شاءت ونفوذهما كنفوذ الرجل الطيب قد اعتزل العمل لا يرجع الى مالهما من سلطان بل الى ما فيهما من فضيلة

وليست بالطويلة القامة ولم تخلق لتكون موضع اعجاب الناس قاطبة بل لتكون سعادة واحد

وبها الصلابة كلها الا ما ينافى الرقة وكل الدعة الا ما ينم عن الضعف

وصوتها موسيقى لين هادئ لم يخلق للسيادة فى المجتمعات العامة بل ليفتن الذين يفرقون بين المجلس والضوضاء وبه ميزة هى أنه لا بد لك دون استماعه من أن تدنو من صاحبته

ومايقال فى وصف جسمها يقال فى وصف نفسها فهذه صورة ذاك وادرا كها يبدو لا فى تنوع المسائل التى تشغل ذهنها بها بل فى حسن اختيارها

وادرا كها يظهر فى تجنب ما لا ينبغى قوله أو فعله اكثر مما يبدو فى اتيانها الخوارق قولا أو عملا

وما من امرئ فى حداثة سنها يفضلها خبرة بالدنيا ولم تكن الدنيا أقل افساداً لبشر منها لها

وأدبها يفيض عن ميل فطرى لارضاء الناس اكثر مما يفيض عن قواعد لقنتها فى هذا المعنى لذا يصادف هوى فى نفس من يفهمون التربية الطيبة ومن لا يفهمون

ولنشفع هذا الوصف بوصف لا يقل حسناً عن الوصف السابق به وصفت أرملة كُلُنل هَتشِنسُن بعلها وكان قد تقدم اليها قبيل وفاته أن لا تحزن حزن النسوة أصبحن بغير بعولتهن قوفاء له صرفت حزنها الكريم الى تصوير بعلها كما عاش بدل أن تندب فقده قالت فى مقدمة السيرة ان الذين يملقون بالكمال الصائر الى الفناء اذا حرموا من هاموا بهم، وهو حتم مقضىّ على كل فان، قد يفسحون المجال للانفعال فيسرى الى نفوسهم سيل من الحزن يطم ثم يأخذ فى النقص فتنقص معه ذكرى الاحبة الذين درجوا، والعادة فى تسلية المفجوعين أن يحال بينهم وبين كل ما من شأنه

اذا وقع تحت أنظارهم ان يعيد الى اذهانهم ذكرى يتجدد لها حزنهم ، هذا علاج ينجع مع الزمن فيسدل ستار النسيان شيئاً فشيئاً على وجه الراحل ويميل المفجوع الى أشياء كان قد يراها دون فقيده منزلة فى قلبه لأنه لا يراهما معا ولكنى أنا التى أمرت ألاّ احزن[1] اذا التمست وسيلة لتخفيف وقع المصاب علىّ وامكان تقوية روح المحبة فىّ لم أجد اليق بأبيكم وهو علينا عزيز ولا أدعى لتسرية الهم عنى من أن أبقى له ذكرا أنا فى غنى عن أن أطليه بثناء ملقٍ كالذى يكيله المأجورون للأفاضل حقيقة والافاضل اسما سواء ، وان العبارات غير المنمقة تتضمن عنه الحقيقة المجردة لتحوطه بجلال لا يتضمنه خير ما خط من المديح فى خيرة الرجال

(١) كان كانل هتشنسن جمهوريا معارضا غاية فى الشجاعة ورق العقل والصلاح فصل من المجلس النيابى عند عودة الملكية وحيل بينه وبين المناصب الحكومية الى الابد فأقام بضيعته فى اوثرب على مقربة من « نتنجم » وبعد يسير زمن القى القبض عليه وسجن فى البرج ثم نقل الى قلعة سندون على مقربة من ديل وفيها قضى أحد عشر شهرا وكانت وفاته فى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٦٦٤

التمست زوجه أن تلازمه فى سجنه فأبوا عليها ولعلمه بما يجر موته على زوجه من الحزن كتب وقد أحس بدنو الاجل كلمة فيها يقول لتظهر فى هذا الحادث وهى فوق سائر النساء بمظهر الايمان ولتكن اكبر من النسوة المعتادة وهذا وجه اشارتها الى أمر بعلها فى النبذة التى أوردناها

وهاكم وصفها كُلـُنيل هتشنسن من ناحية كونه بعلا قالت بلغ فى المحبة الزوجية مبلغا ليس وراءه مطمع لمن أراد فى هذا المجال نهجاً يسير عليه من الكرامة والرفق والدين وما عرفت رجلا اكثر منه هياما بامرأة ولا اكثر مراعاة لحرمة زوج على أن حبه لم يشبه خنوع ولا تراخ فى تأييد سلطانه العادل ولقد كنت أجد كرامتى فى النزول على حكمه وقد ساسه بحزم ومحبة لا يفوت المرأة أن تنعم بالخضوع لهما الا أن اعوزتها البصيرة

وكانت أداته فى حكمه اللين ولم يستخدمه الا فيما يحفظ لها الكرامة موفورة ويعود عليها بالفائدة وكانت روحها وكرامتها أحب اليه من ظاهرها على أنه لم يخل من انهماك دائم يفوق المألوف من الهيام الوقتى الذى يرى فى أحمق البعولة خنوعا لازواجهم واذا كان قد بذل لها من الاجلال أكثر مما هى أهل له فى اعتقادها فلقد كان هو مصدر الفضيلة التى شغل بها، أما زوجه فلم تعدُ ان عكست عليه الفضائل التى هو مصدرها ولم تكن اذن الا اياه ولم يكن الا اياها وخير ما فيها الآن ليس الا صورة منه ضئيلة

هذا وبلغ من تسامحه معها وكرمه فى معاملتها ان كان يكره حتى الأشارة الى التفرقة بين جيبيهما ويبيح لها ماله فلا يقبل منها بيانا لما انفقت، وكان ثابت الحب لها فلما تخطت دور شبابها

وجمالها أخذت شدة غرامه بها تبدو ذلك أن حبه لها كان مفرطا لايفى ببيانه وصف ، على أن هذا الحب وهو أقصى ما يتصور صدوره عنه أو عن غيره من الرجال كان وراءه حب يفوقه ، أريد أنه كان يحبها فى الله حب الاخت فى الانسانية لا المعبودة وعلى نحو يريك أن المحبة اذا أسس بنيانها على أصول الواجب الصحيحة فاقت من جميع الوجوه كل ما ترى فى العالم من شهوات ناشزة

الا أن حبه لله كان فوق حبه لها ولكن عزيز عليه مما سلم به عن طيب خاطر فى سبيله جل وعلا [1]

والسيدة رشل رسل أخرى من النساء طائرات الذكر فى التاريخ بولائهن واخلاصهن فى الزوجية فلقد عانت كثيراً فى التماس الافراج عن بعلها ما وجدت الى ذلك سبيلا لا يخدش لها كرامة فلما لم تجد شيئاً من ذلك مجديا تجلدت وعملت على أن تشد بعزيمتها عزيمة بعلها العزيز عليها حتى اذا حانت منيته وتأهبت هى وأولادها لضم أبيهم ضمة الوداع لازمها الجلد حتى النهاية ولكيلا تزيد فى كربه خبأت آلام حزنها تحت سكينة صورية ثم بعد وداع رقيق افترقا لم ينبس أحدهما بكلمة فلما فصلت من

---

(١) من كلمة السيدة لوسى هتشنسن الى أولادها فى أبيهم نقلا عن
Memoirs of the Life of Col. Hutchinson (Bohn's Ed.) pp. 29-30

عنده قال الآن زالت مرارة الموت(١)

واعلم انه قلَّ من الرجال من يقوى على مقاومة التأثر بخلق زوجه اذا انحط ، فهى نازلة به الى مستواها اذا لم تدعم وترَق السامىَ من خلقه وعلى هذا فالزوج اما موجدة لخيرة الرجال واما معدمة لهم ، يمثل لكم هاته القوة فيها سيرة بَنين فقد كان فاسداً ثم ساعده الجَد ان تزوج فى صباه من فتاة كريمة العنصر هو نفسه يقول فيها لقد كان من النعم علىَّ ان اوفق الى زوج يعد أبوها فى الاتقياء وأمها ولقد اجتمعنا وكلانا فى فقر مدقع لا نملك من متاع البيوت آنية ولا ملعقة ولكنها كان لها عن أبيها كتاب (السبيل الى الله) وكتاب (التقوى) فلما قرأهما ثم قرأ غيرهما واستعان بأثر زوجه فيه أخذ يُنْـقَـذُ شيئاً فشيئاً من معاصيه ويهدى الصراط المستقيم

---

(١) عند اعلان استقلال الولايات المتحدة اشترى جن أدمز وهو الذى صار فيما بعد رئيس الجمهورية نسخة من كتاب (سيرة السيدة رسل ورسائلها) وأهداه الى زوجه لكى يكون لها منه كما قال هو مرآة تأمل فيها صورة نفسها قال لانى كنت اذ ذاك أتوقع لما أحسست من خطر السبيل الذى كنت أسلكه ان تجد نفسها فى موقف كموقف السيدة رسل أى ان تجد بعلها قد طار رأسه عن جسمه ثم قال عن زوجه فى عرض كلامه فى هذا المعنى مثلها مثل السيدة رسل لم تقل قط كلمة أو تنظر نظرة تريد بها أن تثنينى عن التعرض للاخطار فى سبيل انقاذ بلادى ورد حريتها اليها بل كانت صادقة الرغبة فى أن تحتمل معى ويحتمل أولادنا معنا عواقب الاخطار التى تحف بنا اه

وكان رتشرد بكستر قد قطع من العمر مرحلة طويلة قبل ان يصادف المرأة البديعة التي صارت فيما بعد زوجا له وكان في مهنته الدينية اشغل من أن يجد من وقته متسعا للخطوبة فكان زواجه كما كان زواج كلفن قائما على أساس من المناسبة بقدر ما كان قائما على أساس من الحب وكان للتي وقع عليها اختياره الآنسة تشارلتن ملك فخشية أن يحمل اقترانه بها على طمعه في ملكها طلب ان تبدأ بالتنازل عن جل ملكها لاقاربها وان لا يقبل شيئاً كان لها قبل زواجها وان ترتب شئونها بحيث لا يدخل هو في مشا كل قضايا بسببها ثم أن لا تجعل لها أملا في أن يكون لها شيء من الوقت الذي يتطلبه عمله فلما قبلت العروس هذه الشروط تم الزواج فكان سعيداً راضيا ويقول بكستر عن عيشهما معا عشنا في حب لا تفصم عراه ورضى كل منا عن صاحبه وشعر بمصلحته في معونته وبقينا على هذه الحال زهاء تسع عشرة سنة اه على ان حياة بكستر كانت حياة شدائد ومصاعب أوجدتها طبيعة الزمن الذي عاش فيه فلقد طورد في انحاء البلاد وبقي سنين عدة لا يعرف لنفسه مقرا ثابتا يأوى اليه ومن ملاحظاته الرقيقة في سيرته قوله هذا الضرب من العناء تحمل المرأة منه جله لكن زوجي حملته كله ولم تجد في حمله مشقة اه

وفي السنة السادسة من زواج بكستر حوكم لاتخاذه متعبداً

فى اَكْتُن وحكم عليه بالسجن فتبعته زوجه وقامت بشئونه مدة سجنه وهو يقول لم أرها فى عشرتها اياى اكثر بشاشة منها وهى تعاشرنى فى السجن وكانت شـديدة المعارضة فى التماس الافراج عنى ، ثم أفرج عنه بعد أن استأنف الحكم ولما ماتت زوجه بعد حياة كانت مع قلاقلها سعيدة أخرج بعلها وصفاً لها مؤثراً بين فيه ما أوتيت من محاسن وفضائل وتقوى وكان من أحسن ما تضمنته مؤلفاته

وكان كُنت زِنزِندُرف مقترناً بامرأة من هذا القبيل فى النبل أقامت روحها العظيمة صلبه وقوت عزيمتها عزيمته فى كل أدوار كده فهو يقول لقد دلتنى خبرة أربعة وعشرين عاماً ان رفيقتى فى حياتى هى التى تلائمنى دون غيرها فمن سواها كان يقوم بشئونى على نحو ما قامت ومن سواها عاش فى العالم لاغبار عليه كما عاشت ومن أعاننى بحكمة كحكمتها على تنكب طريق نضب منه ماء الخير ومن كانت تقوى كما قويت على أن ترى بعلها عرضة لأخطار البر والبحر دون ان تتذمر او على أن تطوف معه مثل ما طافت ومن كانت وهى محوطة بمثل هذه الشدائد تجد السبيل ميسراً الى التجلد حتى تشد أزرى ثم أى بشر كان يستطيع ادراك سر نفسى واكتناه ما ظهر وما بطن منى وبيانه للناس كما استطاعت هى بما أوتيت من سمو فى أساليب التفكير وسعة فى قوى الذهن مع خلو

مما كان يغمرنى فى كثير من الأحايين من مشاغل المتشابهات الفقهية

ومن أكبر المحن التى لاقاها لِڤِنجستون أثناء رحلته فى جنوب أفريقية موت زوجه وكانت شريكته فى الاخطار التى تعرض لها ورفيقته فى كثير من طوافه وتجواله وهو يقول فى عرض ابلاغ صديقه سير رُدَرِك مِرتشِزُن خبر وفاتها على نهر زَمبيزى لابد لى من الاعتراف بأن هذه النازلة الشديدة قد انخلع لهاقلبي ولم يكن كل ما حل بي سواها الا مقويا عزيمتى على أن أتغلب على الصعاب ولكنى بعد هذه المصيبة أحس كأنى قد عدمت القوة وتهشمت أألقاها ثلاثة أشهر فقط بعد ان افترقنا أربعة أعوام أنى اقترنت بها عن حب وكلما طال عيشى معها زاد حبي لها ولقد كانت زوجاً صالحة وأماً خيرة ذات عزيمة ورفق خليقة بكل ما أسديت أنت اليها فى غداء وداعنا من المدح والثناء لما قامت به من تعليم أبنائها وأبناء أهل البلاد فى كُلُبِنج هذا وانى لأبذل جهدى فى احتمال الفاجعة على أنها مما جرت به المقادير وسأبقى قائماً بواجبى ولكنى آخذ فى أسباب القيام به والجو أمامى أقتم اه

وقد ترك لنا سير صمو ل رُمِلى من بعده فيما كتب من سيرته وصفاً لزوجه مؤثراً واليهـا نسب قسطاً وافراً مما أصاب فى هذه الحياة الدنيا من النجح والسعادة فهو يقول لقد كانت سعادتى فى خلال الخمسة عشر عاماً المنصرمة موضع عناية زوج هى خير

الازواج جمعت الى العقل المتين والاحساس الراقى الجليل والفضيلة القوية أصدق المحبة وغاية الرقة النفسية والقلبية وقد زان هذه المحاسن المعنوية كلها أروع ما رأت عين بشر من الجمال (١) اه

نقول بقى حبه زوجه واعجابه بها ثابتين فى نفسه حتى النهاية ولما ماتت كانت الفاجعة اكبر من أن يحتملها طبعه الحساس فهجر النوم أجفانه وخف عقله ولم يلبث ان وقع له الحادث الأليم الذى أدى الى انتهاء حياته الغالية (٢)

وسير فرنسيس بردت وكان رُملى خصمه فى السياسة فى كثير من الاحيان حلت به عند موت زوجه حالة اكتئاب أدت به الى رفض الغذاء بتاتاً فمات قبل أن تخرج جثتها من البيت ودفن البعل وزوجه جنباً لجنب فى قبر واحد

وكان الحزن على فقد الزوج هو الذى حمل سير توَمس جرَهم على أن يلتحق بالجندية وهو ابن أربع وثلاثين وكلنا يعرف صورة زوجه وهى من أجمل ما صور جنزبَرا ، ولقد عاشا معاً سعيدين ثمانى عشرة سنة ثم ماتت الزوج فتركت

---

(1) Memoirs of the Life of Sir Samuel Romilly, vol. 1 p.41

(٢) من غريب الاتفاق أن بكنيسة الابرشيه فى سنت بريد بشارع فليت لوحة فى احد الجدران نقش عليها تذكار لاسحق رملى وأنه توفى عام ١٧٥٩ منفطر القلب بعد سبعة أيام من موت زوج له كان شديد الحب لها

Chambers' Book of Days, vol. II. p.539.

بعلها لا ينفع فيه سلوان ثم لكى ينسى الحزن وكما يظن بعضهم لكى يتخلص من سآمة الحياة بدونها تطوع فى جيش لوردهُد وظهرت مزاياه بما أظهر من بسالة فى حصار تولُن ثم بقى يعمل فى الجيش أثناء حرب الجزيرة تحت أمرة سير جُن مور ثم تحت امرة ولِنجتُن ورقى الى درجات الجندية المختلفة حتى صار الثانى فى القيادة وكان يعرف ببطل بَرُستا لانتصاره المشهور فى ذاك المكان ثم انتهى به الأمر ان رقى الى مرتبة الاشراف ومات هادئاً مطمئناً وقد أدركته السن العالية وكان حتى آخر أيامه يرق لذكرى زوجه التى ماتت ويمكن ان يكون كل الفضل فى مجده راجعاً اليها قال شِرِدَن وهو يرثيه فى مجلس النواب ما حلت روح أعلى من روحه فى قلب أقوى من قلبه

كذلك حفظ فضليات الازواج ذكرى بعولتهن وفى ويانه أثر معروف أقيم تذكاراً لقائد من خيرة قواد الجيش النمسوى وعليه نقش يبين خدماته الجليلة فى حرب السبع السنين ختم بهذه الكلمة لم ينقم هذا وطنه ولا امبراطور بلاده بل زوجه ولما مات سير البِرت مُرتُن بلغ من حزن زوجه عليه أن لحقت به عاجلا ودفنت الى جانبه وبيت وُتُن بهذه المناسبة اشتهر بأنه حوى كتاباً فى بضع عشرة كلمة

همت وقد مات أن تحيا الى أجل
فلم تر العيش حلوا بعدُ فارتحلت

ولما وصل الى زوج وُشنجتن نبأ موت زوجها قالت حسن لقد انتهى كل شيء وسألحق به عاجلا فلم تبق لى محنٌ أعانيها

ولا يقتصر أمر المرأة على كونها خير رفيق وصديق ومُسلٍ بل هى فى كثير من الاحوال خير عون لبعلها فى مهنته الخاصة فقد كان جلفانى موفقاً فى زوجه وكانت بنت الاستاذ جليزى ويقال ان تنبهها لحالة رجل الضفدعة وهى على مقربة من آلة كهربائية من اضطرابها اذا لمست بسكين كان أول اهتداء بعلها الى استقصاء العلم الذى لايزال ينسب اليه وكانت زوج لفوزييه كذلك على استعداد علمى صحيح لم تقتصر على مشاركة بعلها فى أبحاثه بل أعدت النقوش الملحقة بكتابه (العناصر)

وكان للمرحوم الاستاذ بكلند من زوجه معين يساعده بعلمه ويعد ويصلح حفرياته ويمده بالكثيرمن الرسوم والاشكال فى مؤلفاته التى تطبع قال ابنهما فرنك بكلند فى مقدمة كتاب من كتب أبيه أنها مع اشتغالها الكثير بأعمال بعلها لم تهمل تربية أبنائها بل كانت تقضى أول نهارها فى الاشراف على تعليمهم الصحيح النافع من العلم وهم الآن يدركون تمام الادراك قيمة

مجهودها الخالص ويحمدون أن أتيحت لهم مثل هذه الأم الصالحة[1]

وأظهر مما قدمنا مثالا لمساعدة الازواج بعولتهن يظهر فى حالة هوبَر عالم جنيفا الطبيعى كف بصره وهو ابن سبع عشرة ومع هذا وجد السبيل الى التمكن من فرع من فروع التاريخ الطبيعى يستدعى أدق الملاحظة وأنفذ البصر وبواسطة عينى زوجه اشتغل ذهنه كما لو كانت عيناها له وكانت تشجعه على البحث والدراسة ابتغاء تخفيف وطأة عاهته فنسيها وكانت حياته كحياة جل علماء التاريخ الطبيعى طولا وسعادة ولقد بلغ به رضاه عن حالته ان صرح بأنه يود بائساً لو عاد اليه بصره ويقول لا أدرى مقدار ما يصيب من المحبة من كان مثلى ثم انى لأجد زوجى على الدوام نقية غضة جميلة وهو ما لا يستهان به

---

(١) يقول مستر فرنك بكلند فى المدة الطويلة التى قضاها الاستاذ بكلند فى كتابة كتابه هذا الذى أتشرف بأخراجه للناس كانت أمى تسهر الليلة تلو الليلة أسابيع وشهورا متتالية تكتب ما يمليه عليها أبى فكانا يسهران حتى تسطع أشعة الشمس وتنفذ الى غرفتهما تأمر أحدهما بالكف عن التفكير والاخرى بالاقلاع عن التدوين واراحة يد كلت من طول ما عملت ولم يكن امدادها بعلها بالمساعدة واقفاً عند حد تدوينها ما يمليه بل كانت بما أوتيت من الموهبة الفطرية فى التصوير تمده بصور دقيقة ورسوم متقنة منهـــا فى مؤلفات الاستاذ بكلند الشيء الكثير وكانت ذات حذق خاص واتقان فى اصلاح المنكسر من الحفريات وفى متحف اكسفورد كثير منها يبدو الآن فى أشكاله الفطرية وجماله مما ركبته هى بكل صبر ومثابرة من قطع مكسرة بل تكاد تكون مفتتة اهـ

ولا يزال كتاب هوبَر فى النمل معدوداً آية فى المؤلفات وهو يحوى الشيء الكثير من الملاحظات المبتكرة على عاداته وتاريخه الطبيعى بل اذا طالعت وصفه حسبته لرجل فذ فى حدة البصر لا لرجل مضى عليه عند تقييد وصفه هذا خمس وعشرون سنة وهو فاقد البصر

وليس أقل من ذلك فعلا فى النفس تفانى السيدة هَملتُن فى خدمة بعلها المرحوم سير وِليَم هَملتُن أستاذ المنطق وما وراء الطبيعة فى جامعة أدِنبرا لما أصيب بالشلل من كثرة العمل وعمره ست وخمسون صارت زوجه له اليد والعين والذهن بل وكل شيء فاتصلت بعمله وقرأت له الكتب وراجعتها ونسخت محاضراته وأصلحتها وكفته عناء كل عمل رأت فى نفسها المقدرة على القيام به والحق يقال ان سلوكها من حيث هى زوج لم يكن دون البطولة فى شيء ويحتمل أن اكبر مؤلفات بعلها ما كانت لتخرج الى عالم الوجود لولا ما أسدته من المعونة الخالصة الخارجة عن اختصاص الزوجية ولولا مقدرتها النادرة ، فلقد كان بعلها بفطرته غير مرتب ولا منظم فأمدته بالترتيب والنظام وكان مزاجه مزاج الباحث لكنه كان الى الخمول أميل أما هى فكانت ذات نشاط وعمل ، ذات نصيب وافر من المزايا التى أعوزت بعلها وان شئت فقل كان فيه المواهب العقلية ولكن زوجه أمدت مواهبه هذه بما قواها وحفزها للعمل

ولما وقع الاختيار على سير وليم هملتن ليشغل منصب الاستاذية بعد نضال شديد مرّ قام خصومه فزعموا أنه رجل أحلام وأنه يستحيل عليه أن يعلم حلقة من الطلبة وأنه يفشل كل الفشل فى مهنته ولكنه وطد العزم وعضدته زوجه على أن يبرر اختيار أنصاره اياه وأن يثبت فساد مزاعم خصومه ولما لم يكن لديه محاضرات معدة مدخرة أعد المحاضرات يوما يوما ليلقى غدا ما أعد اليوم وكانت زوجه تسهر معه الليالى تبيض المحاضرات من مسوداتها وكان يعدها فى غرفة مجاورة ويقول مترجمه أنه كان يجد فى بعض الاحايين موضوع المحاضرة أصعب علاجا فكان يسهر فى اعدادها الى الساعة التاسعة صباحا وكاتبته الامينة نائمة على منضدة متعبة من العمل[1] وكان يحدث أن يرجأ التنقيح النهائى للمحاضرة الى قبيل موعدها وبفضل هذه المعونة أتم سير وليم سلسلة محاضراته ووطد سمعته من حيث هو محاضر وانتهى به الامر أن عرفت اوربا منه أحد قادة الفكر فى عصره[2]

---

(1) Veitch's 'Memoirs of Sir Wm Hamilton'

(٢) نثبت هنا النبذة الآتية من ترجمة مستر فتش لنمثل فى ذهن القارئ صورة من المجهود الغريب الذى بذلته السيدة هملتن فكانت باخلاصها فى خدمة بعلها ذات فضل كبير على عالم المفكرين قال مستر فتش ان ما لا يزال محفوظا من الاوراق التى بخط يدها الحاوية لعويص المسائل ما بين مبتكر ومقتبس لبالغ الغاية القصوى من العجب فانها كتبت بيدها اما املاء واما نقلا كل ما كان

وان المرأة التي يخفف مجلسها الهم وتطرد الاضطراب وتلطفه بحلو طبعها لتكون مسلية ومعيناً حقاً وكان «تيير» دائم التحدث عن زوجه بأنها على هذا الاعتبار شريكته فى العمل ولولا ما كان

يرسل الى المطبعة وكل المحاضرات وكانت تقوم بكل هذا مدفوعة بأخلص ما يكون من المحبة والاخلاص بله ما كان لها من القدرة على اعلاء مجهود صاحبها وابقائه فى مستوى يناسب العمل الملقى على عاتقه فانها كانت تقاوم فيه ضربا من الخمول المتنقل جعله وإن واصل العمل قابلا لان يؤجل العمل الذى هو آخذ فيه بالفعل وانما كان يحوله عنه مباحث تعرض أثناء معالجة الموضوع الذى يبحث فيه أو فتور مبعثه عناء يلقاه فى ترتيب اكداس المصادر التى جمعها فيما يتعلق بذلك الموضوع ، فى مثل هذه المواقف كانت عزيمتها تدعم عزيمته وبشاشتها تجدد نشاطه ولا سيما أثناء الاثنتى عشرة سنة الاخيرة من عمره أيام فتور قواه البدنية واسترسال ذهنه على ما أصابه من الاعياء فى الاجهاد الفكرى فالحق الذى لا مرية فيه ان زواج سير وليم ورزقه المحدود وأخلاق زوجه أمدت طبيعته وقد كان يجوز أن تصرف مجهودها الضخم فى عمل لا فائدة منه سوى القيام به أو أن يبقى مجهولا لا يعرفه الناس ولا ينتفعون به أمدت هذه الطبيعة التى وصفنا بقوة عملية ودافع قوى بهما تسنى لسير وليم أن ينجز ما أنجز فى مجال الادب والفلسفة ولا مراء فى أن هذا الاثر الذى بينا هو الذى حال بينه وبين الضياع التام فى دنياه التى نسجها خياله سداها ولحمتها آراء نادرة شريفة راقية على انها لا تزال تنأى عن ميدان الوقوع والتحقق ولولا هذا الاثر نفسه لكان جائزا أن تبقى سفينة فكره ساكنة فى بحر هادئ من التفكير النظرى ولو لم يخرج للناس علمه بيناً محدوداً لكان محتملا أن يبقى العالم جاهلا بهذا العالم غير المنتج غارقاً فى حيرة من العجب من عدم انتاجه اهـ

الناقل : ان تبرعهن بمعاونة الازواج فى ذلك (يعنى الاعمال الدنيوية) لا تحظره شريعتنا الحنيفة وله شواهد كثيرة منها ان زوجة الزبير حوارى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت معه بهذه المثابة حتى كانت تنقل النوى

يجد فى مجالستها من الراحة والسلو لتأكلت نفسه وضاعت هباء على غير جدوى وهو يقول ان حلو طباعها ومحبتها يرفعانى فوق هذا العالم وكأنهما ينتزعانى من هذه الحياة اه على انها كانت له عوناً على نحو آخر اكثر مباشرة مما ذكرنا فلقد كان من عادته أن يبحث معها كل حادث تاريخى جديد وكل حادثة سياسية وكل مستحدث فى الأدب ولقد كان كذه وهو يعد نفسه لتعليم العالم كله يرجع القسط الاوفر منه فى بادئ الامر الى تهيئة الممتع لها

وكانت زوج جُن ستيوَرت مل عوناً لزوجها عن جدارة واستحقاق وان كانت مساعدتها اياه فى بحث عويص يدلنا على ذلك اهداؤه كتابه فى الحرية قال أهدى هذا الكتاب الى المحبوبة المأسوف عليها التى كانت ملهمة خير ما كتبت وشريكتى فى تصنيفه تلكم صديقى وزوجى التى كان ادراكها العالى للحق والصواب اكبر باعث لهمتى والتى كان رضاها اكبر مكافأة لى اه

وليس أقل من هذا وقعاً فى النفس شهادة كاتب آخر من كبار

لملف فرسه من مسافة بعيدة ولقد لقيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وهو راكب فاراد أن ينيخ ليحملها على ناقته رأفة عليهــــا وهى حاملة النوى فاستحيت من ذلك

« باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام
للمرحوم الشيخ حمزه فتح الله ص ٦١ »

الكتاب الذين لا يزالون على قيد الحياة فى أخلاق زوجه ، هذه الشهادة أودعت نقشاً على قبر السيدة كَرلَيل فى مقبرة هَدِنجتُن وهو هذا، فى حياتها الباهرة صادفت من الأحزان فوق مايصادف الناس عادة ولكنها كانت ذات جلد وصفاء بصيرة واخلاص نفس يندر وجودها ولقد لبثت أربعين سنة وهى عون لزوجها مخلصه ثابتة المحبة لم ين لها عزم فى دفعه الى الأمام فى كل عمل جليل أداه أو حاوله دفعاً لا يجد غيرها اليه سبيلا اهـ

وكانت حياة فَرَدَى الزوجية بينة السعادة فلقد كان له من زوجه عون ورفيق روح لأنها كانت تشد أزره وتشرح صدره وتقوى عزيمته وهو يخوض غمار الحياة فهيأت له بذلك وسائل اطمئنان النفس ، وهو فى جريدة يومياته يقول عن زواجه انه له مصدر كرامة وسعادة يفوق كل مصدر سواه وبعد ان خبر زواجه عشرين عاماً قال عنه انه حادث ساعد اكثر مما ساعد غيره من الحوادث على سعادته فى الدنيا وسلامة حالته العقلية ويقول ان اتحادهما لم يتغير فى شيء ما الا فى بعد الغور وفى المتانة ، هذا الاتحاد دام ستاً وأربعين سنة لم يطرأ عليه انفصام بل بقى حب البعل فى شيخوخته فتيا جديا ملء القلب كما كان وهو فى عنفوان الشباب

والمرأة زيادة على انها معينة تذهب الحزن فشعورها لا ينى

تجدها تسلي وتشرح وتريح ، ولا نعرف فى هذا المقام مثالا أبين من زوج تومس هُد فأخلاصها له فى حياة لم تكن الا مرضاً طويلا من أكبر ما يؤثر فى النفس مما يصادف فى التراجم والسير ، ذلك أنها لما كانت متفوقة فى صحة النظر قدرت عبقرية بعلها حق قدرها وبالتشجيع والعطف شرحت صدره وقوت قلبه على أن يجدد من مجهوده فى نضال الحياة وأوجدت حوله جواً من الأمل والبشاشة ولم يسطع نور حبها كما كان يسطع وهى تضيء فراش بعلها فى مرضه

ولم يكن هو بالغافل عن قدرها فانه يقول فى كتاب اليها وهى عنه بعيدة يا أحب الناس الىّ ما كنت شيئاً مذكوراً حتى عرفتك وأنا منذ عرفتك أحسن حالا وأكثر سعادة وهناء فاطوى هذه الحقيقة وادخريها وذكريني بها ان قصرت ، انك ترين فى كلماتى هذه اليك حمية وهياماً ولكنى أجد لذلك أسباباً صحيحة فمن خطابك الحبى ، وقد وصل من عهد قريب ، الى ذكرى أولادنا وهم وثائق حبنا القديم ، وأعزز بها من وثائق ، الى ما أجد فى نفسى من دافع لذيذ الى أن أصب فى قلبك ما ينبض به قلبى ثم آخر الاسباب وليس بأقلها شأناً علمى أن عينيك تقرآن ما أنا كاتب ولربما يخطر لى أنى مهما طرأ علىّ من الطوارىء يجب أن

أدون بقلمي اعترافاً لزوجي برقتها وقدرها وتفوقها وكل ما فيها من ميزة زوجية أو نسوية اهـ وفى خطاب آخر كتبه الى زوجه أثناء غيبة طويلة نجد لمحة فطرية تدل على شدة حبه لها قال لقد ذهبت ومشيت فى المدينة حيث مشينا وجلست حيث كان جلوسنا فشعرت بأنى أسعد وأحسن حالا

على أن السيدة هُـد لم تكن مُـذهبة حزن فحسب بل كانت لزوجها عوناً فى عمـله الخاص ولقد بلغ من ثقته بصحة حكمها ان كان يقرأ معها كل ما يكتب ثم يعيد قراءته ويصلحه مستعيناً بها وكثير من قطعه أهديت اليها أولا وكانت سرعة خاطرها تمده فى كثير من الاحوال بما يلزم له من المراجع والمقتبسات فأنت ترى أنها ستبقى أهلا لأن تحل المحل الأول فى سجل الفضليات من أزواج العبقريين

وليس أقل ممن ذكرنا أثراً فى المعونة الأدبية زوج سير وِليَـم نَـبير مؤرخ حرب الجزيرة فلقد حسنت له الاقدام على كتابة هذا التاريخ ولولا معونتها لعانى مشقة كبرى فى انجازه لأنها كانت تترجم وتختصر المستندات الأصلية على كثرتها وكثير منها كان بطريقة الرموز وعليه معول كبير ولما علم دوق وِلنجتُن بما أبدت من صدق ومثابرة فى حل رموز أوراق الملك جُـوزف وا كداس المكاتبات التى أخذت فى فِتُـريا لم يكن يصدقه أول

الأمر ثم قال لقد كنت أرضى أن أجود بعشرين ألفاً لمن يستطيع أن يقوم لى بهذا العمل وأنا فى الجزيرة اه هذا ولما كان خط سير وليم نبير لا يكاد يُقرَأ كانت هى تعالجه حتى تقرأ المسودات متداخلة السطور ولم يكن هو نفسه يكاد يستطيع قراءتها ثم تبيضها كلها للمطبعة ، هذا العمل الواسع النطاق قامت به وأنجزته دون أن تهمل لحظة واحدة أمر أهل بيتها وتعليمهم وكانوا كثيرين يشهد لها بذلك بعلها ، ولما مرض سير وليم مرضه الذى مات فيه كانت هى فى الوقت نفسه مريضة مرضاً خطراً فنقلت الى غرفته على منضدة وودع كل منهما صاحبه وداعاً صامتاً ثم مات بعلها أولا ولحقت هى به بعد أسابيع وهما الآن متجاوران فى لحد واحد

وان فى الذاكرة غير من ذكرنا كثيراً من أمثال أولاء من مخلصات الأزواج لو أننا سردنا مناقبهن لضاق بنا المقام كزوج فلَكسمَن التى سرّت عن بعلها وقوّت طول الحياة عزيمته وهو يؤدى عملة فصحبته الى رومه وشاركته كده وهمومه ثم فوزه من بعد والتى أهدى اليها فلَكسمَن بعد أربعين سنة من زواجهما رسومه الجميلة التى تمثل الأيمان والأمل والاحسان دليلا على حبه الخالص الصادر من أعماق قلبه ، وككترين بُتشَر زوج وليم بليك وكانت تعتقد أن زوجها أقوى الناس عبقرية

وتعمل معه فى صوره وتلونها تلويناً جميلا بيدها ثم لازمته فى كل أدوار جموحه وشاركته فى أحزانه ومسراته خمساً وأربعين سنة ووفرت له أسباب راحته حتى فاضت روحه وكانت آخر صورة صوّرها فى السنة الأولى بعد السبعين من عمره صورة نفسه وقبل أن يصورها رأى زوجه الى جانبه فقال مكانك ابقى كما أنت فانى مصورك لانك كنتِ لى ملكا ، ثم كالسيدة فرنكلِن الجليلة المخلصة التى لم تكف عن محاولة الايغال فى بحار القطب وهى سر غامض سعياً وراء العثور على بعلها ، وكان قد طال العهد على غيبته ، لم يثن عزمها الفشل بل ثابرت باخلاص وثبات لا نظير لهما البتة ، أو كزوج زِمَرمَن التى حاولت ولم تحاول الا عبثاً ، أن تخفف من كآبة بعلها بالعطف عليه والاصغاء اليه محاولة استكناه نفسه والتى وهى على فراش الموت وعلى وشك أن تفارقه الى الابد وجهت اليه هذه الكلمات المؤثرة قالت أيها المسكين ومن يفهمك بعدى

وللازواج سبل غير هذى فى مساعدة بعولتهن ، لما سقطت وِنزِبرج طلب نساؤها من محاصريها أن يأذنوا لهن فى اخراج نفائسهن منها فأجيب ملتمسهن وبعد فترة قصيرة ظهرن خارجات من ابواب المدينة يحملن بعولتهن على ظهورهن والفضل فى فرار لورد نِتزدِيل من السجن راجع الى مهارة زوجه فانها

بدلت بملابسها ملابسه وأخرجته على أنه هى وبقيت سجيناً وفى هذا قلدتها مدام دِلَفَـلِت ونجحت

غير أن أروع مثال لخلاص البعل بسبب ولاء زوجته ما كان من أمر جرُتَيس ، قضى بعد ان حكم عليه بالسجن المؤبد عشرين شهراً فى قلعة لُفِستَن وهى قلعة منيعة على مقربة من جُركَم وأبيح لزوجه أن ترافقه فى سجنه فخففت عنـه وحشة الوحدة وكان لها أن تخرج الى المدينة مرتين فى الاسبوع لتأتى بعلهـا بالكتب وكان يحتاج الى كثير منها حتى يتسنى له المضى فى أبحاثه العلمية ثم مست الحاجة الى صندوق كبير يسعها وكان الحراس فى بادئ الامر يفحصون هذا الصندوق فحصاً دقيقاً ولما وجدوا أنه لم يحو الا الكتب ومنها كتب هِرمَنية عدلوا عن فحصه وجعلوا يأذنون بدخوله وخروجه كأنهما من الامور المعتادة فخطر لزوج جرُتَيس أن تنتفع بذلك فى انقاذ بعلهـا وأغرته يوماً أن يلقى بنفسه فى الصندوق بدل الكتب الخارجة ولما حمله الجنديان المختاران لحمله أحسوا فيه بثقل غير مألوف فقال أحدهما مداعباً أفيه هِرمَن نفسه فأجابت الزوجة بحضور بديهتها قالت نعم ربما كان فيه بعض الكتب الهِيرمَنية ، وصل الصندوق بالسلامة الى جُركَم وخلص السجين ففر الى بَرَبن بعـد ان اخترق الحدود ومنها انتقل الى فرنسا وفيها لحقت به زوجه

واعلم أن الشدة والمحنة محك حياة الزوجية لانهما تظهران الاخلاق على حقيقتها ولقد طالما أديا الى أمتن رابطة بل قد تكونان مُتَفَجّر السعادة الخالصة ، أما دوام السرور كدوام النجح فلا خير فيه للناس رجالا كانوا أو نسوة ، أنظر الى هَيني، ماتت زوجه فأخذ يفكر فى الحرمان الذى حل به وقد كان لهما جميعاً عهد بالفقر فكافحاه متضامنين وكان أكبر الآلام له أن يُحرَمَها اذ كان الحظ قد أخذ يبسم له دون أن تجد سبيلا الى مشاركته حسن حاله وهو فى هذا يقول وا أسفاه ألا بد لى ان أعد من بين احزانى حبها وقد كان أصدق وأقوى ما عرف من الحب قلب امرأة أأعد من بين أحزانى حبها وكنت به أسعد الناس وكان لى ينبوع ما لا يحصى من المحن والمتاعب والهموم ، لا أراها بلغت درجة البشاشة الكاملة ولكن أليس الفضل للحزن فى كل ما بالحب من حلاوة لا توصف ولذة عالية ساحرة وأرانى فى هذه النازلة التى ألمت بى فكانت سبب ما أعانى من الهم والغم أنعم بسعادة لا توصف على ما يتزايد من همى وما ينتاب قلبى من عذاب الحزن ثم لما كانت دموعنا تجرى على خدودنا ألم يجر بصدرى سرور ندر أن يشعر به ولا أدرى ماذا أسميه على حين أن هذا الصدر كان نهباً بين الفرح والحزن مقسماً اهـ

هذا وان فى الحب عند الالمان لدرجة من العاطفة يجدها

الانجليز غريبة ، هذه العاطفة نراها فى حياة نُفَالس وجَنج وستِلِنج وفِتشِته وجَن بول وغيرهم فان للعقد عند الالمان احتفالا لا يكاد يقل شأناً عن الزواج نفسه ، فيه يكاد يطلق للعواطف العنان تخرج حرة طلقة على حين أن الخطيبين الانجليزين يستولى عليهما الحياء كأنهما يستحيان من الاحساس الذى يجول بنفوسهما ، أنظر على وجه التمثيل الى ما قالت زوج هِردَر وكانت قد رأته لأول مرة على منبر الخطبة قالت لقد سمعت صوت ملك من الملائكة وكلمات من أعماق النفس لم يكن لى بمثلها عهد من قبل ثم رأيته أصيل ذلك اليوم وشكرت له بصوت يتهدج ومن تلك الساعة التأمت نفسى ونفسه فصارتا نفساً واحدة اه وكان عقدهما قد تم قبل أن تساعدهما الحالة المالية على أن يتزوجا ولكنهما بعد زمن طويل اقترنا قالت الزوج واسمها كَرُلين كان زفافنا فى ضوء الشفق من ليلة حسناء فكنا واحداً قلباً وروحاً اه ولم يقل هردر عنها انفعالا فى كلامه عن هذا القران فقد كتب الى جَكُبِى يقول ان لى زوجاً هى شجرة حياتى وسلوانها وسعادتُها ونحن واحد حتى فى الخواطر السانحة المسرعة وخطورها لنا كثير اه

ثم انظر الى فِتشِته وخطبتُه وزواجُه من الحوادث الجميلة فى تاريخه ذلك انه كان طالباً فقيراً يعيش بين اهل بيت فى زُرِخ يعلم

أولادهم وعرف اذ ذاك جوُنا مَريا رَان قريبة كلبستك وكانت في الحياة أعلى مقاما من فتشته لكن ذلك لم يمنعها ان تعجب به اعجابا خالصاً ولما ازمع الرحيل من زرِخ وكانت على علم بمبلغه من الفقر عرضت عليه ما لا قبل ان يغادر المدينة فكان في عرضها هذا جرح لاحساسه يعجز عن وصفه الواصف ومحرك لشكه في حبها له ولكنه بعد تروّ كتب اليها يشكر لها صنيعها ويذكر استحالة قبول المال منها ثم تمكن من الوصول الى المكان الذى اراد مع عوزه الشديد وبعد نضال مع الدنيا طويل الأمد كان المال الذى يكسبه كافياً لان يمكنه من الزواج وهو يقول فى أحد كتبه الى خطيبته يا أعز الناس على انى أقف نفسى عليك واشكر لك انك لم تريني غير أهل لان أرافقك فى سفرة الحياة وانى لأعلم أن ليس فى الدنيا بلاد سعادة بل فيها بلاد كد ونصب وكل فرح فيها انما هو حاصل ليقوى عزيمتنا على مواصلة الكد وسنخترقها متكاتفين متساندين يقوى كل منا صاحبه حتى يصعد روحانا ، وادعو الله ان يكونا معا ، الى مقر النعيم الخالد اهـ

وكانت حياة فتشته فى الزوجية حياة سعيدة وتبين ان زوجه كانت له عونا حقا راقيا ثم انها كانت أثناء حرب الخلاص تجد فى عنايتها بالجرحى فى المستشفيات وفيها أصيبت بالحمى وكادت يقضى عليها وأصيب بعلها بهذا المرض ورقد زمنا لكنه عاش بعد ذلك

بضع سنين ثم مات وهو فى الثانية والخمسين

نقول ما أشد التباين بين خطوبة وزواج وليم كُبت مع سذاجتهما وحب هؤلاء الجرمان وما فيه من رقى معنوى وعواطف حساسة لا نقول ان الاول كان فى حبه أقل اخلاصا وكرامة ولكنا نقول بانه كان اذا قورن بالثانى أخشن أو أكثر سذاجة ذلكم أنه رأى زوجه المستقبلة وهى لم تعد الثلاث عشرة وكان هو ابن احدى وعشرين يخدم فى فرقة من الرجل فى سَنت جُنْز بنيوبرَنزوِك ، مر كُبت فى يوم شتاء ببيت أبيها فرآها خارجة تنظف آنية غسيل فقال فى نفسه هذه هى الفتاة التى تصلح لى ثم تعرف بها وعقد العزيمة على ان تكون له زوجا متى خرج من الجندية ولما أزمعت الفتاة العودة الى وُلِتش مع ابيها وكان فى المدفعية ارسل اليها كُبت مائة وخمسين جنيها كان قد ادخرها ليتسنى لها ان تعيش بلا كد حتى يعود الى انجلترا ثم سافرت تحمل المال معها وخرج كُبت من الخدمة العسكرية بعد خمس سنين ولما وصل الى لندن عجل بالذهاب الى بيت أبيها قال وجدت فتاتى تعمل فى بيت ضابط فوضعت فى يدى المائة والخمسين جنيها كلها ولم تكد تقول كلمة بشأنها اه زاد حبه لذاتها اعجابا بسلوكها ثم تزوج بها بعد يسير زمن فكانت زوجا صالحة والحق يقال انه لم يمل الثناء عليها وكان فخراً له ان يرجع اليها الفضل فى

كل ما لقى من راحة وجل ما اصاب من نجح فى حياته بعد ذلك

كان كثيرون من أهل عصر كُبت يعدونه خشنا صلبا عمليا كثير الظنون ولكنا مع هذا نرى فى طبيعته وراء ظاهرها تيارا من الشعر قويا وقل من الناس من كان فيه من راقى العواطف مثل ما كان فى كُبت وان كان قد شدد النكير على العاطفة ولقد كان من أرق الناس عطفاً على المرأة يجل منها الطهارة والعفة والفضيلة ، ونراه فى نصيحة الشباب يصف المرأة الحقة الزوج المعينة الباشة المتحببة وصفاً لم يفقه وصف كاتب من كتاب الانجليز من حيث التفرز وقوة الذوق السليم نعم لم يكن كبت قط بالمصقول على المعنى المتعارف بيننا ولكنه كان تقياً معتدلا على شىء كثير من الايثار والكد والقوة والهمة ، لا تنكر انه فى كثير من آرائه لم يوفق الى الصواب ولكن آراءه كانت له وكان يأبى الا ان يكون مستقل الرأى فى كل ما يفكر فيه واذا كان من تشبعوا بالواقع أ كثر من تشبعه به قليلين فلربما كان أقل منهم من فاقوه فى الاعتداد بالمثل الاعلى اما فى وصف ما تجيش به نفسه من الانفعال فلا نرى احدا يفوقه بل لو توخينا الحقيقة لقلنا انه يكاد يعد من فحول شعراء النثر الذين صوروا الحياة الانجليزية على حقيقة أمرها

الباب الثانى عشر

تأديب التجارب

وددت لو نشأ كل عظيم نشأتك انت الذى لم تزدد قوة وعلما فحسب بل ازددت على مر السنين وتوالى الايام مقاما واحسانا

تينيسن

الشقاء ان لا تذوق الشقاء والبؤس ان لا تعرف البؤس فان خير السبل الى اصالة الرأى سبيل الشدة وخير ما يصون عن الخطل خبرة تولدها محنة فهى فى هذا السبيل خير من نعيم لا يكشف لصاحبه عن حقائق الامور

دنيل

فى الكروب كتل من الويل لكنها لى مصدر نعيم ، هى كورى وان قل من يرون فيها رحمة

اغانى الانجيل — إرسكين

لا يكتسب البصر بالامور الا فى مدرسة التجارب ، نعم القواعد والنصائح نافعة فى بابها لكنها لا تعدو ان تكون محض نظريات الا اذا اقترنت بتدريب الحياة ولا بد من معاناة حقائق العيش الصعبة حتى تكون على الاخلاق مسحة الحق التى لا تستفاد بالتعلم والتحصيل بل بالاحتكاك بالناس وتصرفهم

والاخلاق لا قيمة لها ما لم يستطع صاحبها الثبات فى المواقف التى يصادفها فى الحياة مواقف الاعمال اليومية والفتنة والمحنة اما الفضائل التى لا تخرج عن دائرة الخلوة فلا قيمة لها والذى يقضى حياته لا ينعم الا بخير الخلوة قد يكون غير ناعم فى الواقع الا بالاستئثار وقد تدل العزلة على احتقار صاحبها للناس وان كانت فى العادة دليلا على الخمول والجبن والانهماك فى الملاذ والشهوات ولكل امرئ قسطه من الكد والواجب فلا يمكنه التخلى عنه دون ان يكون من وراء هذا التخلى ضرر يلحق به وبالجماعة التى هو منها ولا سبيل الى اكتساب الحكمة والخبرة فى الامور العملية الا بالدخول فى غمار الحياة الدنيوية اليومية والاشتراك فى أعمالها فهى أكبر مجال الواجب علينا وفيها نستفيد أدب العمل ونروض أنفسنا على الصبر والجلد والجد وهى الامور التى تكيف اخلاقنا وتكسبها الصلابة وفيها نلقى العقبات والمحن والفتن مما تتوقف على معالجتنا اياها صبغة حياتنا المستقبلة كلها وفيها

كذلك يسرى علينا تأديب الشدائد ومنه نكتسب أكثر مما نكتسب من دراسة الخلوة فى مأمن العزلة

هذا ومخالطة الناس مطلوبة ليستعين بها الانسان على معرفة نفسه فالانسان لا يعرف قدره الا بالمخالطة وهو ان لم يمارسها عرضة للغرور والصلف والغطرسة وان يبقى جاهلا نفسه وان لم يعاشر غيرها

يروى عن سوِفت انه قال ما ابتذل قط عارف قدر استعداده ولا حفظ كرامته جاهل به هذه حقيقة لا نزاع فيها اه وانا نجد كثيرين أكثر استعدادا لنقد الناس منهم لنقد أنفسهم قال احد علماء جنيفا وهو الاستاذ ترُنشَن فى حديث له عن روسو آتونى به لارى ما به ولربما كان الاقرب ان يعرف روسو من حقيقة أمر ترنشن أكثر مما يعرف هذا من حقيقة امر روسو وكان روسو بحقيقة نفسه ادرى .

لهذا كان لابد لمن أراد ان يكون فى الحياة شيئاً مذكوراً أو ان يقوم فيها بشىء يذكر من ان يعلم حقيقة نفسه فهذا العلم بالنفس من الضروريات فى تكوين الانسان عقائده الخاصة به قال فيردرك برتس يوما لشاب من اصدقائه انت تعلم حق العلم ماذا تستطيع ان تعمل ولكنك لا تستطيع القيام بعمل ذى بال ولا تعرف لطمأنينة النفس معنى حتى تعلم أى الاعمال

لا تستطيع ان تعمل اه

ومن شاء الانتفاع بالتجربة فلا يستنكفن التماس المعونة ومن رأى نفسه احكم من ان يسترشد بالناس لم يوفق ما حيي الى عمل صالح ولا الى عمل جليل لهذا كان علينا ان نفتح اذهاننا وقلوبنا جميعاً ولا نستحيي ان نسترشد بمن هم ابصر منا بالامور واخبر بالحياة

وانك لتجد من حنكته التجربة يتوخى صحة الحكم على لامور التى تقع تحت نظره والتى منها مجموعة حياته اليومية وما جل الذى نسميه تمييزاً الا أثر التجربة المعتادة قد هذبها العقل وحسنتها الحكمة ولا نرى عظيم الاقتدار الزم فى اكتساب هذا التمييز من الصبر والدقة واليقظة ، ومن رأى هزلت ان أعقل من تصادفهم فى الحياة ان هم الا طائفة من ذوى التمييز من رجال الدنيا الذين يجعلون اساس تفكيرهم ما يرون وما يعلمون ولا يتخذون من البحث فيما يجب ان تكون عليه أحوال الدنيا مادة ينسجون منها بيوتا كبيت العنكبوت

بهذا يعلل كون النساء فى الغالب أحسن من الرجال ذوقاً وانما كن كذلك لأنهن أقل مزاعم ومقياس حكمهن على الامور الفطرة لا ينقدن الا لما تحدثه الامور المحكوم عليها من الأثر غير المتصنع فى نفوسهن ثم هن أسرع خاطراً وأحد ادراكا وأنشط

عاطفة وأساليب معاملتهن أسهل تكيفاً بما تقتضيه الغايات لهذا تجدهن أمهر من الرجال سياسة فانا نرى فيهن قليـلات النصيب من الذكاء يتمكن فى كثير من الاحيـان من الرجال مستعصى الطباع فيضبطنهم وينظمن سلوكهم وانا نجد بوب فى وصفه ميرى زوج وليم الثالث قد أطنب فى الثناء على حسن سياستها وقوة تمييزها اذ لم يصفها بانها ذات علم بل قال أنها ذات تبصر وهو يعدل كل ما عداه

وقد يمكن اعتبار الحياة كلها معهداً للتجربة عظيما تلاميذه الناس من نسوة ورجال ولا بد فى هذا المعهد كما فى كل معهد دراسة من قبول الكثير من التعاليم على أنه قضية مسلمة فقد يحظر علينا ادراك حكمتها بل قد نرى فى تحتم تلقينا اياها عنفاً ومشقة وارهاقاً ولا سيما اذا كان اساتذتها الشدائد والاكدار والمغريات والعقبات لكن كون الاساتذة من هـذا الطراز لا يعفينا من قبول تعاليمهم بل هو فوق ذلكم يوجب التسليم منا بانهم مما قبضته الاقدار لحكمة الهية

فالجدير بالاعتبار أن نرى ماذا يكون مبلغ استفادة المتعلمين من تجاربهم فى مدرسة الحياة وماذا يكون مقدار انتفاعهم بفرص التعلم التى تسنح لهم وماذا أفادوا من تهذيب العقول والنفوس ثم من الحكمة والعزيمة وضبط النفس ، أبقوا على استقامتهم مع

البحبوحة والنعيم وبسطة العيش فاعتدلوا ولم يركبوا فى التمتع بنعيم الدنيا متن الشطط أم لم يروا الحياة الا ارتطاماً فى أوحال الاستئثار لا يحفلون فيه بالناس ولا يخطر الناس لهم على بال ثم ماذا تعلموا من الشدائد والمحن اتعلموا الصبر واليقين فى الله والرضى بما قسم الله أم لم يتعلموا الا الجزع والضجر والتذمر

لا تدرك بطبيعة الحال ثمرات التجارب الا مع طول العمر وما طول العمر الا طول الزمن والمجرب يدرى كيف يتخذ الزمن له عوناً ومن أقوال كردنل مَـزَرَن المأثورة أنا والزمن نقاوم أى اثنين اه قالوا فى وصف الزمن أنه مجمل ومسل ونزيد أنه فوق ذلك معلم بل هو قوت التجارب وتربة الحكمة وهو للشباب صديق او عدو وعلى كيفية قضاء الانسان عمره وانتفاعه بالزمن تكون علاقته به فهو الى جانب الشيخ اما مسل مروح واما مشق معذب

قال جورج هيربرت الزمن راكب يقصم ظهر الشباب اه نقول ما أجمل الدنيا الفتية فى نظر الشباب وما أكثر ما يراه فيها من الجدة واللهو واللذة لكننا على توالى السنين نجد الدنيا دار نعيم وشقاء وكلما قطعنا من الحياة مرحلة تكشفت لنا عن كثير من المناظر الحالكة مناظر النصب والعناء والعقبات بل ربما كانت مناظر نكبة وفشل والسعيد من استطاع أن يجوز هذه الشدائد ثابت النفس طاهر القلب يلقى الشدة هشا بشا ولا تلين قناته ولو

حمل أثقل الاحمال

هذا وان قليلا من حمية الشباب ليكون فى الحياة عونا كبيراً وفيه فائدة من حيث كونه حافزاً للهمة ، نعم هذه الحميـة تهبط سورتها تدريجاً مع الزمن مهما كان مبلغها من التأجج ثم التجربة تهذبها وتفل من حدتها لـكنها مع ذلك مظهر ينبيء عما بالاخلاق من سلامة وما فيها من أمل نخليق بنا ان نحسن القيام عليها وتوجيهها فى طريق الصواب لا ان نحقر من شأنها و نقف فى سبيلها ذلك ان الحمية فى الشباب دليل على ان فى نفس صاحبها قوة و بعدا عن الاستئثار ، وان فى دخول الانسان الحياة بزاد من هذا الاستئثار والزهو لقضاء على ركن الضخامة والقوة من اخلاقه وان الحياة فى هذه الحالة لتكون أشبه بسنة لا ربيع فيها واذا عدم زمن البذر الصالح فلا زهر يرجى ولا ثمر يجنى والشباب ربيع الحياة ان لم يصحبه نصيب صالح من الحماسة فما يأخذ صاحبه فى أسبابه من جليل الاعمال قليل وما ينجزه منها أقل ثم ان هذه الحمية تعين كثيراً على خلق العمل بما تبعثه فى صاحبها من اليقين والامل وبما تنبت فيه من طلاقة وبشر وهو يعانى تفصيلات العمل وما فيها من جفاف

قال سير هنرى لـرنس خير ما يقيم صاب الرجل وهو يجتاز

مرحلة الحياة خليط مناسب من الخيال والحقيقة وانما قيمة الخيال أو الحماسة ان شئت ان فيها تهييجاً لخير مجهودات النفس ودعما لها اه وكان من دأب سير هنرى ان يحث الشباب لا على ان يقلوا من حماستهم بل على ان يقودوها غير مالّين ويحسنوا القيام عليها باعتبارها خلقاً أوجد فيهم لحكمة جليلة وغرض نبيل وهو يقول اذا اجتمع النصيب الصالح من قوة الخيال ومثله من قوة الحقيقة سلكت الحقيقة الى الغاية المرغوب فيها طريقا قويما خشنا أما الخيال فيغرى على سلوك ذاكم الطريق بما يبين من محاسنه وبما يبث من عقيدة عملية راسخة فى ان الانسان قد يوفق حتى فى هذا العالم المظلم المادى الى نعيم لا ينغصه منغص أو الى نور لا يزال فى ازدياد حتى يكون منه اليوم الجليل اه[1]

وكان جوسف لنكستر وهو لم يعد الرابعة عشرة اذا قرأ كتاب كلركس فى الاتجار بالرقيق يعقد العزيمة على مغادرة بلاده الى جزر الهند الغربية ليعلم السود الانجيل وقد سافر اليها يحمل فى متاعه نسخة من الانجيل وأخرى من رحلة الحاج وبضعة شلنات ولا يداخلنا الشك فى أنه قد أخذته الحيرة فى كيفية الاخذ فى أسباب عمله الذى تطوع له غير ان أهله اهتدوا الى مقره وبادروا بحمله على

(1) 'Calcutta Review', Article on 'Romance and Reality of Indian Life'.

العودة الى بلده فعاد ولم ينقص شيء من حماسته ومن ذاك الحين لم يكف عن الانقطاع للعمل الانسانى الصحيح وهو تعليم الفقراء المعوزين (١)

لا غنى للانسان عما تكسب الحماسة من قوة حتى يستطيع ان ينجح فى الضخم من أعمال الحياة والا فهو عرضة لان يفشل مضطرا بحكم العراقيل والعقبات التى هو لا بد ملاقيها من كل مكان والعزيمة والمثابرة وهما مما تبعثه الحماسة تبعثان احساساً بقوة تكفى لمكافحة كل خطر ونضال كل عقبة وما كان أشد حماسة كلمبس اذ دفعه اعتقاده الى مكافحة اخطار فى غير معروف من البحار ولما استولى اليأس على من حوله وثاروا عليه وهددوه بان يلقوه فى البحر بقى ثابتاً على اساس متين من أمله وعزيمته الى ان لاحت فى الافق الدنيا الجديدة

---

(١) لم تكن سن جوسف لنكستر الا عشرين حين فتح أول مدرسة فى حجرة من بيت أبيه وكان ذلك عام ١٧٩٨ ولم تلبث هذه المدرسة ان اكتظت بالمعوزين من أبناء الجهات القريبة منها وبعد فترة وجيزة ضاقت عن أن تسع طالبي الدخول فيها فأجر لنكستر مكانا بعد آخر ثم بنى لمدرسته محلا خاصا يتسع لالف تلميذ وعلق خارجه هذا الاعلان

لكل من شاء أن يرسل أولاده الى هذا المكان ليتعلموا بالمجان ولمن لا يرغب فى أن يتعلم بلا مقابل أن يدفع أجرا ان شاء اه فانت ترى أن لنكستر يشير نظامنا الحالى فى التعليم القومى

وذو العزم لا يقنط بل يجد ثم يجـد الى ان يحظى بمرغوبه وان الشجرة لا تسقطها الضربة الاولى وانما تسقط بعد عناء وضربات متكررات ولقد نرى النجاح الظاهرى ولا نفطن الى ماعانى صاحبه من أهوال قبل ان يوفق اليه ، هنأ مرشال لِفِفر صديق له بأملاكه الشاسعة وثروته العظيمة فقال المرشال اتغبطنى اذن لك كل ما أملك بايسر مما لاقيت فى جمعه فاصحبنى الى فناء الدار وانى لراميك ببندقية عشرين مرة على بعد ثلاثين خطوة فاذا لم أصب منك مقتلا فكل ما أملك لك ، ماذا تقول ، أراك ترفض القبول ، حسن ، اذن فاذكر انى رميت أكثر من الف مرة وعلى مسافة أقرب مما اقترحت عليك قبل ان أصل الى الحالة التى ترانى عليها اهـ

الا وانا لنجد الفحول من الرجال قد عانوا التعلم من الشدة وهى فى العادة للاخلاق خير منبه ومرب ولقد طالما حركت للمضى فى الاعمال قوى لولاها لبقيت هامدة وقد تكشف النكبة المفاجئة عن الابطال كما تكشف ظلمة الخسوف عن لامع الشهب ويخيل الينا ان العبقرية فى بعض الاحايين كالزند لا بد لها من ضربة من الشدة حادة مفاجئة تخرج منها تلكم الشررة الالهية ومن الطبائع ما ينضج ويزهر وسط المحن ولا تكون عاقبته الا الذبول والفساد ان أحاط به جو من الدعة والراحة

ومن ثم كان خيراً للمرء ان تهيب به الشدة فتدفعه الى العمل دفعاً وتربى فيه الركون الى نفسه لا ان يستنيم عمرَه الى جمود غير مجد وخمول غير منتج [1] فان النضال هو الذى يهيىء النصر ولولا العراقيل لما كانت حاجة الى المجهود ولو لا الفتنة لما كان تدريب على جهاد النفس ولما كان فى الفضيلة الا ضئيل فضل ولولا المحن والكروب لما كان مجال لتربية النفس على الصبر فانت ترى ان العراقيل والشدائد والكروب ليست كلها شراً بل هى فى كثير من الاحيان خير معين تستمد منه القوة والتدريب والفضيلة

لهذا قد ينفع الرجلَ اضطراره الى مكافحة الفقر والتغلب عليه يقول كرليل من كافح ولو لم يكافح سوى الفقر والنصب كان أصلب عوداً وأكثر خبرة ممن يملك ان يتنكب ميدان المعمعة ويقبع بين مراكب المؤنة

ولقد كان الفقر على طلاب العلم أخف من حرمانهم قوت عقولهم والثروة أثقل وطأة على العقول من الفقر ، يقول رِشتَر

---

(١) قال أحد كبار الموسيقيين فى مغنية نقصتها الروح وان بدت عليها أمارات النبوغ أراها تجيد الغناء لكنها ينقصها شيء هو كل شيء ولو كنت أعزب لخطبتها فتزوجتها فأسأت عشرتها ففجعتها اذن لصارت بعد ستة شهور أكبر مغنيات أربا
Blackwood's Magazine.

لا أختار الا أن أقول للفقر مرحباً على أن لا تزور ولما يبق من العمر الا اقله وينبئنا هُراس أن الفقر هو الذى دفعه الى القريض وأن الشعر هو الذى كان واسطة التعارف بينه وبين فَروس وفرجيل ومِسناس ويقول مِشِليه أن العوائق بواعث كبرى ولقد عشت سنين على فِرجيل فكنت حسن الحال وان مجلدا من شعر رَسين اشترى عرضاً على رصيف الميناء كان هو المكون لشاعر تولُن

وقيل أن الاسبان تسفلوا الى ان كانوا يفرحون بضيق ذات يد سِرفَنت يحسبون أنه لولا فقره لحيل بينه وبين مؤلفاته العظيمة التى أخرجت لهم ، ولما زار رئيس اساقفة طليطلة سفير فرنسا فى مدريد أعربت حاشية السفير عن أعجابها بما يكتب مؤلف دُن كِشت وأشاروا الى رغبتهم فى التعرف بمن كان سبب ذلك الارتياح العظيم الذى به يشعرون اذا قرأوا كتاباته فأجيبوا بأن مرفَنت انضم الى مقاتلة أمته دفاعا عن حوزتها وانه أصبح شيخاً فقيراً فقال بعض الفرنسيين ماذا يقول مولاى ، أليس السيد سِرفنت فى سعة من العيش، الا تنفق عليه الخزانة العامة ، فقيل له ما دام فقره يغنى العالم فلا قدر الله أن يكفى شر الحاجة اذا كانت هى التى تدفعه الى الكتابة (1)

ليس أثر الرخاء ولا أثر الغنى بأبين من أثر الشدة وأثر الفقر

(1) Prescott's Essays, Art. Cervantes.

فى تحريك المثابرة فى ذوى النفوس المتينة السليمة وتهييج هممهم وترقية أخلاقهم قال برك عن نفسه ليس المتشرع منى ربيب التدلل والترفه

ومن الناس من لا ينقصهم الا أن تعترض سبيلهم عقبة كأداء ثم تكشف أخلاقهم وعبقريتهم عما أودع فيهم من قوة ومتى وفقوا الى تخطى تلك العقبة كانت من أكبر البواعث على استزادتهم من النجح

ومن الخطأ أن يظن أن نجاح المرء هو السلم للنجاح فان النجاح عن طريق الفشل اكثر وقوعا وخير ما يكتسب المرء من خبرة انما يكونه فيه ما يذكره من فشله أثناء معاملته الناس فى مسائل الحياة فان هذا النوع من الفشل يحفز العاقل الى الترقى فى رياضة نفسه وفى حسن السياسة وضبط النفس ويجعله يتخذ من ذلك كله وسيلة لاتقاء الفشل فيما يجد له من أمور ، سل السياسى ينبئك أنه اكتسب فى فنه عن طريق أحباط عمله وعن طريق هزيمته واعتراض سبله والاحاطة به أكثر مما اكتسب فيه عن طريق الفوز والنجاح وما كانت القواعد ولا الدراسة ولا النصيحة ولا القدوة بمؤدية الى تعليمه مثل ما علمه الفشل فان هذا انما دربه عمليا وعلمه من الأعمال ما يأتى كما علمه ما يجتنب ومعرفة مايجتنب تكون فى كثير من الاحيان اكبر شأنا فى السياسة من تعلم مايؤتى

لابد للكثيرين من النـاس من أن يألفوا ملاقاة الفشل المرة بعد المرة قبل أن يتاح لهم الفوز وهم متى كانوا من ذوى الجرأة والاقدام لم يكن للفشل من أثر فيهم الا تنبيه عزيمتهم ودفعهم الى استئناف مجهودهم وهذا تَلما اكبر الممثلين صُفِر له لما اعتلى المسرح أول مرة ولم يذع صيت لَكُـرديز وهو من اكبر الوعاظ فى الاعصر الحديثة الا بعـد أن فشل مرات متتاليات ويروى لنا مُنتَـلمبير عن أول موقف له فى كنيسة سَن رُش أنه فشل فشلا تاما ولما خرج من الكنيسة كان الحضور جميعاً يقولون لن يكون واعظا وان صح أنه ذو ذكاء اه لكنه جد ثم جد حتى أصاب النجح ولم يمض على فشله سنتان حتى كان يخطب فى نُتردام فى جموع قل من خطب فى مثلهم من خطباء فرنسا منذ أيام بسوى ومَسيلُن

ولما وقف مستر كُبدِن أول مرة فى حياته موقف الخطابة فى حفلة عامة بمدينة مَنشِستر خارت قواه حتى اعتذر رئيس الحفلة عن عدم استطاعته الخطابة، وسير جمس جرَهم ومستر دِزرئلى فشلا وسخر منهما أول الأمر ولم يوفقـا الى النجاح الا بقوة الكد واعمال الفكر ولقد اتى على أولهما زمن كاد فيه يتخلى عن الخطابة فى المجتمعات يأساً وقال لصديقه سير فرَنسِس بيرنج لقد حاولتها بكل ما يمكن من السبل حاولتها ارتجالا والقاء من مذكرة مكتوبة وقراءة من ظهر القلب ولا استطيع اليها سبيلا ، ولست ادرى لمه

ولكنى أخشى ان لا أصادف نجحاً قط اه على أن تجرهم والفضل للمثابرة عاش حتى كان من اكثر خطباء البرلمان تأثيراً ومثله دزرئلى

وقد يحصل أن تكون عاقبة الخيبة فى ناحية من النواحى حمل بعيد النظر على أن يلتمس ناحية أخرى فانا نرى فشل بردو فى الحصول على وظيفة كاتب أبرشية قد أدى الى أخذه فى أسباب العلم وايلولة أمره الى الترقى الى اسقفية ولما ترافع بولو بعد أن أعد نفسه للمحاماة فى أول قضية تولى الدفاع فيها خارت قواه وعلت أصوات السامعين ضحكا عليه ثم تبع ذلك ان حاول الوعظ ففشل فيه كما فشل فى المحاماة فعالج الشعر ونجح ، وفشل ولقى الخيبة فى المحاماة كل من فنتنل وفلتير ، ومن قبيل هؤلاء كوبر خر فى أول دفاع له حياء على أنه عاش حتى تجدد على يديه القريض فى انجلترا وفشل منتسكيو وبنتم فى المحاماة فهجراها الى مهن ترتاح اليهما نفوسهما وخلف الثانى منهما كنزا من الأجراءات التشريعية تهتدى به العصور جميعاً وفشل جلد سمث فى الجراحة ولكنه كتب (القرية المهجورة) و (قسيس ويكفيلد) وهذا ادسن فشل خطيباً ونجح فى كتابه سير روجرد كفرلى وغيره مما كتب فى مجلة سبكتيتر .

بل حتى فقدان حاسة من الحواس الرئيسية كالبصر أو السمع لم يكف فى الحيلولة بين أولى العزم والنضال فى الحياة نضال غيرة

وحمية فان مِلتُن لما كف بصره لم ينثن بل بقى فى طريقه سائراً وكتب أكبر مؤلفاته فى تلكم الفترة التى لاقى فيها أشد العناء. أى حين كان فقيراً مريضاً هرما مكفوفا يهمز ويضطهد

ومن فحول الرجال من كانت حياتهم نضالا مع الشدة والهزيمة مستمرا فان دَنتى أخرج أكبر مؤلف له وهو نهب للعدم والنفى نفاه خصومه ونهبت داره وحكم عليه بان يحرق حياً واخبره صديق من اصدقائه بان باب رجوعه الى فُلُرنس مفتوح ان هو قبل ان يطلب العفو فقال لا ليس هذا بالطريق الذى به أعود الى بلادى وانى لارجع على عجل ان استطعت أنت أو استطاع غيرك ان يهيىء لى طريقاً لا ينقص من سمعة دَنتى ولا يحط من كرامته فان لم يمكن دخول فلرنس بطريق كالذى وصفت فلن أعود اليها. اه ولما تشبث خصومه بقى منفياً عشرين سنة الى ان مات فى منفاه. بل لقد طاردوه حتى بعد موته فأحرقوا كتابه دِمُنركيا علنا فى بُلُنيا بأمر من نائب اليابا

وكذا كَمُينز عمل جل قصائده فى منفاه ولما مل العزلة انضم الى حملة وجهت لمحاربة العرب وفيها امتاز بأقدامه وشجاعته وفقد احدى عينيه وهو يعتلى مركباً من مراكب محاربيه فى وقعة بحرية وفى نجوا من بلاد الهند شهد ما يسومه البرتغاليون أهل تلك البلاد من سوء العذاب فغضب ولام حاكمها

ولذا نفى من الارض وارسل الى الصين وفى أثناء ما اعقب ذلك
من حوادثه ومصائبه غرقت السفينة التى كان فيها ولم ينج الا بنفسه
ومسودة لُسياد وكأن الشدة والعذاب والاضطهاد كانت فى أثره
اينما حل وفى مكاو القى فى غيابة السجن ففر منه وسافر الى لشبونه
فوصل اليها بعد غيبة ستة عشر عاما وصل ولا مال له ولا صديق
ونشر لُسياد عقب ذلك فاتت بصيت كبير ولكن لم تأت له بمال
ولولا انطنيو عبده الهندى وتسوله فى الطرقات لمات جوعا (١)
ولكنه مات فى احدى التكايا بعد ان أتى عليه المرض والبؤس
وكتب على قبره هذا قبر لويس كمُينز الذى بز شعراء أهل عصره.
وعاش بائسا فقيراً ومات بائسا فقيراً ، وهذا السجل الصحيح على
ما فيه من عار قد محى واستعيض عنه بعبارة كاذبة ضخمة مجد.
فيها شاعر البرتغال العظيم

وحتى ميخائيل انجلو لقى أثناء جل حياته اضطهاداً من الذين

---

(١) طلب أحد الوجهاء واسمه رى دكرا الى كمينز أن ينظم مزامير التوبة السبعة فرفع الشاعر رأسه عن حشيته وكانت رثة ثم أشار الى عبده الامين وقال أسفى لقد كنت أيام شاعريتى فتيا ناعم البال امرح فى التشبب بالغوانى أما الآن فانا شقى ضال منبوذ انظر تر خادمى المسكين يلتمس دريهمات يشترى بها وقودا وعيشا يلتمس فانى لا أملكها فاعطيها ومن الغريب كما روى فى ترجمة كمينز أن ذاك الوجيه لما سمع من كمينز ذلك القول أغلق دونه قلبه وجيبه جميعا ثم خرج، هكذا كان وجهاء البرتغال

أكل الحقد قلوبهم من سفلة الأشراف وسفلة القسيسين وغيرهم من كل طبقة ، أولئكم الذين لم يستطيعوا عليه عطفاً ولا لكنه عبقريته ادراكا ولما انحى البابا بول الرابع على بعض عمله فى (الحساب الأخير) قال المتفنن لان يشغل البابا نفسه باصلاح الفوضى والموبقات التى تفضح العالم أولى من أن يشغل نفسه بهذا الغلو فى نقد فنى اه

كذلكم تسو كان موضعاً لاضطهاد ومثالب لا تكاد تنقطع وبعد أن لبث فى بيمارستان المجانين سبع سنين أصبح ضالا هائما فى نواحى ايطاليا وكتب وهو فى فراش الموت يقول الا لا أشكو شر النصيب فانى لا أرى أن اذكر كفر النعمة الذى بدا من اولئكم الذين تمكنوا من جرّى الى قبور الشحاذين اه

غير أن للدهر انتقاما غريباً فقد يحصل أن يتبادل المضطهدون والمضطهدون اماكنهم، اذ ذاك يكون الضاربون بسلاح الاضطهاد الموسومين بالعار الملطخين بالفضيحة والمضروبون به العظماء والابطال بل قد يحتمل أن اسماء الضاربين بذا كم السلاح ما كانت لتبقى لها فى الاذهان ذكرى لولا اتصالها باسماء من وقع عليهم الاضطهاد فمن كان يعرف دوق الفُنسو الفرارى لولا سجنه تسو ومن كان عساه أن يسمع بوجود دوق ورتمبرج لولا اضطهاده شيلر

هذا ولقد كان للعلم شهداؤه ممن شقوا بين الشدة والاضطهاد والعناء طريقهم الى النور ونحن فى غنى عن أن نشير مرة أخرى الى ما كان من أمر برونو وجاليليو وغيرهم[1] ممن لاقوا ما لاقوا من الاضطهاد بسبب ما نسب اليهم من الزندقة فى آرائهم ولكن هناك غيرهم من المنحوسين من العلماء لم تكن عبقريتهم لهم جنة دون وحشية أعدائهم فهذا بيى الفلكى الفرنسى المعروف وكان عمدة باريس ثم لافوزييه الكيمائى الكبير كلاهما أطير رأسه فى الثورة الفرنسية الأولى ولما طلب ثانيهما بعد أن حكم عليه بالاعدام أن يمهل أياما يتسنى له فيها الاستيثاق من نتائج تجارب كان قد قام بها أثناء حبسه رفضت المحكمة طلبه وأمرت باعدامه فوراً وقال أحد القضاة لا حاجة بالجمهور الى الفلاسفة وفى انجلترا حوالى ذلكم الوقت احرق بيت الاستاذ برستلى ابى الكيمياء الحديثة ثم دمرت مكتبته والناس من حوله يصيحون ويصخبون وينادون بأن لا فلاسفة وقد فر من وطنه ليودع رفاته بلدا أجنبياً

ومن أكبر الكاشفين من قاموا بعملهم بين اضطهاد يصب عليهم وشدائد تعترضهم والآم يكابدونها فلقد لاقى كلمبس الكاشف

---

(١) انظر باب الشجاعة من هذا الكتاب

عن الدنيــا الجديدة الواهبها تراثا للقــديمة اضطهادا ممن جمع لهم ثروتهم ثم نذكر معاناة منجو برك عذاب الغرق فى النهر الأفريقى الذى كشف عنه ولم يعش ليصفه وموت كلبَرتن بالحمى على شط البحيرة العظمى فى جوف القارة الأفريقية التى اهتدى اليها غيره بعده ووصفها وموت فرنـكلن فى الجليد وقد يكون وفق الى حل معضلة طالما استعصت وهى معضلة المجاز الشمالى الغربى وهو قليــل من كثير من مؤلم الحوادث التى تضمنها تاريخ ذوى الجد والعبقرية.

ومن الحوادث ذات الصعوبة الخاصة حادثة فِلنـدَرز الملاح الذى عانى السجن ست سنين فى جزيرة فرنسا وحكايته انه فى سنة ١٨٠١ اقلع من انجلترا فى المركب إنفيستجيتر وكانت سفرة وجهتها الـكشف والارتياد وكان يحمل جوازا فرنسيا يطلب الى كل حاكم فرنسى ان يحميــه ويعينه فى سبيل العلم رغماً من حالة الحرب الحاصلة اذ ذاك بين فرنسا وانجلترا ففى أثناء رحلته ارتاد قسما كبيراً من استراليا وارض فَن ديمِن وما جاورها من الجزر ثم تخلى عن سفينته لما وجدها قد بليت وخرقت وركب السفينة بُربواز يقصد الى انجلترا يعرض على أمرة البحر بها نتيجة عمله ثلاث سنين ولـكن السفينة غرقت فى البحار الجنوبية فقصد فلندرز وبعض الملاحين الى بورت جكسُن ووصلوا اليها سالمين وان

بعدت عن محل الحادثة ما لا يقل عن ٧٥٠ ميلا ومنها حصل على مركب صغير اسمه كمبرلند ثم رجع الى سائر الملاحين وكان قد غادرهم على الشعب الذى تكسرت عليه سفينته ولما انقذهم سافر الى انجلترا عن طريق جزيرة فرنسا واليها وصلوا ومركبهم الصغير فى حالة غرق لانه كان مركبا سيئ الحال ولكنه عد هو ومن معه أسرى وزج بهم فى أعماق السجن وفيه عومل معاملة وحشية ولم ينفعه جوازه الفرنسى والذى زاد فى آلامه من سجنه علمه ان بودن وهو ملاح فرنسى التقى به أثناء ارتياد شواطىء استراليا يصل الى أوربا قبله ويدعى الفضل فى كل ما كشف هو عنه وقد كان ما خاف ان يكون ونشر اطلس فرنسى جديد جمع كل المكشوفات الحديثة وعليها اسماء غير الاسماء التى اختارها فلندرز ومن تقدمه ثم أطلق سراح فلندرز بعد ان سجن ست سنين خارت فى أثنائها قواه لكنه مازال حتى آخر لحظة يصلح خوارته ويكتب وصفه ولم يمد فى أجله الا بقدر ما لزم لاعداد عمله للطبع ومات فى نفس اليوم الذى ظهر فيه مؤلفه

ولقد طالما انتفع أولو العزم بالعزلة فى انجاز أعمال ذات شأن ودقة فان الرغبة فى الكمال الروحانى تربى خير تربية فى العزلة لان الروح تناجى نفسها فى حالة الوحدة حتى تعظم القوة الكامنة فيها غير ان انتفاع الانسان بالعزلة أو عدم انتفاعه بها يرجع فى الاغلب

الى مزاجه وتدريبه واخلاقه واذا كانت العزلة تزيد ذا النفس الكبيرة صفاء على صفائه فهى فى صغير النفس لا تعدو ان تزيد قلبه المتحجر تحجراً لان العزلة وان هذبت كبار الارواح تعذب صغارها

ففى السجن كتب بيتس (سلوان الفلسفة) وكتب جرُتَيس (تعليق انجيل متى) وهو معدود آية فى النقد الانجيلى وألف بكتَن تفسير المزامير أثناء سجنه الانفرادى فى دير برتغالى وكمبَنيلا الراهب الطلياني الوطنى الذى اتهم بخيانة بلده لبث فى جب بنبُلى ٢٧ سنة حرم أثناءها نور الشمس فالتمس نوراً أعلى وأنشأ مؤلفه الذى تعددت طبعاته ونقل الى جل اللغات الاربية[1] وكتب رَلى أثناء الثلاث عشرة سنة التى قضاها سجينا فى البرج كتابه (تاريخ العالم) وهو مؤلف واسع النطاق لم ينجز الا أجزاؤه الخمسة الاولى واشتغل لوثر وهو مسجون بترجمة الانجيل وكتابة رسائله التى فاضت على جرمانيا كلها

ويحتمل أن يكون الفضل فى (رحلة الحاج) الى أن جن بَنيَن زج به فى اعماق السجن فاحكمت الصلة بينه وبين نفسه ولما لم يجد للعمل سبيلا وجد ذهنه المتحرك متنفساً فى التفكير الجدى

(1) Civilas Solis .

والواقع أن حياته لم تكن حياة تأليف بعد أن رفع من شأنه ، وفى السجن كتب كتابيه (سعة الرحمة) و (الحرب المقدسة) وقد لبث فى سجن بدفورد مالا يقل عن اثنى عشر عاما [1] تخللتها فترات حرية محفوفة بالخطر ويحتمل جد الاحتمال ان الفضل فى كتابه الذى شهد له مكولى راجع الى طول مدة سجنه

وكانت الاحزاب السياسيــة كلها فى العصر الذى عاش فيه بنيَن تلجأ الى ســجن خصومها متى امكنت الفرصة والقدرة وأكثر ما لاقى بنَين فى سجنه فى أيام شارلس الثانى ، وضيوف السجن من ذوى الشأن كثيرون فى عهد سلفه شارلس الاول وفى عهد الجمهورية فمن بين المسجونين فى الاول سير جُن اليَت وهمبدن وسلدن وبرن وهو من المكثرين من مؤلفى السجون وكثيرون غير من ذكرنا ، وكتب اليَت كتابه الجليل (ملك الانسان) وهو تحت المراقبة الشديدة فى البرج ، ومن ضيوف السـجون فى حكم شارلس الاول وذر الشاعر وفى سجن

---

(١) عذب « برن » ثم سجن فى البرج ومنت ارجي بجرسى وقلعة دنستر وقلعة «تنتن» وقلعة «بندنس» وبعد ذلك كان من المتحمسين فى الدعوة الى عودة الملكية وناط به شارلس الثانى حفظ المصروفات ولقد حسبوا ان « برن » كان يكتب ويجمع ويطبع نحو ثمان صفحات فى كل يوم من أيام حياته من بلوغ سن الرجولية الى موته وكتبه تباع الآن بباهظ الاثمان لندرتها

مَرشَلسى كتب (هجاء الملك) وهو مشهور وعند عودة الملكية سجن مرة أخرى فى نُجيت ومنها نقل الى البرج ويرى بعضهم أنه مات فيه

ولعهد الجمهورية نصيبه من المسجونين فسير وِليَم دَفِنَنت لولائه سجن زمنا فى قلعة كاوز وفيها أنشأ جل قصيدته جُنْد بِرت

ويروى ان أكبر العوامل فى الابقاء على حياته شفاعة مِلْتن فيه ولقد عاش حتى قضى الدين وابقى على حياة ملتن لما عادت دولة شارلس ، وكذا كَفليس سجنه الجمهوريون ولم يطلق سراحه الا بكفالة هائلة ومع ماعانى وما ضحى فى سبيل أسرة ستيوَرت نسوه عند عودة الملكية فمات فى فقر مدقع

وسجن تشارلس غير وِذَر وبَنين بَكستَر وهَرِنجْتُن وبِن وغيرهم كثير كل هؤلاء تسلوا فى السجن بالتأليف فكتب بكستر بعضاً من ابدع ما جاء بكتابه (الحياة والزمن) وهو بسجن كِنجز بنش وكتب بِن (لا تاج بلا صليب) وهو سجين فى البرج وفى مدة حكم الملكة آن سجن مَتيو بَريُر لتهمة لفقوها فلبث فى السجن سنتين الف أثناءهما كتاب (الما أو سير الروح)

بعد ذاك العهد قل كثيراً عدد المسجونين من كبار الساسة ومن أجلّ هؤلاء ديفو لبث فى السجن طويلا بعد تعذيب دام

ثلاث سنين وفيه كتب رُبِنسَن كروزو وكثيراً من رسائله السياسية وفيه أيضاً كتب (أغنية لآلة التعذيب) واصلح المطبعة مجموعة من مؤلفاته[1] وكتب سمَلت (سير لُنسلُت جريفز) فى السجن لما سجن بتهمة القذف ، وأشهر المتأخرين من مؤلفى السجون فى انجلترا جيمس مُنتجومَرى كتب الجزء الاول من قصائده وهو سجين بقلعة يورك وتومَس كوبَر كتب (تطهير الانتحار) فى سجن ستَفُرد

وِسلفِيُو بِلِكُو من أحدث وأشهر مؤلفى السجون الايطاليين لبث فى سجون النمسا عشر سنين منها ثمان قضاها فى قلعة سِبلبرج بمُرافيا وفيها الف مذكراته الجميلة ولم يكن له من وسائلها الا ما جادت به عادة فيه هى اليقظة فى الملاحظة وقد استطاع ان يخلق لنفسه عالما صغيراً من التفكير والتمتع الانسانى السليم خلقه حتى من زورات عرضية من جانب بنت سجانه ومن الحوادث الجافة لحياته اليومية المملة

وهذا كِزنسكى مجدد شباب ادب المجر قضى سبع سنين من

---

(١) وفى السجن أيضاً شرع فى مجلته وهى أول مطبوع دورى من نوعها فكانت طليعة المجلات التى كثرت بعدها ومجلته ١٠٢ عدد فى تسع مجلدات كلها كتبه هو نفسه مع اشتغاله بغيرها

عمره فى سجون بودا وبُرن وكُفشتين ومُنكَـكز فى أثنائها كتب جريدة سجنه ومن جملة ماعمل ترجمته مؤلفاًلستِرن وتسلى كُسُت أثناء السنتين اللتين حبسهما ببودا بدراسة اللغة الانجليزية لكى يتسنى له ان يقرأ مؤلفات شكسبير بلغتها التى كتبت بها

ان أمثال هؤلاء ممن تحل بهم العقوبات القانونية ويحسبون ولو الى أجل من الذين فشلوا لا يفشلون فى الواقع وكثير ممن ظن أنهم فشلوا الفشل كله تبين أنهم فى كثير من الاحايين تركوا فى قومهم من الأثر القوى الباقى أكثر مما كان لمن حياتهم سلسلة من النجاح غير متقطعة ولا تتوقف حياة الانسان على ما يعقب مجهوده مباشرة من خيبة أو نجح وليس الشهيد بخائب اذا كان من وراء تضحيته ازدياد فى تبلج صبح الحق الذى من أجله قاسى (١) فلقد يعجل الوطنى فوز الدعوة اذا ضحى حياته فى سبيل نصرتها ويحصل كثيراً ان الذين يحسبون ممن يرمون أرواحهم عبثاً فى

---

(١) قرأت منذ سنين عبارة وردت فى محاضرة لارل كرليل عن بوب هى جعلت الجنة لذوى الفشل فى هذه الدنيا قرأتها فى احدى الصحف فكان لها فى نفسى وقع شديد وكان لى منها منجم استمد منه الجواهر سيما وهى مفسرة بالصليب وقد كان فى الظاهر فشلا

Life & Letters of Robertson (of Brighton), ii. 94.

أوائل الحركات الكبرى هم الذين يفتحون الطريق لمن يأتون بعدهم فيتخطون أجسامهم الى حيث النصر والظفر وقد يتأخر فوز القضيـة العادلة ولكنه متى جاء فلمن فشلوا فى مجهوداتهم الاولى من الاثر فيه مثل ما لمن فازوا فى مجهوداتهم الاخيرة

ولقد يكون فى الميتة الضخمة الهام للناس كما يكون فى الحياة الصالحة يقتدى بهـا فان العمل الجليل لا يضيع بضياع حياة من أتاه بل يبقى وينبت أعمالا مثله تأتى على يد من يعيشون بعـد صاحبه ويستمرئون طعم ذكراه ومن العظماء من يقرب ان يقال عنه انه لم يبدأ العيش الا عند موته

وان الذين قاسوا فى سبيل الدين والعلم والحق هم أعلى العاملين مقاما واحسنهم ذكرى فى العالم ، هم فنوا ولكن الحق الذى به استمسكوا باق ، خيل الى الناس انهم فشلوا ولكن أمرهم انتهى الى النجح ،[1] قد تكون السجون احتوتهم لكن عقولهم لم تكن

---

(١) ما كل من تحسبه قد حبط عمله بالحابط عمله حقيقة ولا كل من لم يوفق الى النجح بضائع عمله سدى فلكل عمل من أعمالنا عواقب عدة ولتكن عقيدة العامل المجد ان الله جلت قدرته يوفق صادق القصـد ومخلص النية فى عمله يدويا كان أو عقليا الى النتائج التى تقتضى حكمته جل وعلا ان تكون ملتئمة أتم الالتئام مع آثار رحمته الواسعة واعلم أنه لن يحبط للصالحين العاملين عمل فقد يسقط البذر فى طريقك وتلتهمه الطير ولكن الا ترى الطير قد سدت به جوعها بل قد تنقله الى جهات نائية فيها يخرج نباتا طيباً ولو بعد ان تكون قد فارقت هذا العالم

Politics for the People, 1848.

لتحبسها جدران السجون فاخترقتهـا وناوأت قدرة مضطهدى أصحابها ، وكفليس السجين هو الذى يقول

لا تسجن النفس جدران مشيدة
ولا تقيـدها الاقفـاص والقضب
هذى قيود تراها النفس ان طهرت
مثل الصوامع لا لغو ولا شغب

ومن أقوال مِلتُن خيرة المقاسين خيرة العاملين اه وأعمال الكثيرين من الفحول الذين اشربوا معنى الواجب انمـا تمت بين المشقة والمحنة والشدة فترى اصحابها يكافحون ويقاومون الامواج حتى يصلوا الى الشاطىء وقد تهدت قواهم ولم يبق الا ان تمس يدهم رماله فيلفظوا النفس الاخير وقد أدوا واجبهم وماتوا مرتاحى الضمير غير ان الموت لا يقوى على امثال هؤلاء فان ذكراهم باقية نستمد منها السلو والطهارة والرحمة ، قال جُيْتى لا تذكروا سيئات الاموات ولا يشغلن الاحياء ما فشل الاموات فيه ولا ما عانوا بل ليشغلهم ما أتوا من الاعمال اه

لا يخبر الرجالَ ولا يبدى مزاياهم بحبوحةُ العيش ولا النعيم بل تفعل ذلك المحنة والشدة فالشدة محك الاخلاق وكما ان بعض الاعشاب لابد من سحقه حتى ينبعث عنه أطيب أرجه فمن الطبائع ما تحتاج الى معاناة الشدة حتى ينبعث الفضل الكامن فيها ومن

ثم يحصل كثيراً ان تكشف المحن عن الفضائل وتبدى ما خفى من المحاسن ومن الناس من يدل ظاهره على ان لا خير منه يرجى ولا غرض له فى الحياة حتى اذا شغل من المناصب الصعب ذا التبعة بدا من قوته ما لم يكن يحسب فيه ونجد القوة والنخوة والايثار قد حلت منه محل الضعف والنذالة

وما من محنة الا ويمكن قلبها رحمة وما من نعمة الا ويمكن ان تنقلب نقمة كل ذلك يتوقف على كيفية انتفاعنا بعواقبنا أو عدم انتفاعنا بها أما السعادة التامة فلا ترجى فى هذا العالم على انها ان نيلت كانت عديمة الجدوى ولسنا نرى دعوة جوفاء كدعوة النعيم والراحة فان الشدة بل الفشل خير منه تأديباً قال سير همفرى ديفى حتى فى الحياة الخاصة مجاوزة الحد فى الرخاء تكون أما مفسدة للنفوس باعثة على سلوك عاقبته العناء وأما مصحوبة من جانب الناس بالحسد والهمز واللمز والأذى

والفشل يهذب الطباع ويقويها بل ان الحزن بينه و بين الفرح والحنان رابطة لطيفة لا يدرك سرها قال جُن بَنيَن مرة أنه لو أحل له ان يطلب المزيد من المتاعب لطلبه لينال المزيد من الراحة ودهش الناس من صبر اعرابية اصابها مكروه فقالت لهم اذا فكرنا فى رحمة الله لم نحس بابتلائه

ولا مراء فى ان الكروب انما وجدت لحكمة الهية كما وجد

النعيم على ان الالم ذو أثر فى تكوين الاخلاق أبين لانه يطهر الطبائع ويجليها ويعلم الصبر والرضا ويوجد من الافكار أرقاها وأبعدها غوراً

كان خير الناس على الأرض ممن قاسوا واحتملوا ، كان ذا نفس لينة وديعة صابرة متواضعة مطمئنة بل كان أول انسان خالص الانسانية فى هذا العالم (١)

وقد يكون الكرب الوسيلة التى أعدتها المقادير لتكوين أرقى الطبائع فى الانسان واذا فرضنا السعادة الغاية من الوجود فقد يكون الكرب الحالة التى لابد منها للوصول الى السعادة ومن هنا المثل الجليل الذى ضربه بولس للحياة المسيحية وكونها حياة طهر من غير موت وحزن مع دوام الفرح وفقر مع ايصال الغنى الى الناس لا يملك صاحبها شيئاً ويكون له كل شيء

على أن الكرب ليس مؤلماً من جميع نواحيه فهو متصل من بعضها بالشقاء ومن بعضها بالسعادة لأن الكرب على مابه من حزن فيه شفاء والشدة فاجعة أن نظر اليها من بعض نواحيها وتهذيب أن نظر اليها من نواح أخر ولولا الشدة لنام أجلّ مافى الناس من طبائع نوما عميقاً ولقائل أن يقول أن الألم والحزن

---

(١) العبارة لدكر وفيها يقول هزلت ينبغى ان تعطر ذكره وتخلده فى نفس كل من كان يحس بمعنى الدين أو الفلسفة أو الانسانية أو العبقرية الحقة

حالتان لا غنى عنهما فى نجح الانسان ووسيلتان ضروريتان لبلوغ أرقى ما يستطاع من جهد العبقرية قال شيلى فى الشعراء

الا أن الشدائد باعثات اذا نزلت على نظم القريض

وهل يجولن بخاطر انسان ما ان برنز كان يبلغ ما بلغ من الاجادة فى شعره لو أنه كان من ذوى الثراء والمنزلة بين الناس أو أن يكون بيرن ما كان لو قدر له أن يكون من ذوى المناصب العالية الموفقين فى زواجهم

وقد تكون المصيبة تنزل بالرجل سبباً فى ايقاظ نفسه الخاملة من غفلتها واحياء مواتها قال أحد الحكماء ماذا يعرف من لم يقاس الشدائد، ولما سأل دماس ربول ما الذى جعلك شاعراً كان جوابه مقاساة الشدة اه فانما دفعه الى العزلة موت زوجه ثم ولده، آثر العزلة لينهمك فى أحزانه ثم مالت به الى القريض يلتمس فيه سلوا[1] والفضل فى جميل ما كتبت السيدة جسكل راجع الى ملمة بيتية نزلت بها، قال أحد المتأخرين من الكتاب وكان بينه و بينها معرفة شخصية أن التماسها الرياضة والسلو وفرارها من وحشة حياة سببها رحيل عزيز عليها هما اللذان قذفا فى ذهنها تصور تلكم المبتكرات البديعة التى بها كثرت معارفنا واتسعت دائرة

(١) ربول «وكان فى أول أمره خبازا بنسمس» صاحب القصائد الجميلة ومن جملتها القصيدة المعروفة فى هذه البلاد بترجمتها الانجليزية وعنوانها (الملك والطفل).

أصدقائنا (1)

وجل ما قام به الناس رجالا ونساء من جليل العمل ونافعه تمّ وهم محوطون بالكروب وقاموا به أما تفريجا لكروبهم وأما لأن معنى الواجب فيهم تغلب على نكباتهم ، قال دكتر درون لأحد اصدقائه لو لم أكن من المرض بحيث أنا لما استطعت أن اقوم بما يقرب من العمل الذى قمت به وأتممته اه ومثله دُن قال مرة فى عرض الكلام عن مرضه افادكم وافاد سواكم من أصدقائى توالى الحمى علىّ ذلكم لأنى أقف بباب الجنة كثيراً وأكثر من الصلاة لما تلجئنى اليه الامراض من العزلة والحبسة وفى صلاتى هذه لا أنساكم ولا أنسى سائر أعزتى من اخوانى اه

وأخرج شلر أكبر مآسيه وهو محوط بآلام جسمية تكاد تكون له عذاباً اليما ولم يكن هندل قط أعظم مما كان حين جلس وقد أنذره الشلل بقرب الأجل يصنف مصنفاته التى خلدت اسمه فى عالم الموسيقى والف مزار غنائياته حين كان الدين يثقل كاهله أثقال الطغاة وحين كان يناضل بكما يكاد يكون تاماً وشبير بعد حياته الجليلة على قصرها فارق الحياة مبكراً لم يعد الثانية بعد الثلاثين ولم يملك سوى مسودات كتبه وملابسه التى

(1) Cornhill Magazine, vol. XVI, p. 322.

عليه و٣٦ فلُرِن نقداً ومن بين أجل مؤلفات لام ماأخرج للناس بين أحزان مهلكة وما كان يظهر من جذل هُـد كان مصدره فى كثير من الأحيان قلب مفعم بالألم فهو يقول ما من نغمة تحرك الجذل الا وأصلها راجع الى الم فى النفس

ثم فى ميدان العلم نجد مثالا جليلا هو وُلسُتن وكان حتى فى الأدوار الأخيرة من المرض المميت الذى ألم به يقضى الساعات المعدودات الباقيات من عمره فى املاء النتائج التى استنبطها والتحسين الذى اهتدى اليه لـكيلا يضيع علم حصله ورأى فيه فائدة لاخوانه فى الانسانية

وقد يتبين فى كثير من الاحوال أن الـكروب لا تعدو كونها نعماً مستترة قال أحد حكماء الفرس لا تخافوا الظلمة فقد تـكون مخبأ للعيون يتفجر منها ماء الحياة اه نعم أن مقاساة الشدة مرة فى الغالب ولـكنها نافعة ولا يتسنى لنا بغير ماتتلقاه عنها أن نعلم كيف نصبر على الآلام ونتجلد للمصائب ، والأخلاق فى أرقى صيغها انما تـكيفها المحنة ويبلغ بها احتمال الآلام حد كمالها بل من أكبر الأحزان يكتسب الصابر الحازم حكمة أعلى من الحكمة التى يكسبها السرور فمستقر النفس المظلم اذا تهدم وتحطم انسل اليه النور من الثلمات التى أحدثها فيه الدهر

قال جِرِمى تِيلَر النوازل والـكروب معهد تربى فيه الفضيلة

لانها تنزل نفوسنا على حكم الرزانة وتلزم آراءنا حد الاعتدال وتصلح الخرق وتوقف تيار اقتراف الآثام وما كان ربك والرحمة والحكمة البالغة صفته فى حكم العالم ليجعل الاحزان فيه على ما نرى من الكثرة وما كان ليبتلى بها افضل الناس وأحكمهم لولا ان حكمته اقتضت ان تكون مقرا للراحة ومنبتا للفضيلة ومجالا لاكتساب الحكمة والتخلق بالصبر وطلب العزة وبابا للمجد [1]

ويقول ليس انسان باشقى ممن لم يعرف الشدة فانه لم يُبل من الاخيار هو أم من الاشرار وربك لا يتم الفضيلة على ذوى الفضائل التى لم تعد كونها استعدادا وميلا بل الاجر على الفضيلة ان بدت فى العمل [٢]

لا سعادة فى النعيم من حيث هو ولا فى النجح من حيث هو بل حقيقة الواقع انه يتفق كثيرا ان يكون أقل الناس نجحا فى الحياة أكبرهم نصيبا من التمتع بها وانا لا نرى رجلا أصاب من النجح أكثر مما أصاب جيتى وقد كان ذا صحة ومجد وسلطان ووفرة من متاع الدنيا وهو مع هذا يقر بانه لم يحظ فى حياته كلها بخمسة أسابيع يكون فيها متمتعا بسرور خالص لا تشوبه شائبة ومن هذا القبيل الخليفة عبد الرحمن الناصر راجع فهرس

(1) Holy Living and Dying, chap. ii. sect. 6.

(٢) من الكتاب السابق « الفصل الثالث »

ملكه الناجح الذى دام خمسين سنة فرأى أنه لم يتمتع بالسعادة الخاصة سوى أربعة عشر يوما (١)

والحياة ان كانت كلها نوراً بلا ظلمة وسعادة بلا شقاء ولهوا بلا ألم لا تكون حياة قط أو على الاقل لا تكون حياة آدمية انظر الى حال أسعد الناس تجده خيطا معقداً تجده خليطا من المنغصات والمفرحات والمفرحات تكون الذ طعما بسبب المنغصات فان تتابع النعم والنقم ومجيء الواحدة فى أثر الاخرى من شأنه ان يجعل الفرح والحزن يتعاقبان علينا بل الموت نفسه يجعل الحياة أكثر محبة ويقوى الروابط بيننا فى هذه الحياة الدنيا ومن رأى الاستاذ تومس برون ان الموت شرط فى سعادة الحياة لابد منه وهو يؤيد رأيه هذا بقوة عظيمة وبيان عظيم غير ان الموت اذا زار قوما لم يفكروا تفكير الفلاسفة بل هم يشعرون ولا يزيدون والعين التى تفيض بالدمع لا تبصر وان كانت على مر الزمن تصبح اصفى بصراً وأحد من عين لا عهد لها بالدمع

والحكيم يتعلم تدريجاً أن لا يكلف الحياة شططاً ولا يرجو منها ماهو فوق طاقتها فتراه مستعداً لقبول الخيبة وهو يلتمس النجح بالوسائل الكريمة وتراه يفتح نفسه للذة ثم يحتمل المصيبة

---

(١) عن (اضمحلال الدولة الرومانية وانتساخها) تأليف جبن — الجزء العاشر — الصفحة المتممة للاربعين

صابراً أما الشكوى من الحياة والمناداة عليها بالويل والثبور فلن تكون الا عديمة الجدوى ولا ينفع الا العمل فى الطريق السوى عملا يصحبه الجد وتتمشى فيه البشاشة

ولا يرجون العاقل ممن حوله الشيء الكثير بل لا بد له من الاحتمال والصبر ان شاء أن يعيش مع الناس فى سلم وخيار الناس لا يخلون من هنات فى أخلاقهم لا بد من احتمالها والاشفاق عليهم من أجلها بل ربما كان من الضرورى الرثاء لحالهم بسببها ثم هل أوتى الكمال أحد ومَن من الناس لا يشكو من شوكة فى جسمه بل من منهم لا يجد الحاجة ماسة الى التسامح معه والصبر عليه والعفو عنه ، الا وان ما كتبته ملكة الدنيمرك كَرُلين مَتيلدا وهى فى السجن لخليق أن يكون دعاء يدعو الناس جميعاً ربهم به قالت اللهم أبقنى طاهرة وهىء للناس العظمة

وما أكثر مايؤثر فى طباع الناس حال بيئتهم الفطرية وبيتهم الأول والراحة والتعب فى البيوت التى نشئوا فيها وغرائزهم الموروثة والأسوة الحسنة والسيئة التى كانت لهم فى حياتهم كل هذه اعتبارات ينبغى أن تعلم الرفق بالناس والتسامح معهم

على أن الحياة تكون على حسب تكييفنا اياها فكل نفس تخلق عالمها الخاص بها، النفس الهشة البشة المستبشرة تجعل دنياها راضية والنفس المتذمرة القلقة تجعل حياتها ضنكا وما يقال من أن

نفس الانسان له مملكة ينطبق على الحقير والأمير وقد يكون أولها بنفسه ملكا كما يكون الثانى بها قنًا وليست الحياة فى الاغلب الا مرآة لنفوسنا ونفوسنا هى التى تكسب المواقف جميعاً والحظوط جميعاً صبغتها حسنت أم ساءت فالدنيا للصالحين صالحة وللطالحين طالحة واذا علت آراؤنا فى الحياة أى اذا اعتبرناها ميدانًا لمجدى الجهاد وراقى العيش وراقى التفكير والعمل لمصلحة الناس كما نعمل لمصلحتنا كانت ملأى بالمسرات والآمال والنعيم أما اذا لم نعتبرها الا مجرد مهيىء لفرص خدمة الأغراض الذاتية واللهو كانت مفعمة بالنصب والقلق والخيبة

وفى الحياة كثير مما لا نستطيع الى ادراك كنهه سبيلا والواقع أن فى الحياة من السر الغامض شيئاً كثيراً لا نراه الا كما نرى من خلال زجاجة قاتمة ولكنا وان لم ندرك كل الحكمة فى تأديب المحن التى يلاقيها خيار الناس يتحتم علينا الايمان بكمال النظام الذى حياتنا الفردية جزء منه صغير

وعلى كل منا ان يقوم بواجبه فى ميدان الحياة الذى وجد فيه فالواجب وحده الحق ولا عمل حقا الا فى القيام به ، الواجب هو الغاية والمقصد فى حياة أجل الناس،واخلص السرور ما انبعث عن الشعور باداء الواجب وهو ، دون كل سرور آخر، الذى ترتاح اليه النفس الراحة الحقة وأقلها اختلاطا بالندم والخيبة وكما قال

جورج هِربِرت الشعور باداء الواجب يدب فى آذاننا فى جوف الليل دبيب الغناء

ثم اذا قمنا بنصيبنا من العمل فى هذه الارض من كد ومحنة وواجب رحلنا عنها فكنا كدودة القز تنسج خيوطها ثم تموت ومقامنا فى الدنيا وان قصر أجله هو المجال الذى قدر لنا ان نعمل فى دائرة حدوده ونصل بقدر ما يصل اليه جهدنا الى المقصد الكبير والغاية العظمى المرجوة من وجودنا فى هذه الحياة فاذا ما تم ذلك لم تكن أعراض الجسم الا ذات أثر ضئيل فى الخلود الذى نرسو عليه

ا

ابُتْ Abbot (١٥٦٢ — ١٦٣٣) من كبار رجال الدين الانجليز ، كان رئيسا لا ساقفة كَنتَربرى

أبرِى Aubry (١٧٥٠ — ١٨٠٢) من رجال الثورة الفرنسية

أبزِت Abauzit (١٦٧٩ — ١٧٦٧) فيلسوف وفقيه فرنسى بروتستنتى

اِبكْتَتَس Epictetus من أهل النصف الثانى من القرن الاول للميلاد ، فيلسوف من كبار الفلاسفة المعروفين بالرِّواقيين اتباع زنو مؤسس هذا المذهب من الفلسفة وهو مذهب معروف بشدته الاخلاقية وضعه اليونان وانتقل الى الرومان

ولد ابكتتس فى آسـيا الصغرى وعاش فى رومه ولم يدون شيئاً عن فلسفته لكن احد تلاميذه وعاها ورواها حتى دونت ولما مات ابكتتس بيع المصباح الذى كان يطالع فيـه بنحو مائة وعشرين جنيها

اجَستْنْ — القديس Augustine, St. (٣٥٤ — ٤٣٠)
من كبار رجال المسيحية، ولد فى نُميدْيا (حيث الجزائر الآن) وكانت امه من المتدينات الا انها لم تكن أول الامر ذات أثر فى هدايته فطال عهده بالضلال والفساد وارسل الى قرطاجة ليتلقى علوم البلاغة ثم انتقل من افريقية الى رومه فملانو وهناك تأثر بتعاليم أسقف البلدة ودرس الانجيل واتجه ذهنه الى الدين وصار من أساطين المذهب الكاثوليكى والثقات فيه حتى لقد كانوا يعدون رأيه فى المسائل حجة كافية فى الاستدلال على صحتها

قالوا لقد كان من رؤساء الكنيسة من فاقوه علما و بيانا ولكن لم يكن منهم من فاقه فى تحريك القلوب والهاب حميتها للدين ومن ثم جعل المصورون القلب المتقد شارة له وكان يكتب باللاتينية وله مؤلفات عدة منها (الاعترافات) وفيها يصف حالته فى أوائل شبابه و (الرسائل) ومؤلفاته نشرت فى باريس فى ٢٢ مجلدا وترجمتها الى الانجليزية ظهرت بمدينة اِدِنبرا فى ١٥ مجلدا

أَجَممنُنْ Agamemnon رئيس اليونان الذين حاصروا طرواده قدّم ابنته اِفِجِنِى قربانا ابتغاء النجح ولما عاد تواطأت زوجه مع بعضهم على قتله فقتل

إِدْجورْث – ر.ل Edgeworth,R.L. (١٧٤٤–١٨١٧)
مهندس ميكانيكي انجليزي له الفضل في أول تلغراف كهربائي استعمل في انجلترا

ادْجورْث – مريا Edgeworth, Maria (١٧٦٧–١٨٤٩)
كاتبة انجليزية وروائية ذات ميزات من حيث الخيال والاسلوب الكتابي

أدسُنْ Addison (١٦٧٢ – ١٧١٩) من أشهر كتّاب الانجليز وساستهم نشر في مجلة سبكْتيتر مقالات معروفة بالدقة وسلامة الذوق وصفاء الاسلوب ورقة التعبير

أَدَمْز Adams (١٧٣٥ — ١٨٢٦) ثاني رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة ولي الرياسة بعد وشِنجتُن

أَدَنْسُنْ Adanson (١٧٢٧ — ١٨٠٦) نباتي فرنسي

ادْوَرْد الأمير الأسود Edward, the Black Prince
(١٣٣٠ — ١٣٧٦) ابن ادورد الثالث ملك انجلترا، كان شجاعاً باسلا اشتهر في حروبه مع فرنسا

أُرِبيد Euripides (٤٨٠ — ٤٠٦) شاعر تمثيلى يونانى

أَرِسْطو Aristotle (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) الفيلسوف اليونانى المعروف ولد فى مقدونية وكان معلم الاسكندر المقدونى

إرَسْمَس Erasmus (١٤٦٧ — ١٥٣٦) عالم هُلندِى

إرْفِنْج Irving, Washington (١٧٨٣ — ١٨٥٩) كاتب أمريكى ومؤرخ

أُرْكَنْيا Orcagna (حوالى ١٣٠٨ — حوالى ١٣٨٦) من أكبر المتقدمين من نوابغ الفنون الجميلة فى فلُرنس تناول نبوغه التصوير والنحت والعمارة والفسيفساء وله فيها كلها آثار قيّمة

أَرْمِنْيَس Arminius (١٥٦٠ — ١٦٠٩) مؤسس مذهب ينسب اليه أساسه مخالفة أصحاب الاصلاح الدينى فى بعض آرائهم وكان من الباحثين مستقلى الرأى فى فلسفة الدين وهو هُلندِىّ تلقى العلم فى أُترِخت وفى جامعة لَيدِن وأرسل الى جنيف ليتم دراسته وحضر مجالس العلم فى بَدوا بايطاليا وكانت مجالس ذائعة الصيت ثم عاد الى بلاده وجعل ينشر فيها مذهبه

أَرنُلْد - تُومَس Arnold, Thomas (١٧٩٥ – ١٨٤٢)
كان ناظر مدرسة رَجبي واستاذ التاريخ الحديث فى اكسفرد وله فى مدة نظارته لرجبي آثار فى التربية خلّدت اسمه وكان لها صدى فى مدارس انجلترا

أَرنْلْد – مَتْيو Arnold, Matthew (١٨٢٢ – ١٨٨٨)
هو ابن تومَس ارنلد كان شاعراً وكاتباً خدم الادب بمقالاته الانتقادية وبعد ان فرغ من دراسته العالية جعل كاتب السر للورد لَنسدَون ثم اختير مفتشاً للمدارس وبقى فى منصبه هذا الى سنة ١٨٨٥ وأوفد غير مرة ليطلع على أنظمة التعليم فى البلاد الأُربية وله فى ذلك تقارير قيّمة

أَريُستو Ariosto (١٤٧٤ – ١٥٣٢) شاعر ايطالى
كانت له منزلة سامية فى قلوب عظماء عصره ومال اليه أمراء ايطاليا فى زمنه وشعره يجمع بين قوة الخيال ورقة الذوق وسلامته

أَسكِيو - آن Askew, Anne (١٥٢١ – ١٥٤٦)
من ضحايا الاضطهاد الدينى أيام حكم هنرى الثامن ملك انجلترا، ابوها سير وليم اسكيو وكانت ذات جمال وعلم وصلابة فى عقيدتها

وبسبب انتصارها للمذاهب الدينية الجديدة لاقت انواع العذاب والاضطهاد ولكنها لم تتزعزع

أُسْيان Ossian — قصائداسيان مجموعةمن الشعر الانجليزى نشرها جيمس مكفِرسن وهو أديب من شعراء الانجليز فى القرن الثامن عشر وزعم أنها ترجمة أشعار قديمة باللغة الإرْسيَّة أو الغيلية وهى اللغة القديمة لنجود اسكتلنده وارلنده وانها لشاعر اسمه اسيان ، أما اسيان فيرجحون أنه شاعر ارلندى من أهل القرن الثانى أو القرن الثالث الميلادى ومنهم من يزعم أنه لا وجود له الا فى الاساطير وانه لم يكن شاعر بهذا الاسم حقيقة ومهما يكن من أمر اسيان فان القصائد التى نسبها اليه مكفرسن حظيت بالقبول لدى رجال الادب فى أرُبا فسارعوا الى نقلها الى لغاتهم وما لبثت أن انتشرت وكان لها من علماء العصر ومفكريه عشاق بها أعجبوا و بأثرها فى نفوسهم أقروا

وكان من بين الهائمين بها نابليون بُنَبرت فكان يؤثرها على سواها من أشعار الاقدمين ويحملها معه أينما سار (وهكذا كان يفعل الاسكندر المقدونى بقصائد هُمروس) وأعجب بها كذلك كلُبْستُك وجيتى وسيرو لترسكُت وتأثر بها كثيرون فى فرنسا منهم لَمَرتين الشاعر الفرنسى المعروف

على أن هذه الشهرة لم تمنع علماء القرن الثامن عشر فى انجلترا من نضال أدبى لم ينته الى رأى قطعى وان شئت فقل دفعت هؤلاء العلماء الى ذاك النضال وكان مداره البحث فى صحة ما زعم مكفرسن من أن هذه القصائد ارسية وذهبت طائفة المنكرين عليه هـذا الزعم الى أنها من صنع مكفرسن نفسه فكأنهم رأوا فيه ما رأى أدباء العرب فى القصائد التى كان ينسبها بعض الرواة الى الشعراء الجاهليين ، على أن آخرين لم يروا فى أشعار مكفرسن نفسه ماينصر هذا الرأى ولم يروا مكفرسن أهلا لأن يبتكر هذه القصائد لـكن مكفرسن وقف من هذا النضـال موقفاً مريباً لم يزد المسألة الا غموضاً

ويذهب بعضهم الى أن القصـائد لها أصل فى الارسية وان لمـكفرسن يداً فى تكييفها حتى صارت الى ما هى عليه

على أن هذا النضال لم يؤد الى نقص من قدر القصائد المذكورة

اَشُور بَنِبال Assur-banipal (توفى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد)

من كبار ملوك اشور كانت مصر جزءاً من ملكه ولكى يؤيد سلطانه فيها أغار عليها وفى عهده أقيمت المبانى الجليلة فى نينوى وبابل و نفقت سوق العلوم والفنون وساد الترف والبذخ

أَشيل Achilles اشجع ابطال اليونان وابعدهم صيتا وهو خالد الذكر فى الياذة هوميروس

أُفْبرى Overbury, Sir Thomas (١٥٨١ — ١٦١٣) احد شعراء الانجليز وكتابهم

افلاطون Plato (٤٢٩—٣٤٧ ق . م) هو الفيلسوف اليونانى الشهير تلميذ سقراط واستاذ ارسطو قدم مصر وتلقى العلم فى مدرسة عين شمس وكانت مقرا للعلم معروفا

أُفيد Ovid (٤٣ ق . م — ١٧ ب . م) شاعر رومانى

أَكمبس — تومَس A Kempis, Thomas (١٣٨٠ — ١٤٧١) كاهن جرمانى يرى الباحثون المدققون انه مؤلف كتاب التشبه بالمسيح وهو كتاب مشهور فى المسيحية حتى قالوا انه اكثر كتبها انتشارا بعد الانجيل ، ظهر الكتاب غفلا من اسم مؤلفه وتشعبت الآراء فى واضعه ولكن الرأى السائد الآن انه لتومس اكمبس هذا

أُكْهَم Ockham (حوالى ١٢٧٠ — ١٣٤٧) من رهبان الفرنسيسكان كان من كبار المناطقة فى القرون الوسطى ومن زعماء

مذهب الاسميين واليه ينسب جماعة من اهل هذا المذهب يعرفون بالاكهميين ، وكان من المناضلين عن حرية الرأى واستقلال الفكر

الْبِرت — البرنس Albert, Prince (١٨١٩ — ١٨٦١) قرين فكتوريا ملكة انجلترا

أَلْسِبْياد Alcibiades (٤٥٠ — ٤٠٤ ق . م) قائد اتينى ذو مزايا جمة تصحبها مطامع لم يحرص معها على الاخلاق العالية وكان من تلاميذ سقراط المقربين ، اشتغل بسياسة بلده وولى بعض المناصب لكن اندفاعه وراء مصلحته الذاتية جره احيانا الى الانضمام الى خصوم بلده لذا صار اسم السبياد يطلق على من أوتى نصيبا وافرا من المواهب وافسدته آفات اخلاقية فيه ، وينسبون اليه الحرص على طلب الشهرة وتوجيه الانظار اليه بكل وسيلة وانه لا يحفل بشىء من المجد الحق فمن وسائله فى هذا الباب قطعه ذنب كلب له بديع كان موضع اعجاب أهل أتينا جميعا ومن هنا المثل يقطع من كلبه الذنب أو يقطع من كلب السبياد الذنب يضربونه لمن يرتكب جرما كى يوجه لنفسه الانظار

أَلفيرى Alfieri (١٧٤٩ — ١٨٠٣) أول شعراء المأساة بايطاليا

إِلْيَت - إبنزر Elliott, Ebenezer (١٧٨١ — ١٨٥٩)
شاعر انجليزى مقبول عند الشعب وهو معروف بحداد « شفلد »

إِلْيَت — سيرجُن Eliot, Sir Jon (١٥٧٢ — ١٦٣٢)
من ساسة الانجليز ، انتخب سنة ١٦٢٤ عضواً بالبرلمان وكان له فيه آراء قيمة

إمِرْسُن Emerson (١٨٠٣ — ١٨٨٢) هو رَلْف ولَدو
امرسن من كتاب الولايات المتحدة ومفكريها ولد بمدينة بُستن وتربى بجامعة هَرفَرد أكبر جامعات بلاده وأقدمها ثم كان مدرساً بضع سنين ورحل الى أربا لمقابلة طائفة من كبار الكتاب فاجتمع بكُلِردج وورد سورث شاعرى انجلترا وبكَرلِيل فيلسوفها وغيرهما من كبار الكتاب وتمكنت الرابطة بينه وبين كرليل فعاشا صديقين حميمين ولما رجع الى وطنه أخذ يلقى المحاضرات ويكتب المقالات وكان لا يشتغل بالفعل فى أمور الأمة العامة ولكنه كان متأهباً لابداء رأيه فى كل حركة فيها هامة ولكتابته أثر كبير فى أدب الامريكان ومن بين كتبه كتاب فى العظماء وهو طائفة من المقالات فى عظماء الرجال كأفلاطون وشِكسبير ومُنتَنى وسودِنبرج ونابليون وجيتى

أَنْتِسْتِين Antisthenes (٤٤٤ — ٣٦٥ ق . م) فيلسوف يونانى ولد فى أثينا وهو تلميذ سقراط ومعلم ديُجين

أَنْجلو — ميخائيل Angelo, Michael (١٤٧٥ — ١٥٦٤) آخر النابغين من متفننى فلُرَنس وأبعدهم صيتاً وأعلاهم كعباً فى فنى التصوير والنحت له التماثيل دقيقة الصنع ولا يزال كثير منها فى دور الآثار بايطاليا وغيرها من الممالك الاربية

أَنسِلن — داود Ancillon, David (١٧٦٦ — ١٨٣٧) كاتب وسياسى ولد ببرلين

أَنكِتِيل Anquetil (١٧٢٣ — ١٨٠٦) مؤرخ فرنسى ولد فى باريس

أَوْتْرَم — سير جيمس Outram, Sir James (١٨٠٣ — ١٨٦٣) من قواد الانجليز، حارب فى الهند وفارس وكان من العاملين فى اخماد الفتنة الشهيرة فى الهند فى أواسط القرن التاسع عشر وأقيم له تمثال فى لندره

ب

بِتْ Pitt (١٧٥٩—١٨٠٦)سياسى انجليزى كان للثورة الفرنسية خصما عنيدا وألب الدول على فرنسا غير مرة

بِتْرَرْكْ Petrarch (١٣٠٤—١٣٧٤) احد شعراء ايطاليا المفلقين

بَتِسُن سير ج .Patteson, Sir J (١٨٢٧—١٨٧١) مبشر انجليزى باشر اعمال التبشير فى جزر مِلَنيزيا وكان لغويا مقتدرا يعرف ثلاثاً وعشرين لغة ويتكلمها بسهولة

بَتْلَر Butler (١٦١٢ — ١٦٨٠) شاعر انجليزى

بِتُوْفِن Beethoven (١٧٧٠ — ١٨٢٧) موسيقى المانى ذائع الصيت

بُربورا Porpora (١٦٨٦ — ١٧٦٧) موسيقى ايطالى له منزلة فى هذا الفن

بِرْتِس — ف .Perthes, F (١٧٧٢ — ١٨٤٣) المانى كان تاجر كتب ثم اشتغل بطبع الكتب ونشرها ولا سيما التاريخية

منها والدينية فذاع صيته فى هذا العمل وكان وطنياً غيوراً على استقلال بلاده فأهلته وطنيته وغيرته للاختلاط بكثيرين من كبار رجال عصره كنيبر وشتين وغيرهما وبعد موته انتقلت ادارة محله الى أولاده ومما اشتهر به هذا المحل اعداد الخارنات المعروفة بدقتها

برتن — ربرت Burton, Robert (١٥٧٦—١٦٤٠) من كتاب الانجليز فى القرن السابع عشر، كان واسع الاطلاع وله كتاب فى تحليل الكآبة وكان بها مصابا فجعلته على طبيته شاذا فى اعماله غريباً وزعموا انه اشتغل بتأليف كتابه هذا لكيما يسرى عن نفسه ما كانت تعانيه من تلك الآفة

بردت — سير فرنسس Burdett, Sir Francis (١٧٧٠ — ١٨٤٤) سياسى انجليزى

بردرب Broderip (١٧٨٧ — ١٨٥٩) من الكتاب فى التاريخ الطبيعى

بردكاس Perdiccas احد قواد الاسكندر المقدونى

بردو Prideaux (١٦٤٨ — ١٧٢٤) من رجال الدين الانجليز، كان واسع العلم وله مؤلفات منها سيرة للنبى صلى الله عليه وسلم

بِرِستْلِي — جوزِف Priestley, Joseph (١٧٣٣ — ١٨٠٤) من كبار رجال الدين الانجليز وفلاسفتهم ، له مستنبطات جديدة في الكيمياء بها عدّ من مهذبي هذا العلم وكان علماء الكيمياء في باريس وعلماء الرياضيات يقولون له انهم لا يعرفون غيره فيلسوفاً يعتد به يكون ممن يؤمن بالعقائد المسيحية ومؤلفاته تدل على علو كعبه في العلوم الطبيعية والفلسفة والدين جميعاً

بِرْك Burke (١٧٢٩ — ١٧٩٧) هو إدمَند برك من كبار ساسة الانجليز وأعضاء مجلس نوابهم وكان كاتباً متقن الاسلوب وخطيباً بليغاً واشتهر بقدرته على التوفيق بين النظرى والعملى في السياسة

بَرْكَر — تيُدور Parker, Theodore (١٨١٠ — ١٨٦٠). خطيب أمريكى معروف ومصلح اجتماعى

بِرِلِشِنجِن — جُتْز فُن Berlichingin, Gotz von (١٤٨٠ — ١٥٦٢) فارس المانى شجاع جعله جيتى بطل مأساة

بِرلِي — لورد Burleigh, Lord (١٥٢٠ — ١٥٩٨) من كبار الساسة الانجليز وذوى النفوذ المقربين في مدة حكم الملكة اِلِزَبِث

برمَر Bremer (١٨٠١ — ١٨٦٥) روائية أسودية معروفة فى الاقطار الأربية تنقلت فى أمريكا وانجلترا وسويسرا وايطاليا وتركيا واليونان وفلسطين ودونت رحلاتها لكن شهرتها برواياتها وفيها تصف عيش أهل اسود ونروج ورواياتها نقلت الى الالمانية والفرنسية والانجليزية ولهذه الكاتبة شيء من الأثر فى الاصلاح الاجتماعى ببلادها

بِرنَار Bernard (١٠٩١—١١٥٣) احد من ذاع صيتهم وعظم نفوذهم من نقباء الدين المسيحى فى القرون الوسطى اتخذ منه مسيحيو أربا فى زمنه اماما لهم وعظموه حتى كادوا ينزلونه منزلة الأنبياء وكان متقشفاً تقياً متين العبارة وفيه يقول لوثر زعيم الاصلاح الدينى انى لا أعلم فى الرهبان تقياً يخشى الله كبرنار وانى لأجله وأراه أعظم رهبان الدنيا ، وهو صاحب الدعوة الى الحرب الصليبية الثانية

برنِت Burnet (١٦٤٣ — ١٧١٥) مؤرخ من أهل اسكتلندا

برَنجيه Béranger (١٧٨٠ — ١٨٥٧) من شعراء فرنسا ذائع الصيت بأغانيه

بِرْنز Burns (١٧٨٩ — ١٧٩٦) من كبار شعراء اسكتلندا

بْرُنل Brunel (١٧٦٩ — ١٨٤٩) مهندس فرنسى أنشأ النفقَ الذى تحت نَهر التَّيمز بانجلترا

بَرَوَم — لورد Brougham, Lord (١٧٧٨ — ١٨٦٨) كاتب وسياسى

بَرَوْن — دكتر Brown, Dr. (١٧٧٨ — ١٨٢٠) فيلسوف انجليزى درس الطب لكنه كان الى الفلسفة أميل واختير سنة ١٨١٠ زميلا للاستاذ ديُجلد ستيورت فبقى فى هذا المنصب ما بقى من حياته وله شعر يدل على استعداد للشعر لا يستهان به

بَرَوْن — سير تومَس Browne, Sir Thomas (١٦٠٥ — ١٦٨٢) طبيب انجليزى ذائع الصيت

برونو Bruno (١٥٤٨ — ١٦٠٠) فيلسوف ايطالى

بَرِى Barry (١٧٤١ — ١٨٠٦) مصور ارلندى وكاتب فى فن التصوير كان يجيد التصور اكثر مما يجيد التنفيذ ولم تبق لصوره المنزلة التى كانت لها

بريُر Prior (١٥٦٢ — ١٧٢١) من ساسة الانجليز وشعرائهم

بِسكارا—مَرِكيز Pescara, Marquis (١٤٨٩— ١٥٢٥) احد قواد جنود الاسبان فى زمن شارل الخامس شهد واقعة بافيــا الشهيرة فى حروب شارل الخامس وفرنسوا الاول ملك فرنسا

بَسكال Pascal (١٦٢٣ — ١٦٦٢) كاتب فرنسى قدير معروف بما كتب فى الفلسفة والدين ، أبدى منــذ حداثة سنه استعداداً للرياضيات عجيبا وكتب وهو فى السادسة عشرة رسالة تدل على مقدرة كبرى وله مجموعة رسائل انحى فيها على اليسوعيين باقسى عبارات التهكم ولغته فيها لا تجارى من حيث الدقة والرقة والمتانة

بِسويه Bossuet (١٦٢٧ — ١٧٠٤) واعظ فرنسى امتاز بمقدرته فى الخطابة وقوته فى الجدل

بطرس الراهب (حوالى ١٠٥٠ — ١١١٥) هو الراهب الذى زار بيت المقدس وعاد الى اربا ينادى بأخذه من المسلمين

فقامت أربا قومتها وبدأت الحروب الصليبية

بُفُن Buffon (١٧٠٧ — ١٧٨٨) عالم فرنسى تفرغ لدراسة التاريخ الطبيعى وبلغ فيه مبلغاً عظيما وله فيه كتاب تاريخ ذوات الاربع ومهما يكن من قيمة رأيه العلمى الآن فاسلوبه من حيث هو أسلوب كتابى آية فى الجمال وقوله فى الندوة العلمية أسلوب المرء هو المرء نفسه لا يزال عند رجال الأدب ذا قيمة يقتبسونه ويشيرون اليه

بُكَتْشيُو Boccacio (١٣١٢ — ١٣٧٥) شاعر من كبار شعراء ايطاليا كان صديقاً لبترَرك حميا

بَكْستَر Baxter (١٦١٥ — ١٦٩١) من زعماء رجال الدين الانجليز أتى عليه زمن لقى فيه كثيراً من الاضطهاد من جراء آرائه الدينية

بكُك — تومَس لَف Peacock, Thomas Love (١٧٨٥ — ١٨٦٦) أديب انجليزى كان صديقاً للشاعر الانجليزى الشهير شِلى واليه كان شلى يبعث بأجمل رسائله من ايطاليا

بَكلَند Buckland (١٧٨٤ — ١٨٥٦) من كبار علماء طبقات الارض عند الانجليز

بَكِنْجتُن Packington (١٧٩٩ — ١٨٨٠) من ساسة الانجليز ووزرائهم

بُكَنَن — جورج Buchanan, George (١٥٠٦ — ١٥٨٢) اسكتلندى من أكبر رجال الاصلاح الدينى والسياسى فى القرن السادس عشر وخير من أنجبت أوربا الحديثة ممن قرضوا الشعر باللاتينية

بِل Bell (١٧٧٤ — ١٨٤٢) عالم التشريح المشهور من أهل اسكتلندة

بلُتَرْك Plutarch كاتب يونانى لا يعرف عام مولده ولا عام وفاته لكنه كان من أهل عصر بلينى وبلغ ذروة رفعته بين سنتى خمسين ومائة بعد الميلاد وله كتاب تراجم عظماء اليونان والرومان

بلكو — سِلْفيو Pellico, Silvio (١٧٨٩— ١٨٥٤) اديب ايطالى

بَلْمَرْستُن Palmerston (١٧٨٤ — ١٨٦٥) سياسى انجليزى ولى وزارة الخارجية ورياسة الوزراء وكان ثاقب الرأى

بعيد النظر فى السياسة قوى الاسلوب اذا كتب

بُلِنجبروك Bolingbroke (١٦٧٨ — ١٧٥١) من ساسة الانجليز وكتابهم امتاز فى تلمذته بالذكاء وخرج الى معترك الحياة فجمع بين مواهب عالية وآداب راقية وجمال وأباء ولطف وفصاحة اجمع معاصروه على انها لم يقو عليها احد وكتب كثيراً فى السياسة

بِلِنى Pliny (٢٣ — ٧٩) رومانى من كبار علماء التاريخ الطبيعى وله فيه مؤلف حوى كل ما عرف الاقدمون فى هذا العلم ولا تزال له قيمة عند علماء الوقت الحاضر

بلوخَر Blucher (١٧٤٢ — ١٨١٩) هو القائد الروسى الذى ساعد وِلنجتُن فى وقعة وُتَرلو

بليك — وِلْيَم Blake, William (١٧٥٧ — ١٨٢٧) شاعر انجليزى ومصور وحفار

بِمْ Pym (١٨٥٤ — ١٦٤٣) من ساسة الانجليز

بُمْبى Pompey (١٠٦ — ٤٨ ق م) احد عظماء الدولة الرومانية ومن قوادها القادرين غزا اسبانيا وافريقية وآسيا فكان

النصر حليفه وأصبح لانتصاره نافذ الكلمة فى الدولة الا انه فى آخر أيامه شجر الخلاف بينه وبين يليوس قيصر فرأس كل منهما جيشه واقتتلا فى فَرْسَلِيا فهزم بمبى وفر الي مصر وفيها قتله بطليموس الثانى عشر

بِنْ Penn (١٦٤٤ — ١٧١٨) الانجليزى الذى باسمه سميت وِلاية بنسلفانيا فى الولايات المتحدة أقطعها اياه ملك انجلترا وكان له فى ادارة شئونها أثر حسن ولا سيما من حيث اطلاق الحرية الدينية للنازلين فيها

بِنْتَم Bentham (١٧٤٨ — ١٨٣٢) فيلسوف انجليزى وكاتب فى المعضلات القانونية

بَنْيَن — جُن Bunyan, John (١٦٢٨ — ١٦٨٨) مشهور فى الادب الانجليزى بكتابه « رحلة الحاج »

بَنكس Banks (١٧٤٣ — ١٨٢٠) من العلماء الطبيعيين الانجليز صحب الملاح الكاشف كك وبما اهتدى اليه زاد فى العلم حقائق قيمة

بُوب Pope (١٦٨٨ — ١٧٤٤) من شعراء الانجليز وفلاسفتهم فى القرن الثامن عشر كان محباً للشهرة كثير التأثر بما

يحوطه ومما أذاع صيته بين معاصريه ترجمة شعر همروس وله مقالة في الانسان شهيرة

بوتس Boetus (٤٧٠ — ٥٢٤) فيلسوف من أهل رومة

بودن Baudin (١٧٨٤ — ١٨٥٤) من أمراء البحر الفرنسيين

بولز — وليم Bowles, William (١٧٦٢ — ١٨٥٠) شاعر انجليزي ذو نصيب من الاجادة

بولو Boileau (١٦٣٦ — ١٧١١) شاعر فرنسي كان صديقاً لرسين وكان كل منهما يعرض على صاحبه ما تجود به قريحته

بيار Bayard (١٤٧٦ — ١٥٢٤) من كبار أمراء الاجناد الفرنسيين ذاع صيته وعلا ذكره في حروب شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرنسوا الاول

بيرن Byron (١٧٨٨ — ١٨٢٤) الشاعر الانجليزي المشهور

بيرِنج Baring (١٧٤٥—١٨١٠) ابن جُن بيرنج جد الاسرة المالية صاحبة المصارف التى منها افلن بيرنج (وهو أرل كرومر المعروف فى مصر) وفرنسس بيرنج هذا كان مؤسس المحل المالى المنسوب اليه وأفراد هذه الاسرة من رجال المال والسياسة المعروفين فى انجلترا

بيكُن — روجَر Bacon, Roger هو روجر بيكن أحد فلاسفة القرن الثالث عشر وليس من بين علماء ذلك القرن من يفوقه مع كثرتهم ولم يعرف أهل عصره ولا من خلفه قدره لأنه جاء سابقاً لأوانه فهو أهل لأن يكون من فلاسفة القرن السادس عشر أو السابع عشر لا من فلاسفة القرن الثالث عشر

بيكُن — فرَنسِس Bacon, Francis (١٥٦١—١٦٢٦) هو لورد بيكن الفيلسوف العملى الذى انحى على الفلسفة القديمة وكان يحتقر فلسفة أرسطو على اجلاله صاحبها وذهب الى أن الفلسفة القديمة عديمة الثمر لا يجنى منها سوى الجدل على غير جدوى وكان يقول ان الفلسفة فى حاجة الى طرق جديدة وقد نجح فى هذه الطرق وبنى الفلسفة على التجربة والمشاهدة فكانت فلسفته أساساً للعلوم الحديثة والمخترعات الجديدة

بيل Bayle (١٦٤٧ — ١٧٠٦) كاتب فرنسى له قاموس تاريخى

بيلي — صموئل Bailey, Samuel (١٧٩١ — ١٨٧٠) أديب وكاتب قدير فى الموضوعات الفلسفية

بيلي — وليم Bailey, William (١٧٤٣ — ١٨٠٥) كاتب انجليزى شهير كتب فى المسائل الدينية والفلسفية

بيُو Biot (١٧٧٤ — ١٨٦٢) فرنسى من علماء الفلك والطبيعة والكيمياء

بَي Bailly (١٧٣٦ — ١٧٩٣) من أدباء الفرنسيين وعلمائهم فى الفلك

ت

تِرجو Turgot (١٧٢٧ — ١٧٨١) وزير لويس السادس عشر ومن اقتصاديي فرنسا

ترُلوب Trollope (١٨١٥ — ١٨٨٢) قصصى انجليزى نشأ بائساً فقيراً وأثرى من محصول قلمه

تُرِن Turenne (١٦١١ — ١٦٧٥) من كبار قواد فرنسا له من الاعمال الحربية الكبرى فى حرب الثلاثين سنة وفى حروب لويس الرابع عشر ما جعله يعد من اكبر رجال فرنسا فى ذاك العهد

تَرْنَر — شَرُن Turner, Sharon (١٧٦٨ — ١٨٤٧) مؤرخ انجليزى

تسديد Thucydides (٤٧١ — ٤٠١ ق . م) المؤرخ اليونانى المعروف صاحب تاريخ حروب البلبونيز

تَسّو Tasso (١٥٤٤ — ١٥٩٥) من كبار شعراء ايطاليا

تشِستَرْفِلد Chesterfield (١٦٩٤ — ١٧٧٣) من ساسة الانجليز وكتابهم وخطبائهم تقلب فى بضعة مناصب سياسية ولما بلغ اربعا وخمسين سنة اعتزل الخدمة العامة وانقطع للدرس والاجتماع بالاخوان وظهرت مواهبه فى التأليف فى مقالات له ادبية وانتقادية وفكاهية وله رسائل الى ابنه لها صيت عند الانجليز

تِشْيَن Titian (١٤٧٧ — ١٥٦٧) مصور ايطالى من أكبر مصورى العالم

تشوسَر Chaucer (١٣٤٠ — ١٤٠٠) اقدم شعــراء الانجليز وصاحب القصص المعروفة بقصص كنتربرى

تَلِرَن Talleyrand (١٧٥٤ — ١٨٣٨) سياسى فرنسى ذو شهرة واسعة كان من المشتغلين بالسياسة الاوربية من عهد نبليون بنبرت الى عهد لوى فلب

تَلْما Talma (١٧٦٣ — ١٨٢٦) ممثل فرنسى

تِمِستُكليز Themistocles هو سياسى اتينا الشهير والقائد البحرى العظيم الذى حارب الفرس وردهم على اعقابهم ، ولد فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وكانت سياسته ان تكون اتينا قوة بحرية عظيمة حتى تأمن غارات الفرس وقد نجح

تِندال Tyndall (١٨٢٠ — ١٨٩٣) فيلسوف طبيعى شهير ولد بأرلنده واشتهر بحميد خصاله وبهمته وغيرته على العلوم الطبيعية

تِنِسُن Tennyson (١٨٠٩— ١٨٩٢) شاعر انجليزى ، كان شاعر البلاط وهو من شعراء الانجليز المجيدين

تِيلَر — تُم Taylor, Tom (١٨١٧ — ١٨٨٠) صحافى انجليزى ومؤلف فى الروايات التمثيلية

تِيلَر — جِرِمى Taylor, Jeremy من رجال الدين الانجليز فى القرن السابع عشر وكتابهم المجيدين ، كان مليح الذات حلو الصوت والحديث ظريفاً

تيلَر — سير هِنْرى Taylor, Sir Henry (١٨٠٠ — ١٨٨٦) شاعر انجليزى وكاتب

تيير Thiers (١٧٦٧ — ١٨٧٧) سياسى فرنسى ومؤرخ كان محاميا فى أكس ثم انتقل الى باريس واشتغل بالصحافة وصار وزيرا فى سنة ١٨٣٢ فرئيسا لمجلس الشورى فى سنة ١٨٣٦ وفى سنة ١٨٤٠ وانتخب نائبا فى سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٩

ج

جِبن Gibbon (١٧٣٧ — ١٧٩٤) هو المؤرخ الانجليزى المعروف مؤلف (اضمحلال الدولة الرومانية وانتساخها)

جدُلْفن — سِدْنِى Godolphin, Sidney (١٦٤٥ — ١٧١٢) من رجال الدولة فى انجلترا ولى مالية انجلترا لعهد الملكة آن فكان له أثر جليل فى اصلاح الخلل فى الادارة المالية وحفظ أموال الامة من الضياع

جرِتْرى Gretry (١٧٤١ — ١٨١٣) موسيقى شهير وله بلييج « بلجيكا »

جرُتيُس Grotius (١٥٨٣ — ١٦٤٥) كاتب هلندى

جرسُن Gerson (١٣٦٣ — ١٤٢١) من كبار رجال الدين فى عصره والرأى الغالب أنه مؤلف الكتاب المسمى التشبه بالمسيح

جَرِك — إدوِن Garrick, Edwen (١٧١٦ — ١٧٧٩) ممثل انجليزى ذائع الصيت

جرِنى Gurney (١٨٤٧ — ١٨٨٨) انجليزى اشتغل بالبحث فى العلوم النفسية

جرَهَم — ت Graham, T. (١٨٠٥ — ١٨٦٩) من كبار علماء الكيمياء وله مستنبطات ذات شأن فى هذا العلم

جروت Grote (١٧٩٤ — ١٨٧١) مؤرخ انجليزى له تاريخ اليونان

جروز Greuse (١٧٢٥ — ١٨٠٥) مصور فرنسى شهير

جرى Gray (١٧١٦ — ١٧٧١) شاعر انجليزى معروف بقصيدة له موضوعها الموتى فى مقبرة ريف وهى قصيدة مؤثرة رقيقة الاسلوب

جزو Guizot (١٧٨٧—١٨٧٤) سياسى فرنسى ومؤرخ له تاريخ الثورة الانجليزية وتاريخ الحضارة فى أوربا وفى فرنسا

جفرد Gifford (١٧٥٧—١٨٢٦) كاتب انجليزى نقادة

جفرسن Jefferson (١٧٤٣— ١٨٢٦) ثالث رؤساء الولايات المتحدة

جكبى Jacobi (١٨٠٤ — ١٨٥١) رياضى المانى شهير

جلدستن Gladstone (١٨٠٩—١٨٩٨) هو السياسى الانجليزى المعروف كان شديد التمسك بدينه محبا للمجد والرفعة

جريثاغير هياب للشدائد ، كان قوى البنية طويل القامة عظيم الهامة قادرا على كثرة المشى جلى الصوت خطب بين عشرين الف سامع فلم يجد اقصاهم منـه صعوبة فى سماع صوته وبقى الى آخر أيامه سليم الجسم قال قبيل موته سيان عندى ان اخطب فى اربعمائة نفس أو أربعة آلاف

جُلدونى Goldoni (١٧٠٧ — ١٧٩٣) من شعراء ايطاليا المعروفين وشهرته فى الروايات التمثيلية الفكاهية ولد بالبندقية وتوفى بباريس وله فضـل فى ترقية التمثيل فى ايطاليا وطبعات مؤلفاته متعددة أكملها طبعة البندقية فى ٤٤ جزءا ونقل كثير من مؤلفاته الى الفرنسية والالمانية والانجليزية

جُلدسمِث Goldsmith (١٧٢٨ — ١٧٧٤) كاتب انجليزى

جَلفنى Galvani (١٧٣٧ — ١٧٩٨) طبيب ايطالى كان استاذا للتشريح فى بلنيا وله الاستنباط الشهير فى الكهرباء

جَلِليو Galileo (١٥٦٤ — ١٦٤٢) هو الرياضى الايطالى العظيم والطبيعى والفلكى ولد فى بيزا وأقام أول نظارة فلكية وأيد علمياً حركة الارض اليومية

جِمسُن — السيده Jameson, Mrs (١٧٩٤ — ١٨٦٠)
مؤلفة ولدت فى دبلن عاصمة ارلندا ، كتبت فى الادب وفى تاريخ التصوير ولها فى ذلك أثر حسن ولا سيا من الوجهة الانتقادية

جِنْزبَرا Gainsborough (١٧٢٧ — ١٧٨٨) مصور انجليزى

جنسُن — بِن Johnson, Ben (١٥٧٤ — ١٦٣٧)
من كبار شعراء التمثيل الانجليز

جُنسن — صمَوِل Johnson, Samuel (١٧٠٩ — ١٧٨٤)
أديب انجليزى مشهور

جونز — سير ولِيَم Jones, Sir William (١٧٤٦ — ١٧٩٤) قانونى انجليزى كان عالماً فاضلا وأديباً لغوياً رشيق الاسلوب فى الفرنسية. وله عدا كتاباته القانونية مؤلف فى نحو اللغة الفرنسية ونظرات فى الشعر الاسيوى وترجمة المعلقات وولى القضاء فى الهند فأسس جماعة بنغال الاسيوية للبحث فى الفنون الاسيوية وعلمها وأدبها وتاريخها وعاداتها ثم درس اللغة السنسكرتية وله مترجمات من الهندية

جونو Junot (١٧٧١ — ١٨١٣) قائد فرنسى من قواد نبليون الاول

جيتّو Giotto (١٢٦٦ — ١٣٣٧) مصور من أهل فلورنس

جيتى Goethe (١٧٤٩ — ١٨٣٢) شاعر الالمان ومن أكبر شعراء العالم وفلاسفتهم ، بحث كثيراً فى العلوم الطبيعية فاجتمعت فيه قوة الادب وقوة العلم وقليل اجتماعهما فى رجل ، لقى نبليون الاول وحادثه فقال له نبليون انت الرجل وكانت صورة نبليون بعد ذلك لا تفارق حجرة جيتى وكان هو و نبليون فى ذلك العهد أكبر رجلين فى العالم ، وله فوست وفرتر وغيرهما

د

دِبنال De Bonald (١٧٥٤—١٨٤٠) فيلسوف فرنسى

دِتو De Thou (١٥٥٣ — ١٦١٧) مؤرخ فرنسى

دِتكفيل De Tocqueville (١٨٠٥ — ١٨٥٩)كاتب فرنسى له كتاب الدمقراطية فى أمريكا وكتاب النظام القديم

دَجلَس Douglas — اسم أسرة من اسراسكتلنده العريقة اشتهرت بمقاومتها الانجليز ومنافستها أسرة استيورت

درتْز De Retz (١٦١٤ — ١٦٧٩) — سياسى فرنسى شهير له مذكرات

دَرو Daru (١٧٦٧ — ١٨٢٩) من أقدر الساسة الفرنسيين فى عهد الثورة ونبليون، كان أديباً نقل شعر هُراس فأجاد النقل وصار به ذا منزلة فى عالم الادب وله شعر فيه ابتكار واشتغل فى أواخر أيامه بالتاريخ وكتب ترجمة شلى وتاريخ البندقية

دريك Drake (١٥٤٥ — ١٥٩٥) من أمراء البحر الانجليز الذائعى الصيت نال شهرة عظيمة فى عهد الملكة الزبث وكان من المقربين عندها ولذا أمدته بالمراكب التى استعملها فى رحلته التى خلدت اسمه وهى الطواف حول الارض عن طريق مضيق مجلان وهى رحلة لم يسبقه اليها انجليزى ما وكان لا يمر بسفينة من سفن الاسبان الا سلبها ذخيرتها

ولما اشتد الخصام بين اسبانيا وانجلترا وأرسلت اسبانيا اسطولها الضخم تبغى القضاء على انجلترا كان دريك من الذين أبلوا بلاءاً حسناً ودمر كثيراً من سفن الاسبان

دِزْرئلي — أيْزَك Disraeli, Isaac (١٧٦٦ — ١٨٤٨) أبو بنيامين دزرئلي (لورد بيكنزفلد) وهو كاتب انجليزى ذو قيمة كان أديباً ظهر ميله للادب مذ شب وكان كثير المطالعة كثير التفكير فيما يقرأ وكان من خلقه النفور من المهن التى تستلزم كثيراً من الضوضاء والجلبة واحتقار من لا هم له فى الحياة الا الامور الدنيوية والولوع بالمظاهر الباطلة

دِزْرَئلي — بنْيامين Disraeli, Benjamin (١٨٠٥— ١٨٨١) هو لورد بيكنزفلد الوزير الانجليزى الشهير كان يهودياً حاذقاً وسياسياً محنكا وهو معروف فى مصر بالدور الذى لعبه فى ابتياع أسهم قناة السويس من الخديو اسماعيل

دَفِنَنْت — سير وِلْيَم Davenant, Sir William (١٦٠٦ — ١٦٦٨) من شعراء الانجليز فى القرن السابع عشر كان شاعر البلاط بعد وفاة بن جنسن وكان من حزب الملك أثناء الثورة الداخلية فى انجلترا مدة حكم شارلس الاول

دِكِسْن Du Quesne (١٦١٠ — ١٦٨٨) من كبار أمراء البحر الفرنسيين أيام لويس الرابع عشر، كان بروتستنتياله لدى لويس الرابع عشر حظوة لم تكن لغيره من أهل مذهبه

دِكُمين De Comines (١٤٤٥ — ١٥٠٩) مؤرخ فرنسى له مذكرات فى حكم لويس الحادى عشر وحكم شارل الثامن

دكْوِنْسى De Quincey, Thomas (١٧٨٥ — ١٨٥٩) كاتب انجليزى معروف ، مرض فأشير عليه بتناول الافيون لتخفيف آلامه فتملكته عادة تعاطى الافيون حتى صارت آفة وتركت أسوأ الأثر فى صحة بدنه وعقله وله كتاب سماه (اعترافات انجليزى يتعاطى الافيون) وله غيره

دَلَمْبير D'Alembert (١٧١٧ — ١٧٨٣) رياضى فرنسى مشهور كتب فى العلوم الرياضية والكونية ما جعله فى مقدمة رجال العلم فى أوربا ثم اشتغل بالادب فكان رقيق العبارة دقيقها قوى الفكر نير الاسلوب ، وكان ذا منزلة كبرى لدى فردريك الاكبر ملك بروسيا وكترين الثانية ملكة الروسيا وكان كل منهما يعرض عليه أن يقيم فى عاصمة ملكه لكنه آثر البقاء بين قومه مع ما أوذى ، وكان صديق فُلتير الحميم

دِمُسْتِين Demosthenes (٣٨٤ — ٣٢٢) اكبر خطباء اتينا وخصم فليب المقدونى الالد ولم يكن دمستين مستعدا بفطرته للخطابة لكنه عمل بجلد مدهش على اصلاح كل ما كان

من عيب خلقى يحول بينه و بين التفوق فيها فاصلح صوته وقوى صدره وهذب حركاته وكان يلقى عبارات طويلة وفمه مملوء بالحصى ويخرج الى ساحل البحر يخطب بصوت مرتفع بين ضوضاء الامواج واضطرابها ثم حبس نفسه فى داره شهورا نسخ فى اثنائها تاريخ تُسِيديد ثمانى مرات

دخل فى غمار السياسة وكان غيورا على اثينا واستخدم مقدرته الخطابية فى دعوة اهلها وأهل اليونان الى مناوأة فلب المقدونى ودفع غاراته ، وخطبه هذه تعرف بالفلبيات

دُمِشيان Domitian — امبراطور الرومان من سنة ٨١ الى سنة ٩٦

دُن Donne (١٥٧٣ — ١٦٣١) شاعر انجليزى كان من رجال الدين

دَنْيل Daniel (١٥٦٢ – ١٦١٩) هو صمول دنيل شاعر من أهل عصر شكسبير تربى بجامعة اكسفورد ثم التحق ببلاط الملكة اليزابث وكان يؤثر السكنى بمعزل عن المدن ويشتغل بالادب وهو حسن الاسلوب وله شيء من الفضل فى ترقية اسلوب الشعر الانجليزى

دَنْتى Dante (١٢٦٥ — ١٣٢١) اشعر شعراء ايطاليا ومن فحول شعراء العالم وهو (صاحب القصة) الربانية وهى كتاب شعر فى وصف النار والاعراف والجنة والعقاب والثواب فى الآخرة من قبيل موضوع رسالة الغفران لابى العلاء المعرى ، وكان دنتى جنديا وفيلسوفا وعالما بالموسيقى والتصوير واضطهد ونفى واهين لانه كان من المنادين بحرية الرأى والتفكير

ديفو De Foe (١٦٦٠ — ١٧٣١) هو الكاتب السياسى الانجليزى والقصصى صاحب قصة ربنسن كروزو

ديفى Davy (١٧٧٨ — ١٨٢٩) الكيميائى الانجليزى مخترع مصباح الامن للمعدنين

ر

رُبَرْتسَن — البرَيْتنى Robertson, Fredrick William (١٨١٦ — ١٨٥٣) واعظ انجليزى والبريتنى نسبة الى مدينة بريتن الانجليزية وكانت مقرا لبعض اعماله الدينية ومنها ظهرت آراؤه واعماله التى قام بها فى خدمة الجمهور

رُبِسن Robison, Dr. John. (١٧٣٩ — ١٨٠٥)
فيلسوف آلى كان صديقا لجيمس وت مخترع الآلة البخارية وولى
بعض الاعمال لكترين امبراطورة الروسيا ودرس الفلسفة الكونية
بأدنبرا وكتب فى دائرة المعارف البريطانية

رَبليه Rabelais (١٤٩٥ — ١٥٥٣) كاتب فرنسى
معروف

رِبول Reboul (١٧٩٦ — ١٨٦٤) فرنسى له شعر

رِتْشَردسَن Richardson, Samuel (١٦٨٩ — ١٧٦١)
روائى انجليزى

رِخْتَر Richter (١٧٦٣ — ١٨٢٥) كاتب المانى له
كتب منها كتاب فى التربية

ردْلى Ridley (١٥٠٠ — ١٥٥٥) أسقف انجليزى

رَسْكن Ruskin (١٨١٩ — ١٩٠٠) من كتاب
الانجليز، قضى جل شبابه فى السياحة ورؤية محاسن الطبيعة فكان
ذلك مضافاً الى استعداده الفطرى وما لقى من مساعدة أبيه (وكان

أديباً حسن التربيـة) ثم الى الثروة والطموح الى المعالى سبباً فى تربية احساسه وعواطفـه واتجاه ميوله الى محاسن الطبيعة والى الفنون الجميلة

تربى بجامعة اكسفورد وقضى الجزء الاول من حياته فى كتاباته فى التصوير ووصف المبانى وغيرها مما يتعلق بالفنون الجميلة أما الاربعون عاما الاخيرة من حياته فقضاها فى بحث المعضلات الاجتماعية والصناعية وفى التربية والاخلاقيات والدين

رُسكو Roscoe (١٧٥٣ — ١٨٣١) من مؤرخى الانجليز وكتابهم اشتغل بالزراعة مذ كان ابن اثنتى عشرة فارتاح لها وفيها يقول هذه المعيشة الزراعية قوت جسمى وثقفت عقلى هذا وقد درس اللغة الايطالية وآدابها

رَسِل — لورد Russel, Lord (١٦٣٩ — ١٦٨٣) سياسى انجليزى

رشْفكو Rochefoucauld, Francis, Duc de la (١٦١٣ — ١٦٨٠) من أدباء عصر لويس الرابع عشر

رَفائيل Raphael (١٤٨٣ — ١٥٢٠) المصور الايطالى الذى لا تزال صوره محركة الاعجاب بها فى كل جيل

رِكَرْدو Ricardo, David (١٧٧٢ — ١٨٢٣) كاتب معروف فى الامور المالية والمسائل الاقتصادية

رَلى Raleigh (١٥٥٢ — ١٦١٨) من كبار رجال انجلترا المقربين عند ملكتها اليزبث وكان سياسياً وملاحاً وكاتباً ممتازاً

رُملِى Romilly (١٧٥٧ — ١٨١٨) مصلح قانونى ممن عملوا على تخفيف صرامة قانون العقوبات الانجليزى

رَندُلف — جُن Randolph, John (١٧٧٣ — ١٨٢٣) أحد ساسة الامريكان

روجَرْز Rogers, Samuel (١٧٦٣ — ١٨٥٥) شاعر انجليزى من أشهر قصائده قصيدة لذة الذكرى وسلسلة قصائد فى وصف ايطاليا ، كان من ذوى الثراء وعاش ينعم بالاختلاط بأكابر رجال عصره وكان بيته مجمعاً لطرف التصوير والنحت ومأوى للفنون الجميلة ومنتدى رجال الذكاء والظرف وكان روجرز مع حدة لسانه يفرج عن المكروب ويعين ذوى الكفاءات العقلية على مجهودهم ، عرض عليه بعد وفاة وردسورث أن يكون شاعر البلاط فأبى وقبلها تِنِسُن

روسو Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) الكاتب الفرنسى ذائع الصيت والفيلسوف صاحب كتاب العقد الاجتماعى وكتاب أميل فى التربية وغيرهما

رينلدس Reynolds, Sir Joshua (١٧٢٣—١٧٩٢) مصور انجليزى امتاز بالبراعة فى تصوير الوجوه وكان من المعجبين بأنجلو ورفائيل من مصورى ايطاليا

ز

زِمَرمان Zimmermann (١٧٢٨ — ١٧٩٥) طبيب سوسرى وفيلسوف

زِنْزِنْدُرْف Zinzindorf (١٧٠٠ — ١٧٦٠) من رجال الدين وهو مؤسس جماعة اخوان الاتحاد ولد فى درسدن عاصمة سكسونيا

زِنُفُن Xenophon (٤٤٥ — ٣٥٥ ق م) كاتب يونانى ومؤرخ ولد بأثينا

س

سِبِنْسَر — هِرْبِرْت Spencer, Herbert (١٨٢٠ — ١٩٠٣) فيلسوف انجليزى معروف له مؤلفات كثيرة منها كتب فى التربية عقلية واخلاقية وبدنية وهو على صغر حجمه كتاب جليل نال من الذيوع والانتشار مالم ينله غيره من مؤلفاته وربما كان له من الاثر مالم يكن لغيره منها

سِبِنْصَر — ادْمَنْد Spenser, Edmund (١٥٥٢ — ١٥٩٩) شاعر من شعراء عصر الملكة اليزبث

سِبِنُوزا Spinoza (١٦٣٢—١٦٧٧) فيلسوف هُلَندى

سَتَرفُرْد — ارْل Strafford (١٥٩٣ — ١٦٤٢) من كبار رجال الدولة الانجليز

ستِلِنْج Stilling (١٧٤٠ — ١٨١٧) ويعرف عادة بجنج ستلنج، طبيب المانى نشأ فى الطبقات الدنيا ثم صار من الكتاب وكان من المتصلين بجيتى الشاعر الالمانى وكانت فيه نزعة دينية قوية وكان من الماهرين فى معالجة بعض أمراض العيون وروى انه

شفى على يديه نحو الفى اعمى من الفقراء وكان لا يقتصر على معالجتهم بلا أجر بل كان فى كثير من الاحوال يمد المرضى بأعانة مالية يدفعها اليهم

ستَنْلِى – لورد (اِرْل دِرْبِى) Stanly, Lord (Earl of Derby) (١٧٩٩ — ١٨٦٩) سياسى انجليزى ولى رياسة الوزارة الانجليزية وكان يجمع بين المقدرة السياسية والقدرة الخطابية والعلم والادب ومن بين مؤلفاته التى اخرجها للناس ترجمة الالياذه وهى ترجمة كان فيها موفقا

ستيل — سير رِتْشَرْد Steele, Sir Richard (١٦٧٢ — ١٧٢٩) من كتاب الانجليز وهو معروف فى عالم الادب بصلته بأدِسن ولا سيما فيما يتعلق بتحرير مجلة سبكتيتر

ستَين Stein (١٧٥٧ – ١٨٣١) من كبار ساسة بروسيا، تقلد منصب وزارة بها عام ١٨٠٧ بعد أن أذلها نابليون فجعل يعمل على خلاص بلاده ورد استقلالها اليها وله من الاصلاح الداخلى الشىء الكثير وفى سنة ١٨٠٨ أكرهه نابليون على التخلى عن منصبه وخلفه فيه هردنبرج وبينما كان ستين يحيى البلاد من حيث الادارة الداخلية كان يحييها حربياً رجل من

طرازه وهو جنرال شرنهرت

عاش ستين حتى أخرج الفرنسيين من بروسيا ثم اعتزل الخدمة العامة ووقف جل وقته على العلم والادب وله الفضل فى تأسيس جمعية للبحث فى تاريخ المانيا القديم

ستيورت — دجلد Stewart, Dugald (١٧٥٣ — ١٨٢٨) من أقوى فلاسفة اسكتلنده تأثيراً ، كان مدرساً بجامعة أدنبرا للرياضة والفلسفة والاقتصاد السياسى وكان أديباً حسن الذوق وعليه تخرج كثيرون ممن اشتهروا بعده

سِجْرى Segrais (١٦٢٤ — ١٧٠١) شاعر فرنسى

سِدْجْوِك Sedgwick (١٧٨٥ — ١٨٧٣) انجليزى من علماء طبقات الارض المعدودين

سِدْنى — سير فِلِب Sidney, Sir Philib (١٥٥٤ — ١٥٨٦) كاتب مجيد وسياسى من كبار ساسة انجلترا لعهد الملكة اليزبث

سِرْتُرْيُس Sertorius (وفاته ٧٢ ق . م .) قائد رومانى عظيم جعله الشاعر الفرنسى كُرنى موضوع مأساة له

سرْفَنْت Cervantes (١٥٤٧ — ١٦١٦) هو الكاتب الاسبانى الشهير صاحب كتاب دُن كشُت

سَفِدْج Savage (١٦٩٨ — ١٧٤٣) شاعر انجليزى

سِفِرَس Severus امبراطور الرومان من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ بعد الميلاد ، قضى الثلاث السنين الاخيرة من حياته فى بريطانيا ؛ ولم تكن مواهبه وقواه العقلية بالخارقة للعادة ولكنه كان صافى الذهن قوى العزم قوى الارادة

سقراط Socrates (٤٦٩ — ٣٩٩ ق . م .) الفيلسوف اليونانى الشهير ، كانت طريقته فى التعليم المحاورة وكان فيها مبدعا

سُكْت Scott (١٧٧١ — ١٨٣٢) أشهر كاتب للقصص التاريخية عند الانجليز . كتب كثيراً من تلك القصص مثل فيها الحوادث التاريخية والحالة الاجتماعية فى العصور السالفة فى اسكتلنده مسقط رأسه وفرنسا وانجلترا وغيرها وله شعر جيد الا أنه لم يشتهر بالشعر شهرته بتلك القصص ، وللمؤلف فى ختام الفصل الثانى من هذا الكتاب كلمة يصف فيها عزيمة سكت وطهارة ذمته

سكَرُن Scarron (١٦١٠ — ١٦٦٠) شاعر فرنسى فكاهى

سِلْدِن — جن Selden, John — من علماء الانجليز ورجال قانونهم فى القرن السابع عشر وكانت له عناية بدراسة تاريخ بلاده وعادياتها ، اشتغل بسياسة بلاده وكتب فيها وسجن بسببها

سِلْسكِرْك Selkirk — ملاح اسكتلندى شجر خلاف بينه وبين ربان مركبه فى سياحة فنزل فى جزيرة جوان فردنند وفيها قضى بضع سنين وحيداً (١٧٠٣ — ١٧٠٩) ونشر شىء عنه وعن محل اقامته فى صحيفة اسمها (الانجليزى)

زعم بعضهم أن سلكرك كانت له أوراق وجريدة أخبار تتعلق بمقامه فى تلك الجزيرة وأن ديفو مؤلف روبنسن كروزو سرق قصته المشهورة من تلكم الاوراق والاخبار ولكن الرأى السائد ان هذا غير صواب وان الحقيقة أن سلكرك لم تكن له أوراق قيدت فيها أخبار عزلته وان كانت الفكرة فى وضع روبنسن كروزو قد خطرت لمؤلفه مما جرى لسلكرك هذا وجزيرة كروزو جعلها ديفو على شاطئ أمريكا الجنوبية بالقرب من مصب نهر الارنوك

سلى Sully (١٥٦٠ — ١٦٤١) وزير هنرى الرابع ملك فرنسا ، دبر شئون فرنسا المالية وعنى بزراعتها

سمث — آدم Smith, Adam (١٧٢٣ — ١٧٩٠).
كاتب اسكتلندى ممن امتازوا بكتاباتهم فى الاقتصاد السياسى والاخلاق

سمث — سدنى Smith, Sydney (١٧٧١—١٨٤٥).
قسيس انجليزى كان خطيبا فصيحا مقتدرا وهو صاحب فكرة انشاء مجلة ادنبرا الشهيرة

سمث — سير وليم سدنى Smith, Admiral Sir William Sidney (١٧٦٤—١٨٤٠) من امراء البحر المعروفين ، كان من العاملين على مقاومة نابليون عند حصاره عكا ولمجهوده اثر فى عجز نابليون عن الاستيلاء عليها واشترك اشتراكا جديا فى الاعمال الحربية التى كانت اذ ذاك على سواحل مصر الشمالية

سملت Smollet, Tobias George (١٧٢١—١٧٧١).
روائى شهير وكاتب فى مختلف الموضوعات وكان طبيبا لكنه لم يوفق فى هذه الصناعة كما وفق فى صناعة القلم

سُميه Soumet (١٧٨٨ — ١٨١٥) شاعر فرنسى

سَن – جورج Sand, George (١٨٠٤ — ١٨٧٦) كاتبة فرنسية

سَن بيتر St. Peter (١٦٥٨ — ١٧٤٣) قسيس شهير اشتهر بكتابه مشروع السلم الدائم

سَن بوف Saint Beuve (١٨٠٤ — ١٨٦٩) من كبار الكتاب فى الانتقاد

سَنْ سِمُن Saint Simon (١٦٧٥—١٧٥٥) من كبار حاشية لويس الرابع عشر وله مذكرات معروفة

سِنِكا Seneca (٣ ق . م — ٦٥ ب . م) معلم نيرون امبراطور الرومان ولد بقرطبه وكان فيلسوفا كاتبا سياسيا قتله نيرون فى جملة من قتل ممن ائتمروا به وان لم يثبت عليه اشتراكه مع هؤلاء فى السعى فى قتل الامبراطور

سوذى Southey (١٧٧١ — ١٨٤٣) احد كبار شعراء الانجليز

سول Soult (١٧٦٩ — ١٨٥١) قائد من كبار قواد نابليون ، كان من العاملين فى جميع الوقائع الشهيرة التى خاض الجيش الفرنسى اذ ذاك غمارها الا فى واحدة ، ونيطت به قيادة الجيش الفرنسى الذى كان يحارب فى اسبانيا وشهد وقعة استرلتز ووترلو وكان له أثر كبير فى انتصار الجيش الفرنسى فى الوقعة الاولى وبعد تخلى نابليون عن الملك ولى سول بعض المناصب الكبيرة فى الوزارة الفرنسية وفى سنة ١٨٣٩ ذهب الى انجلترا نائباً عن لوى فليب فى حفلة تتويج الملكة (فكتوريا) وأمد نبير ودُماس بمعلومات كثيرة استعانا بها فى تأليف كتابهما فى تاريخ حرب الجزيرة

سِسِرو Cicero (١٠٦ — ٤٣ ق . م .) أفصح خطيب رومانى ، كان مع علو كعبه فى الخطابة كاتباً بليغاً جيد الاسلوب وكان من العاملين فى حوادث روما أيام الفتنة التى انتهت بقتل يليوس قيصر

ش

شُبير Schubert (١٧٩٧ — ١٨٢٨) موسيقى المانى

شَتُبرِيَن Chateaubriand (١٧٦٨ — ١٨٤٨) من

ساسة الفرنسيين وكتابهم المعروفين

شرِدَن Sheridan (١٧٥١ — ١٨١٦) أحد أفراد أسرة شردن الارلندية وهى أسرة اشتغل كثير من أفرادها بالأدب الا أن شردن هذا كان سبب شهرتها وكان أشهر كاتب فى القصص التمثيلية فى عصره وكتب فى أول أمره كثيراً من تلك القصص نالت القبول فى دور التمثيل ثم اشترى دار تمثيل وولى هو ادارتها وكتب قصصاً أخرى مثلت فيها وانتخب بعد ذلك عضواً بالبرلمان فلم ينجح فى أول خطبة له الا أنه بعد زمن يسير صار من خطباء البرلمان المفوهين وولى بعض المناصب العالية فى وزارتى الخارجية والمالية

شَفتسبِرى Shaftesbury (١٦٧١ — ١٧١٣) سياسى انجليزى وفيلسوف كاتب

شِفَر — أرى Scheffer - Ary (١٧٩٥ — ١٨٥٨) مصور هلندى ذو منزلة معروفة فى هذا الفن

شِكسبير Shakespeare (١٥٦٤ — ١٦١٦) أكبر شعراء التمثيل الانجليز، له روايات تعد فى عالم الأدب آيات وهو فى تصوير الطبائع البشرية لا يجارى

شِلَر Schiller (١٧٥٩ — ١٨٠٥) من شعراء الألمان المفلقين وكتابهم ومؤرخيهم له أساليبه الرائعة المبتكرة وكان معجباً بشعر شكسبير يكثر قراءته ودراسته حتى زعموا أن ذلك ولد فيه الخبرة بطبائع البشر وسرعة الحكم عليها ويقول المنتقدون أنه لو عمر لكان لا يجارى فى الشعر

شلِر ماخَر Schlermacher (١٧٦٨ — ١٨٣٤) من كبار فقهاء الالمان وفلاسفتهم وعند بعضهم انه أكبر فقهاء المذهب البروتستنتى منذ عهد الاصلاح الدينى غير أن شهرته ترجع الى مجهوده فى الفلسفة ولا سيما فى نقد فلسفة افلاطون

شلى Shelley (١٧٩٢ — ١٨٢٢) شاعر انجليزى

شِلمسفور Chelmsford (١٧٤١ — ١٧٩٤) أديب فرنسى

ف

فدياس Phidias (٥٠٠ — ٤٣١ ق . م .) أكبر نحات عند قدماء اليونان

فراى — الِزَبث Fry, Elizabeth (١٧٨٠ — ١٨٤٥) من المحسنات الخيرات، باكورة أعمالها الجدية تعليم سبعين من فقراء الاطفال علمتهم فى بيت أبيها وأنشأت جماعة نساء لاصلاح المسجونات فى بعض السجون وأسست مدرسة ومصنعاً فى السجن كان لها جميعاً أثر حسن فى تخفيف السيئات التى انغمس فيها المسجونات من قبل وأدخلت هذه الاساليب الاخلاقية بسببها فى غير سجن

ولكى تنشر وسائل اصلاحها زارت جهات مختلفة من بلادها وبلاداً أخرى من أوربا كفرنسا وبلجيكا وهولندا

فِرجيل Virgil (٧٠ — ١ ق ٠ م ٠) أشعر شعراء الرومان جعله دنتى دليله فى رحلته فى جهنم يريه المعذبين فيها ويفسر له ما غمض عليه من أحوالها

فَرَدِى Faraday (١٧٩١ — ١٨٦٧) فيلسوف انجليزى اشتهر بالابحاث الكيمائية والكهربائية

فرر Farrar, Fredrich William (١٨٣١ — ١٩٠٣) قسيس انجليزى وكاتب طرق مختلف الموضوعات

فِرفَكس Fairfax (١٦١١ — ١٦٧١) قائد انجليزى كان من انصار كرمول ثم صار فيما بعد من العاملين على عودة شارلس الثانى الى مُلك انجلترا

فَروس Varus — قائد من قواد اغسطس امبراطور الرومان كمن له ارمنيس الجرمانى فافناه هو وثلاثة فيالق وذلك سنة ٩ ق. م فكانت فاجعة للرومان المحة ازعجت اغسطس حتى كان بعدها يأرق ويقول فروس فروس رد على فيالقى

فرنكلن — بنيامين Franklin, Benjamin (١٧٠٦ — ١٧٩٠) سياسى امريكى وكاتب ، وهو احد بناة استقلال امريكا ومخترع مانعة الصواعق

فرنكلن Franklin (١٧٨٦ — ١٨٤٧) ملاح انجليزى مات فى الاقطار القطبية الشمالية

فَرينى Farini (١٨١٢ — ١٨٦٦) طبيب ايطالى وسياسى ومؤرخ

فِسال Vesalius (١٥١٤ — ١٥٦٤) طبيب كان اشهر علماء التشريح فى القرن السادس عشر وهو أول من شرح جسم الانسان

وكان المشرحون قبله يقتصرون على تشريح الحيوان ، وهو بلجيكى الاصل نشأ بفرنسا ولاقى فيها اضطهاداً لتشريح جسم الانسان فرحل الى ايطاليا ودرس التشريح فى مدن بدوا وبلنيا وبيزا ثم اختاره شارل الخامس طبيباً لقصره ولما مات بقى فسال مقرباً عند فليب الثانى لكن حظوته لديه لم تمنع محكمة التفتيش أن تضطهده

فُكس Fox, Charles James (١٧٤٩ — ١٨٠٦) من كبار ساسة الانجليز وخطبائهم ، كان واسع الاطلاع فى الادب

فِشته Fichte (١٧٦٢ — ١٨١٤) فيلسوف المانى من تلاميذ كَنت

فِلانِى Villani (١٢٧٥ — ١٣٤٨) مؤرخ ايطالى من أهل فلُرَنس

فِلتَم Feltham (أوائل القرن السابع عشر - ١٦٦٨) كاتب فى الاخلاق من أهل القرن السابع عشر كانت كتاباته مقبولة فى عصره وكانت الطبقة الوسطى تعتبره مرشداً حكيما قيضه الله لهم

فِلدِنج Fielding (١٧٠٧ — ١٧٤٥) روائى انجليزى

فُلَر Fuller (١٦٠٨ — ١٦٦١) مؤرخ من رجال الدين كان كريم الاخلاق حازماً ضربت بقوة ذاكرته الامثال وتروى عنه فى ذلك حكايات غريبة ومن أشهر مؤلفاته تاريخ الكنيسة

فلُريو Florio, John (حوالى ١٥٥٣ — ١٦٢٥) لغوى ومترجم ولد فى لندن من أبوين ايطاليين وعلّم الفرنسية والايطالية بجامعة أكسفرد وله قاموس انجليزى ايطالى ويقال أن شكسبير سخر منه فى احدى رواياته

فلَكسمَن Flaxman (١٧٥٥ — ١٨٢٦) نحات انجليزى

فُلنِى Volney (١٧٥٧ — ١٨٢٠) عالم فرنسى زار مصر وسوريا وله كتاب رحلة فى مصر والشام عام ١٧٨٧ وكتاب آراء فى حرب الروسيا وتركيا سنة ١٧٨٨

فُنتنِل Fontenelle (١٦٥٧ — ١٧٥٧) أديب فرنسى

فين Vane (١٦١٢ — ١٦٦٢) من العاملين فى أمور انجلترا السياسية فى عهد كرمول كانت له آراء اضطرب لها أولو الأمر فأذاقوه من جرائها العذاب سجناً ونفياً بعد حكم ضجت له العدالة

ك

كانِنج Canning (١٧٧٠ — ١٨٢٧) من ساسة الانجليز وخطبائهم

كار بنتر Carpenter, Benjamin (١٨١٣ — ١٨٨٥) طبيب انجليزى معروف بمؤلفاته فى علم وظائف الاعضاء

كُبِرنِك Copernicus (١٤٧٣ — ١٥٤٣) هو الفلكى البولونى الكبير الذى أثبت أن للكواكب حركتين حركة حول نفسها وحركة حول الشمس فأنكر البابا هذا المذهب بدعوى مخالفته للدين

كُبدن Cobden (١٨٠٤ — ١٨٦٥) انجليزى اقتصادى

كِبلَر Kepler (١٥٧١ — ١٦٣٠) فلكى ألمانى شهير وهو صاحب القوانين المعروفة بقوانين كبلر التى استخلص منها نيوتن قانون الجاذبية العامة

كَرلَيل Carlyle (١٧٩٥ — ١٨٨١) هو الكاتب الانجليزى الذائع الصيت والمؤرخ الفاضل ، له كتب ترى مبلغ الرجل من العلم والتفكير منها كتاب الابطال وكتاب الثورة الفرنسية وكتاب سيرة فردرك الكبير ، وكان صديقاً حميما لامرسن الكاتب الامريكى ولجيتى نابغة شعراء الالمان

كرُلين — متِلدا Caroline, Matilda — أخت جورج الثالث ملك انجلترا وزوج كرستين السابع ملك الدنمرك أحاطت بها الدسائس فى بيت زوجها حتى سجنت وتدخل أخوها فأطلق سراحها بسعيه

كرُمول Cromwell (١٥٩٩ — ١٦٥٨) قائد انجليزى امتاز بقوة الفكر وبالثبات وحسن التصرف ، وقف حياته على درء المظالم عن عامة الانجليز وكان زعيم الثورة فى عهد الملك شارلس الاول فرأس جيش الامة وحارب الملك وحاشيته وانتصر عليهم ثم صارت الحكومة جمهورية وكان رئيسها

كَرَن Curran (١٧٥٠ — ١٨١٧) من أكبر خطباء أهل عصره

كَزُبُن Casaubon (١٥٥٩ — ١٦١٤) فرنسى ممن حذقوا اللغة اليونانية

كُسُث Kossuth (١٨٠٦ — ١٨٩٤) زعيم ثورة ١٨٤٨ فى المجر

كُفييه Cuvier (١٧٦٩ — ١٨٣٢)من كبار علماء التاريخ الطبيعى وواضع اساس التشريح المقارن وعلم الحيوان البائد

كُكبِرن Cockburn (١٧٧٩ — ١٨٥٤) كبير قضاة اسكتلنده كان متكلما بليغا مقتدراً

كلُبستك Klopstock (١٧٢٤ — ١٨٠٣) شاعر المانى شهير

كلُبير Colbert (١٦١٩ — ١٦٨٣) من أكبر ساسة الفرنسيين ووزرائهم

كَلِدرُن Calderon (١٦٠٠ — ١٦٨١) شاعر تمثيلى اسبانى متين الاسلوب تتمشى فى مؤلفاته روح عصره

كُلِردج Coleridge (١٧٧٢ — ١٨٣٤)من كبار شعراء انجلترا

كَلَر كسَن Clarkson (١٧٦٠ — ١٨٤٦) من انصار الزنوج ودعاة تحريرهم من الرق ، بذل فى سبيل الغاء الرق مجهوداً عظيما كلل بالنجاح

كَلِسترات Callistratus(وفاته سنة ٣٦٨ق . م) خطيب أثينى مصقع كان سبباً فى تعلق دِمُستِين بالخطابة واشتغاله بها

كَلفِن Calvin (١٥٠٩ — ١٥٦٤) ناشر الاصلاح الدينى فى فرنسا وسوسرا وصاحب المذهب المنسوب اليه

كلنِجود Collingwood (١٧٥٠ — ١٨١٠) من كبار امراء البحر الانجليز ، كان صديقا حميما لنلسن وأكبر اعماله بلاؤه فى وقعة الطرف الاغر وفيها ولى قيادة الاسطول لما أصيب نلسن، توفى سنة ١٨١٠ بقرب جزيرة منرقه ودفن الى جوار نلسن فى مدفن عظماء الانجليز وكان على جانب عظيم من الحمية وقوة العزيمة والانسانية الا انه كان ينفر من الجلد وله رسائل الذى الى ابنائه منها مفعم بالعواطف الراقية والنصائح الحكيمة

كُلِنز Collins (١٧٢٠ — ١٧٥٦) شاعر انجليزى

كُلِنْى Coligny (١٥١٧ — ١٥٧٢) من كبار قواد فرنسا وساستها فى القرن السادس عشر، كانت له زعامة الهجنو فى جزء من الحرب الدينية بينهم وبين الكاثوليك فى فرنسا وقتل فى مذبحة سن برتلمى « ١٥٧٢ » التى دبرها الكاثوليك للتخلص من الهجنو فهجموا على بيوتهم فى باريس وما زالوا يذبحونهم حتى سالت فى الطرقات دماؤهم وحذت الاقاليم حذو باريس أياما

كلود Claude (١٦٠٠ — ١٦٨٢) مصور فرنسى مشهور برسم المناظر الطبيعية

كَليد — لورد Clyde, Lord (١٧٩٢ — ١٨٦٣) من كبار قواد الانجليز، شهد مواطن القتال فى كثير من الجهات فى اسبانيا وفى الصين والقرم والهند أيام الفتنة المشهورة وأبلى بلاء شكرته له حكومته وأجزلت له العطاء وأنعمت عليه بالرتب العالية

كَمبنلاّ Campanella (١٥٦٨ — ١٦٣٩) فيلسوف ايطالى

كَمبَرلَند — دوق Cumberland, Duke of (١٧٢١ — ١٧٦٥) ابن جورج الثانى وكان من قواد الجند

كَمپَن — السيدة Campan - Madame (١٧٥٢ — ١٨٢٢) معلمة فرنسية شهيرة

كَمِيُنس Camoens (١٥٢٥ — ١٥٨٠) شاعر برتغالى شهير ، كان قوى الوصف ولا سيما لمناظر البحر وله مؤلف وصف فيه رحلة فاسكو دجاما ، وهذا المؤلف أجل كتب الادب البرتغالية

كَنت Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤) فيلسوف المانى شهير له فى الفلسفة كتب قيمة ولفلسفته أشياع كثيرون فى المانيا ولا تكاد جامعة فيها تخلو من دراستها

كُنجريف Congreve, William (١٦٧٠ — ١٧٢٩) روائى انجليزى تمثيلى ، كان صديق سوفت ورفيقه زمن الدراسة فى دبلن بارلنده وكان ذا منزلة سامية عند رجال الادب فى عصره حتى ذهب بعضهم الى أنه من طبقة شكسبير وأهدى اليه ستيل وبوب بعض مؤلفاتهما

كِنجز لى Kingsley, Charles (١٨١٩ — ١٨٧٥)
قسيس انجليزى وأديب أسند اليه منصب أستاذ التاريخ الحديث
فى جامعة كمبردج بضع سنين

كُنستَبل Constable (١٧٧٦ — ١٨٣٧) مصــور
انجليزى مشهور ولا سيما برسم المناظر الطبيعية

كُنستَن Constant (١٧٦٧ — ١٨٣٠)سياسى فرنسى
كان ذا مركز ذى شأن فى حزب الاحرار أيام عودة الملكية فى فرنسا

كُنفُسيُس Confucius (٥٥١ — ٤٧٩ ق.م) فيلسوف
صينى له فى الفلسفة مذهب ينسب اليه وهو مذهب أخلاق محض
ومعتنقوه نحو ٢٥٦ مليون

كَننجِهَم Cunningham (١٧٨٤ — ١٨٤٢) أحد
شعراء اسكتلنده وكتابها

كيتز Keats (١٧٩٥ — ١٨٢١) شاعر انجليزى مجيد
كان بعيد الخيال حاد الاحساس منتظم الاسلوب

كيرى Carey (١٧٦١ — ١٨٣٤)من كبار المستشرقين
والمبشرين الانجليز ، اختار الهند مقاما وفيها ظهر مجهوده ولا سيما

فى الاعمال الخاصة بالتبشير ونقل الانجيل الى مختلف الجهات الهندية

كين Kane, Dr. (١٨٢٠ — ١٨٥٧) طبيب امريكى اختير جراحا للبعثة الامريكية فى الصين وزار الهند ومصر واليونان والشاطئ الغربى من افريقية ثم عاد الى بلاده وجعل طبيبا لبعثات أوفدت للبحث عن سير جن فرنكلن وله وصف رحلتيه ، وهو يعد رحالة فى الاقطار الشمالية ذا شأن

كى Kaye (١٨١٤ — ١٨٧٦) مؤرخ انجليزى

ل

لام Lamb, Charles (١٧٧٥ — ١٨٣٤) أديب انجليزى معروف بقصصه النثريه التى استنبطها من روايات شكسبير واشترك معه فى كتابتها اخته وربما كان اشهر مؤلفاته سلسلة رسائل ظهرت فى احدى المجلات تحت اسم إليا ثم طبعت بعد ذلك على حده

لَبرُيير La Bruyere (١٦٤٥ — ١٦٩٦) اخلاقى فرنسى

لُبُك — سيرجُن Lubbock, Sir John — هو لورد افبرى كاتب انجليزى من كتاب القرن التاسع عشر، كان من رجال الآثار والعلم وعمدة فى المسائل المالية والتعليمية

لَبلاس Laplace (١٧٤٩ — ١٨٢٧) رياضى فرنسى وفلكى مشهور

لَتمَر Latimer (١٤٩٠ — ١٥٥٥) اسقف انجليزى من انصار الاصلاح الدينى فى انجلترا

لِتُن Lytton (١٨٠٥ — ١٨٧٣) هو لورد لتن شاعر سياسى كاتب له مقالات وقصص تمثيلية وغير تمثيلية

لزلى Leslie (١٧٦٦ — ١٨٣٢) رياضى انجليزى وطبيعى

لُزَن Lauzun (١٦٣٣ — ١٧٢٣) من مشهورى رجال بلاط الملك فى عهده

لِساج Le Sage (١٦٦٨ — ١٧٤٧) روائى فرنسى

لَسبيد Lacépède (١٧٥٦ — ١٨٢٥) من علماء التاريخ الطبيعى الفرنسيين

لِسنج Lessing (١٧٢٩ — ١٧٨١) كاتب المانى بليغ، كان عظيم الاخلاق قوى النفس ، نظراليه أحداث الكتاب فى زمانه نظر المجلين له الواثقين بقواه وقال فيه جيتى أننا لا ندرك مقدار ما فقدناه بموته اه وهو الذى مهد السبيل لمن خلفه من الشعراء والفلاسفة الذين بهم صار لألمانيا الصدر فى عالم العلم، واليه يرجع الفضل فى تقدم الروايات التمثيلية فى الاقطار الالمانية

لَفليس Lovelace, Richard (حوالى ١٦١٨—١٦٥٨) شاعر من شعراء القرن السابع عشر عاش فى ضنك ومات معدما

لِفِنجستون Livingstone (١٨١٦ — ١٨٧٣) هو الرحالة الاسكتلندى الشهير الذى ارتاد أواسط أفريقية

لَفُنتين La Fontaine (١٦٢١ — ١٦٩٥) الشاعر الفرنسى الشهير بحكاياته الخرافية الحكيمة

لَفوَزييه Lavoisier (١٧٤٣ — ١٧٩٤) هو الكيمائى الفرنسى الشهير أحد مؤسسى الكيمياء الحديثة وعضو من أعضاء الهيئة التى نيط بها وضع الطريقة المترية

لُك Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) فيلسوف انجليزى كتب فى الفلسفة والدين والتربية والاخلاق ، ولما كان عصره العصر الذى تقلص فيه ظل الفلسفة القديمة وحلت محلها الفلسفة الحديثة المبنية على الاختبار والمشاهدة لا على الجدل المؤسس على مجرد الخيال فانه ذهب الى اختبار الامور بنفسه ودعا الى استعمال العقل والاختبار لا الى التسليم بكل ما قاله العظماء

لُكان Lucan (٣٩ — ٦٥) شاعر رومانى انتحر تخلصاً من العذاب الذى أعده له نيرون لأنه كان من المؤتمرين به

لَكُردير Lacordaire (١٨٠٢ — ١٨٦١) واعظ فرنسى من أحسن خطباء القرن التاسع عشر

لُكهَرت Lockhart (١٧٩٤ — ١٨٥٤) أديب عظيم المواهب خصيب الذهن ، لبث عدة سنين يحرر مجلة كورترلى وكان محامياً لكنه لم يشتغل بمهنة المحاماة بل تفرغ للأدب وكان مقرباً من سير ولتر سكوت وتزوج من كبرى بناته واتصل به اتصالا ترك أثره فى حياته ، ومن مؤلفاته سيرة ولتر سكوت وهى ترجمة لسكوت معروفة

لَلَنْد Lalande (١٧٣٢ — ١٨٠٧) فلكى فرنسى

لِلو Lillo (١٦٩٣ — ١٧٣٩) شاعر كان صائغاً لـكنه مع عنايته بصناعته عنى بالروايات التمثيلية وترجمتها

لَمَرتين Lamartine (١٧٩٠ — ١٨٦٩) شاعر فرنسى شهير وسياسى

لَمَرك Lamarck (١٧٤٤ — ١٨٢٩) فرنسى انتظم فى سلك الجندية وأظهر فيها استعداداً فى بعض الغزوات فى جرمانيا ولـكنه اضطر عقب حادث نزل به أن يمتنع عن تلك المهنة وتفرغ للدراسة واشتغل بالطب ثم مال الى دراسة النبات وتهذيب أساليبها واشتغل بدراسة الحيوان ونبغ فيها نبوغه فى دراسة النبات وله فى النشوء آراء تعد مقدمة لآراء دَروِن وقد تناول ذهنه الخصب علم الطبيعة أيضاً

لِنْدِهرست Lyndhurst (١٧٧٢ — ١٨٦٣) قانونى شهير وسياسى ولد فى بُسْتُن بالولايات المتحدة وانتقل مع أهله الى لندن وهو لا يزال طفلا وبلغ منزلة سامية فى السياسة والقانون

لَنَكَسْتَر Lancaster, Joseph (١٧٧٨ — ١٨٣٨)

مرب انجليزى فتح مدرسة فى حى من أفقر أحياء لندن توخى فيها قلة النفقة وشد الناس أزره فشاد بناء جعله مدرسة أمها الف تلميذ وأنشأ مدرسة بنات كان معلماتها من اخواته ثم أنشأ مدرسة معلمين درّب فيها أساتذة المستقبل على طريقته وكان يقبل التلاميذ من كل مذهب دينى غير متقيد بمذهبه هو وعلمهم الانجيل وتفسيره دون التقيد بمذهب خاص ونقم منه القساوسة ذلك فقل اقبال الناس على مساعدته لكنه تمكن من التنقل فى أنحاء انجلترا واسكتلندا وارلندا وأسس ٩٥ مدرسة أمها ٣٠٫٠٠٠ طالب ثم انتقل الى أمريكا وشد أزره بلفار فأنشأ المدارس فى جمهورية كلمبيا وكانت حديثة العهد لكن الاحوال السياسية فى تلك الجمهورية اضطرته الى مغادرتها الى كندا والولايات المتحدة ووجد من الناس عوناً أول الأمر لكنه ما لبث أن عضه الفقر وما زال فقيراً حتى مات فى نيويورك

لو Loo — فيلسوف من كبار فلاسفة الصين له مذهب من أكبر المذاهب الدينية فى تلك البلاد وأقدمها ويسمونه مذهب العقل

ولد هذا الفيلسوف حوالى سنة ٦٠٠ ق . م . ولا يعرف من

تاريخه الا شيء يسير ذكره مؤرخ صيني فى كتاب له ظهر سنة ٧٠ ق . م . فما قاله عنه هذا المؤرخ انه كان أمين مكتبة لأحد ملوك الصين وانه ساح فى الجهات الغربية فى تلك البلاد وذاع صيته

ولما دالت دولة البيت الذى انتمى اليه غادر بلاط الملك على نية العيش فى غير بلاد الصين فاعترضه جندى من حرس التخوم وطلب أن يكتب له الفيلسوف رسالة تهديه فكتب كتاباً فى العقل والفضيلة

لوب دِ فيجا Lope de Vega (١٥٦٢ — ١٦٣٥)

شاعر اسبانى له أكثر من الفى قصة تمثيلية وله الفضل فى تقدم التمثيل الاسبانى

لوثر Luther (١٤٨٣ — ١٥٤٦) زعيم الاصلاح الدينى فى المانيا قام فى وجه البابا وأنكر الخزعبلات الكاثوليكية وجرد الدين منها وسلك مذهبه وهو المذهب البروتستنتى الذى انتشر فى جهات كثيرة من أربا

لورنس Lawrence, Sir Henry (١٨٠٦ — ١٨٥٧)

أخو لورد لورنس حاكم الهند ، ولد فى سيلان وكان جندياً خدم فى الهند وشهد الفتنة وحروبها وفيها قتل وله كتابات حربية وسياسية

لِوِس — جورج هنرى Lewis, George Henry

(١٨٠٦ — ١٨٦٣) من ساسة الانجليز وأدبائهم كان محباً للحق ميالا الى تحصيل العلم مجيداً فى النقد

لَنَر دَفِنسى Leonard da Vinci (١٤٥٢ — ١٥١٩) ايطالى كان له من كل علم نصيب ولم ينبغ فى بعض العلوم دون بعض بل كانت قدرته فى العلوم الطبيعية كقدرته فى الاداب فقد برع فى علم الالات والهندسة والتشريح والنبات ووظائف الاعضاء والفلك والكيمياء وعلم طبقات الارض والموسيقى والتصوير والنحت ولم يطب له العيش فى بلاده فدعاه فرنسوا الاول ملك فرنسا للاقامة فيها فعاش معززا وانتفع فرنسوا بمواهبه

زار مصر وأقام فيها ضيفاً على السلطان قلاوون ولم أعثر فيما تيسر الاطلاع عليه من المصادر التاريخية على تفصيل هذه الزيارة ولكنى لا أكاد أراها مجرد مصادفة ولعل للنر دفنسى صلة بحالة المبانى فى عهد السلطان المذكور لما عرف عنه من تضلعه فى فن البناء

ولنر دفنسى هذا صاحب صورة الجُكُند الشهيرة ، وقد مات فى فرنسا ودفن فيها ولا يعرف قبره على التحقيق لكن

الايطاليين سعوا أثناء الحرب الاربية الكبرى فى أن يسمح لهم بالبحث عن رفاته ابتغاء نقلها الى بلادهم وهكذا لابدلاهل العظيم من حذو اليه واعتراف بمقـدرته وان لم يعرفوا له فى أول أمره قدره ولم ينزلوه المنزلة اللائقة به

ليو العاشر LeoX (١٤٧٥ — ١٥٢٣) احد البابوات

ليولا Loyola (١٤٩١ — ١٥٥٦) مؤسس مذهب اليسوعيين

م

مارتن هنرى Martyn, Henry (١٧٨١ — ١٨١٢)
قسيس مبشر قام بعمله فى جهة من الهند وتعلم لغة أهلها وأنشأ بها المدارس وقام بالوعظ وعنى بالتمـكن من لغة البلاد ثم توجه الى فارس لضعف فى صحته ولما وصل الى شيراز احتك بالمسلمين هناك وجادلهم ثم وصل الى تبريز وحاول ان يقدم ترجمة الانجيل للشاه فلم يفلح وكان قد نقل الانجيل الى الهندية والفارسية ومات بالحمى فى آسيا الصغرى

مبرتيو Maupertius (١٦٩٨ — ١٧٥٩) مهندس فرنسى ومن علماء التاريخ الطبيعى

متيز Mathews, Charles (١٧٧٦ — ١٨٣٥) ممثل مشهور

مجن Maginn, William (١٧٩٤ — ١٨٤٢) كاتب ارلندى اشتغل بالتعليم وكان والده يدير مدرسة ادارها هو بعد وفاة ابيه ثم اشتغل بالصحافة وكان حى الخيال مليح الفكاهة ذا باع فى الادب واللغة ونقاده مرا

مدلتن Middleton (١٦٨٣ — ١٧٥٠) قسيس انجليزى واسع الاطلاع وكان كاتبا رقيق الاسلوب

مربو Mirabeau (١٧٤٩ — ١٧٩١) من اكبر خطباء الثورة الفرنسوية

مرتشزن Murchison (١٧٩٢ — ١٨٧١) اسكتلندى من الممتازين من رجال علم طبقات الارض والعلوم الطبيعية ، بدأ

حياته جنديا واشترك فى حروب الجزيره ثم اعتزل الجنـدية بعد سنة ١٨١٥ وتفرغ للعلم ولاسيما علم طبقات الارض وله فيه أثر جليل فى انجلترا وفى منطقة الرين بالمانيا وفى الروسيا وكان يعنى بالـكشف الجغرافى الذى قام به فى افريقية سبيك ولفنجستون وغيرهم ، واختير رئيسا لجماعة علم طبقات الارض ولجماعة الجغرافيه وكان احد مؤسسى الجماعة البريطانية لترقية العلوم الطبيعية

مَرَتُن Marathon — قرية من قرى اليونان فيها كانت وقعة مرتن المعروفة فى التاريخ التى كان النصر فيها لليونان (سنة ٤٩٠ ق م) اثناء الحملة الفارسـية الثانية وقد أظهر اليونان فيها تحت أمرة ملتياد بسالة تضرب بها الامثال وقتل منهم ١٩٢ على حين ان قتلى الفرس كانوا ستة آلاف وما عتم الفرس ان لجأوا الى سفنهم وعادوا الى بلادهم .

ويعد المؤرخون وقعة مرتن من اكبر وقائع العالم ويرى احد المستشرقين الانجليز انه من قبيلها فى الخطورة غزوة بدر ويقول فى سياق الـكلام على الغزوة

اذا تأملنا غزوة بدر وما كان لها من النتائج الخطرة لا نجد بدا من التسليم بانها كمرتن من اكبر وابهر ما روى التاريخ من وقائع الحرب اهـ

مُرتن Morton (١٥٣٠ — ١٥٨١) نائب الملكه فى اسكتلندا لعهد مَرِى ستُوَرت

مَرتَن — اِمِى Martin, Aimé (١٨١٠ — ١٨٨٣) اديب فرنسى

مُزار Mozart (١٧٥٦ — ١٧٩١) المانى من اشهر موسيقيى العالم كان مستعداً بالفطرة لهذا الفن وبلغ فيه مبلغاعظيما

مَسِلُن Massillon (١٦٦٣ — ١٧٤٢) من كبار خطباء فرنسا الدينيين

مَسِينا Massina (١٧٥٨ — ١٨١٧) من اكبر قواد نبليون

مِشلِيه Michelet (١٧٩٨ — ١٨٧٤) احد كتاب الفرنسيين ومؤلفيهم ، درس التاريخ بجامعة السّربُن فاجتمع عليه من الراغبين فى هذا الفن ما لم يجتمع على غيره من الاساتذة وله من المؤلفات تاريخ فرنسا والثورة الفرنسية وتاريخ الرومان وملخص التاريخ الحديث ، وله جملة من المؤلفات فى علم الاجتماع وبعض كتب فى التاريخ الطبيعى والفلسفة

مَلرب Malherbe (١٥٥٥ — ١٦٢٨) شاعر فرنسى له أثر فى تهذيب اسلوب اللغة الفرنسية

مَكولِى Macaulay (١٨٠٠ — ١٨٥٩) احد ادباء الانجليز وساستهم ، اظهر منذ حداثة سنه ميلا الى الادب وكان جيد النقد ميالا الى العدل فى تاريخه وسياسته ، له كتاب فى تاريخ انجلترا ، ومقالات مكولى اشهر فى عالم الادب الانجليزى من ان تذكر

مِل Mill, John Stewart (١٨٠٦ — ١٨٧٣) من فلاسفة الانجليز وعلمائهم الراسخين فى الاقتصاد

مِل Mill (١٧٧٣ — ١٨٣٦) من فلاسفة الانجليز ومؤرخيهم وعلمائهم الاقتصاديين ،كان من المعجبين بالفيلسوف ديجلدستيُورت ومن المتناهين فى حب الفضيلة ولم يعقه عن التمسك بها حرمانه الرقى الدنيوى بل جمل يبثها فيمن اجتمعوا به ولاسيما ابنه جن ستيورت مل العالم الشهير الذى كاد بشهرته وذكائه يسدل الستار على شهرة والده وذكائه

مَلبرَنش Malebranche (١٦٣٨ — ١٧١٥) من علماء فرنسا الباحثين فيما وراء الطبيعة

مِلْتُن Milton (١٦٠٨ — ١٦٧٤) الشاعر الانجليزى المفلق المعدود فى الطبقة الاولى من فحول شعراء العالم وصاحب الفردوس الضائع وهو آية من آيات الشعر

مِلتياد Miltiades — القائد اليونانى الذى أدار حركة وقعة

مَرَتُـن (انظر مرتن)

مُنتجيو Montagu, Lady (١٦٩٠ — ١٧٦٢) من أشهر كاتبات الانجليز وكانت من المختلطين بادسن وكنجريف وبوب وغيرهم من مشهورى رجال العلم فى عصرها وأقامت بالقسطنطينية لما عين بعلها سفيراً لدى الباب العالى ولها فيها رسائل قيمة بعثت بها الى أفراد فى انجلترا تصف فيها الجديد الذى وقع تحت نظرها وقد قبلت أن يطعم ابنها ضد الجدرى على عادة الاتراك وعملت على ادخال هذه الطريقة الى انجلترا

مُنتِسكيو Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٧٥) من كبار كتاب فرنسا ، له روح الشرائع وعظمة الرومان واضمحلالهم

مُنتَلمبير Montalembert (١٨١٠—١٨٧٠) من ساسة فرنسا وكتابها

منتامبير — مركيز — Montalembert (١٧١٤—١٨٠٠)
مهندس حربى فرنسى

مُنج Monge (١٧٤٦ — ١٨١٨) الرياضى الفرنسى الشهير أحد مؤسسى مدرسة الهندسة الحربية بفرنسا

مَنجو بَرك Mungo Park (١٧٧١ — ١٨٠٥) رحالة اسكتلندى شهير

مور — سير جن — Moore, Sir John (١٧٦١—١٨٠٩)
قائد شهير من قواد الانجليز، قدم مصر مع سير رلف أبركُرمبى رئيس الحملة التى أرسلتها انجلترا سنة ١٨٠١ للعمل مع الجيش العثمانى على اخراج الفرنسيين من مصر، ولما سار الانجليز الى الاسكندرية قام الجنرال مينو الفرنسى من القاهرة لمحاربتهم فكانت معركة الاسكندرية وفيها جرح سيرجن مور وجرح ابركرمبى جرحاً قضى عليه بعد بضعة أيام وله تذكار فى الشارع المفضى من محطة سيدى جابر الى البحر

ولما رجع مور من مصر الى انجلترا وجد الأمة والحكومة راضيتين عنه معترفتين بمقدرته الحربية وفى سنة ١٨٠٨ ذهب الى اسبانيا ليحارب جيوش نابليون فى حرب الجزيرة فذاع صيته وكان سياسياً أوتى قوة الحكم الصحيح على الرجال وهذه قوة

امتاز بها العظماء وكانت وفاته فى وقعة كُرَنّا احدى وقائع حرب الجزيرة

مور — سير تومس More, Sir Thomas من كبار رجال الانجليز فى زمنه ، كان عالماً واسع الاطلاع سريع الخاطر قوى البيان وله كتاب مشهور اسمه يُتوبيا وصف فيه نظام الحكومة الكاملة وكانت له بارسمس العالم الهلندى المعروف صلة ود متينة (انظر ارسمس)

ميسُن Mason (١٧٢٤ — ١٧٩٧) شاعر انجليزى

ن

نُرِس Norris — لغوى انجليزى عاش فى القرن التاسع عشر، له القاموس الاشورى وأبحاث فى لغات أفريقية الغربية

نرمَنبي Normanby (١٧٨٧ —١٨٦٣) سياسى انجليزى

نُكس Knox (١٥٠٥ — ١٥٧٢) مصلح اسكتلندا الدينى

نِلسن Nelson (١٧٥٨ — ١٨٦٣) أشهر أمراء البحر عند الانجليز وهو الذى وقف لنابليون بالمرصاد حتى اضطره الى العدول عن غزوانجلترا ودمر أسطوله فى وقعتى أبى قير والطرف الاغر قتل فى وقعة الطرف الاغر ثم نقلت جثته الى انجلترا وله فى قلوب الانجليز منزلة سامية

نيبَر Niebuhr (١٧٧٦ — ١٨٣١) مؤرخ المانى له كتاب فى تاريخ الرومان وكان منتقداً واسع الاطلاع

نَيتنجيل — فلُرَنس Nightingale, Florence — امرأة انجليزية اشتهرت باعمالها الجليله فى التمريض ولاسيما اثناء حرب القرم ولها مجهود عظيم فى اصلاح المستشفيات وتدريب الممرضات

نيوتُن — جُن الاِلِنِى Newton, John (of Ellon) (١٧٢٥ — ١٨٠٧) قسيس انجليزى

نيوتُن — سير آيزَك Newton, Sir Isaac (١٦٤٢ — ١٧٢٣) هو الفيلسوف الانجليزى الراسخ فى الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلك والمهتدى الى قانون تحليل الضوء والى الجاذبية العامة فهو متمم ما شرع فيه كِبلَر الالمانى

هـ

هُبَر – فرنسوا Huber, François (١٧٥٠ — ١٨٣١)
سويسرى من علماء التاريخ الطبيعى

هَتشِنْسن – السيدة Hutchinson, Mrs. – زوج جن هتشنسن احد من كان لهم شأن فى حوادث انجلترا السياسية أيام حروبها الداخلية الكبرى

هَتُن Hutton (١٤٨٨ — ١٥٢٣) اديب وفقيه المانى

هُد – تُم Hood, Tom (١٨٣٥ — ١٨٧٤) كاتب انجليزى

هُراس Horace (٦٤ ق . م) شاعر رومانى

هِربِرت – جورج Herbert, George (١٥٩٣ — ١٦٣٣) من خيرة الشعراء الدينيين عند الانجليز، تربى بجامعة كمبردج والتحق فى أول امره ببلاط ملك انجلترا، وكان تقيا رؤوفا بالفقراء والمساكين

هِردُت Herodotus — ولد سنة ٤٨٤ق م . وتعلم ما كان يتعلمه كل يونانى اذ ذاك فدرس قواعد اللغة والرياضة والموسيقى ثم ساح بين الخامسة والعشرين والسابعة والثلاثين من عمره فى اقطار عدة وقدم مصر وسأل كهنتها عما اراد معرفته عنها وكتب تاريخا عاما وتاريخ الحرب بين اليونان والفرس وتظهر براعته فى مقدماته الفلسفيه الطويله ، ومن قبيله فى رأى بعض المستشرقين المسعودى حتى انهم يلقبون المسعودى بهردت العرب ، قال احدهم فى هذا المعنى عن الكلام على مروج الذهب.

يسمى بعضهم المسعودى هردت العرب وهـذا صحيح فان مروجه يدل على رغبته فى البحث والتنقيب وعلى ما كان له من الفكر والميل الى تدوين ما رأى وما سمع بلا تحيز ، وعلى خبرته ودرايته واشرافه على حاضر الازمان وغابرها قال وهكذا كان هردت

هِردَر Herder (١٧٤٤ — ١٨٠٣) كاتب المانى وفيلسوف شهير

هِرشَل Herschell (١٧٩٢ — ١٨٧١) هو سير جن هرشل من كبار الفلكيين

هَرفِى Harvey (١٥٧٨ — ١٦٥٨) طبيب انجليزى
اشتهر بالاهتداء الى الدورة الدموية

هِرمَن Hermann — انظر ارمنيس

هَرنِجتُن — جيمس Harrington, James — كاتب
سياسى شهير من رجال القرن السابع عشر ، كان مفكرا بعيد الغور
وله كتاب الاقيانوسية وهو رواية سياسية صور فيها المثل الاعلى
للجمهورية وهو كتاب مفكر كبير ويمتاز بما يتمشى فيه من
الهيام بالحرية

هَزلِت Hazlitt (١٧٧٨ — ١٨٣٠) كاتب ممتاز بالنقد

هَفَلُك Havelock, Sir Henry (١٧٩٥ — ١٨٥٧)
من قواد الانجليز الذين اشتهروا باعمالهم فى الهند وما يتصل بها
من الاعمال الحربية فى الافغان وفارس

هِلفِتيُس Helvetius (١٧١٥ — ١٧٧١) اديب فرنسى
وفيلسوف وهو من اصل المانى

هَمبدِن Hampden (١٥٩٤ — ١٦٤٣) سياسى انجليزى

هَمبُلت Humboldt — اخوان المانيان احدهما شارل غليوم (١٧٦٧ — ١٨٣٥) وكان عالما لغويا وسياسيا وثانيهما الاسكندر (١٧٦٩ — ١٨٥٩) وكان راسخا فى التاريخ الطبيعى وكاتبا عالما

هَندل Handel (١٦٨٥ — ١٧٥٩) من نوابغ الموسيقى

هُمِروس Homer — الشاعر اليونانى الشهير واكبر الشعراء الاقدمين على الاطلاق وصاحب الالياذه واُدِسَس جاء فى اساطير الاولين انه كان اعمى يتجول فى البلاد وينشد الشعر

هوثُرن - نَثَنِيل Hawthorne. Nathaniel — كاتب أمريكى من كتاب القرن التاسع عشر

هول — بِزِل Hall, Basil (١٧٨٨ — ١٨٤٤) ضابط من ضباط البحرية وكاتب ولد فى أدنبره عاصمة اسكتلنده وسافر بحكم مهنته الى الصين وأمريكا الجنوبية وكندا والولايات المتحدة وكتب فى رحلاته هذه

هول — مَرشَل Hall, Marshal (١٧٩٠ — ١٨٥٧) طبيب انجليزى كتب كثيراً فى المسائل الطبية وله مستنبطات فى علم وظائف الاعضاء

هومز — أُلِفَر وندِل Holmes, Oliver Wendell
(١٨٠٩ — ١٨٩٤) من أكبر كتاب الامريكان ، شرع فى دراسة القانون ثم عدل عنه الى دراسة الطب وأتمها واشتغل بتدريس التشريح ووظائف الاعضاء مدة من الزمن ولكنه اشتهر بأثره فى الادب .

هيدن Hydn (١٧٨٦ — ١٨٤٦) مصور انجليزى امتاز بتصوير الحوادث التاريخية

هيدُن Hydon (١٧٣٢ — ١٨٠٩)موسيقى المانى شهير

هيوم Hume (١٧١١ — ١٧٧٦) من أكبر مؤرخى بريطانيا وعلمائها الراسخين فى الاقتصاد والعقليات

و

وَت — جيمس Watt, James (١٧٣٦ — ١٨٤٩) اسكتلندى له فضل تحسين الآلات البخارية

وُتن Wotton (١٥٦٨ — ١٦٣٩) سياسى انجليزى له كتابات متنوعة وكان سفيرا لجيمس الاول ملك انجلترا لدى جمهورية البندقية وغيرها

وِذَر — جورج Wither, George (١٥٨٨ — ١٦٦٧)
شاعر انجليزى كان من أشد انصار البرلمان حماسة اثناء الحرب الداخلية فى انجلترا حتى باع ضيعة له لينشئ فرقة فرسان وولى بعض المناصب ولكنه فقدها عند تقلب الاحوال السياسية فى بلاده

وِردسورث Wordsworth (١٧٧٠ — ١٨٦٠) من كبار شعراء الانجليز

وَرن — صَموِل Warren, Samuel (١٨٠٧ — ١٨٧٧)
كاتب انجليزى

وِزلى — جُن Wesley, John — احد افراد بيت وزلى وهو بيت امتاز افراده بعلمهم بالدين

وَلتن — ازك Walton, Isaac (١٥٩٣ — ١٦٨٣)
كاتب انجليزى كان تقيا متمسكا بدينه وله تراجم لبعض رجال الدين فى عهده

ولزلى Wellesley (١٧٦٠ — ١٨٤٣) سياسى انجليزى

وُلَستُن Wollaston (١٧٦٦ — ١٨٢٨) من علماء الطبيعة والكيمياء الانجليز

ولــكِز — جُن Wilkes, John — سياسى انجليزى من أهل القرن الثامن عشر كان يحمل على الحــكومة وسجن فى البرج من أجل حملاته هذه ثم صدر الامر بابعاده من مجلس العموم وكان عضواً به على انه كان مقبولا عند الجماهير وقيل أنهم اكتتبوا له بعشرين الف جنيه يسد بها دينه وتمكن من أن ينتخب مرة أخرى عضواً بالبرلمان وكان كاتبا وخطيبا معتادا لم يمتز بشىء من التفوق ولم يكن على شىء من حسن الاخلاق الخاصة ولــكنه كان مع ذلك ذا ظرف وحسن ذوق وسرعة خاطر وحلو حديث

وِلنجتُن Wellington (١٧٦٩ — ١٨٥٢) القــائد الانجليزى الذى ولى قيادة جيوش الدول المتألبة على فرنسا سنة ١٨١٥، وكـان له النصر على نابليون فى وقعة وترلوء وللشاعر الانجليزى تينِسن شاعر البلاط لعهد الملـكة فكتوريا قصيدة قيمة فى رثاء ولنجتن وفيها يشير الى نلسن وهو الذى وقف لنابليون فى البحر وقفة ولنجتن له بالبر

وَلنشِتين Wallenstein (١٥٨٣ — ١٦٣٤) من اكبر القواد فى حروب الثلاثين سنة

ولَيم الصامت William the Silent (١٥٣٣ — ١٥٨٤)

هو وليم الاول من بيت نساو ويعرف بامير اُرَنج بذل قصارى جهده فى خلاص هلندا من نير الاسبان وقتل غيلة

وشنجتن Washington (١٧٣٢ — ١٧٩٩)هاجرأبوه عام ١٦٥٧ من انجلترا الى امريكا وتربى هوالتربية المعتادة ويظهر أنه مال الى العيش فى البحار فالتحق بالاسطول الانجليزى وسنه ١٤ سنة ثم تركه وانضم الى الجيش فى فرجنيــا احدى الولايات الامريكية ثم ترك خدمة الجيش على نية أن يعيش فى ضيعته عيشة زراعية لـكنه تطوع فى الجيش مرة أخرى وانقطع بعد ذلك لادارة شئون ضيعته وكانت وطأة الحـكومة الانجليزية قد اشتدت على رعاياها النازلين بأمريكا ووشنجتن كـكثيرين من أبناء وطنه الجديد كان لا يرى الانفصال عن الوطن القديم وشق عصا الطاعة على حكومته لـكنه مع ذلك كان يرى وجوب خوض غمار الحرب اذا أبت الحـكومة الانجليزية الا التمادى فى الاستبداد وصمت عن سماع نداء المظلومين آذان سواسها غلاظ الاكباد

قامت الحرب فولى وشنجتن قيادة الجيش والمصاعب تكتنفه هو ومن معه فلا جند مدربة ولا معامل للاسلحة ولا دور صناعة ولا أسطول ولا حصون ولا مال ولا سابق خبرة بقيادة جيوش جرارة أما الانجليز خصومه فكانوا ذوى السيادة الشرعية على

أمريكا وكانت لديهم الجنود المنظمة والاساطيـل القوية وكان يعضدهم بعض الامريكيين ممن لا يشعرون بما يشعر به عشاق الحرية وأمثال هؤلاء كثيرون فى كل أمة ولـكن وشنجتن تغلب على كل ذلك بعزيمة المظلوم طالب الحق كاره الباطل ومازال يكافح ويناضل حتى تم له النصر وسلم القائد الانجليزى «لورد كرنولس» فى « يركتون » وأعقب ذلك جلاء الانجليز عن مدينة نيويورك وامضاؤهم شروط الصلح واعترافهم باستقلال الولايات المتحدة رغم استبداد حكومتهم وتعنتها ثم تخلى وشنجتن عن قيادة الجيش وعاد الى ضيعته يشتغل بالفلاحة وانتخب رئيساً للجمهورية مرتين واعتزل العمل حتى مات مأسوفاً عليه وكان كما قال أحد مؤبنيه له المقام الاول فى الحرب والسلم وقلوب أبناء وطنه ولا غرو فانه كان فى كل عمله مخلصاً عادلا شجاعاً فعالا ومع صعوبة واجبه قام به خير قيام ونجح فى أدائه أتم نجاح

ى

يلر Euler (١٧٠٧ — ١٧٨٣) رياضى شهير ولد فى بال

يليوس الثالث Julius III — ولى البابوية من سنة ١٥٥٠ الى سنة ١٥٥٥


Bibliotheca Alexandrina
05557204